سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي (58)

رسائل مولاي إسماعيل العلوي

(1645–1727 م)

(الجزء الأول)

بسم الله الرحمان الرحيم

الرسالة: 1

ولدنا المامون سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد فاعلم أننا كنا كتبنا إليك قبل هذا كتابا ربانيا بتوفيق من الله سبحانه، وأرشدناك بعون من الله إلى ما أرانا الله سبحانه من الصلاح والسداد والخير والرشاد، وبينا لك ما كنا ننكره عليك، وما لا يجمل بك إذا نسب إليك، وأحببنا أن يبلغ ذلك الكتاب منك كل مبلغ، وتشد عليه وعلى ما فيه خناصرك، فإنك هذه مدة كانت تبلغنا عنك مسائل لا نرتضيها منك، ولا نصبر لك فيها، فاجعل ذلك الكتاب نصب عينيك، واعمل على مطالعته وتفهم ما فيه دأبك وشغلك، وليكن عندك ذخيرةً وحرزاً، فإذا وفقك الله وعملت بما فيه فإنك ترشد إن شاء الله، وتلكم البلاد كما قلنا لكم لا تشق بها وبأحكامها إلا برجل جد لا تأخذه في الله لومة لائم، وقط ما تغافلت عنها وعن تفقد أخبارها وأحوالها، وكل من ورد منها كنا نسأله عنك وعن حالك وسيرتك وما أنت عليه، وهذا دحمان غرنيط كان قبل هذه الساعة مروعاً، وكان يخاف منا ومنك، وكنا إذا أحببنا أن نوجهه إليك يظهر التلكي وبعض التوقف، ونعرف منه الخوف ، وفي هذه الساعة أعز ما عنده نذكر له المشي إلى تلك البلاد، وحيث ما سألناه عنك يشتغل يهمهم ويمهمه ولا يشفي لنا الغرض ولا الغليل في الخبر عنك، ولا يعرب لنا عنك بشيء يسكن إليه الخاطر ويطمئن إليه القلب، فما قال لنا فيك خيرا ولا غيره إلا في هذه المرة، قلنا له : كيف هو المامون ؟ فقال لنا : بخير، حتى تلك الشراسة التي كان يتقيه الناس لأجلها ما بقيت فيه، فقد ألفه الناس، ولا يخاف أحد منه، وظن أن هذا الكلام مدح في جانبك، وأنه يتخلص به

معنا ويجوزنا، وما علم أنه أسقطك في أعيننا بهذه الكلمة، وأنه أطرحك بها كل مطرح، فإن الشراسة في الوالي هيبة له يخافه بسببها القريب والبعيد، وينصف الناس من الحقوق بعضهم من بعض اتقاء لها، فهي محمودة، وإن لم تكن في الرجل طبعا فينبغي له أن يتطبع بها ويستعملها ليهابه الناس ويعملون بحسابه، وتلكم البلاد بها من جماعتنا وأقاربنا وإخواننا ومن رُبِّيَ معنا، وقد علمت وأنت خليفتنا بها هنالك، فإذا كان الناس لا يهابونك ولا يتقونك فكيف ينصف بعضهم بعضا، وكيف تجري عليهم الأحكام، وكيف يتساوون عندك في الحق، فما كان بقي لنا فيك إلا ما كان يبلغنا عنك من الهيبة، وأنك لا تأخذك في الحق لومة لائم، وكان يخافك بسبب ذلك كل أحد من أقاربك وغيرهم،واليوم حيث صرت بمنزلة وَاحِدٍ من إخوتك فأي فائدة فيك، وأي مزية لك، وأي شيء يتقيك الناس لأجله، وعلى ماذا يؤثرك الناس على غيرك، فتفطَّنْ لما كنا ننبهك عليه، ونرشدك بتوفيق من الله إليه، ونحذرك منه وتلك الشريفة بنت سيدي هاشم، أم أولاد أخينا محرز رحمة الله عليه، كان بينها وبين أحفادها أولاد مولاي بوفارس مطالبة بشيء من المال، كانوا يدعون عليها به، ولما رَجَعَتْ من الحجاز وطالبوها بذلك قالت لنا : هذا الشيء الذي يذكرونه أولاد مولاي بوفارس لا شك أنه كان في يدي، وقد أنفقته وأكلته في طريق الحجاز عَلَيَّ وعليهم ذهاباً وإياباً، ولم يبق من ذلك عندي قليل ولا كثير، وأحببت من الله ومنك أن تُصَفِّينِي معهم، فأعطيت حينئذٍ لأولاد مولاي بوفارس ما أعطيتهم من المال، وقلت : إن لم يكن ذلك من حقهم فَإِنَّا نجبرُ به خواطرهم، ونرفع به نزاعهم مع جدتهم،

وقصدنا بها معهم صلة الرحم وإصلاح ذات البين، وما ظننا أن يبقى بينهم وبين جدتهم بعد ذلك نزاع ولا كلام، إلى أن أتى إلينا هذه المرة ولد مولاي أبي فارس في جملة الشرفاء، وقال لنا : أحببت من الله ومن عمنا أن يُصَفِّيَ مسألتنا مع جدتنا فيما نسأله لها، وَهَا العقدُ الذي يتضمن ذلك عند مولاي الشريف بن الحران، وَظَنَنَّا أنه ربما يكونُ عندهم مع جدتهم كلام لم نطلع عليه، ونسينا ما كنا أبرمنا معهم في مسألتهم ومسألة جدتهم، ولم نتذكرْ ما كنا أعطيناهم من المال عن جدتهم، وَنَحْنُ معه في ذلك الكلامِ إِذْ لحق بِنَا مولاي الشريف بن الحران، فقلت له : أَيُّ عقدٍ أَمَوْلاَيَ الشريف عندك لأولاد مولاي بوفارس؟ فقال لنا : حَقٌّ لهم عندي، وَمَهْمَهَ عليه، ولم يبين لنا كيفية العقد ولا ماهيته ولا حقيقته، فاختلسوا منا الكلام، وَمَوَّهُوا علينا في مسألة العقد، ولما أن بلغ للشريفة ذلك الخبر كَتَبَتْ لنا كتابا تذكر لنا فيه : أصل المسألة التي يَذْكُرُ لك أولاد مولاي بوفارس هو ما كانوا يدعون بِهِ عَلَيَّ لَمَّا رجعتُ من الحجاز، وَفَاصَلْتَنِي معهم، وأعطيت عني نصرك الله ما أعطيتهم، ولم يبق لهم كلام، والعقد الذي كان مكتوباً بذلك هو الذي عِنْدَ وَلَدِ مولاي الحران، فلما أذكرتنا الحكاية التي كنا نسيناها، وعرفنا الحق الذي هو من حقها تغيَّرَ خاطرُنَا على الشريف ابن الحران، حيث سألته مشافهة مِنِّي إليه ولم يعلمني بكيفية المسألة، وَيُبَيِّنَ لي ما كان فيها من الكلام والفصال وكان من حقه أن يقول لي حين سألته : إن أولاد مولاي بوفارس لا يسألون لجدتهم شيئا، وهذه المسألة التي يطلبون هي التي أعطيتهم فيما أعطيتهم، وصفيت بذلك حُجَّتَهُمْ مع جدتهم، ويكون

صَفَّى ذمته من التلبس والإختلاس، ويربحَ أَجْرَ أولادِ أخته، ولا يُغْرِيهِمْ على جدتهم حتى يحصلون منها دَعْوَةً، ويجري بينهم وبينها الخماشة والكلام، فابعث له حتى يكون بين يديك، وخاصمه وقل له : أَنَّ وَالِدَكَ أيدَهُ الله كان لا يحب لكم إلا الخير، ولا يجري إلا في مصالحكم، ولا يسعى إلا في منافعكم ومرافقكم، ولا يبحث إلا عن ألفتكم، ولا يحب أن يكون بينكم تحاسد ولا تقاطع ولا خماشة ولا منافرة، ولا يريد بكم إلا أن تكونوا من ذوي البيوتات، وأهل المروءات، وتتركون عنكم هذه المسائل التي تضع من أحسابكم، وتنقص من أقداركم، وتجلب لكم العداوة فيما بينكم، فكيف بكم يُحِبُّ لكم من الخير ما يُحِبُّهُ لكم وإذا تكلم معكم على مسألة من مسائلكم يعود نَفْعُهَا عليكم لا تصدقونه فيها، ولا تُبَيِّنُونَ لَهُ قضيتها، وكل واحد منكم يتكلم على قدر شهوته، ويبحث عن جلب منفعته، والله لو اشتغلتم بما ينفعكم من الجدِّ والصدقِ مَعَهُ وتتركونَ عنكم حتى هذا الوُفُودَ التي تَفِدُونَ إليه، وهذا التَّرَدُّدَ الذي تترددون عليه إلا أَحْسَنَ لكم، وإذا أحب معاملتكم يعاملكم على البُعْدِ، فكم غضَّ بصرَهُ عنكم، وكم استحيا منكم وعاملكم، وأنتم لا تزدادون إلا تمادياً على أفعالكم، فهؤلاء أولاد مولاي بوفارس هم أولاد أختك وصرتَ تُغْرِيهِمْ على جدتهم، وتثير لهم الفتنةَ، وتزيد الكلامَ مع أعمامهم، ويسألك والدي عن مسألتهم وَهِيَ مُحَقَّقَةٌ عِنْدَكَ فصرتَ تُمَهْمِهُ عليه فيها، ولا تعلمهُ بكيفيتها ولا صحتها، فحيث سألك والدي نصره الله تكون أعربت له عن الحقيقة، وبينت له أصل المسألة، وصدقته فيها، وما كان يحتاج إلى عتابٍ، ولا إلى تَغْيِّيرِ خَاطِرِهِ بهذا الكلام وَشِبْهِهِ، وقل للشريف ابن الحران حتى أنَّ المسألةَ

عرفناها وتحققتْ عندنا، ولا يبقى لأولاد أخته ما يطلبون عند جدتهم ولا يتبعونها به واعلم أنه يصل صُحْبَةَ دحمان غرنيط خديمنا الحسن وَبَاعَلِّي التغازي، فقف معه وقوف رجل أنت وخديمُنَا المحجوب الغنجاوي حتى يُكَمِّلَ لنا ثلاثة آلاف مثقال التي بقيت عليه من المالِ الذي كنَّا جعلنَا معه يأتينا بِهِ على رأسِ كل سنةٍ، وَضَمِنَهُ هُوَ، فما أتى في يَدِهِ هذه المرة إلا بألفين ومائتين مثقالا، وبقيَ عليه ما ذكرناه لك، وطلب منا القدومَ لتافيلالت لينظرَ هنالك من يعامله بها، وقال: إنه يخلصنا هنالك على كل حال إن شاء الله، ولاشك أن تلك البلاد أكثر أهلها وغالب من في يده بضاعة من سكانها أنهم يترددون على تغازى وتنبكتو، ففيهَا من أهل المعاملات كثيرٌ، فإذا اتفقوا معه على أن يبعثَ لهم متَاعَهُمْ بنفس ما يصل لتغازى فتباركَ اللَّهُ، فإنه لا يبطئُ بهم، وإذا اتفقوا معه على أن يوجهوا معه من يقبض لهم متاعهم فكذلك أيضا، فشدَّ روحك فِيهِ وَقِفْ لَهُ، ولو كنت تعامله أنت من عندك فلا يضيع لك عندهم شيء من متاعك وعلى كل حال فبلاد تغازى هي محسوبةٌ عليك، إلا أنك رجلٌ قليلُ الفائدة والنتيجة، وأما لو كانت فيك فائدة ونتيجة ما تجعل بتغازى إلا من يكون على يدك، ولا تغفل عنها وتقنع أن يكون فيها من تُسَوِّلُ لهُ نَفْسُهُ أن المدارات تكفيه معنا، فما بين الغزلان التي هي أسفل وادي درعة وبين تغازى إلا عشرة أيام، وعرب الصحراء الذين دائما يترددون لتغازى على يدك وفي طوعك، فأولاد الزبير وعريب مَا يَعْرِفُونَ إلا تلك البلادَ، فهم عربها، يَعْرِفُهَا كبيرهم وصغيرهم، فأي كلفةٍ عليك لو كنت ضَمَمْتَ إلى أولائك العرب ثلاثمائة رامٍ، أو أربعمائة وأقسمت لهم إن لم

يدخلوها في أمر قريب حتى تفعل وتفعل بهم، أَفَتَرَاهُمْ لا يرونَ لك قَسَمَكَ، أو تكددهم تلك البلاد أو تكون عليهم فيها كلفة، أَوَلاَ يعلمون لك فيها مزية، والله لو عملتَ لها ذلك ما كانت بحول الله وقوته إلا في يدك، وتكون توسعت فيها، وتوجه إليها حتى بالإبل التي تفضل عليك، وتنتفع منها بنفع كبير، فإن ذلك الرجل الذي بها الآن كان على يد رجل بودراري من جملة ثوار المغرب، لا يملك حتى شبراً من الأرض، وكان يوجه إليه بأحمال التبر وبالعبيد والخدم، وبالطرف التي تجلب من جهتها، وما كان عنده إلا بمنزلة الأمين عليها، يحاسبه على داخلها وخارجها ومستفادها ولا يكتم عنه شيئا من أمرها، وينتفع هو بالتجارة، وبالأجرة والعمالة مثلا، أو بتكبيرة العرب له, واليوم الذي من الله فيه على المسلمينَ وجاءت هذه الدولة المباركة في عنفوان شَبِيبَتِهَا وانزاحت أيام الهرجِ، وخمدتْ نيرانُ الفتنِ من هذه الأقطار المغربيةِ، وَحَسَمَ الله مادة أهل الزيغِ والثوارِ الذين كانوا يمرحون بها، وجمع الله المسلمين، وأنكر أعداءه الكافرين، وَفَتَحْتُ مِنْ معاقلِ الكفرةِ ما نرجو من الله تعالى أن يثيبنَا عليه، وأن يجعله في ميزان الثواب والحسنات، وأمنت الرفاق، وَدُوِّنَتِ الدواوين، وجمع الجند والجيش، وَوُقِّفَتْ بيوت الأموال، وصار الناسُ مشتغلين بأسبابهم من جهادٍ وحج وتجارة وأمانة، وامتدَّتِ الطاعةُ والحمد لله لأقاصي بلادِ القبلةِ وما وَلاَهَا من بلاد الأكوارِ والسودان، ومحالِّ المسلمين والحمد لله هاهي إلى الآن في بلاد القبلة، صار ذلك اليشيري الذي بِتَغَازَى يَلْعَبُ وَيَعْبَثُ ويوَجِّهُ إلينا بِأَلْفَيْ مثقالٍ يحملها عَمُّهُ تَحْتَ إبِطِهِ، فذلك الذي كان يوجه إليه أبوه أحمال الذهب والتبر ما كان ينفقها إلا في شهوة نفسه،

ولا يصرفها إلا في منفعة رأسه، واليوم والحمد لله إذا وَجَّهَ شيئاً لنا ننفقه في مصالح المسلمين ومرافقهم ومصالحهم، وَنَزِيدُ في الجيشِ، ونبني المساجد، أفترضى لنفسك يا قَلِيلَ الفائدةِ أن يكونَ حولك مَعْدِنٌ من معادنِ بيتِ مالِ المسلمين وهو أَجَلُّ ما يُجْبَى إليه، وأحلُّ ما يُقَدَّمُ به عليه، ثم لا تعمل فيه أحداً عَلَى يَدِكَ، أو تحاسب ذلك الذي بيده حتى يكونَ يعرف منك الجِدَّ ويخافك ويهاب قُرْبَكَ منه، ويشتغل بالخدمة ونصيحَةِ بيتِ مال الله تعالى، فهذا الذي صار يُوَجِّهُهُ ما تقنَعُ حَتَّى أنت به، فقريباً على قدْرِ ما نَعْقِلُهُ نَحْنُ كان بتنبكتو أيام استقراره بها هو وأخوه وَالِدُ صانوبين، هذا الذي بأرواوان، وكانت بينهم وبين عمك مولاي محمد رحمه الله خُمَاشَةٌ، وسعوا له من تافيلالت، واستقروا بالسودان، وكانوا يخافونه على نخيلهم وأصولهم الذي كانوا يعملونه في السيعة ويشترونه، فدخلوا تحت جَدِّكَ مولاي الشريف رحمه الله، وَتَوَالَوْا معه وتحابوا، وصاروا حيثما طالبهم بشيء يبعثون لمولاي الشريف هدية يواصلونه بها تشتمل على سبع صور من التبر، أو ثمانية أحمال من الكور، وطرفِ تلكَ البلادِ حتى أقراح التي تأتي من السودان، قبل كانوا يبعثون بها إليه، وإن لم يكن مولاي الشريف يستعملها، والله لقد عَقِلْتُ على السيد حمو بن الحاج بنفسي جاءت هديته مرة أو مرتين، ودائما كان يبعث ذلك، وحتى العبيدُ والخدم كان يوجههم إليه مع هديته، فَأُمُّ عمك العباس كانت تساوي حملاً من المالِ، هُمُ الذين وَجَّهُوا بها إليه، وكذلك أنزا الكبير ومبارك والعربي وغيرهم من العبيد، وأولئك الناس أبناءُ عمنا، وما كانوا على مَعْدِنٍ ولا على عمالة، وإنما كانوا يعاملون مولاي

الشريف بذلك شبه المودة، وتسترا به من ولده مولاي محمد رحمه الله، فَكَيْفَ بِالتَّغَازِي يَلْعَبُ في مَعْدِنٍ من معادن بيوت الأموال حلالٍ طيبٍ، وَقَطُّ مَا تَفَكَّرَكَ بشيءٍ ولا عَرَفَ حتى أنه مِنْ جملةِ الأحبَّاءِ، وأن ذلك المعدنَ خالصٌ لبيت المال، وإذا أخذ منه شيئا فإنما هو سرقةٌ محضةٌ تَتَعَامَى أنت عنه، وتشتغلُ بِلُعَبِ اليشاشرة الذين لم يبلغوا الحلم، وَتُوثِرُ الرَّاحَةَ والدعةَ عن الأمور التي تُخَلِّدُ لك الذكرَ، فأنت إذاً لَسْتَ من رجالِ الجدِّ، وَدَرْعَةٌ إذا لم تَعْمَلْ بها مزيةً نَنْظُرُ لها قائداً على أيدينا وَيَعْمَلَ بنظرنا فيهم، تأكل أنت مالها ويتوسع معك فيه أولئك الأَخْلَاطُ الذين جمعنَاهُمْ عليكَ، فإن أحببتَ مزيتكَ لشغلك فَتَلَقَّى ما كُنَّا نخاطبك به بِأُذُنٍ واعيةٍ وقلبٍ فارغٍ، وهذا الرجل التَّغَازِي الذي يَرِدُ عليك والله لولا أننا رأينا منه الجد في هذه المرة لا نقدم شغلا على من نوجه لِتَغَازَى، وقد عملنا له غرضه، وكتبنا له بما طلبه منا، ولم يبق له إلا أن يخلصنا في تلك البلاد من هذه الثلاثة آلاف مثقال، ويتوجه لولد عمه ويشتغل معنا بالجد، فإنه قال لنا : كل ما عمله عبد المالك في تَغَازَى فأنا الذي عملته، والغالبُ عليه الصدقُ فيما يخاطبنا به، فَشُدَّ روحكَ معه كما ذكرنا لك، وإن توقف له عندك غرض فاقضه له، ووجهه على خاطره كما يحب ويرضى، وإذا وجهت إلينا خديمنا دحمان غرنيط بعد استيفاء مدة الغرض فوجه لنا معه مولاي الشيخ بن عبد الكريم ومولاي الوليد، وَإِنْ عبد المالك بن طلحة، وَإِنْ بلقاسم بن البشري، وذلك الرجل الذي على أيحار يأتون صحبته لنتكلم معهم إن شاء الله والسلام، وكتب في 30 من صفر الخير عام 1104هـ ـ 8 نونبر 1698م.

الرسالة: 2

ولدنا المامون، سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد : فاعلم أنه لا يخفى على كل ذي بصرٍ وبصيرةٍ، ومن له أدنى معرفةٍ بالأمور وخبرةٍ بالمسائل وتمييزٍ للأشياء أن من الواجب على الرئيسِ ومن هو في ولايةٍ أو مولى على عمالةٍ أو رئيسٍ على موضعٍ من المواضع، أو قطر من الأقطار، أن يكون على غاية من العزم، وعلى حالة كبيرة من الحزم، متيقظا لما يجب عليه التيقظ له، متفطنا لجميع ما يكون من حقه، لا تصحبه غفلة في شيء من الأشياء، ولا تراخ في شيء من شغله، في حالتي سره وجهره، ومهما أدركه تغافلٌ أو لحقه تراخٍ، أو ظهر منه فتورٌ أو مللٌ، أو ناله عجز أو كسل، فذلك قصورٌ في حقه، ولم يكن واقفاً في الأمرِ الذي يُرَادُ منه على مستحقه، وأنت لا يَخْفَاكَ ما كنا عاتبناك عليه قبل هذه الساعة من عدم كتبك إلينا، وقلة تردد برَاوَاتِكَ علينا، وَظَنَنَّا أنك منذ انصرفت من حضرتنا العلية بالله هذه المرة لا تألو جهداً في ارتكابِ ما يُحْمَلُ سَمَاعُهُ عنك، ولا تُقَصِّرُ في أعمال ما يُحْمَدُ صدوره منك، وخصوصاً حين قدمت هذه المرة من حركتكَ من ناحية الصحراء، وعرفت ما كنا أوصيناك عليه، وأرشدناك في سفرك ذلك إليه، وما حَضَضْنَاكَ عليه من إمعانِ النظر في أحوال تلك البلاد التي كنت فيها، والتَّخْيِيمِ بالموضع الذي يليق بك منها، وإغضاءِ الجبين، وإرخاءِ الجناح، وانتهازِ الفُرَصِ، وإلقاء الشراك على الحَرَامِيِّينَ منها، وإعمال كُلِّ حيلة تنفع وتوصل إلى التشعيفِ بالمروءةِ مِنْ أهلها حتى تَحُوزَ مزيتها وتفوز بخصلتها ثم إنك لما انزعجت

بالوُرُودِ، وَتَقَلَّقْتَ بالقدوم، ورأيناك تعتذر بالعرب وتشتكي منهم، وتتهربُ من خلطتهم، وَتَتَنَصَّلُ من حجتهم، وتتبرأُ من عهدتهم، صَدَّقْنَاكَ في ذلك ورددنا اللومَ عليهم، لاسيما حيث كنت هُنَا بين أيدينا، وتردد الكلامُ بينك وبينهم بحضرتنا، وكثيراً حين أمرناكَ بالرجوعِ للحركةِ، فطلبت الإقَالَةَ منهم، واعتذرت بهم، وبفعل الحَيِّ الذي كان أَمَامَكَ، وغضَضْنَا الطرف عنكَ حينئذ، وَظَنَنَّا أنك تندم على ما فات منك، وتكون وَلْهَتُكَ راجعة إلى تلك البلاد التي أتيتَ منها، وإذا اجتاز وقت الصَّيْفِ الذي اعتذرتَ به تقول : هذا وقتُ البلادِ التي كنتُ رَأَيْتُ وسلكت، وكنت معولاً على المقامِ بِهَا لولا إزعاجِ العرب إِيَّايَ بالقدومِ منها والرحيلِ عَنْهَا، وَهَا أَنَا قد تأهبتُ لها، وَهَيَّأْتُ جميع ما أحتاجه من زَمْلٍ وإقامةٍ وزادِ، أو غير ذلك من الأمورِ التي تزيلُ عنك بعضَ العجزِ، ولا أُحِبُّ مِنْ وَالِدِي يعذرني إلا فِي مسألةِ العرب، وغير هذا من الكلام الذي يزيل عنك العُذْرَ، فإذا بك مُنْذُ انصرفتَ وتوجهتَ ما رأينا من عندك كتاباً لا في هذا المعنى ولا في غيره، سوى الكتاب الذي وجهت لخديمنا عبد الحق بسبب قصبة والدنا مولاي الشريف رحمه الله، التي تَزَبْلَحْتَ فيها أنت والغنجاوي، وكنت حاضراً معه لبنَائِهَا، وأنت الوَاقِفُ عليهَا في الحقيقةِ، وأين كُنْتَ غائباً عنه في ذلك البُنْيَانِ الذي ظهر فيه ما ظَهَرَ فِي العام الثاني، وما زِلْنَا نَلُومُكَ أنت بسببِهِ، وَنُوَاخِذُ عليه المحجوب الغنجاوي، حتى وجهنَا له على شَأْنِهِ خديمَنَا عبد الحق، وقلنا له : أَلْحِقْ به وعاتبه وزنكه وخاصمه، وَأَرِيهِ براءةَ مولاي المامون، وما كتبنَا له به على شأنِ القصبةِ التي حضر معك لِبِنَائِهَا، وأمرناه أن يتكلمَ معه بكلامٍ كثيرٍ في هذا المعنى، وأين أَنْتَ عن مباشرةِ تلك

القصبةِ، مَا عنيتَ عنها ساعةَ البُنْيَانِ لحظةً واحدةً من حَيْثُ ابتدَأْتَ من أَسَاسِهَا، وزدتَ مسألتها عن مسألةِ انزعاجك من الحركةِ، وَسُكُوتِكَ حتى عن ذِكْرِهَا منذ انصرفت، ولا قدرتَ حتى تُشِيرَ إلى شيءٍ مِنْ خبرِ تلك البلاد الصحراوية التي أتيتَ منها خوفاً أَنْ تُذَكِّرَنَا فيها، إلى أن كان خديمُنَا ابراهيم بن حمو الكسيمي هذه الساعة، لَمَّا أَنْ أَفَاقَ مِنْ مرضه، وَنَقَهَ مِنْ وَخَمِ مَصِيفِ وادي نون الذي أدركه هو وأصحابه الذين معه منذ انصرفوا، وعافهم الله تعالى، فصارت كتبه تأتي إلينا منذ نَقَهَ وصحَّ، وكان يعطينَا بها أخبار تلك البلاد من وادي نون إلى الصحراءِ، وينتظرُ في بَرَاوَاتِهِ جميعَ ما يعرف ، أو نَبْحَثُ عنه، أو يَعْرِفُنَا أَنَّا نتشوَّفُ إليهِ، لاسيما خبر إخواننا المغافرة، وخديمنا عبيد بن إبراهيم الرحماني ومحلتنا التي معه، فأعطانا خَبَرَهُ وَخَبَرَ منازله، وأينَ هُوَ واجتماع إخواننا المغافرة معه، ومن جملةِ مَا كَتَبَ به في براواته التي أتتنا هذه الساعة، أَنْ أعطى خَبَرَ أولاد ادليم وما حَازَهُمْ إلى السانية وأحوازها هذه الساعة من جَذْبِ بلادهم من قربِ خديمنا عبيد بن ابراهيم مع إخواننا، وَتَزَحْزُحِهِم بالرحلةِ إثر الرحلة إلى قربِ بلاد أولاد ادليم، وقال لنا : واللَّهِ لو كان مولاي المامون حين كان هُنَا وَجَدَ من العربِ الذين كانوا معه مساعدةً ومساعفةً زيادةً على تلكَ الأَشْهُرِ التي أَقَامَ هُنَا حتى يكونوا أولاد ادليم تطَارَحُوا عليه، ودَخَلُوا بيدَيْهِ أحبوا أَمْ كرهوا، إلا أن العربَ لم يساعفُوهُ، ولا عاوَنُوهُ على مزيةٍ، ولا أرادوا له نتيجةً ولا فائدةً، وَكُلُّ ما نازعهم به مولاي المامون بحضرةِ سيدِنَا نصره الله ما قال فِيهِمْ إلاَّ الحقَّ، ولا خاطبهم إلا بِمَا فيهم وبما فعلُوهُ، لأني كنت حاضراً لمنازعته معهم وشِكَايَتِهِ بِهِمْ، ولو اطلعت على

بَرَاوَاتِ خديمنا إبراهيم بن حمو لقضيتَ العَجَبَ منها، ولا اسْتَحْيَيْتَ أنت من مطالعتها، وتحقَّقَ لدينا ما عَمِلَهُ هؤلاء العربُ مِنَ العجزِ والدَّنَفِ الذي هو فيهم كَامِنٌ، وكنَّا نَعْرِفُهُ نحن ونسترُهُ عن الناسِ ولا نبذل منه شيئا إلى أن فَطِنَ له إبراهيم بن حمو من أقصى البلاد، ولا أَحَبَّ أولئكَ العربُ أن يستحيوا من اللهِ تعالى ولا مِنْ عَبْدِهِ الذي ألقى إليهِ اللَّهُ قِيَادَهُمْ وَقِيَادَ غَيْرِهِمْ، وقد ارْعَوَى الناسُ كلهم وأنابوا إلى الله سبحانه وتابوا واطمأنوا وَهُمْ ما زالوا على حالتهم من الغش والضلال والفجور والبخل والجبن والنُّكُولِ حتى عن عدوهم ، ولا أَحَبُّوا أن يستروا على أرواحهِمْ ولا أن يستحيوا مِمَّا صَدَرَ منهم، فكم من جنايةٍ ارتكبوها، وكم من مسألةٍ عملوها حين كانت تعجبهُمْ أرواحُهُمْ، ونُجُوعُهُمْ قوية، وأموالهم كثيرة، فما دخلوا حينئذٍ في طاعتي، ولا انخرطوا في سِلْكِ جماعتي، فليسوا وإن كانوا أقوياءَ حينئذٍ بالعربِ التي تَقْدِرُ على الْمُنَاوَرَةِ، ولا على الْمُدَارَاةِ ولا غيرها، لكن الخفةَ والطِّيشَ والطيرانَ وشيوخَ السُّوءِ، وذلكَ المَرِيدُ الذي كانَ عِنْدَهُمْ، وتركنَا حَقَّ اللَّهِ فِيهِ هُوَ الذي كان زَاغَ بِهِمْ مَعَ شياطينهم الذين كانوا يُزَيِّنُونَ لهم ارتكاب الشرورِ، ويُدِلُّونَهُمْ وَيَدُلُّونَهُمْ بالغرور، فتارة ينفرون هكذا، وتارة يطيرون هكذا، فكل نَجْعٍ منهم عَمِلَ عملاً وَفَعَلَ أموراً، ارتكبَ مناكرَ لو كنَّا نواخذُهُ بهَا لما بقيت منه عينٌ تَطْرُفُ، فَبَنِي مَحَمَّد وحدهم لا يخفى عن أحدٍ منهم ولا مِنْ غيرهم مساويهمْ إِنْ أحصيناهَا ومسائلهمْ إِنْ عَددناها، فلا يَحْمِلُهَا ديوانٌ حافظٌ، ولا يأتي عليها لسانٌ لافظ، وأصغَرُهَا انصرافهم بِنَجْعِهِمْ لدرعة عند ابن عمك أحمد بن محرز عفا الله عنه بنفسِ انصرَافِهِمْ مِنْ عندِنَا ورجوعهمْ من حضرتنا، وقد كانوا لَقُونَا قُرْبَ

مكناسة حاطها الله ونحن خارجون إِذ ذاك لناحيةِ الكريك لَمَّا أَنْ كَانَ حَسَنٌ غَرَّتْهُ نَفسُهُ والعربُ ، وَقَدِمَ إلى صفرو، فلقيني بَنُو مَحَمَّد بالطريق، ورددناهم إلى الخطيبِ فكسَاهُمْ، وأعطاهم وأرضاهم، فَمَا انصرفوا من عنده حتى حصلوا في درعة من حينهم ومن ساعتهم، وما رجعنا نحن مِنْ مسون وقصدنا سُوسَ حتى عثرنَا لهم على بَرَاوَاتٍ لا يلفظُ بِهَا مسلمٌ، ولا تصْدُرُ من مُوَحِّدٍ، وحين سمعَ ابْنُ عمك أحمد بن محرز عفا الله عنه بأنَّا قَصَدْنَا سوس خَلَّفَ ورحلَ من درعةٍ كالهارب، وقصد تارودانت، وترك نجعهم بدرعة، وقد انصرَف معه الآلاف منهم، وجميع من يعد نفسه شيخاً حتى حُوصِرُوا في المحيطةِ، وَكَتَبْنَا حينئذ لخديمنا موسى المانوكي، وقلنا له : إن بَنِي محمد عَمِلُوا وَعَمِلُوا وَفَعَلُوا وَصَنَعُوا، فَاقْتلْ مِنْ كبارهم ومن أعيانهم ستينَ رجلاً، وعددنَا له منهم جماعةً، فوصلَهُ كتَابُنَا، فَعَمِلَ هكذا وهكذا، وَهَرَّبَهمْ وَأَنْذَرَهمْ، وكان وَلَدُ الزُّوغَر حَاضِرٌ هُنَالِكَ، فحين سمع بِمَا أمرنَاهُ بِهِ فيهِمْ خَاصَمَهُ، وقال له : حيثُ أَحْبَبْتَ أَنْتَ لاَ تظهَرْ مَعَ بني محمد فِي العَيْبِ اعْلمْنِي وَتبَرأْ، وَوَلَدُ الزُّوغَر معه من إخوانه زِيرَارَة أربعمائة فارسٍ أو خمسمائة، فَوَاللَّهِ لو كانَ عنده عِلْمٌ بِهِمْ وَتَبِعَهُمْ لَمَا أَفْلَتَ واحداً منهم، وَعَمِلَ موسى المانوكي تلك العَمْلَةَ التي مَا رَبِحَ منها إِلَى أَنْ ماتَ على الحالةِ التي ماتَ عليها، وهو واللَّهِ تَالِفُ العَقْلِ، نسأل الله السلامة، وأما ذَوِي مَنِيعٍ فمسائلهم يعرفها الخاصُّ والعامُّ، بل كادت أن لا تخفى على أحد من الأنام، وآخرُهَا اجتماعهم بتابوبكارت، يضربُونَ الطَّبْلَ حين أتاهم سنان العلم بِبَرَاءَتِنَا، وقالوا : لا نقرؤُهَا إلا إذا أَتَانَا بها مولاي أحمدُ بْنُ الشرقي لسيدِي الغَازِي حين كانوا أخذوا

إبِلَ الأحلاف بزرزف، واشتركوا مع آيت عطا حتى أَغْزَيْنَاهُمْ عرب انكاد من وجدة، ومن بني سنوس، ومن أقصى البلاد حتى قتلوهم بالدورة وأخذوهم، ومن ثَمَّ لَمْ تَقُمْ لهم قائمة، ومع ذلك كله كنا نَصْبِرُ لهم ونراعي فيهم أحوالا، وتركنا فيهم حقوقا واجبة أوجبها الله عليهم، وواللّهِ لقد خَشِينَا من الله سبحانه أن يطالبنا بِتَرْكِهَا فيهم، ونرجو منه أن يسامحنا فيها، لأنا والله ما تركناها فيهم إلا بوجه يَقْبِلُهُ اللّهُ منَّا، فما خافوا من الله تعالى، ولا من عبدِهِ الذي وَلاَّهُ اللهُ أَمْرَهُمْ، ولا عرفوا وجهاً من وجوهِ الخوفِ، ولا من وجوهِ الحياءِ، ولا رعوا شيئا تفكر في أرواحنا، وفي ما صَدَرَ منا، لأن كُلَّ نجعٍ منهم صدرت منه أمورٌ لا تتحملها الخلافةُ، ولا تتجَاوَزُ عنها السياسةُ، فما عرفوا شيئا من ذلك، ولا عرفوا ما أوجب الله عليهم من الدخولِ في ربقةِ الإسلام، ولا أَنَّ في الخروجِ عنها قَيْدَ شِبْرٍ الإتيان عليهم شرعاً وطبعاً، وبقوا يطيرون وينزلون، ويطلعون ويهبطون، إلى أن ضعفوا وَبَادُوا، وصاروا تَوَاوِيجَ مَحَاوِيجَ، وهنالك انقادُوا إلى الحق رَغْماً منهم، فأين من يتعِظُ إذاً وَيَنْسَى ما فَاتَ له وَصَدَرَ مِنْهُ، بل صرنا نحن نستُرُ على مساويهم، وَنُخْفِي أمورهم، ونأمرُهُمْ بالغزو، ونطلقهم على عدوهم بالكف، رَجَاءَ أن يصحوا أو يَرْجِعُوا إلى قُوَّتِهِمْ التي كانوا عليها، ولا نطالبهم بشيءٍ ممَّا وجبَ عليهم في أموالهم، ونقول : هؤلاء العربُ حيث لم يكونُوا رواتبيةً ولا هُمْ معدودونَ في جيشٍ، فكل ما بقي فيهم من الواجبِ الذي حَرَّمَهُ الله عليهم في إِبِلِهِمْ وماشيتهم يحسب لهم في راتب حركة إن حركوها، أو في سريةٍ إن ضربوها، وهكذا، فصاروا مهما نأمرهم بالغزو أو نُنْهِضْهُمْ لعدوهم وَعَدُوا الذين يعملون معرةً وخزيةً، ويحصلون

شَمَاتَةً، فلقد نَهَّضْنَاهُمْ وحدهم لغزوِ أولاد ادليم فما ضيَّعُوا أرواحهم حَتَّى انفردوا وَشُوَيْخَاتهمْ إلى الزَّحَلِ، وخلصوا فِيهِم تلاف أولاد ادليم، وما أَفْلَتَ إلا من كان متأخراً مَعَ النَّجْعِ، وَأَنْهَضْنَاهُمْ مع أخيك أبي النصرِ أصلحه الله، فَعَوَّلُوا على خزيةٍ أعظمَ مِنَ الأُولَى، لولا ما رَأَوْا منْهُ من الجدِّ في إيقَاعِهِ بِالغَنَانِمَةِ، وأنهضناهم معك هذه المرة فَهَا أَنْتَ رأيت دَنَفَهُمْ وعجزهم وبخلهم وإفسادهم الزرع الذي وجدْتُمُوهُ وعدم ضَبْطِهِمْ له حتى وَجَدُوهَا سبباً للرُّجُوعِ، ولو كانوا صبروا وعرفوا كيف يجمعون ذلك الزَّرْعَ وخزَّنُوهُ وبقيتم شهرين لَعَمِلْتُمُ المزيةَ، ورجعتم بكل خصلةٍ، فانظُرْ مسائلَ هؤلاءِ العربِ أين آلَ حالهم، وأيّ شيء يصلحون له، فكم من مسألةٍ صدَرَتْ منهم وصبرنَا لهم فيهَا، وكم من حقٍ تعيَّنَ فيهم وَجُزْنَاهُ لهم، وليسوا بمعدودينَ في جيشٍ حيث يُلْتَمَسَ لهم عُذْرٌ، ولا بمحسوبينَ في ديوانٍ حتى يأكلوا مَالَ اللَّهِ الواجب عليهم بوجهٍ من الوجوهِ التي صَبَرْنَا لهم فيها، وتركناه فيهم لأجلها، فَهَاهُنَا في العربِ قبائلُ شتى هُمْ أكثَرُ منهم عدداً، وأشرَفُ منهم نسباً، هَاهُمْ يعطون الخراجَ وَيُؤَدُّونَ الضريبة، وتلزمهم الحقوق، فإنَّ من لم يغْزُو ولم ينهَضْ ولم يكُنْ رَوَاتِبِياً ولا جندياً فليس هو إلاَّ مِنْ أهلِ الأدَاءِ وإعطاءِ ما وجب عليه، لاسيما أهل الكُرَاعِ أمثالهم، ففيهِمْ حَقُّ اللَّهِ ظاهرٌ وواجبٌ متعينٌ، وَعَلَى أمثَالِهِمْ من العربِ أهل الكُرَاعِ فرض سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقةَ الزكاة، وأمره الله تعالى بقبضها منهم، فقال : خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها، وقد قَرَنَهَا الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم مَعَ الصلاةِ، وهي من قواعدِ الإسلام الخمسِ التي بُنِيَ عليها، وهذا من

المعلوم من الدِّينِ ضرورةً، وبسبب منع العرب إيَّاهَا قاتلهم خليفَةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي ما طلعت شمس ولا غربت بعد النبيئين والمرسلين على أفضل منه، وهي سَبَبُ رِدَّةِ من ارتد من العرب، حتى قال له سيدنا عمر رضي الله عنهما : كيف تفعلُ شيئاً لَمْ يفعَلْهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لِتُقَاتِلَهُمْ عليه، فأجابه بقوله : وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وهي قرينَتُهَا في كتاب الله، وهذا الخَرَاجُ المُوَظَّفُ اليوم على هذه القبائل هو شيءٌ من هذا المعنى، فأهل الزراعة يعطون أعشار الزرع، وأهل الكُرَاعِ يعطون زكاة الكراع، وأهل البقر كذلك، وأهل الشاة كذلك، وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أن من وجبَ عليه شيءٌ كان يُبْرِي ذِمَّتَهُ مع الله تعالى ما زاد أحدٌ على ما هو مفروض شرعاً، لكنَّ الناسَ دخلَتْهُمْ أمورٌ، وَتَحْدُثُ للناسِ أقضيَةٌ بقدْرِ ما أحدثوا من الفُجُورِ، وأولائك العرب الذين معك بتافيلالت ما كُنَّا تركنا فيهم الحقوقَ إلا من أَجْلِ ما ذكرنَا، وَكَيْ تُحْسَبَ لهم في رواتبهم حين كانوا ينهضون ويغزون، واليوم هذه المزايا التي كنا نُحِبُّهَا منهم ونلقيهم إليها ليسوا عندها، ولا من رجالها ولا من أهلها، وأنت لم يَكُن عندك نُهُوضٌ، وإن نهضتَ فلا تنهض معهم وَلاَ بِهِم، فإنك إن نهضتَ لا يُخْلِصُونَ أبداً ولا يعملونَ لك مزيةً، ولا يزينونَ لك وجهاً، فجلُوسُكَ في حَالِكَ وَعَدَمُ تشوفك إلى شيءٍ من هذه الأمور أَحْسَنُ وأحسنُ لك، وإِعْطَاؤُهُمْ الملازم والحقوق الواجبة أولى لهم وأرفقُ بهم، لأنا انتظرنا أن تكونَ لهم هِمَمٌ أو مزايَا يستوجبونَ بها تركَ الحقوقِ فيهم، وبالمسامحةِ لهم فيها، فما عَمِلُوهَا قَطٌّ،

وهذه التَّفْتَفَةُ التي تقبضها منهم هكذا وهكذا هُمْ يَحْسِبُونَهَا عليك، والأشياخُ يأكلونها ويسبونهم بِسَبَبِكَ، ولا يصلك منها شيءٌ له بَالٌ، لا تليق بك معهم، ولا تقصر لك غرضاً، فاجعَلْ عليهم وظيفاً معلوماً، وقدراً مسنوناً يعرفونه ويحققونه، فما يصلحُ بهم إلا أن يكونوا من أهلِ الخَرَاجِ الذين يعطونَ وَاجِبَهُمْ كلَّ سَنَةٍ، حتى يكون كل واحدٍ منهم عارفاً بما يَجِبُ عليه في المالِ أو الشاةِ أو غير ذلك، وحتى يكون الذي يلزمه يعرفه ويسميه ويُعْطِيهِ من جميع ما يحتكرُ به أو يتسبب فيه، ويعرف كبيرهم وصغيرهم وظيفة اللازم له على الكُرَاعِ أو على العَنزِ أو على الجملِ أو المالِ أو غير ذلك، وهذا الحَقُّ هو الواجبُ عليه فلا تتركه منهم، فإذا وَصَلَكَ كتابنا هذا أعزه الله فاجمع لِقِرَاءَتِهِ وسمَاعِهِ جَمِيعَ منْ يُشَارُ إليْهِ منهم، ومن أعيَانِهِمْ وخاصتهم، صباح وبني محمد، واقرَأْ عليهم كِتَابَنَا هذا أسمَاهُ اللهُ حتى يعرفوه ويتحققوه، ويتقرَّرَ عندهم هذا الكلامُ الذي أمليَنَاهُ عليكَ، وهم المُخَاطَبُونَ بِهِ في الحقيقَةِ، وَقَسِّطْ عليهم ما يَجِبُ من حق الله تعالى، ولا تُضَيِّقْهُ عندهم، ولا تخله فيهم، فإنك إنْ تركته فيهم فقد تركتَ واجباً، والواجبُ لا يُتْرَكُ، فإذا دَوَّنْتَهُ وعرفته وقسطته، وعرَفَ كُلُّ واحدٍ منهم ما يَجِبُ عليه في شَاتِهِ أو نَاقَتِهِ أو مُتَمَوَّلِهِ، كيف ما كان يُعْرَفُ تقبضهُ وأينَ يُصْرَفُ، وأما تَرْكُكَ إيَّاهُمْ على هذه الحالةِ ، بحيثُ الخراجُ ليسوا محسوبينَ منه، والواجبُ لا يعطونَهُ، فَالمَلاَمُ راجعٌ إليكَ، والعهدةُ في ذلك عَلَيْكَ.

وكذلك تافيلالت التي ضَعُفَتْ في يدك وما كنت تدري ما يلْزَمُ أهلها ولا ما ينُوبُهُمْ في المسائل الدقيقةِ والأمور الصغيرةِ، كخدمة الفصة، ومكاسين

الخدامين، ونصافات الأشياخ، ومزونة المشعال، وغير ذلك من الأمورِ التي توكل بِسَبَبِكَ وتنسبُ إليك، فَتَفَقَّدْ أحوال تافيلالت، وَبَاشِرْ أمورها بنفسك، واعْدِلْ فيهم، واعْمَلْ لهم قانوناً مليحاً، وضابطاً صحيحاً، مثل ما كان في عهد عمك مولاي محمد رحمه الله، وَاعْرِفْ ما يلزم كُلَّ واحدٍ من أهلها، وقدر كل واحدٍ منهم وما ينوبه، فالتي هِيَ في مستحقها اعْرِفْهَا، والتي لَيْسَتْ في حقها كذلك اتْرُكْهَا وَأَنْكِرْ على فاعلِهَا حتى يكونَ جميعُ ذلك نَصْبَ عينيكَ، وَمُشَاهَداً عندك، وحاضراً بين يديك، فإذا أعطى أحدٌ موزونةً تعرفها وَتَعْرِفُ بِأَيِّ سببٍ وأَيْنَ صَارَتْ، ولا يغيبُ عنك من أمرِ تافيلالت شاذةٌ ولا فادةٌ، وأما هذه الجريةُ على هذه الصورةِ، الجَارِي يقبضُ مِنْ جهةٍ، والشيخُ يَنْتِفُ مِنْ آخرى، والخديمُ كذلك شبه المَكْسِ، فلا نقبلُ سَمَاعَ ذلك، ولا نصبر لَكَ فِيهِ وباللَّهِ الذي لا إله إلا هو إِنْ لَمْ تَقُمْ على ساق الجد وتحتزمَ غايةَ الحزمِ في ضبطِ هاتين المسألتين، وتدوِينِ هذين الأمرينِ الذينِ أمرْنَاكَ بِهِمَا من تقسيطِ ما يجب على العربِ وتدوينِهِ وإِعْمَالِ النظرِ في أهلِ تافيلالت، وضبط مسائلهم الضَّبْطَ الذي لا يبقى لك معه شيءٌ، ولا يَدْخُلُ معك فيهِ لَبْسٌ، ولا يتظالم منه أحدٌ، ولا يشتكي منه بَشَرٌ، ويكون ذلك على الوجهِ اللائقِ الذي يُرْضِينَا، والقَانُونِ الذي يعجبنا، حَتَّى نَبْعَثَ لَكَ مَنْ يعزلكَ وَيَتَوَلَّى مَوْضِعَكَ، وَأَحْلِفُ عليكَ لاَ رأَيْتُ لك وجهاً أبداً إِنْ شاءَ اللَّهُ، وأنتَ أَخبر، والسلام، وكتب في 24 رجب الفرد عام 1110هـ ـ 26 يناير 1699م.

إلحاقُ نَصِّهِ : وَكُلُّ ما يقوله لك حاملُهُ خديمنا السيد عمر الزيزي، فَثِقْ بِهِ فقدْ أوصينَاهُ بِهِ زيادَةً على هَذَا، وهو مِنْ أشيَاعِنَا، فَاعْرِفْ لَهُ ذلكَ، واستوصى به والسلام، وَكُتِبَ في تاريخه.

الرسالة: 3

إلى المامون، بعد السلام عليك، فاعلم أننا كنا نَتَوَسَّمُ فيك مسائلَ كبيرةً، وأموراً كثيرة، وكنا نظن في جانبك من النجدة والفائدة والنتيجة والضبط وعلو الهمة وكبر النفس والصبر والنجابة والإمتثال لما نأمر به، والتحافظ على ما نوصي عليه، ما ليس في إخوتك، ومن أجل ذلك كَبَّرْنَاكَ عَلَيْهِ منهم، واخترناك للولاية دونهم، ورأينا أن تلكَ البلاد تافيلالت كما قلنا لك غير ما مرة بلادٌ متسعةٌ كبيرة، ولها أعمالٌ، وبها منافعٌ كثيرة وهي قاعدةٌ من قواعد هذه الأقطار المغربية. وقد كانت في القديم دارَ الإمارة، ومنها كانت تتوجه الأوامر والنواهي، وتتبعث البعوثُ وتخرج أصحاب الولايات إلى أكثر كور المغرب، وقد جمعت بين طيبِ الهواء وكثرة الخيرات، وتوسطت بجميع تلك النواحي والجهات، فهي محَطٌّ رحالِ الرفاق، من جميع الآفاقِ، ولابد لجميع تجار السودان وغيرهم من البلدان منها.

وأهل تلك الجهة كلهم متوقفون عليها، ولا محيصَ لأحدٍ عنها، فولايتُهَا وَحْدَهَا يجعَلُ منها الرجلُ الحازمُ الجيشَ والعيشَ، لاسيما إذا كان صاحبها يتصرَّفُ في توات وفي تكررين وفي درعة، ويمُدُّ يدَهُ في تلك النواحي وفي غيرها، ومع ما فيها من كثرَةِ المنافع والمرافق والمصالح، فهي مقَرُّ أسلافنا رحمهم الله ومستوطنهم وقد سَكَّنَّا بها من إخوتك مَنْ عَلِمْتَ بها، ومن أقاربنا وجماعتنا من تعرف، واشترينا بها من الأصولِ ما لا يخفى عليك، وقلنا إذا بارك الله في جريتك، وأصلح سيرتك وسريرتك لاَ نَجِدُ لها أحسَنَ منك، ولا يكفينا في تلك المسائل

المهمات التي لنا هنالك إلا أَنْتَ، ولا يجمع لنا بين ضبط ذلك البلاد وأحكامها ومعاشرة أهلها أَحَدٌ غيرك. وأضفنا لك بلاد الفائجة وبلاد درعة وبلاد توات وبلاد تكرارين، وجميع ما اشتملت عليه هذه البلدان من العربِ والبرابرِ، وَأَقْصَرْنَا النظر في جميع تلك النواحي عليك، ثِقَةً منَّا بك، وبما نؤمله فيك من الخير، وقلنا أنك إذا رأيتنا كبرناك على إخوتك، وخيرناك على بني أبيك وأقاربك تعرف مقدار تلك السيادة، وتعمل للولاية شروطها، وتجعل للمزِيَّةِ حقَّهَا، وتنهض نهوض رجلٍ حازمٍ، وتتشوف للمسائل الكبار، وتطمَحُ بك نفسُكَ إلى تمهيدِ الأقاليم والأقطار، وتضرب نفسُكَ في القَالَبِ الذي توَسَّمْنَاكَ به، وَتَتَرَامَى على البلدانِ الشاسعةِ، وَتُكَاتِبُ عرَبَ القبلةِ، وعرب تنبكتو، وعرب تَغَازَى، وتراسل ملوك السودان، وتخاطب جميع تلكم البلدان، وتكون عيُونُكَ مبثوثةً في جميع تلكم النواحي، حتى تعرفَ كُلَّ قبيلةٍ قبيلةٍ وما هي عليه، وتعْرِفَ بلَدَ كُلِّ رئيسٍ وما هو عليه، وإذا رأيت أحداً من عرب تلكم النواحي حَادَ عن الطريق تنظُرُ إمكَانَ الفُرْصَةِ فيهِ، وتنتهزها منه وتصحبه أو تغاديه في أيِّ بلادٍ كان، ويكون عندك لذلك إقامةٌ كبيرةٌ من زَمْلٍ وآلةٍ وَمِيرَةٍ وزادٍ وجميع ما تحتاجه، بحيْثُ إذا أَحْبَبْتَ الغَزْوَ لا تتوقف على ما يشغلك عنه في وقته، وإذا وَقَعْتَ بعربٍ بعيدةِ الوَطَنِ منك ثلاَثَ مرات أو أكثَرَ فإنَّ العربَ كُلَّهَا تهَابُكَ، وتعمل بحسَابِكَ، وتخافك وتهاديك، وتكْثِرُ التردد عليك، وتتصرَّفُ في قاصيهم ودانيهم بكُلِّ ما أحببته منهم، فيبعد بذلك صيتك، ويتقوى حسُّكَ، وتعلو همتك، وتقصد بَابَكَ الوفودُ وتعمر بلادك، وكذلكَ بلادُ الفَائِجَةِ، فلو كنتَ رَجُلاً ما تَقْنَع تُوَجِّه إليها محمد بن كريم، وَهُوَ لا يعرفُ كيف يدخل ولا كيف

يخرجُ، ولا مَنْ يعطيه ومن يقبضُ منه، ولا يعرِفُ كيف يخاطب النَّاسَ إلا بما يخاطبهم به، ولا يحسِنُ التدبيرَ حتى في أمرٍ من الأمورِ، وَهَلْ مثلُ محمد بن كريم يكون عاملاً على الفائجةِ، فالفائجةُ بلادٌ كبيرةٌ، وبها قبائلُ كثيرةٌ، وإلى الآن ما سَلَكَهَا مَنْ قهرها، ولا دخلها من دَوَّخَهَا، ولا أعطَتْ أهلُهَا أيديهم لِلجِبَايَةِ. وَوَلَدُ كريم يَشِيرٌ بمعنى ولد صغير حيث ما مارس برهةً مِنَ الزمان، ولا جَازَ عليه شيءٌ من الحَدَثَانِ، وإصلاَحُ الرعيَّةِ بصلاح العاملِ، فالعاملُ إذا كان كيِّساً عارفاً مجربا حازما عاقلاً أَوَّلُ ما يقدِّمُهُ السياسة والتمهيد ومعرفة القبائل، وما عليه أهل البلاد التي يقدم إليها، ويتكلَّمُ مع كلِّ قبيلةٍ بما يليق به في جانبِهِمْ، ويخاطب الناس على قَدْرِ عقُولِهِمْ، وعلى ما يقتضيه الحَالُ منهم، وينظر إلى صلاح ضيْفِهِ، ولا يشتغل بالطمع ولا بالجباية إلا مِنْ بَعْدِ أن يَسْتَوْثِقَ بإصلاحِ البلاد، وبتمهيدها في المرة الأولى بكيفية إذا كان ضعيفاً سلوكها، ومعرفة أهلها والقدوم بهم على سَيِّدِهِ. وإذا أَلِفُوهُ وَأَلِفَهُمْ ورجع إليهم فيبْدَأُهُمْ بالتدريج شيئاً فشيئاً، حتى يُصَيِّرَهُمْ رعيةً ، وإذا كان قوياً وأمكنه التمهيدُ وساعده الوقت فالبلاد التي يحلُّ بها لا يَرْتَحِلُ عنها، يُدَوِّخُهَا ولا يترُكُ بها من يَرْفَعُ يَدَهُ لرَأْسِهِ، ويجتاز حينئذٍ منها إلى غيرها، فيجعل لها مثل ذلك إنْ أَحْوَجَتْ إليه، ومحمد بن كريم لا يَثِقُ بِهِ الرَّجُلُ حتى في حضَاءِ بمعنى حراسة حصَانِهِ ورعايةِ دارِهِ، فضلاً عن دخوله لبلاد الفائجة، وإسنادِ أمرها إليه، فمثله إذا دخل بلداً لاَ يَزِيدُ أهلَهَا إلاَّ جسارَةً وقسوَةً، فَهُوَ في نفسه لا يعرِفُ شيئاً.

وَزَادَ على ذلك أنه لا يأخذ كلاَمَ غَيْرِهِ، فذلك التَّمَنَارِي خديمُنَا وحيث كَلَّمَهُ وأشارَ عليه يكون عملَ بإشَارَتِهِ ورَأْيِهِ، فانظُرْ ما كتب لنا به التمناري وطالعه، وَقِسْ بِهِ قيادةَ ابنِ كريمٍ، وتأَمَّلْ هَلْ أنتَ مِنَ الرجالِ الذين يَسُوسُونَ الأقاليمَ، أو من الذين لا يحسنُونَ التدبيرَ حتى في أنفسهم، فَلِلَّهِ أَرِنِي أَيَّ مَزِيَّةٍ عَمِلْتَهَا، وأَيَّ خصلةٍ نجَّمْتَهَا، ومتى تظهر فائدَتُكَ، وعلى أَيِّ شيءٍ نَزِيدُكَ وادي درعةٍ وهي بلادٌ مستقلةٌ تحتاجُ وحدَهَا إلى قائدٍ كبيرٍ، يعمَلُ منها الجيْشَ، ويحيى منها وَاجِبَ بيتِ المال عَمَّرَهُ اللَّهُ.

وَوَلَدُ كريم يَشِيرٌ بمعنى ولد صغير حيث ما مارس برهةً مِنَ الزمان، ولا جَازَ عليه شيءٌ من الحَدَثَانِ، وإصلاَحُ الرعيَّةِ بصلاح العاملِ، فالعاملُ إذا كان كيِّساً عارفاً مجربا حازما عاقلاً أَوَّلُ ما يقدِّمُهُ السياسة والتمهيد ومعرفة القبائل، وما عليه أهل البلاد التي يقدم إليها، ويتكلَّمُ مع كلِّ قبيلةٍ بما يليق به في جانبِهِمْ، ويخاطب الناس على قَدْرِ عقُولِهِمْ، وعلى ما يقتضيه الحَالُ منهم، وينظر إلى صلاح ضيْفِهِ، ولا يشتغل بالطمع ولا بالجباية إلا مِنْ بَعْدِ أن يَسْتَوْثِقَ بإصلاحِ البلاد، وبتمهيدها في المرة الأولى بكيفية إذا كان ضعيفاً سلوكها، ومعرفة أهلها والقدوم بهم على سَيِّدِهِ.

وإذا أَلِفُوهُ وَأَلِفَهُمْ ورجع إليهم فيبْدَأُهُمْ بالتدريج شيئاً فشيئاً، حتى يُصَيِّرَهُمْ رعيةً ، وإذا كان قوياً وأمكنه التمهيدُ وساعده الوقت فالبلاد التي يحلُّ بها لا يَرْتَحِلُ عنها، يُدَوِّخُهَا ولا يترُكُ بها من يَرْفَعُ يَدَهُ لرَأْسِهِ، ويجتاز حينئذٍ منها إلى غيرها، فيجعل لها مثل ذلك إنْ أَحْوَجَتْ إليه، ومحمد بن كريم لا يَثِقُ بِهِ الرَّجُلُ

حتى في حضَاءِ بمعنى حراسة حصَانِهِ ورعايةِ دارِهِ، فضلاً عن دخوله لبلاد الفائجة، وإسنادِ أمرها إليه، فمثله إذا دخل بلداً لاَ يَزِيدُ أهلَهَا إلاَّ جسارَةً وقسوَةً، فَهُوَ في نفسه لا يعرِفُ شيئاً.

وَزَادَ على ذلك أنه لا يأخذ كلاَمَ غَيْرِهِ، فذلك التَّمَنَارِي خديمُنَا وحيث كَلَّمَهُ وأشارَ عليه يكون عملَ بإشَارَتِهِ ورَأْيِهِ، فانظُرْ ما كتب لنا به التمناري وطالعه، وَقِسْ بِهِ قيادةَ ابنِ كريمٍ، وتأَمَّلْ هَلْ أنتَ مِنَ الرجالِ الذين يَسُوسُونَ الأقاليمَ، أو من الذين لا يحسنُونَ التدبيرَ حتى في أنفسهم، فَلِلَّهِ أَرِنِي أيَّ مَزِيَّةٍ عَمِلْتَهَا، وأَيَّ خصلةٍ نجَّمْتَهَا، ومتى تظهر فائدَتُكَ، وعلى أَيِّ شيءٍ نَزِيدُكَ وادي درعةٍ وهي بلادٌ مستقلةٌ تحتاجُ وحدَهَا إلى قائدٍ كبيرٍ، يعمَلُ منها الجيْشَ، ويحيى منها وَاجِبَ بيتِ المال عَمَّرَهُ اللَّهُ.

فنحن ما أعطيناكَ درعةَ تجلِسُ في تافيلالت، وَتُوَجِّهُ إليها من أولئك الأوباشِ الذين معك من يَنْتِفُهَا، عشرَةً يأكلُهَا لنفسهِ وواحدةً يأتيكَ بِهَا، ولا تسأله كَمْ قبض وَلاَ ما عمل، فما أعطينَاهَا لك إلا أننا ظَنَنَّا أنها إذا كانت في يَدِكَ تَسْتَحِي على نَفْسِكَ، وتقول : إن صاحبَ ولايةِ هذا البَلَدِ لاَ يُحْمَلُ به الإقتصَارُ عليها ولا مراعَاةُ دَاخِلِهَا وخارِجِهَا، وقد جاءت واسطة لجميعِ هذه الفَوَائِجِ المواليَةِ لها، وجميعُ من كانت يده عليها كان أهل هذه الفوائج في يده يتصَرَّفُ فيهِمْ كَيْفَ أحبَّ، تُحَدِّثُ نفسَكَ بهذا وَتَهْتَمُّ بِهِ وَتَعْمَلُهُ.

فبالأمسِ كان بتافيلالت عمُّكَ الذي كانت له هِمَّةُ الملوكِ، وفيه نَخْوَةُ الشَّرَفِ، اتَّكَلَ على الله سبحانه وقام لهذا الأمرِ بنفسِهِ، واشتغل يجْمَعُ عليهِ الرِّجَالَ

ويخَاطِرُ وَيَتَرَامَى على الحصونِ ويقتَحِمُ الأمورَ العظامَ، وَيُوَالِي على أصحابِ بُودْمِيعَةَ الحروبَ، ويقاتلهم على قِلَّةٍ من كان معه، إلى أن أخرجهم من تافيلالت، وناهضهم في درعةٍ حتى استَقَلَّ بهما معاً لنفسِهِ، وكانت البلادُ إذ ذاك عامرةً، وقبائلها وافرةً متكاثرةً، وكان أَهْلُ الفائجة على ما هم عليه من الصِّحَّةِ لا يأتي أحدٌ منهم لدرعةَ إلا بِمَطْلَبٍ في يدِهِ، والزيني يعد بعشرةِ آلاف رَامٍ، والزانيفي يجمع عليه أزيد من عشرين ألفاً.

وكانوا كلُّهُمْ يخافُونَهُ ويعملونَ بحسَابِهِ وَيُدَارُونَهُ، وسقى كلَّ واحدٍ منْهُمُ الحَنْظَلَ، وأقعَدَ كلَّ كلبٍ عنْدَ رَأْسِهِ، وتماطى لكل بلَدٍ، والعربُ على بُعْدِ مواطنها، وكثرة عدَدِهَا وقوَّةِ عدَّتِهَا، كان لا يثني دون حللهم عناناً، ولاَ يَهَابُ بلداً ولا أوطاناً، ويغزوهم في مرَابِعِهِمْ ومشتَاهُمْ ومصائفِهِمْ في الحرّش والقَرِّ، حتى أخافهم ودوخهم، وأتوه ما بين راغبٍ وراهبٍ، وعمل في تلك البلاد الَّتِي أَنْتَ بِهَا الجَيْشَ والعَيْشَ، وعملَ بيت المال، وكسب أحرَارَ الخيلِ، وادَّخَرَ الذخائرَ النفيسة، وجُلِبَتْ إليه الحوائج المثمنة، وبَنَى وصنعَ مآثراً يَعْجِزُ عنها كبارُ الملوك، فإن كنت لم تعرف ذلك فَسَلْ عنه من يُخْبِرُكَ، فهنالك كثيرٌ ممَّن شَاهَدَ ذلك.

وابْنُ عَمِّكَ أحمد بْنُ محرزٍ دخل درعةَ وهو خائفٌ منَّا، متوَجِّسٌ لأخبارنا، فما مكث بها شيئاً ما حتى استخْدَمَ منها التَّغَازَى، وتوَصَّلَ منها للفَائِجَةِ ولسوسٍ ولغير ذلك، مع هروبه منَّا وكثرة مراعاته لنا، فَأَيُّ شيءٍ عَمِلْتَهُ أَنْتَ وقدْ جَمَعْنَا لك تافيلالت وفوائجها وأعرابها، ودرْعَةَ وعربها وبربرها، وتوات وتكررين، وأَطْلَقْنَا لَكَ يَدَكَ في كلِّ تلكَ الجهة.

وأَيّ مزيةٍ نراعيكَ لأجلِهَا مع كَوْنِ والدِكَ في أكتَافِكَ، وعليه من فضلِ اللهِ ما لا ينكره أحدٌ، والوقتُ والحمدُ لله مساعدٌ، وكلُّ من تَحَرَّكَ في مسألةٍ يُزَيِّنُ اللهُ عليهِ فيهَا، فحيثُ رأيتَنَا أعطيناك بلادَ درعةٍ تكُونُ أتيتَنَا وبدَأْتَنَا بالكلامِ وتشَاوِرُنَا على بلادِ الفائجة، وعلى ذلك المَشْمَسِ وَتسْرِيرتْ وغيرها من تلك الجهة.

وتتكلم معنا فيما يخُصُّكَ وتقُولُ لَنَا : إن تلك البلادَ التي وَلَّيْتَنِي هيَ مواليةٌ لبلدان من عمالتها، ووَاجِبُ بيتِ المالِ عمَّرَهُ اللهُ ضائعٌ فيهَا، وأكثرُ أهلِهَا لا تجري عليهم الأحكامُ الشرعية، وقد أحببت أَنْ نَتَّكِلَ على اللهِ ونجمَعَ على عربِ الصحراءِ كُلِّهَا وأهل الفائجة ومن وَالاَنِي من البَرْبَرِ، ونجعل محلةً كبيرةً، ونتوجه بها لذلك المَشْمَسِ ولتلك الفائجَةِ، ومن هنالك يظْهَرُ لنا الحَالُ في بلدِ تَسْرِيرتْ، وتطلُبُ منَّا الإِذْنَ في ذلك، وتقول : يخُصُّنِي كذا وكذا، وتقول لنا : إن درعةَ في يدنا ومنها إن شاء الله أقوَاتُنَا، وتسَهِّلُ عَلَيَّ بلسانك أَمْرَ تلك البلاد.

فإذا كلمتَنَا بهذا الكلام، وأظهرت لنا الرغبةَ فيهِ نعتقدُ فيك الخيرَ والعمارة، ونعرِفُ أنَّكَ رجلٌ وأنك بلغْتَ مبلغَ الرجالِ، وأن نفسك تَاقَتْ بك إلى المسائلِ الكبارِ التي نريدُهَا منك، ونعطيك كل ما تحتاج إليه من الخيلِ والرماةِ والأخبيةِ وَالزَّمْلِ، ونأمرُ العربَ يحملُونَ لك هرى دبدو وهرى زا ، ونجمعُ عليكَ محلةً نَثِقُ إن شاءَ اللهُ بظفَرِهَا وتأييدها، فكان من حقك أن تكونَ هكذا، فإذا بِكَ بعيدٌ من هذا كُلِّهِ، باردُ الطبعِ، ضعيفُ الرأْيِّ، بطيءُ الحركةِ، ثقيلُ النهضَةِ، خامدُ القريحَةِ، لا تلتَفِتُ إلى شيءٍ من ذلك، ولا تسقط على ظِلِّكَ، ولا تحقر إلا ما تحت يدك.

فَحَتَّى البلاد التي أنت بها ما أحسنت فيها سيرةً، ولا أحكمتَ فيها تدبيراً، ولا ضبطتَ فيها صاحباً، أنت تَنْهَبُ فِيهَا من جهَةٍ، وأصحَابُكَ يَنْتِفُونَ من آخرى، وكلُّ واحدٍ يعملُ ما أَحَبَّ، فأَقَلُّ شيءٍ الذميونَ يجتمِعُونَ من غريسٍ وفركلةَ ومذغرةَ ويأْتُونَ إلينا شَاكِينَ بِكَ، وبما يجري عليهم من جانبِكَ، فتباركَ الله، فيهُودُ مدغرة حيثُ كان بها أَخُوكَ نقُولُ : إنَّنَا لَمْ نُكَلِّفْكَ بهِمْ، ويهودُ غريسٍ وفركلةَ، فَمَا تقُولُ في شكَايتِهِمْ، وكيفَ تعتذرُ عنهم، ولو عرفوا أنك تنْصُتُ إلَيْهِمْ وترْفَعُ الضَّرَرَ عنهم أَتَرَاهُمْ يَضْرِبُونَ عنكَ ويأتُونَ إلينَا من تلك البلاد إلى هذه.

وَلَكِنْ مَنْ يَتَسَاقَطُ على قتلِ اليهودِ من غَيْرِ موجبٍ شرعيٍّ لا يكون إلاَّ كذلك، فَمِنَ اليوم الذي قتلت ذلك اليهودي عرفتُ أَنَّكَ ساقطُ المروءَةِ، ليستْ لك همةٌ، وهل اليهود الذين يكونون تحت الذمة يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، فالرجلُ لاَ يَرْضَى بقتْلِ مَنْ لاَ مزيةَ في قتله، ولا أجرَ في مودته، واليهودُ في الذمة لا يَحِلُّ قتلُهُمْ ولا نهْبُ أموَالِهِمْ، ولا يقتَلُ منهم إلَّا من قتَلَهُ الشرعُ، ولا تُؤْكَلُ أموالُهُمْ إلا بموجبها، فأنت الذي تُزَاحِمُ اليهودَ لا تحسنُ تدبيرَ المملكة ولا ضَبْطَهَا، ولا تعرف ما تقبض ولا ما تعطي، وليستْ فيك قابليةٌ للتصرُّفِ الذي نريدُهُ منك، وقد اختبرنَاكَ المرَّةَ بعد المرَّةِ، وكاتبناكَ وخاطبناكَ وهددناكَ ووبخناكَ وأنذرناكَ وحذرناكَ ونبهناكَ وأرشدناكَ وكلمناكَ مشافهةً منَّا إليك، وفي كل مرةٍ ومع كلِّ رسولٍ، وفي كل كتابٍ وعلى كل خصومةٍ، نقول : إنكَ تَقْلَعُ عمَّا أنتَ عليه، وتنبذُ ما لا يَعْنِيكَ وراء ظهرك، وتشمِّرُ أذيالَ رخوتك، وتقف على قدم اعتنائك، وتحتَزِمُ لِمَا أنت بصدده، وتشتغل بالجدِّ، فمَا رأينَا فِيكَ شيئاً من ذلك، فكُلُّ مسألةٍ إذا بحثْنَا

عنْكَ فيها نَجِدُكَ بعِيدَ المعنى منها، واللَّهِ قَطُّ ما كَانَتْ مسائلُكَ تُشْفِي لنا الغليلَ في أحكامٍ ولاَ في تصرُّفٍ، ولا في ضبطٍ ولا في سدادٍ، ولا في رأيٍّ ولا في جمعٍ ولا في منعٍ.

وهذه مسائلُ الدِّينِ وأمورُ المسلمين قلَّدَهَا الله لنا فضلاً منه وامتناناً، والله حتى أَعُضَّ عليها بنَوَاجِدِي، ولا وَلَّيْتُ أحداً منها شيئاً إلا الذي يُعِينُنَا على حَقٍّ من حقوقِ الله، ويقوم لنا بوظيفٍ كبيرٍ نَثِقُ به فيه، وأما أنت وأشبَاهُكَ الذين يركنُونَ إلى الراحات، ويغتنمون ظِلَّ الجُدُرَاتِ، ويؤثرون البطالاتِ، ويختارون على حَقِّ الله محَادَثَةَ النِّسَاءِ والإستمتَاعَ بكثرةِ التزويجِ، ويفضلونَ على تمْهِيدِ الأَقَالِيمِ وتدويخِ البلدانِ وجَوْفِ المفاوِزِ المَآكِلَ والمشاربَ، فمثلُ هؤلاء لا يُلاَئِمُونَنَا ولا نلائمُهُمْ بين الساسة والسهولة، وبين الشجاعة والسياسة، وبين الفتك والحلم، وبين السبط والربط، ويكونُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ خَيِّراً ديناً تقياً نقياً، لا تاخذه في الله لومة لائم، يستعمل كُلَّ خصلةٍ في موضعِهَا، وتكون له نفسٌ أَبِيَّةٌ تَتَنَاحَى به عن سفاسفِ الأمورِ، ويكون نبيهاً يقظاناً بحاثاً، تُتَّقَى سُطْوَتُهُ، وتُعْرَفُ أمانَتُهُ، ولا يكون كالبازي العشي يُرَاعِي ما يتسَاقَطُ عليْهِ وَهُوَ في عُشِّهِ.

فإذا ظفِرَتْ يَدِي بِمَنْ نَعْرِفُ فيهِ ما ذكرتُ لكَ فَإِنِّي أَشُدُّ عليهِ خَنَاصِرِي، ونحب مشاركته في هذا الأجرِ الذي هو مرَادُنَا ومقصودنا من الله سبحانه، سواء كان مِنْ أولادنا أو من غيرهم، إِذِ النَّاسُ كلُّهُمْ عندنا في حق الله سبحانه سواء، لا يتفاضلون إلا بالعاميةِ، ولا يتقربون إلينا إلا بالخصالِ الحميدةِ، وأمورُ المسلمين لا خصوصيَةَ فيها لأولادِنَا ولا لغيرهم.

وأنت إذَا بَقِيتَ عَلَى تلكَ الحالةِ الَّتِي نَرَاكَ عليها فَمَا أَظُنُّكَ تُنَجِّمُ شيئاً، فتلك الفائجة وذلكَ المَشْمَسُ الذي توجه إليها ابنَ كريمٍ ويرْجِعُ منْهَا بلاَ فائدةٍ، ويكتب لنا به التَّمَنَارِي، ولو كُنْتَ حيث أعدَدْنَا كلما تحتاجه من الجيشِ وَالزَّمْلِ والميرَةِ، وكاتبناكَ تأْتِينَا أَتَيْتَنَا وأظهرتَ لنا الرغبةَ فيها، وجعلنَا عليكَ محلَّةً، واتكلت على الله وتوجهت إليها في حفظه وأمانهِ، ودخلتَهَا وفُزْتَ بمزيتِهَا، وربحتَ أجرها، فحينئذٍ لا نتكلم فيها مع التَّمَنَارِي ولا مع غيره، واللَّهِ حَتَّى تكونَ اغتنَمْتَ مزيتَهَا، وحظيْتَ منَّا بدعوةٍ صالحةٍ، ونعتقدُ فيك الخيرَ، ونثق بِمَحَالٍّ (بمعنى أراضي وديار) المسلمين نُوَجِّهُهَا في يدك.

وتلك البَلَدُ لنا إليها تشوفٌ كبيرٌ، سيما حيث توجه إليها موسى المانوكي بمحلَةٍ، ولا أحسَنَ فيهَا تدبيراً، ولا عرف كيف يبدَأُهَا، ولاَ مِنْ أَيْنَ يَأْكُلُهَا، وقَلَّتْ عليهِ الأقواتُ، ورجع منها ولم يجِدْ شيئاً، فمن ذلك الوقتِ نَنْظُرُ مَنْ يكفينَا أمرَهَا، وقلنا هذه النتيجَةُ نعملُهَا في الناسِ، فأولاَدُنَا أَوْلَى بها، وأنتَ جَاءَتْ مواليةً لك، ولا تكره فضيلةً ومزيةً تزيدُ عليك، ولا ندري ما الذي أَخَّرَكَ عنهَا، وأَقْعَدَ بكَ دونها، أَمِنْ بُرُودَةِ طبعك وقلة اهتمامك بالمكارم والمآثر، أَمْ كبر البلادِ عليك.

فإن كان من رُكُونِكَ للراحةِ فليس الرأْيُ رَأْيُكَ، وإن كان من كبر البلاد عليك فتلك البلادُ أسهلُ من كلِّ شيءٍ، والله ما مقبوضٌ تمهيدُهَا مع قدرةِ اللهِ سبحانه إلا في رجلٍ عارفٍ يحْمِلُ إليهَا الأقوَاتَ، ويدخلُهَا بمحلَّةٍ، فمَنِ استحَقَّ السياسةَ يُسَايِسُهُ، وَمَنِ استحقَّ العقوبةَ يَسْتَأْصِلُهُ، فعبدُ الملكِ الخطيب في سُوسٍ هذه مدة منذ خلَّفْنَاهُ هنالك ما أقام بداره، ولا عرف ما يلتَذُّ به، ويظَلُّ على جَسَامَةِ بدنهِ

طالعاً نازلاً في الجبالِ على بغلَةٍ، يقتحِمُ الحروبَ، ويباشرُهَا بنفسِهِ، ويخُوضُ غمَارَهَا، ولا يقنَعُ يجتَازُ بأحدٍ فيها.

فَكَمْ وَكَمْ من قبيلةٍ أَبَادَ خضرَاءَهَا، وَكَمْ وَكَمْ من ملحمةٍ عَمِلَ في رؤوسِ الجبالِ وقعُورِ الشعاب، مع أن سوس فيها من القبائل الكبار التي تُعَدُّ ألوفا، وقبيلة هشتوكة وهيلالة هُمَا عمدَةُ قبائلِ سوس، أبادَهُمَا وأجلاَهُمَا واستَأْصلَهُمَا، إلا من منع منهم ودخل تحت كَنَفِهِ من هشتوكة، وأما هيلالة فقَدْ كَادَ أَنْ يَأْتِيَ عليهم، وما كان السبب فيمن بقي له من القبائل إلا قلة الأقوات، واللَّهِ لو وَجَدَ القُوتَ حتى يسلك جميع بلادِ الفائجة وهو راكبٌ على بغلتِهِ، ولا نحتاجُ مَعَهُ لَكَ ولا لغيرِكَ،

وبالجملةِ فأنت ما شَفَيْتَ لنا غليلاً في تلك البلادِ، ولا في أحكامها، ولا في رعايتِهَا، ولا في ضبطِهَا، ولا رأينَاكَ تَرْجِعُ إلاَّ على مَا في يَدِكَ، ولا تتشوَّفُ لمثلِ هذه الأمور التي نريدُهَا منك، ونحنُ واللَّهِ لا صبرْنَا لكَ في ذلك، واللَّهِ لا صبرنا لك في ذلك، والله لا صبرنا لك في ذلك، نُعْطِيكَ إقليماً وَحْدَكَ وَلاَ تَعْمَلُ به مزيةً دنيويةً ولا أخرويةً.

أَقْرَبُ شيءٍ يموت ابنُ عمك الهاشمي ولا تعلمنا به، وهل عندنا أقربُ من أولئك اليَشَاشِرَةِ، فما عندنا أقربُ منهم، وَكَمْ وَكَمْ من مسألةٍ أنكَرْنَاهَا عليكَ فما رأينَا منك إقلاعاً عَنْهَا، ولا أنك إذا نهينَاكَ عن مسألةٍ تَنْتَبِهُ أَنْتَ لغيرِهَا، ولا تحوج نفسك إلى أن نخاصمك عليها، وأنتَ اليومَ بمتَاعِكَ وبمَالِكَ، فَإِنْ عرفتَ مِنْ نفسِكَ أنك لا تُنَجِّمُ شيئاً فاشتغِلْ ببنَاءِ دارٍ بين إخوتك وأقاربك وارْتَحِلْ إليها، أو

ارتحل لتزيمِي إِنْ أحببتها، وَنَنْظُرُ من يكفينَا مع الله تعالى أمر تلك البلاد وغيرها إن شاء الله.

وهذه المكاتبُ والتوبيخَاتُ في كل مرةٍ أَعْيَتْنَا، وهذه البراوةُ لا نكتب لك بعدَهَا مع صحةٍ وعافيةٍ إن شاء الله إلاَّ إذا رأينَا منك الجدِّ الذي تطمئِنُّ به نفُوسُنَا، وعملتَ ما يُرَادُ منْكَ، وأهلُ الذمةِ الذين بالفائجَةِ وغيرهم رفعْنَا عنهُمْ يدَكَ وَيَدَ غيرك، وكلامهم مع ولد ميمران، وَمِنْهُ إِلَيْنَا، وقد نصحنَاكَ مِنْ سَنَتِكَ وأنت غافلٌ غافلٌ غافلٌ، باردٌ باردٌ باردٌ.

وما قُلْتُ فيكَ إلا حقّاً، فاستَمِعْ ما خاطبنَاكَ به إن كانتْ لك بنفسِكَ حاجةً، وهذا ما نخاطبك به والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، نسأله سبحانه أن يبلغ آمالنا، ويصفي بمنه وكرمه أحوالنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو على ما نقول وكيل.

وأزيدك واحدةً وهي أنك تَحْسِبُ نَفْسَكَ على شيءٍ، وأنك نَجَّمْتَ شيئاً، أو اسْتَحَقَّيْتَ أكلَ أدنى شيءٍ، واللَّهِ ما تستَحِقُّ أنتَ وَمَنْ معك طرفاً، وهل دخلتَ بلاداً جَدِيدَةً مهدتهَا وزدتهَا، أو سَايَسْتَ ببراوَاتِكَ إقليماً آخرا وأضفتَهُ إلى ما أعطينَاكَ، فما أنتَ تَأْكُلُهُ أنتَ ولا أصحَابُكَ إلاَّ من الذين دوخهُمْ فضْلُ اللهِ، وأردعهم حَقُّ اللهِ، واللَّهِ ما أراكَ تَأْمَنُ عَلَى نفسِكَ مِنِّي، هَاهْ هَاهْ هَاهْ، اعرِفْ ما كُنَّا نُمْلِيهِ عليكَ وَافْهَمْهُ وإلا فَحَاوِلْ عَلَى نَفْسِكَ، انتهى.

الرسالة: 4

ولدُنَا المَامُون أصلَحَكَ اللَّهُ، سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد : فاعلم أن هذه الأمورَ التي قلَّدَنَا الله سبحانه حكمتَهَا، وطوَّقَنَا بالفضل منه نعمتَهَا، وأظهر علينا خيرها وبركتها، هي أمورٌ دينيةٌ كبيرةٌ، مقدارُهَا عند الله عظيمٌ، ونفعها لديه في الدارين عميمٌ، فيجبُ على كلِّ من ولاَّهُ اللَّهُ على أيدينَا منْهَا شيئاً أن يقدِّرَهَا قدْرَهَا، ويعمل لها شروُطَهَا، ويعرف حقَّهَا ومنصبِهَا، ويحتَزِمَ لَهَا، ويشُدَّ بخَنَاصرِهِ، ويعُضَّ بنواجدِهِ عليها، ويكون مباركاً حازما، ضابطا عارفاً، نبيلا حاذقا، فهما ماهرا، مُسَايساً كيساً، عاقلا صبورا، شجاعا جواداً، ويستعمل كلَّ خصلةٍ في موضعهِا، ويجعل كلَّ فائدةٍ في مرتبتهِا ومحلهِا، وتلك البلادُ التي جعلَهَا الله إلى نظرِكَ هِيَ بلادٌ كبيرةٌ، وفيها مرافق ومنافع كثيرة، جمعت ما يكون في البلاد، وخصها الله سبحانه بمسائل ومصالح زائدةٍ، لا توجدُ إلا بها، وقد كانت في القديم لهذه الأقطار المغربية دَارَ إِمَارَتِهَا، ومركزَ رايتِهَا، وبها كانتْ تُذْكَرُ، وإليها كان يُشَارُ، وإذا جمعت إليها فوائجها وعمالتها فقد اجتمع لصاحبِهَا خيرٌ كثيرٌ، وأجرٌ كبيرٌ، وأنتَ اخترنَاكَ لولايةِ تلكَ البلادِ من بين إخوَتِكَ، وجمعنا لك جميعَ جهاتها، وأضفنا إليك ما هو خارجٌ عنها وغيْرُ محسوبٍ من عمالتِهَا، ظَنّاً منا أنك تكفينَا مع توفيقِ الله سبحانه أمرَهَا، وتضبطها وتعرف كيف تعطي وتمنع، وكيف تنفق وتجمع، ويكون تصرفُكَ على نهجٍ قويمٍ، وتكون لك نفسٌ كبيرةٌ، وهمةٌ عالية، تستَشْرِفُ بِكَ للمُهِمَّاتِ، وتطمَحُ بك للأمورِ الأكيدَةِ، بحيث إذا تكلمتَ تعرِفُ

كيفَ تتكلم، وإذا انصرفتَ تعرف كيف تتصرف، وإذا خاطبتَ تعرف كيف تُخَاطِبُ، وإذا ضربتَ تعرف كيف تَضْرِبُ، وإذا أعطيت تعرف كيف تُعْطِي، وتُظْهِرُ لنا نجدتَكَ وفائدتكَ، وأنت لَمْ تُعْجِبْنَا في هذِهِ السَّاعَةِ أكثَرُ أحوالِكَ وغالبُ تصرفاتك وَشُورِكَ، فقد جربنَا هذه الأمور ومارسنَاهَا، وَبَلَوْنَا الرجالَ واختبَرْنَاهَا، وعرفنا أهلَ الجدِّ من غيرهم، ولا يخفى علينا بفضلِ الله سبحانه شيءٌ، والعقلاءُ من الناس كلهم يعرفونَ الجدَّ وغيرَهُ، ويُمَيِّزُونَ السقيمَ من الصحيح، وأهل الفائدة ممن عداهم، حتى أن الرجلَ إذا كان سائماً عائماً بنفس ما يدخل الوادي والنهر ويخبل يديه ورجليه يَظْهَرُ حَالُهُ إِذَا كانَ عارفاً ماهراً يَعْرِفُونَهُ، وإذا كان غيْرَ عارفٍ يعرفونه، ولا يخفى عليهم، وأنتَ هذَا العَوْمُ الذي رأيناكَ تَعُومُهُ في تصرُّفَاتِ ولايتِكَ مَا أَعْجَبَنَا، ولا نقبلُ منك ذاك، فحتى براوَةٌ تكتبُهَا إلينا ما نَجَّمْتَهَا ولا قَعَدْتَ إليها وعَرَفْتَ مَا تَكْتُبُ فيها، فقد أتَانَا كتابُك الذي أخبر مع علمِكَ بأن أولئك العرب الذين توجهوا للغَزْيِّ كثيراً ما أَكَّدْنَا عليهم وحرضنَاهُمْ وتوعدْنَاهُمْ، وكتبنا لك بذلك، وهذه مدة وَهُمْ غائبونَ، ونحن نتشوفُ إليهم، ونسأل عن أخبارهم، وأولئك الأبَالِيسُ أولاد ادليم قبيلةٌ كبيرةٌ، تشتمل على أفخادٍ وشعبٍ كثيرةٍ، وفيهم أولاد سنان وأولاد معدن، وبينهم منازعةٌ ومباينَةٌ، وتارةً يكُونُ بعضُهُمْ قريباً من البعضِ في البلادِ، وتارةً يكونونَ بُعَدَاءَ، وتارةً يكونون مجتمعين، وتارة يكونون مفترقين، وما عرفنا هذا الغَزْيَ جَاءَ فيهِمْ كلِّهِمْ أَوْ جَاءَ في بعضٍ دون بعضٍ، فحيثُ وَرَدَتْ عليك رَقَاقِيصُ العربِ وسفراؤُهُمْ يبشرُونَكَ تكونُ جلستَ إليهم واشتغلت تسألهُمْ عن الذين جاء فيهم هذا الغَزْيُ فخداً فخداً، حتى تعرفَ

مَنْ أُخِذَ مِنْهُمْ وَمَنْ تَفَلَّتَ وتسألهم كَمْ ماتَ منهم، وهل قاتلوا دُونَ مَالِهِمْ، وكيف كان قتَالُهُمْ، وكم عِدَّتُهُمْ، وفي أَيِّ بلدٍ وجدُوهُمْ، وأينَ ذَهَبَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، وفي أَيِّ البلادِ ترَكُوهُمْ، وهل وجدوا أحداً مع أولاد ادليم مِنْ غيرِهِمْ نازلاً معهم، وتسأَلْ عن عَرَبِكَ الذين تَوَجَّهُوا من عندك، وعن وجوههم وأعيانهم، وهل مات لهم أَحَدٌ وَجُرِحَ منهم أحدٌ، وإذا سألتهم عن هذه المسائلِ وأشبَاهِهَا وحصَّلْتَ خبرهَا تُجَلِّسُ كاتبَكَ وَتَجْلِسُ قُدَّامَهُ وتشتغل تَمْلِي عليه جميعَ ما حصلَ عندكَ من الخبر، وإذا كَتَبَ براوتكَ يقرؤها عليك حرفاً حرفاً، حتى تعرِفَ ما كَتَبْتَ فيهَا، فإذا استكْمَلَ غرضكَ وأعجَبَتْكَ فحينئذٍ تختمها وتعلمهَا، وتُوَجِّهُ بها إلينا، فإذا وصلتنَا وقرأناهَا نستفيدُ منها جميعَ ما نَتَشَوَّفُ إليهِ من الخبرِ، وتطمئن نفوسُنَا بك وبخبرِكَ، ولا نسأل أحداً بعد مطالعَتِهَا على كتابك، ونستَدِلُّ ببراوتِكَ حينئذٍ على علُوِّ همتك ووُفُورِ عقلك، وأما براوتُكَ هَذهِ فَهِيَ براوَةُ عَامِّي لاَ يَعْرِفُ شيئاً ولا يَفْقَهُهُ، ولا يكتبها رئيسٌ ولا ذو ولايةٍ، أَوَ مَا عَلِمْتَ أنَّ براوةَ الرجلِ هِيَ عنوانُ عَقْلِه، ومنها يُخْتَبَرُ، فمِنْ براوَتِكَ هذهِ يستَدَلُّ على قِلَّةِ اعتنَائِكَ وعدَمِ تفرُّسِكَ في الرياسة، واستشرافك للأمور الكبيرة، وهي أقوى دليلٍ وشاهدٍ على عدم تَبَصُّرِكَ وقلَّةِ حيلتك، فانتبه لهذه المسائلِ التي كُنَّا نُنْكِرُهَا عليكَ، وَقِسْ عليها نظائرها، فإنك واحدٌ من أولادنا، ولا نختارُكَ عليهم إلا إذا جعَلَ اللهُ فيك من النجدَةِ والفائدة ما نرَاهُ زائداً على مَا هُوَ فيهِمْ، وأولادنا وغيرهم في حق الله سواءٌ، وقد كُنَّا كتبنا إليك قبل هذا بيومينِ كتاباً وجهناه إليك صحبةَ خديمنا دحمان غرنيط، فإذا وَصَلَكَ في حفظِ الله فاقرأه حرفاً حرفاً، وتعرفه فصلاً فصلاً، وَشُدَّ يدَكَ عليه،

واعمل بما فيه تربح وتسعد إن شاء الله، وخديمنا الشيخ محمد بن أبي بكر الدليمي السناني اليعلاوي هو من كبارِ أولاد ادليم، ومن خيَارِ إخْوَتهِ أولاد سنان، ودائماً يتعاهد بساطنا المبارك، ويتردد إلينا هُوَ ووالدُهُ قَبْلَهُ على عادةِ وُجُوهِ العربِ وكبارِهَا وأعيَانِهَا وساداتها في القديم وفي الحديث، ورأينا فيه من المحبَّةِ لنا وَالمَيْلِ لجنابنا ما لم نَرَاهُ في غيرِهِ، وفي هذه المرَّةِ بنفسِهَا ما انفصل عن قبيلَتِهِ حتَّى سَمِعَ بخبَرِ غَزْيٍّ أولئك العربِ قاصدينَ لإخْوَتِهِ، فما ساءت ظنُونُهُ ولا أَنْذَرَ أهلَهُ، ولا حذَّرَهُمْ، ولا وجَّهَ إليهم حتى بطرفٍ من الخبَرِ، وَعَمِلَ رجاءَهُ في الله وَفِينَا، وأتانَا ومكث في بساطنا ما شاء الله منذ ذلك الغَزْيِّ، وهو عندنا وأهله وإخوته أولاد يعلى جاءوا في النزلة في مضان الأَخْذِ، وهم من جملةِ أولاد سنان، ونحن كنا اتفقنا مع أولئك العرب على أن هذا الرجلَ وإخوَتَهُ لاَ مَدْخَلَ لَهُمْ مع أولاد سنان، ولا يُوخَذُ لهم مَالٌ، وعلى هذا الوجه أوصيناهم، ويكفينا من هذا الرجلِ بقاؤُهُ على عهده حتى أنه ثلاثة أيامٍ أو أربعةٍ وهو يدور على خديمنا عبيد بن إبراهيم بهديَّتِهِ، وحيث وصلنا عَبِيدُ أَعَادَ علينَا ذلك، فإذا وصلتك أولئك العرب الذين كانوا في ذلك الغَزْيِّ فتلقَاهُمْ وافرَحْ بِهِمْ، وابسط لهم لسانك، وقابلهم بالبشرِ والترحيبِ، وأظهِرْ لهم البشاشةَ، واعقد لكبرائهم مجلساً كبيراً، وَأَطِلْ معهم الكلاَمَ، وَحَسِّنْ لهم غَزِيَّهُمْ، وعرفهم بمزيتِهِ، وجازيهم خيراً عليه، وحَمِّدْهُمْ بالسلامةِ، وإذا استكمَلْتَ غرضكَ معهم في السؤالِ والملاقاة، فَقُلْ : إن خديمنا الشيخ محمد بن أبي بكر الدليمي السناني اليعلاوي هو أحد أعيان أولاد ادليم، ومن أهلِ المحبةِ في جَانِبِنَا، ودائماً يتردد إلى بساط والدنا نصره الله، هو وَوَالِدُهُ

قَبْلَهُ، وفي هذه المرَّةِ بنفسها سَمِعَ خبرَكُمْ قاصدِينَ أهلَهُ بنفسِ ما خرج من عندهم، فمَا ثَنَاهُ خبرُكُمْ ولا أنذَرَ أهلَهُ ولا حذَّرَهُمْ ولا وَجَّهَ أمامَكُمْ خبراً بكم، واستَمَرَّ على حالهِ لوالدنا نصره الله.

وقد كانَ أوصَاكُمْ عليه وعلى إخوَتهِ، واتفق معكم على أنكم لا تَقْرَبُونَهُمْ، وهذا المالُ الذي أتيتم به سَمَحَ لَكُمْ فيه وعاونكم على أرواحكم، فكل ما أتيتم به من الإبل والغنم والبقر وحتى العَوْدَاتُ، وإن ذكر له البعض في مجلسه سمح لكم فيها، وَمَالُ هذا الرَّجُلِ وَمَالُ إخوَتهِ يجمعُونَهُ لَهُ ولا يبقى عندكم منه قليلٌ ولا كثيرٌ، واحسبوا ذلك في الخُمُسِ الذي تخرجُونَهُ لبيتِ المال عمَّرَهُ الله.

واجْمَعْ مَالَ هذا الرجلِ وَمَالَ إخوَتهِ، واجعله تحت يدك محضياً،وبينما تجمعهُ يَرِدُ عليك إنْ شاءَ اللَّهُ فيجدُ مالَهُ عندك محضراً ميسراً، ويتوجَّهُ معك إن شاء الله في تلك الحركة التي أمرناك بها لِتَاسْرِيرتْ، وهو أميرُ محلتك، وعلى يده تجبر قبيلةَ أولاد ادليم بحول الله، لأنَّ العرب عندنا نحبُّهُمْ ولا نُسَوِّطُهُمْ إلاَّ على حَقِّ الله، نريدُ أن يعرفُوهُ وتجتمعَ كلمتُهُمْ عليهِ، فاللَّهَ اللَّهَ في مالِ هذا الرجلِ وفيه إذا وَصَلَكَ، وأولئك العرب ما ضيقنا عليهم في كل شيءٍ من كل ما أَتَوْا به إلاَّ مَالَ هذا الرجلِ وإخوَتهِ الذين اتفقنَا معهم عليه، وَالعَبْدُ وَالخَادِمُ هُوَ لَنَا، فكُلُّ مَا أَتَوْا بِهِ مِنَ العبيدِ صغاراً وكباراً ذكوراً وإناثاً اقبضْهُ منْهُمْ، ولا تسمَحْ في شيءٍ من الرقيقِ، وَبَرِّحْ عليهِمْ بالبَرِيحِ كُلُّ من ظَهَرَ عليهِ عبدٌ أو خادمٌ دَسَّهُ عنكَ واطلعتَ عليهِ يُؤْخَذُ مَالُهُ ويخَافُ على نفْسِهِ، وذلك الرجلُ الذي عندكَ خديمنا الشيخ يعيش بن زيدان البربوشي وَرَدَ علينَا وتعاهدنا وَتَرَدَّدَ إلينا هذه مرتين

بقصْدِ كبيرَتِهِ والرياسةِ على إخوَتِهِ، وأخذِهِ بثأرِهِ من بعضِهِمْ، وحيث قصدَنَا من بلاده وأتانَا منهَا بهدِيَّتِهِ فلا يُحْمَلُ بنا تسْفِيهُهُ وإهمَالُهُ، ولا يمكن لنا إلا مساعدته ومساعفته، فدائماً كانت أعيانُ العربِ ووجُوهُهَا ينصرُونَ الملوكَ ويقيمون على أبوابها الأيامَ الطويلةَ، حتى يظفرون بحاجتهم، ويأخذونَ بثأرهِمْ إن كان لَهُمْ، وهذا الرَّجُلُ الزبيري الذي يَرِدُ عليك صحبة هذا الكتابِ وَرَدَ علينا وخديمنا يعيش بن زيدان هُنَا عندنَا، ولما رَأَوْنَا تكلمنَا معَهُ على تَغَازَى وعلى إخوَتِهِ، ووجهناه لذلك القصْدِ قال لنا : إن صاحبَ تغازى يعرفني ونعرفه، وإذا نصحتُهُ يقْبَلُ نصيحتي، وهذا الوقت ما يدفع لبيتِ المالِ عمَّرَهُ الله وَصَلَ، وأحببتُ منَ اللَّهِ ومنك أن تُوَجِّهَنِي بالعزمِ إليهِ حَتَّى آتيهِ وأنصحهُ، وآتيكَ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا عليهِ لبيتِ المالِ، فإن رأيتُهُ قَبِلَ نصيحتي وعرَفَ الحَقَّ نُعْلِمُكَ بِهِ، وإن رأيته لم يقبل نصحي ولا يليق بتلك البلاد نُعْلِمُكَ بِهِ، ولا نُغَيِّبُ عنك شيئاً من خبرِهِ، ورأينَاهُ حَتَّى هُوَ يدُورُ عنْدَنَا على كبيرَتِهِ، ويظاهر لنا، فإذا وصلَكَ في حفظِ الله فجَهِّزْهُ وأعنْهُ واقْضِ لَهُ أغراضَهُ وَزَمِّلْهُ بعشرينَ جملاً، يتوجَّهُ بما شاء منها، ويدع لأهلِهِ ما يشاء، ولا تَسْتَكْثِرْ فيهِ هذه العشرينَ من الإبلِ أَوْ تَبْقَى في قلبِكَ، فإذَا كنتَ رَجُلاً ورأينَاكَ تعمَلُ بالإبلِ الخصلةَ والفائدةَ فَإِبلُ هوارةَ كلُّهَا لَكَ، ولا نعزُّ على أهلِ الفائدةِ شيئاً، فمَنْ لَمْ يكن من أولادنا فضلاً عن أولادنا، وإذا قَضَيْتَ لهذا الرجلِ الزبيري أغرَاضَهُ وجهزْتَهُ فاكتب براوةً على لسانِكَ لصاحبِ تَغَازَى، وقل له : اعلم أن والدي نصره الله أعطاني جميع هذه البلاد تافيلالت وأحوازها وعربها، ودرعة وأحوازها وعربها، وتلك البلادُ تَغَازَى هي محسوبةٌ من

جملَةِ درعة، ومعدودةٌ من عمَالَتِهَا، وكلُّ مَنْ يتصرَّفُ في درعةَ كان يتصرَّفُ فيهَا، وقد كنت عزمت في هذه الحركةِ المباركةِ التي أَحْبَبْتُ أنْ تصلَ فيهَا إن شاءَ اللهُ لبلادِ الساحلِ وما ولاها من تلك الجهةِ أَنْ نُوَجِّهَ إليهَا مَنْ يليقُ بها، وخديمنا الشيخ يعيش بن زيدان البربوشي مَا هُوَ مقيمٌ عندَهَا إِلَّا بقَصْدِهَا، حتى وَرَدَ علي هذا الرجل الزبيري من عند والدي نصره الله، وهو يأمرني بِتَزْمِيلِهِ وتوجيههِ إليك، ولا أدري بِمَاذَا أُوَجِّهُهُ ، وعلى مَاذَا، غَيْرَ أنك الذي تعرِفُ منَّا أن تلكَ البلَادَ هِيَ من حسَابِنَا، وإنْ كنْتَ وفيتَ الحَقَّ والخِدْمَةَ وعرَفْتَ كيفَ تخدم فأنت على عملِكَ، وإن بقيتَ على ما يعرفه النَّاسُ منْكَ فالبلادُ نجعَلُ إنْ شَاءَ اللهُ مَنْ يَلِيقُ بِنَا وَبِهَا، فبهذَا تَكْتُبُ لَهَ، وَشُدَّ رُوحَكَ في جميعِ أشغَالِكَ، وكن ضابطاً كل ما هُنَالِكَ، وتنبَّهْ لمسائلِكَ، وأَزِلِ الغرَّةَ منكَ، وقد أرشدنَاكَ جهدَكَ، والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى أحسن الطريق، والسلام، في الموفي 20 جمادى الأولى عام 1103هـ ـ 8 فبراير 1692م.

الرسالة: 5

ولدنا الأرضى مولاي المامون أصلحَكَ الله ووفقك، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته عن الخير والعافية، وَنِعَمِ اللَّهِ السابغَةِ الصافيةِ، للَّهِ الحمْدُ وله المنة، أما بعد : فاعلم ولدنا أصلحك الله أن هذه الوِجْهَةَ المباركَةَ التي أمرنَاكَ بها وقربنَاكَ إليها، وحرضنَاكَ المرَّةَ بعد المرَّةِ عليها، هي وجهةٌ مباركةٌ مظفرةٌ بعون الله تعالى، مباركةُ الطليعة، ميمونةُ النقيبة، بحول الله تعالى وقوته.

وقد كتبنا لك في شأنها كتباً عديدةً، وأكدنا عليك في حجتها، وأمرناك أنت كيف تعمل في مسيرِكَ وفي سيْرِكَ بتَأَنٍّ وتَوَانٍ، كأنك راتعٌ ومستريحٌ، حتى تخيِّمَ بوادي درعة، وتختَارَ لمحلَّتِكَ بلاداً مليحةً، دمية واسعةً، كثيرةً الحطب، قريبةَ التناولِ له، وتوسع خاطرك بالمقامِ هنالك، حتى تخْتَبِرَ أحوالك وأحوالَ جميعِ تلكَ البلادِ وأهلها، وَتَنْصَتَ لخبرِ أولاد ادليم، وكلاَمُكَ في ذلك كُلِّهِ مع إِذَاوبْلاَل حتى يستأنسُوا بك، ويأمنوا فيك، وتعرف أَنَّكَ أَنَخْتَ عليهم بِكُلِّ كُلِّكَ، وَبَرَكْتَ (بمعنى وضعتَ عليهِمْ يدَكَ ضَاغِطاً) عليهِمْ وَعَمِلْتَهُمْ في حصنِكَ، وتحققتَ أن لا يجِدَ أحدٌ منهم منعةً ولا مهرباً، فاحتوي عليهم جميعاً وعلى رقابهِمْ وأموَالِهِمْ، فإن لهم أموالاً كثيرةً، ولا صرخة لأولادِ ادليم، ولا منعةَ ولا مأوى ولا ميرةَ، ولا قوتَ ولا كساءَ، ولا غطاءَ يدخل على أولاد ادليم من جهَةِ تلك الشردمة العاويةِ إذاوبلال فإنهم هم الذين جَسَّرُوا حَرَامِينَ أولاد ادليم على مَا هُمْ عَلَيْهِ، وهم الذين كانوا ينفعُونَهُمْ بالغطاءِ والتمرِ والزرعِ وغيره، فإذا أَنْتَ أَنَخْتَ بموضعٍ يليق بك من حَوْزِ

وادي درعة كما قلنا لك، وكان موضعاً مليحاً دميا، كثيرَ الحطب، قريبَ المير، وَالمَشْمَسُ في أكتَافِكَ، وَحَذْوَ أُذُنِكَ وبالقربِ منك، فَهَا ثمرُهُ وزرْعُهُ جميعاً إليك، وَهَا وصيفُنَا الطالب أحمد ولد علي وعمر تحْتَ كُلِّ ما تأمرُهُ بِهِ مِنْ زرعٍ وتمرٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ، ويعمرُ لك العِيرَ التي تبعثها إليهِ وتوردهَا عليهِ، وأَنْتَ مخيمٌ حيْثُ أمرناك، مرتقبٌ للفرصةِ، متوثبٌ عليها كما رأينَاكَ، ولا تظهر لكل أحدٍ أنك مُقْصِرٌ عن أولاد ادليم ولا قاصداً إذاوبلال ولا تُظْهِرْ إلا أَنَّكَ مقيمٌ هنالك تنتَظِرُ أخبارَ خديمِنَا عبيد بن ابراهيم ومحَلَّتِهِ، وتنصت لَهُ وَلِمَا عَمِلَهُ في تلكَ القبلةِ مع أخوالِ أبيكَ، وتتشوف إلى ما دُونَهُ مع أهْلِ القبلةِ، ومَا هُوَ يتكلَّمُ بِهِ معهُمْ، وأنت مع ذلك تُدَبِّرُ على إذوبلال وترْضَى عليهم وتتكلَّمُ معهُمْ، وتريهِمْ أنك تنتظِرُ لأخبارِ المغافرة، وتحاول على قطعِ قرُونِ إذاوبلال مع أولاد ادليم فَقَطْ، وخزَانَتُكَ عندك موفورةٌ بكلِّ شيءٍ، وَعيرُكَ ذاهبةٌ وراجعةٌ إليك بالمِيرِ، وواردةٌ عليك بكل خير، وحتى يتحققوا أنك مقيمٌ وعربُكَ وأهلُ محلتِكَ فرِحُونَ شرِهُونَ، مشتغلونَ بالصيدِ فرحون بكثرةِ الحطبِ واللحمِ، لا يخصُّهُمْ في تلك الصحراءِ مِنْ وحشٍ وغيرِهِ، فإنك إذا وَسَّعْتَ خَاطِرَكَ، وكبَّرْتَ همتَكَ، وأبعدتَ نظرَكَ، وكنت منتهزاً للفرصةِ في الحَرَامِيِّينَ إذاوبلال مستعيناً على أمورك كلها بالله وبالكتمان، تجد إنْ شاء الله فيهم فُرْصَةً تَأْتِي عليهم، وَتُعَمِّر من أموالهم عمارةً مليحةً، وتحسم مادتهم.

وهنالك تَتَهَنَّى منهُمْ تلكَ البلادُ، ويهلكون بالجدبِ والعطشِ، فإن أولاد ادليم يهلكهم الله لا محالةَ، وسببُ هلاكهم هُوَ مَا ارتكَبُوهُ من معاندَةِ حَقِّ الله تعالى، وهذا الجدْبُ الذي سلَّطَهُ اللَّهُ عليهم، وإذا أنتَ قصدتهُمْ وقصدْتَ بلادهم من أول

وهلةٍ لا يرتجونك أبداً ولا يصبِرُونَ لملاقاةِ حزب الله، ولكن يصيرون في تلك الصحراء، ويهرَبُونَ حتى يهلكون، وَتُتْعِبُ أنتَ نفسَكَ ومحلَّتَكَ في طلبهم وفي متابعتِهِمْ.

وإذا أنت تربصتَ وانتهزتَ الفرْصَةَ في إذاوبلال كما أمرناكَ، ولم تبعدْ في البلادِ، واختَرْتَ الموضعَ اللائقَ بِكَ والقريبَ مِنَ الميرِ ومنَ المَشْمَسِ، وتخلَّصْتَ من إذاوبلال فذلك هو الخلاصُ من أولاد ادليم بكلِّ حالٍ من الأحوالِ، فَاعْرِفْ ما أمرنَاكَ به من التوكُّلِ على الله تعالى وَمِنْ قَصْدِكَ البلادَ التي أريناكَ واعمل هذه الفائدَةَ وهذِهِ النتيجَةَ التي أمرناك، والله يُيِّسُر عليكَ.

ولتكن رسائلك وبراواتك وَرَقَاقِيصُكَ متواترةُ الورودِ على مقامنا العَلِيِّ بالله، مترددةُ القدومِ على أبوابنا حرسها الله، غير مقصرٍ في شيءٍ من ذلك، لنكونَ على بصيرةٍ في جميع أمورك، وفي سائر شؤونك، ولنعرف حيث أنت من البلادِ، ولنعرف حزمك في محلتك، وعزمك وسياستك ورياستك، وانْظُرْ مَنْ تُخْلِفُهُ في تافيلالت، ليقِفَ لَكَ في أمورك، ويضبط لك العربَ ويحوزها، ويرى من تَخَلَّفَ عنْكَ منْهُمْ ومن يلْتَحِقُ بِكَ، ولا تجُوزُ عليه غرةٌ في شأْنِ حركتِكَ، ولا فِي شأنِ العربِ الحَارِكِينَ معَكَ.

واعلم أنَّ حاملَهُ صاحبك محمد بن على المنبهي حَضَرَ يَوْمَ كتبِهِ، وكنا نسأله عن زَمْلِكَ وخزانتكَ وعلفِكَ ومؤونتِكَ التي تختص بك وبأصحابك، فذكرَ لنا أنكَ أَحْبَبْتَ أن تحمل ذلك على ما عندك من الإبِلِ، وعلى المائتين التي وجهنا لك من عندنا عامرةً موسوقةً، وذلك غيْرُ لائقٍ بكَ، فكل ما عندك من الزرع والدقيق

وغيرِهِ، حتى إذا كانت عندك عشْرُ مائةِ حمْلٍ فَرِّقْهَا على العربِ فَذَوِي مَنِيعٍ يحملون لك منها ثلاثمائة، والصَّبَّاحُ وبني محمد ثلاثمائة، وعريب حَمِّلْ عَلَيْهِمْ أَبُوهُمْ يَحْمِلُونَ لَكَ أربعمائة، وكل قبيلةٍ تُعْطِي أحمالَهَا من عندِهَا، وأصحَابُكَ أَنْتَ على إبِلِكَ ليس فيهَا شيْءٌ، موفورةٌ محضيةٌ إلا ما يختَصُّ بك لنفسك وأصحابك، في كُلِّ ليلةٍ يدْفَعُ لهم شيخٌ من شيوخِ العربِ لأزِمَهُمْ على يَدِ مَنْ يضبطُ لك تلك المؤونة، ولا يضَيِّعُ منها حبةً واحدةً حتى تصل البلاد التي أمرنَاكَ ووصفْنَا لكَ، من غير أن تبعد في البلاد، وتطرح نفسك وتفيجَ كأنك منتظرٌ لأخبارِ محلةِ القبلةِ ولخبَرِ عبيد بن إبراهيم، وَزَمْلُكَ قاصدٌ للمَشْمَسِ راجعٌ منْهُ بالتمرِ والزرعِ، وكلامك مع إذاوبلال ومع غيرهم حتى ترى أنَّكَ انتهزْتَ فيهِمْ فرصةً مليحةً فَأَوْثِبْ عليهِمْ وثبَةً صحيحةً تهلِكُهُمْ بها كما قدمنا لك، وقد وَالاَكَ فَصْلُ الشتاءِ، والربيعُ تشتى وتربع حيثُ أَنْتَ، والكَلاَ نطلبُ اللهَ تعالى في أَنْ يَمُنَّ بِهِ عليكَ، وَكُنْ عيناً وأُذُناً على جميع أهل تلك البلادِ، فمقَامُكَ هنالك وحده يَهَابُكَ بِهِ جميعُ أهل تلك القبائل، ويعملون بحسابك ويهابونك، ووالله إنْ أَنْتَ عَمِلْتَ ما أمرناك به وانتبهْتَ لأَثَرِ وَصِيَّتِنَا حَتَّى تُحَصِّلَ في أولئك الكِلاَبِ على مزيةٍ مليحةٍ وفائدةٍ كبيرةٍ، ولا يَكُودُكَ بعدَ أَنْ تُعَمِّرَ يَدَكَ بأموَالِهِمْ وَتَعْمَلَهُمْ في جوفِكَ أَحَدٌ مع فضل الله تعالى، فإن عمَّكَ مولاي محمد بن الشريف رحمه الله هُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي هَذَا الأمرِ، وكان فيه لنا والحمد لله خَيْرٌ، فَلَقَدْ كانت معه سربةٌ من مِائَةِ فارسٍ فيهَا خيلُ الحراطين والشرفاء، وأجلُّهُمْ وأنفعُهُمْ خيْلُ الشرفاءِ، فكان يغْزُو العربَ في كلِّ موضعٍ، فلقد غزَاهُمْ بالمرة وبالمظميهر وبتارساطت، وفي كُلِّ موْضِعٍ، وكان يضبُطُ

أمره ولا يكُودُهُ مَنْ هُوَ أَمَامَهُ على أَيِّ حالةٍ كَانَ، فكانت عربُ العمُودِ لا تأمَنُ من مصْبَحِهِ وَلاَ مَمْسَاهُ.

وما ذكرتَ لَنَا من أَنَّكَ إذا وجدْتَ العَوْدَات كانَتْ أَنْفَعَ لك فواللَّهِ ما حبسنا لسرْجِنَا إلاَّ عَوْدَاتٍ قلائلٍ، وخيلُكَ التي معَكَ بحولِ الله وقوَّتِهِ تكفيكَ، وليْسَ أمَامَكَ ولا تحتاجُ إلاَّ إلى الضبْطِ والكتمَانِ في المسائِلِ، بأن لاَ تُظْهِرَ لإِذَاوبْلاَلٍ أَنَّكَ تُرِيدُهُمْ، ولا عندك أمرٌ مِنَّا عليهم، لأنهم لم يكونوا ينزلُونَ في موضعٍ واحدٍ، بَلْ تنزِلُ منهُمْ ستُّ خِيَامٍ أو ثمانيةٌ هُنَا ومثلُهَا هُنَاكَ وهكذا.

فأَظْهِرْ لهُمْ أنَّكَ منتظِرٌ لأخبَارِ القبلةِ، وقل لهم : ليسَ عندي أَمْرٌ عليكم، وكلاَمُكُمْ مع والدي نصره الله، حتى تنتَهِزَ فيهِمْ فرصةً مليحةً بحولِ اللهِ وقوته، والله تعالى يُيَسِّرُ عليكَ فيهَا، وَهَا ثلاثُ براواتٍ تَصِلُكَ، واحدةٌ للحيوني، والأخرى لأولاَدِ العربية، والثالثَةُ لولد بَلاَّوَعْلِي البوعمراني، فإذا وَصلُوكَ وقرَأْتَ هذا الكتَابَ فَوَجِّهْهُمْ مع ذلك الزبيري صاحِبِكَ أو مع غيرِهِ ممَّنْ تَثِقُ به، ويوصلُهُمْ للحيوني بِالعَزْمِ والسلام.

واعلم أنا كتَبْنَا للتَّمَنَارِي كتاباً، ولولد علي وعمر الذي بِأَقَّا كتاباً حرضنَاهُمْ فيهِ على الإعتنَاءِ بأمرِكَ وبجميعِ ما تحتاجه هنالكَ منَ القُوتِ والزرعِ والتمرِ، وتوعدْنَاهُمْ على عريبٍ وإذاوبلال إِنْ أَخْرَجَ أحدٌ منْهُمْ من جميعِ بلادِ مشمس وَلَوْ حبَّةً واحدةً من التمر ومن الزرع، أَوْ أخرجَ من هنالك وَلَوْ كساءً أَوْ غطاءً نَحُزُّ في ذلك رؤوسهم، ونحسم مادتهم، وَكُلُّ مَا تنفذه عليهم خزانَتُكَ أَوْ أُمِرُوا بِهِ ذوي منيعٍ والصبَّاحِ وبني محمد لخزانتك أو أرادوا أن يكتالونه بمالهم أو بدراهمهم

فلاَ عليهم فِيهِ، وعريبٌ وإذاوبلال إذا أخرجوا إلى هُنَالِكَ من أَوَّلِ حَوْلٍ نحرز رؤوسهم ونعاقبك أَنْتَ بسبَبِهِ، فشُدَّ روحَكَ واعرِفْ حالَةَ أولئك الحَرَامِيِّينَ إذاوبلال وعريبٍ وسَلاَّمٍ ومريبطٍ وغيرهم من جميع كزولة، فكلمهم في منْعِ الكَيْلِ والتمرِ سواء، وكتب في 29 ربيع الثاني عام 1109هـ ـ 14 نونبر 1697م.

الرسالة: 6

ولدنا مولاي المامون أصلحه الله وأرشده، سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد بلغنا كتابُكَ وقرأنَاهُ، وفهمْنَا ما تضمنَهُ لفظُهُ ومعْنَاهُ، وقد وجدنَاكَ تذْكُرُ فيه استعدادك وأُهْبَتَكَ لهذا الوجهِ المباركِ الذي أمرناكَ بِهِ، وأكدنا عليك في حجته، فاعلم أن تلك البلادَ التي ألزمناك بغزوِهَا هي بلاد متسعةُ المفاوز، قليلةُ الماءِ والمرافقِ، يحتاج من يريد أن يفُوزُ بمزيتِهَا إلى أُهْبَةٍ كبيرةٍ، ومؤونةٍ كثيرةٍ.

وقد علمت أننا كنا أولا نلزم بغزوها عرَبَ تلكَ الجهةِ الصحراويةِ، فيتوجهون إليها على غيْرِ أهبتِهَا، ويزيدون على ذلك قِلَّةَ الضبطِ والحزْمِ، فَيَتَفَرَّق لهم أولئك الحَرَامِيُّونَ أولاد ادليم، ويهربونَ أمامهم في مفاوزِ صحراءِ الشَّرِيقِية وغيرهَا، فَيَكِلُّ في طلبهم الخف والحافر، ويفرغُ الزَّادُ، فلا يحصلون منهُمْ على طائلٍ، وفي هذه المرَّةِ التي تَوَجَّهَ فيها معهُمْ أخوك مولاي أبي النصر اسْتَكْثَرَ الأُهْبَةَ وبالغَ في الإستعدَادِ جهْدَهُ، وكانت معه قوةٌ في زَمْلِهِ وزاده وخزانته، ومع ذلك فما اتَّصَلَ الفريقُ منهم حتى كَلَّ لأولئِكَ العربِ الذينَ كَانُوا معَهُ جميعَ ما عندهم من الخف والحافرِ، ولم تكُنْ مَعَهُ سريةٌ من الجيشِ الرَّوَاتِبِيِّ يَثِقُ بهَا وتطمئنُ نفسُهُ معَهَا، فما رأى لأتباعهم وجهاً.

ولولا أَنَّ الغَزْيَ الذي كانَ حَازَ ذلك الفريق منْهُمْ إليه مِنْ أَخْوَلِنَا الوداية ما اتَّصَلَ بهم، ومَعَ جدِّهِ وَضَبْطِهِ للعربِ وحزمِهِ ما شَفَى لنَا غليلاً فيهِمْ، ونحنُ نريدُ أَنْ تتوجهَ على بركة الله لتلك البلاد تَوَجُّهَ رَجُلٍ، وتعمَلَ فيهَا ما تستجلِبُ به رِضَا

اللهِ سبحانه، فَإِنَّ أولئك المارقِينَ فرقةٌ باغيةٌ خالفتْ حُكْمَ الإمامِ وخرجَتْ من ربقةِ المسلمين والإسلام، يَجِبُ قتالُهُمْ، والإعَانَةُ بمَا لَهُمْ عليهم، ولا تجوزُ معاملتهم ولا مناكحتهم، ولا البيعُ والشراءُ معهم، وَمَنْ وقعَتْ منه معاملةٌ معَهُمْ فَهُوَ عَاصٍ، فمَا دَامُوا على تلك الحالةِ الشاقةِ فَهُمْ على حكمِ القَتْلِ لكلِّ مَنْ ظَفِرَ بِهِمْ، وقد جرت عادةُ الله سبحانه في أمثالهِمْ في قبائِلَ شَتَّى، شرقاً وغرباً من جميعِ مَنْ يَشُقُّ عَصَا المسلمين أن اللهَ تبارك وتعالى يحسم مادتهم، ويستأصل بِحَوْلِهِ وقوتهِ شَأْفَتَهُمْ، وما هُمْ مقبوضينَ إلاَّ في رجلٍ نجيبٍ يَعْمَلُ بحسَابِ بلادهم، ويتَأَهَّبُ لَهَا أهبتَهَا ويستعِدُّ لهَا استعدادَهَا، ويستكثِرُ من كل شيءٍ يعرِفُ أَنَّهُ يحتاجُهُ في بلادهم، ومع هذا كلِّهِ يتَأَنَّى في جميعِ أموره، ويتوجه على مَهْلٍ إلى طرفِ بلادِهِمْ وَيُقِيمُ بِهَا، وقوافلُهُ تأتيهِ منَ المَشْمَسِ وغيرِهِ، وعيُونُهُ مبثوثةٌ على أولاد ادليم وعلى غيرهم من أولئك الجواليتِ جَزُولَةٍ الذين صاروا يُعَضِّدُونَهُمْ ويكثرونَ سوادَهُمْ، وإذا وَجَدَ حاجتَهُ يثب عليْهَا وَثْبَةَ رجلٍ فيستأصلُ شأْفَةَ كلَّ قبيلةٍ اتصل بها، ولا يقتص منهم إلاَّ قَتْل الكبيرِ والصغيرِ والذكرِ والأنثى، يَقَعُ بهِمْ وقعَةَ الدَّهْرِ، فإذا وقعَ بقبيلةٍ وقعةً تَسِيرُ بهَا الرُّكْبَانُ ، وإذا أبْقَى منهم أحداً فلا يسَعْهُ إلا التطارحُ على الحربِ أَوِ الجَلاَ الذي تَتَنَاوَشُهُ به المفَاوِزُ وتأكله الصحراء، ويريح النَّاسَ من سماعِ حِسِّ أولئكَ المَارِدِينَ في مرَّةٍ واحدةٍ، فمِثْلُ مَنْ يكونُ على هذِهِ الحالةِ نُحِبُّهُ يتوجَّهُ إليهِمْ، وقد فَهِمْنَا من كلامك في براوتك بَعْضَ العجلَةِ على الحَرَكَةِ، وقد أحببنا أن تكون تلك العجلةُ في الإِسْتِعْدَادِ والأُهْبَةِ وتقويةِ كلِّ ما تحتاجُ إليه، وَتَفَقُّدِ أولئك العرب الذين تَتَوَجَّهُ في وسطهم تفَقُّداً تجدُهُ منهم إذَا كنتَ معهم في الموضعِ

الذي تحتَاجُهُمْ فيِه، وأمَّا العجَلَةُ بالخروجِ فَلاَ، فَتَأَنَّى أصلحكَ الله، تَأَنَّى في أمورك، واعْرِفْ ما أمَامَكَ، واعمل نجيباً بهِ، ولا تُهْمِلْ مِنْ جميعِ ما نوصيكَ به كلمةً واحدةً، ومسألةُ الخمسينَ عَوْدَةً التي طلبت منَّا واللَّهِ لقد عرَفْنَا أنك تحتَاجُهَا، لكن لَوْ كنْتَ أعلمتنا بها قبْلَ هذهِ الساعةِ لكُنَّا وجهنا إليك حتى مائةً، وهذه الساعةُ فقد كانت عندنا أزيدُ من ثلاثمائة عَوْدَةٍ من نتاج حَرَائِرِ هذهِ الخيُولِ التي أحيَا اللَّهُ عرُوقَهَا على أيدِينَا،وتفضل علينا بأجرها وادخارها، وأَوْلَعَنَا بنتَاجِهَا، فكنَّا نختَارُ نتاجهَا على كل شيءٍ، فسخرنا على العوداتِ أصلحها الله، وكُنَّا اخترنا منها ستينَ عَوْدَةً لخرُوجِنَا، وما عندنا غيرُهَا، وقد ربطنَاهَا على ذمتِنَا، فلاَ نَسْخَى بِهَا، وحتَّى أنت ما نحب أَنْ نُحَشِّمُوكَ بعَوْدَةٍ واحدةٍ منها إذا نحن أعطينَاهَا لك، ووجدنا فيها شيئا لعزتها عندنا، والعودات التي أَمَرْنَا لك بها هي التي ذَكَرْنَا لَكَ أننا سخرنا عليها، وأمَّا الحرابيات عَوْدَاتُ الغَرْبِ فما يصبرُونَ لتلكَ المَهَامِهِ، مع أَنَّ العودات هذه الساعة كلّهَا عامرة إلا النزر منها، لكن عندَنَا سريةٌ نَثِقُ بكَ أَنْ تكُونَ في وسطِهَا، وتطمئِنَّ نفُوسُنَا بطبائعِهَا منْ قِلَّةِ الطمعِ وقلة التفتف منهُمْ، وقوة الفائدة والنجدة والصبر والحزم والعزم، وهي أربعونَ فارساً، خيل فرادى المنابهة، واللَّهِ إِنَّهَا أَوْلَى لَكَ مِنَ العَوْدَاتِ، ومن مائةٍ من الخيلِ، واللَّهِ إِنْ شَاءَ الله إذا زَيَّنَ اللهُ عليك حتى يعمَلَ اللهُ لَكَ بها كُلَّ مزيةٍ، فاعلمْنَا نَبْعَثْ بهَا إليك مع أصحابك الذين معك، وما لك منهم إن شاءَ الله إلا ما يَسُرُّكَ ويُرْضِيكَ، فليَعْرِفْ وَلَدُنَا أصلحه اللهُ ما خاطبنَاهُ بِهِ ويفهمه، وَالتَّأَنِّي لك في الخروجِ مليحٌ،

التَّأَنِّي حَتَّى تَتَأَهَّبَ أُهْبَةً تُرْتَضَى منكَ حَالُهَا مليح، وقد أرشدناك والله يعينك ويوفقك بمنه وكرمه.

واعلم أننا كُنَّا أمرنا العربَ حيث كانوا هنا عندنا يتوجهون معك بأولادهم، ولا يُبقون إلاَّ مَنْ أَضْعَفَهُ الكِبَرُ وحالات الصغرِ، فقالوا لنا : إن الواشين يثقلنَا، وكأنهُمْ ثَقُلَ عليْهِمْ ذلكَ، وأنت انْظُرْ كبارَ العرب ووجُوهِهِمْ ومن له قدرَةٌ وفيهِ قوَّةٌ مِنْ ذَوِي مَنِيعٍ وغيرِهِمْ، والْزِمْ كُلَّ واحدٍ منهم يتوَجَّه معَكَ بزوجتهِ، فإذا عملوا دَوَّارَيْنِ أو ثلاثةً من الذينَ بنسَائِهِمْ فعليهم يرسمونَ.

وحتى أنت انظر خادماً أو خادمين واجعلهُمَا مَعَكَ في غيبتِكَ لِئَلاَّ تضيقَ رُوحُكَ، وقد بيَّنَا لك كيفية أُهْبَتِكَ وخروجك في سلامةٍ وغنيمةٍ إن شاء الله، وإذا وصلت بِلاَدَ إذاوبلال فكَاتِبْهُمْ وقل لهم : أنتُمْ غيْرُ محسوبينَ معَ أولاد ادليم ولا تقبضهم فيهِمْ، وما كُنَّا نُنْكِرُ عليكُمْ إلا هذهِ الميرة التي كنتم تمدُّونَهُمْ بِهَا، وهي اليوم مقطوعةٌ عليكُمْ وعلَيْهِمْ، وأنتُمْ دائما تتعلقُونَ بحالهَا، وأميرُهَا دائماً منْكُمْ، وقد توجه مع أخينا أبي النصر ثلاثةٌ منكم، فارجعوا لبلادكم وأعقبُونَا لمِوَاطنِكُمْ، وانظروا من يَرِدُ مِنْكُمْ على والدي نصره الله وإنْ جَاءَ تَسَلَّفَ لَكُمْ تعطُونَنَا بعضَ امنيرات الذين يعْرِفُونَ البِلاَدَ وَيَدُلُّونَنَا على أولاد ادليم، فإنْ خَفَّ عليكم ذلك فاعطُونَنَا امنيرات وارجعُوا في حَالِكُمْ وَرَاءَنَا لبلادكم.

فبمثلِ هذا الكلامِ تُكَلِّمُهُمْ مِنْ غيْرِ أَنْ تُنَفِّرَهُمْ مِنْكَ، ولا أن يفهموا من كلامك ولا من مكاتبك حرفاً واحداً من العيبِ فينفرُونَ منك بسبَبِهِ، ومن غير أن تُعْطِيهِمْ أَمَاناً، ولا تكتب لهم به، فلا تكلمهم ولا تكتُبْ لهم إلا بالكلاَمِ الذي يسكنهم ولا

يُنَفِّرُهُمْ، وأعرض عنهُمْ، ولا تذكر عيبهم لقريبٍ ولا لبعيدٍ، فإن رأيتهم رجعوا وراءك وَاجْتَمَعُوا وَعَمِلْتَهُمْ بينَكَ وبيْنَ المَشْمَسِ، واسْتَقَرُّوا، وعَرَفْتَ أَيْنَ تَتَّصِلَ بِهِمْ، فَسِرْ إليهِمْ عَلَى حِينِ غفلَةٍ منْهُمْ، وإِذَا أَظْفَرَكَ اللهُ بهِمْ فلا تُبْقِ على أحدٍ من الجواليتِ، فعندَهُمْ نجعٌ كبير من الإبلِ، وأما الغنمُ فلا تُحْصَى كَثْرَتُهَا، وهذه إحدى مسائل السِّرِّ وإحدى المسائلِ التي يستعمل النَّاسُ فيها ضروباً من السياسةِ والدهاءِ.

وقد أرينَاكَ طرفاً بما تخاطبهم به، ومدَارُهُ أنك تخاطبهُمْ بما يسكنهم ولا يُنَفِّرُهُمْ، وتغفل عنهم، وتَقُولُ لهم : ارجعوا لبلادكم وابعثوا بكباركم لسيدِنَا نصره الله، لكن على وجهٍ لا يصدرُ منك أمانٌ لهم، وإذا استوثقْتَ من رجوعهم ورَصَدْتَ فيهم الفرصةَ فقد أرينَاكَ ما تعملُهُ لهم، والله يوفقك إلى الخيرِ بمنِّهِ وكرمه.

وواحدة زِدْهَا لهُمْ في مخاطبتِكُمْ إياهم، قُلْ لهم : إنَّ والدي نصره الله لا يرى فيكم بأمرٍ واحدٍ مخصوصٍ، ولكن قالَ لِي : واحدة وهي أنَّ كُلَّ من كان مع أولاد ادليم وانفصل عنهم وتركَهُمْ فما عليكَ فيه، واترُكْهُ ورَاءَكَ، وانبُذْهُ خلفك، وأنتم من جملةٍ من كان معهُمْ، وكان يواصلهم ويمدُّهُمْ، فإذا أنتم فارقتمُوهُمْ وتخلفتُمْ عنهم فباعدوهم في النَّجْعَةِ والرتعَةِ، واتركوهم عنكم، وَشِبْهُ هذا مِنَ الكلامِ الذي يأنسون به ولا ينفرونَ، والله يُعِينُكَ وَيُيَسِّرُ عليكَ بمنه وكرمه آمين آمين آمين، والسلام 5 ربيع الثاني عام 1109هـ ــ 21 أكتوبر 1697م.

الرسالة: 7

ولدنا الأرضى المامون أصلحك الله وحفظك، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد : فأَخُوكَ محرز هَا نَحْنُ وجهنا إليه عَمَّكَ عمر بن يوسف يُرَحِّلُهُ بالعقلِ من القصبةِ، ويمشي بالسلامة هو وأخوه شقيقُهُ، وإذا خرجَ فَسَكِّنْ بتلكَ القصبة مملُوكَنَا عبد الله بودشيش، وعشرةً من الأعلاجِ معَهُ بأولادهم، وهو يقبض لك تلك القصبة وَيَحْضيِهَا، ويكفيك إن شاء الله أمْرَهَا، وإلى أَنْ نوجه لك من عندنا من يعمُرُهَا ويسكنها ويشدها، وعبد الله بودشيش تحتَ نظركَ، كل ما تقُولُهُ لَهُ يَفْعَلُهُ، وَاللَّهَ اللَّهَ في أولئك العُلُوجِ الذين تُسَكِّنُ بالقصبة والَّذِينَ بالمنصورية، فالجميعُ تحْتَ نظركَ، لا يعملون إلاَّ بكلامك، وأنت اتْهَلاَّ فيهم بمعنى اعتني بهم واستوْصِ بهم خيراً، فقد أعجبَتْنَا سيرتَهُمْ وشغلَهُمْ، فشُدَّ روحَكَ فيهم، وَرُدَّ بَالَكَ منهم، ولا تفرط فيهم، ولا يَصِلُنَا عنك في جانبهِمْ إلا ما يسرنا إن شاء الله ويرضينا،

وها نحنُ كتبنا لهم يكونون تحْتَ نظرك، وَاللَّهَ اللَّهَ في إخوتك، اللَّهَ اللَّهَ في إخوتك، ولدِنَا الشيخِ، وولدِنَا السعيدِ، اتْهَلاَّ فيهم بمعنى اعتني بهم واستَوْصِ بهم خيراً وإحساناً، وكل ما يخصهم لديارهم بالقصبة اعطِيهِ لهُمْ، واكفيهم في كل ما يحتاجون، اللَّهَ اللَّهَ في إخوتك، ثم اللَّهَ اللَّهَ في إخوتك، فأنتَ الوَصِيُّ عليْهِمْ، اتْهَلاَّ فيهم بمعنى اعتني بهم وَشُدَّ روحكَ معهم،ولا يصلُكَ في جانبِهِمْ إلاَّ الخيرَ، فإنهم إخوتُكَ، واعلم أَنَّ مَطْلَبَ توَاتْ بطأ مجيئُهُ هذهِ السنة، فنأمرك أن تُحْرِصَ

في مجيئِهِ، وَعَزْمِ أولئك الذين بقصدِ قبضِهِ، واكْتُبْ لهم عليه، وَعَزِّمْهُمْ بمجيئِهِ، وإذا جَاءَكَ فأحضِرِ العدُولَ بين يديك وادفعْهُ لعمك عمر بن يوسف عَنْ آخِرٍ، بحيث لا تُبْقِي منه عندك ولو درهماً واحداً، وأشهد عليه إذا دفعته له بالعدولِ، واكتب عليه بذلك، وأعْلِمْنَا بكَمْ دفعتَ له، وأمَّا الوصفَانِ الذين يأتون على العادة من توات فَوَجِّهْهُمْ لنا كلُّهُمْ يأتُونَنَا، ولاَبُدَّ بالعزمِ، وَثِقْ بما يقوله لك عمُّكَ عمر بن يوسف، ثِقْ بِهِ، وَشُدَّ روحكَ في أشغالك، وكن ضابطاً لكلِّ ما هنالك، والله يُيَسِّرُ عليك بمنه وكرمه والسلام، في 22 ذي القعدة الحرام سنة 1098هـ ـ 30 شتنبر 1687م.

الرسالة: 8

ولدنا المامون أصلحه الله، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد : فالذي يكونُ في علمك وَتَشُدَّ عليه يدَيْكَ أَنَّ أُولئِكَ الحَرَامِيِّينَ أولاد ادليم وَاللَّهِ لا نسيْتُهَا فيهِمْ أبداً، وَحَتَّى يحفرَ الله جَدْرَهُمْ بحوله وقوته على يَدِ عبدِهِ، وأنت حيث توجهْتَ إليهم في هذه المَرَّةِ، واللَّهِ لقد توجهْتَ إليهم في عددٍ واستعدادٍ، ولكِنْ لَمْ تُحْسِنْ تدبيراً، ولم تجِدْ رأياً في شغلِكَ، وَفَاتَكَ من الحَزْمِ أَكْثَرَ ممَّا عمِلْتَهُ، ومن الرأْيِّ جاءَكَ ما جاءك مِنَ التزَبْلِيحِ، ولَوْ كُنْتَ أحسنتَ تدبيراً في وجهتِكَ لفُزْتَ بمزيةٍ كبيرةٍ عن جميعِ مَنْ غَزَى أولاد ادليم، فالرأْيُ هُوَ المُقَدَّمُ في كُلِّ شيءٍ، أَوَ مَا علِمْتَ أنَّ ابْنَ عمِّكَ أحمد بن محرز رحمه الله ذلك العام حِينَ أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ مراكش على أيدِينَا وتوَجَّهَ لدرعةٍ، واستوطنَ قصبةَ أغلال، وكان بِهَا فلما سمع حَسَناً بملوِيَّةَ، وعرَفَ أن حَقَّ اللهِ لا يُبْقِيهِ في ذلك المكان، وأيقَنَ أَنَّنَا إِنْ أصبحنَاهُ وأمسيْنَاهُ في درعةَ لا يجِدُ مفلتاً ولا مهرباً، ضَرَبَ الخمَاسِي في السُّدَاسِي وردَّهَا للرأي والتدبير، وكان مصطحِباً مَعَ يَعِيشْ العربي، وَرَحُّو بن بُيٍّ، وأولاد الزبير.

فأَجْمَعَ عليهِ جماعةً منْهُمْ وقال لهم : إنَّ هذا الموضع لا ننجوا فيه من عَمِّنَا، والرَّأْيُ هو أن نخرُجَ لَهُ منْهُ وَنَدَعُ فيهِ إِدَالَتَنَا، ونقبضُ هذهِ البريةَ التي على المَشْمَسِ، وننظرُ مَا يعمَلُهُ، فإِنْ هُوَ رَجَعَ من ملويةَ لبلادهِ أَوْ شَرَّقَ فنرجعُ لبلادنا، وإِنْ هُوَ أَتَى لدرعةَ فنَجِدُ معنا الوَسْعَ، وما وَالاَنَا إِلاَّ القَفْرُ، فقالوا له جميعاً : هذا هو الرأْيُ، فجعَلَ خبَاءَهُ في وسط حللهم، وجمعهم عليه كلهم، وضبطهم وصار بهم

جميعاً وبمن معه لذلك المَشْمَسِ، فتلقَّاهُ أهلُهُ بكُلِّ ما أحَبَّهُ منهُمْ، وتَلَقَّتْهُ حربيل (قبيلة) فأخذهم وقتلهُمْ ووطأهم وطأةً مليحةً، وتلقاه التمناري وَحَابَاهُ وَنَفَعَهُ.

ودخل لتَاسْرِيرتْ وتلقاه آيت بوعمران فَشَارُّوهُ (بمعنى خاصموه) نحْوَ العامينِ إلى أَنْ ظَفِرَ بِهِمْ، وعَمِلَ فيهم تلك المقتلَةَ التي ارتعدَتْ بها أهلُ سوسٍ كلهم، ومن آيت بو عمران مَا وَجَدَ مَنْ يُشَارُّهُ، وَوَصَلَ لتارودانت واستولى على سائر قبائلِ سوس، ولا بَقِيَ من يَرْفُدُ يَدَهُ (بمعنى يَرْفَعُ يدَهُ) من سائرِ سوس، وجعل منهُمُ الجيْشَ والعيْشَ، وأعطوه كُلَّ ما أراد منهم حتى امتلأت يَدُهُ، وطلبَهُمْ فِي الحرَاطِينِ، فجمَعَ عليه بتارودانت أربعةً وعشرينَ ألفاً، وشحَنَ تارودانت بالزرعِ والزيتِ والسمن والرصاص والبارود وَكُلِّ ما يحتاجه، وَاللَّهِ إِلاَّ حَتَّى الدراهم جمَعَ منها وَعَمِلَ فيها حوائجَ كباراً.

ولما أتى الله بِنَا لتارودانت وجدنَاهُ محتالاً من كُلِّ شيءٍ، فَشَارَّنَا نحو العامينِ، وَشَارَتْنَا تلك الحزمةُ التي كان جَمَعَ بَعْدَهُ نحْوَ العام، وهذا كلُّهُ من حسنِ التدبير وجودةِ الرأي، وَعَمِلَ هذا كله وهو يَخَافُ على نفسهِ وعلى مَنْ مَعَهُ، وأنتَ إِنْ أحببتَ مزيةً، أو أردتَ نتيجةً، أو أحببتَ فائدةً تَنْسَى بِهَا هَذِهِ التَّزْبْلِيحَةَ (بمعنى الخديعة) التي فَاتَتْ لَكَ فَهَا أَنَا أَدُلُّكَ بتوفيقٍ من اللهِ على رأيٍّ مباركٍ سعيدٍ إن شاء الله، تبدَأُ في الإستعدادِ إليه منَ اليَوْم إِنْ أحبَّ وَلَدُنَا نتيجة وفائدة، وذلك أن تعلم عرَبَ الركيطة كُلَّهُمْ مِنَ اليَوْم، المنيعي والصباحي والمحمدي والعريبي، تُعْلِمُهُمْ يكونُونَ كُلُّهُمْ على أهبةٍ واستعدَادٍ يرتحلُونَ معك بحللهم، ولا يتخلف أحدٌ منهم عنك لا بمَالٍ ولا بغيرِهِ، وعريبٌ كُلُّ مَنْ لَمْ ينْزِلْ معكَ بخيمَتِهِ تَقْتُلُهُ.

فبهَذَا تُعْلِمُهُمْ يَعْمَلُونَ على حسابه، فإذا أعلمتهم وتهيَأْتَ أنتَ فليَقْدِمْ إلينا وَلَدُنَا نتكلَّمُ معَهُ وَنُرِيهِ من الرأي ما يباركُ اللهُ له فيه، وذلك أنكَ إذا كَمَّلْتَ استعدادك وجعلت خزانتك وإقامتك وكل ما يليق بك لِلحَرَكَةِ تجْعَلْ خبَاءَكَ في وسطِ حُلَلِ العربِ، وإن كان عندك سريةٌ تتوجه بها، يحمل العربُ علفها ومؤونتها على إبلهم، وتريح نفسك من ذلك، ولا يعرف أصحابك إلا عدتهم.

وفي كل ليلةٍ يقبضون علفهم ومؤونتهم من عند من كانت فيه النَّوْبَةُ منَ العرَبِ، وَتُرَتِّبُ أصحابك هؤلاَءِ علفهم ومؤونتهم عند بني فلان، وهؤلاء عند بني فلان، حتى يعْرِفَ كُلُّ واحدٍ صاحبه، ويرفدُ كل واحدٍ من العربِ من هؤلاء مَا يكفيه لصاحبِهِ، كما عمل أخونا مولاي الرشيد رحمه الله حيث حَرَّكَ لِلبِيضِ أولاَدَ أخينَا، فجعَلَ نُجُوعَ العربِ في صدرِهِ، وأمرهم بحمْلِ علف أصحابه ومؤونتهم من هرْيِهِ، وكانوا كُلَّ عشية يقبضون علفهم ومؤونتهم، كُلُّ واحدٍ يعرف أصحابه، فلم يشغله مخزنيٌ ولا وصيفٌ عمَّا أراد، فَرَوَّحَ أصحابه ونفسَهُ بذلك حتى قضى غَرَضَهُ.

وكذلك نُحِبُّ ولدَنَا يعمل في هذه الحركةِ المباركةِ إن شاء الله، وتظَلُّ مع كبراءِ العرب، وإشْرَافُكَ وَرَأْيُك أمامكَ، ويجهدون لك المِيَاهَ، ويرتَادُونَ لك الريعَ، وأنت تتشاور مع أشياخهم، هذه الدارُ تَلِيقُ بنا، فتساعفهم في غَرَضِ شبعِ إِبِلِهِمْ هُوَيْنَه هُوَيْنَه، بحيثُ لا تتقلق ولا تضجر من المهل، فالمخزنُ كما قال الناسُ يقبل الغزالَ بالكريطة، فكلما أعجبتْكُمْ دَارٌ أو موضعٌ للكسبِ أقمتُمْ بِهِ، واسترحتُمْ فيهِ، وكل من أحبَّ الكيْلَ حينئذٍ من العرب ووالتْهُ درعةٌ أو المَشْمَسُ أو غيرهما فلا بأسَ به.

وأما كَيْلُ اليوم فلا تَدَعْ أحداً يكتَالُ، وتبقى بالرحلةِ والنزلةِ إلى أن تجيءَ في طرفِ البلادِ أولاد ادليم، وتنظر ما يعملونه ساعتئذٍ، فإن هُمْ هربوا للشريقية على عادتهم فأربعمائة من الخَيْلِ تكفيكَ فِيهِمْ، تجلِسُ أنتَ في موضعك وَتُزَمِّلُ لها، وتبقى حتى ياتونك بهم، فَأَيُّ شيءٍ عندَهُمْ يعملُونَهُ أنتَ فِي بلاَدِهِمْ، والعطشُ أمَامَهُمْ، والخيلُ وراءهم، وإن هُمْ هرَبُوا للساحلِ فذلك مانُرِيدُهُ منهم، فمن حَازَ نفسَهُ على البحر ما بَقِيَ ما يعمَلُهُ، وليسَ عندَكَ أهون من ذلك، تجعلهم بين عينيك وتقصد إليهم، فأنتَ من جهةٍ والبحرُ من جهةٍ.

وهذا هُوَ الرَّأْيِ لمن أرادَ استئصَالَ شَأْفَةِ أولاد ادليم، وهَلْ غَزْوُكَ إياهم، ونهُوضُكَ إليهم من طرَفِ بلاَدِهِمْ كغَزْوِكَ إياهم من تافيلالت، ما تصلُهُمْ حتَّى تَكلَّ الخيلُ وَتَعْيَا الإبلُ ويفرغَ الزادُ، وَهُمْ فرق نِعَامٍ، ما عندهم معولٌ إلاَّ الهروبُ في تلك البرية، فإنْ غزَوْتَهُمْ في طرفِ بلادهم لا ينفعهم هروبٌ سواء كانوا مجتمعين أو متفرقين، فهذا هو الرأْيُ الذي يهلِكُهُمْ اللهُ به بحوله وقوته.

فليشتغِلْ وَلَدُنَا بالإستعدادِ والكلام مع العرب من اليوم، وفي وقْتِ الربيعِ إن شاء الله يكون النهوضُ بحول الله وقوته، وإذا قرأت كتابَنَا هذا أسمَاهُ الله وأعزه، فاتكل على الله في التعويلِ عليه، واكتب لكلِّ قبيلة من قبائل هؤلاء العرب الذين ذكرنا لك نسخة من كتابنا هذا أسماه الله، وانظر من يقرأ على كل قبيلةٍ كتابَهَا، بعد أن يجمَعَ عليه خاصتَهَا وعامتَهَا.

وَقُلْ لهم : بالله الذي لا إله إلا هو مَا مِنْ عَرَبِيٍّ منكُمْ تخلَّفَ في هذه المرَّةِ، أو لم يَقِفْ قيامَ استعدادٍ صحيحٍ لهذِهِ الحركةِ، كبيراً كان أو صغيراً، ضعيفاً أو قوياً،

حتى أقتُلَهُ وَأَحْفِرَ جَدْرَ قبيلتِهِ الذي هو منها، واقْسِمْ لهم بأَيْمَانٍ يعرفون منها الجِدَّ حتى لا يُحْدِثَ أحدٌ منهم بالتخلُّفِ عنك، واللَّهِ وَاللَّهِ إن شاء الله إن تخلفَ أَحَدٌ عنك حَتَّى أَحْفِرَ جَدْرَهُ بحول الله وقوته ولا أحنث فيهِ إن شاء الله والسلام.

الرسالة: 9

ولدنا المامون أصلحك الله، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد فإِنَّا رأينَاكَ تتطلعُ للسرايا والغوانِجِ وتحبها وتتشوف إليها وتريدها، وتتحدث بها وتذكرها، وذلك من طبع الرجَالِ أهل الهمم الكبار، غير أنا كنا نُنْكِرُ عليك اقتصَارَكَ على هذه النجوعِ القريبَةِ، لغَزْيِكَ في ذلك النهار على حمْيَانٍ، وقد أحببنا أن تسمو بك همتك، وتطلع بك نجدتك إلى القبائل البعيدة التي تسير إليها في الجيوشِ الكثيفةِ، وتسير إليها الأيام والليالي ذوَاتِ العدد، وتضربها بِعَصَا الحقِّ، وتعمل بذلك حسنة جاريةً، فإذا كنت رجلاً فَهَا رُؤُوسُ الضلالِ وَذَوُوا النكثِ والزيغِ، ومشاهيبِ الفتَنِ أولاد عبد الله بن موسى، اتَّكِلْ على اللهِ سبحانه وتعالى.

وإذا قرأت كتابنا هذا أسماه الله تهيَّأْ لغزيهِمْ، وجهِّزْ أصحابكَ واجمع عليك من يَلِيقُ بكَ من عربِ تلك البلاد، واستفتِحِ الشهرَ القابلَ، وانهض نهوضَ رجلٍ، وتوجه في حفظ الله وأمَانِهِ إليهِمْ، فَهَا وصيفنا منصور بن الرامي كتبنا له يجمعَ عرَبَ الشَّرْقِ، ويخيم برَأْسِ العينِ في ميعادك ويرْجَاكَ هنالك، فإذا اجتمعت به فاضبط محلَّتَكَ، واقصد حاجتك، واتبع أولاد عبد الله حيْثُمَا كانوا، فإذا أظفرك الله بهم فلا تُبْقِ على أحدٍ منهم، ولا ترجع عنهم حتى يمَكِّنَكَ الله منهم بحوله وقوته، فأولئك الكلاَبُ هُمُ الذين يستحقون الغَزْيَ والأخذَ والقتْلَ.

وفيهِمْ وَفِي أعنَاقِهِمْ من الأيْمَانِ ما يقيدهم الله سبحانه بين يدَيْكَ، فواللَّهِ لولاَ أَنَّ اللهَ سبحانه جعلنا في مقابلةِ ما هو أَهَمُّ منْهُمْ من محاصرةِ مدينَةِ العرائشِ،

ومباشرةِ المسلمين بما يرجونه من الله سبحانه من فتحِهَا، وجيشُ اللهِ مستديرٌ بها، ما كُنَّا نُقَدِّمُ على غَزْيِّ أولاد عبد الله شيئاً، وأنت بعون الله حيث تَاقَتْ نفسُكَ إلى السرايا فلا تَجِدْ أحسنَ مِمَّا أمرناك به وأرشدناك إليه.

فاتَّكِلْ على الله سبحانه، وانهَضْ إليهم في غُرَّةِ الشهرِ القابلِ، مستعيناً بالله، واثقاً بالظفر إن شاء الله، وعلى اللهِ الكمالُ، وهو على مانقول وكيل، وخيلُكَ انْظُرْ منهَا الصحيحَةَ التي تصبِرُ لك على السَّيْرِ وتطيقُ المشي الليل والنهار، واكْسِ أصحابَكَ فَإِنَّ الوقتَ باردٌ، وانظُرْ إِبِلاً صحيحةً لِلزَّمْلِ، وهاهي العربُ الشرقيةُ تجِدُهَا مجموعةً إن شاء الله في بني يعَلاَّ، والله يظفرك ويغنمك، والسلام، في 17 فاتح سنة 1101هـ ـ 31 أكتوبر 1689م.

الرسالة: 10

ولدنا الأعز الأرضى مولاي المامون أصلحه الله، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، لا زَائِدَ بحمد الله إلاَّ الخيرُ والعافيةُ، والنِّعَمُ من الله المتوالية، أما بعد : فاعلَمْ أَنَّكَ مَا استوجبت رضَانَا عنك، ووجدت خاطرنا أكثر من كل أحدٍ إلا بنيتك الصالحة ونجدتك ومبادرتك لكل ما تعرِفُهُ يرضينا عنك، فإذا أحببتَ أن تنالَ رضانا المطلق العام، وأردت صفاء خاطرنا عليك من كل وجهٍ وعلى كل حالٍ فالمسألَةُ التي ترانا نؤكدُهَا مَرَّةً فَأَكِّدْهَا عشرَ مرات، واعتني بها اعتناء الرجال أهل النجدة والفائدة والجدِّ، وتحزم بها واعملها، ولا مسألة نُؤَكِّدُ بها تأكيداً .ولا أوجب من مسألةِ تسكين إخوانك والإعتناء بأمرهم لأننا أحببنا أن يعمرُوا معك، وأن يسكنوا سكوناً مليحاً، يسكن خاطرنا من جهتهم، بحيث يتعلمون الجدَّ والفائدةَ والخدمةَ على أرواحهم. فإذا كان كُلُّ واحدٍ من إخوانك يجري على متاعه الذي أعطاه الله له على يَدِنَا، ويعرِفُ نخْلَهُ وأرْضَهُ وما ينوب داره، ولا يحتاجك إليه إلاَّ في صرْخَةٍ أو حاجةٍ غير المعاشِ، وأغناه الله عن التملُّقِ والنظر لمَا في يدِكَ، ووجدت أخاك لا يثقُلُ عليك بطلبَةٍ ولا إلحاحٍ فذلك هو الأَخُ، وتلك هي النعمَةُ التي يحبها الرجلُ ويفرح بهَا قلْبُهُ، وتطيب من أجلها نفسُهُ وخاطرُهُ.

واعلم أن البلاد التي اشترينا من أهل الغرفة، وهي تامركنت أعطيناها لإخوانك مولاي عبد المالك ومولاي عبد الرحمان ومولاي الحسين، وصرَّفْنَاهَا عليهم صرفاً كلياً، أبداً سرمدياً، فَأَجِزْهَا لإخوانك المذكورين، وأشهدْ علينا بذلك،

واللَّهَ واللَّهَ، ثم اللَّهَ اللَّهَ، ثم اللَّهَ في إخوانك، أَلِّفْ قلُوبَهُمْ إليك، وحببهم فيك، وتحَبَّبْ لهم بالعدل فيهم والإحسان إليهم، والتحريض لهم على الجدِّ والتقى والفائدة والعفاف، وَغُضَّ الطرفَ من غير متاعهم الْمُعَيَّنِ مِنَّا لَهُمْ، وهذا خديمنا عبد الحق بن الصغير، هو رجلٌ مليحٌ، وكان عندنا على الفصَّةِ بتانوت، وابن أخيه خديمنا عبد الهادي هو عندنا قائدٌ على جميع تانوت وأحوازها، وهو واقفٌ على لسانِ الجدِّ والإعتناءِ في أشغاله، وعمُّهُ هذا ما رأينا من يَلِيقُ بذلك الأصلِ الذي صرَّفْنَاهُ على إخوتك المذكورين إلا هو، فلذلك وَجَّهْنَاهُ في حفظِ الله وكلاءته يجْرِي لإخوانك على متاعهم، ويقِفُ لهم على أصولهم وُقُوفَ الجدِّ والإجتهاد، فنؤكد عليك أشدَّ التأكيدِ أن تَتَهَلاَّ فيه بمعنى تعتني به وتستوصي به خيراً وإحساناً، وكل غرض يتوَقَّفُ له عندك مِمَّا يعُودُ نفْعُهُ على إخوانكَ إن شاء اللهُ اقضهِ له من حينِكَ، ولا تتوَقَّفْ فيهِ، وَأَلِنْ لَهُ الجانبَ، وزِدْهُ تحريضاً من عندك على الوقوفِ والجري على أصول إخوانك، وإذا احتاجت البلادُ إلى زيادةِ بعضِ النوبِ من الماءِ فاشترِهَا له وأَعِنْ بها إخوانك، أعانك الله على كل خير وأصلحك، لأنَّ الماءَ أمرُهُ أكيدٌ، بِهِ تزدَادُ الأملاكُ صلاحاً وخيراً وملاحةً، فكل ما قدرت أن تنفع به إخوانك في أصولهم بماءٍ أو غيره لا يزيدك ذلك مِنَّا إلا رضى ومحبةً في قلوبنا، وإذا احتاج عبد الجبار لبعضِ الخدامين والمشاغيلِ من أهلِ أولئك الناحيَةِ فخُذْ بيدِهِ فيهِمْ، وحررهم له، فهو لَمْ يُعَيِّنْهُمْ الآنَ مِنْ هُنَا، ولكن بعد أن يكون هنالك هُوَ يدبر فيمن يعينُهُ على وظيفهِ وتكليفهِ بذلك الشغل، وفيمن يأخذُ بيده.

وأنت أصلحك اللهُ شُدَّ روحكَ معه، وَرُدَّ بالَكَ إليهِ، فإن من نَفَعَ إخوانك وجرى لك على أصولهم ومتاعهم الذي يغنيهِمْ عنك وعن غيرك في أمرِ معاشهم ما نَفَعَ في الحقيقةِ إلا أَنْتَ، ولا عَمِلَ الخيرَ إلاَّ معَكَ، فاللَّه اللَّهَ فيه.

ولا أحتاجُ إلى مزيدِ تأكيدٍ عليك في هذا الأمر، فإذا كنت وَلَدَ حلالٍ كما نعتقدُ فيكَ، ونعرِفُ منك، فأنت الذي تؤكد مسألةَ إخوانك أكثر مما نؤكدها نحن، وإذا سمعت منا كلمةً واحدة في التحريضِ على شأن تسكينِهِمْ والإعتناء بأصولهم وأملاكهم تزيدُهُمْ أنتَ في ذلك فَوْقَ جهدِكَ وفوقَ طاقتِكَ، وعلى كل حالٍ الوصيةُ ها نحن أوصيناك وحرضناك، واعتقادُنَا فيك جميلٌ لِمَا نعلَمُ أنك تعمل بها وتعتني بشأنها، واللَّهَ اللَّهَ في إخوانك الآخرين الذين في الجاررة، رُدَّ لهُمْ البَالَ، ولا تغفل عنهم، والإِدَامُ الذي يخصهم هَا نحن تكلَّمْنَا مع خديمنا عبد الله الروسي، وألزمناه أن يبلغ لهم ما يحتاجون إليه من الإِدَامِ، ولا تَغَافَلْنَا عنهُمْ ولاَ نَسَيْنَاهُمْ، غير أن محمد بن الشريف لما أَنْ كَانَ شَوَّشَنَا (بمعنى أقلقَنَا) قبْلَ هذا أفْسَدَ عليهِمْ ما كُنَّا نزَّلْنَاهُ لهُمْ وعيَّنَّاهُ إليهم من مؤونتهم، وإلى الآن هَا هُوَ يصلهم إن شاء الله على يد خديمنا عبد الله الروسي، والسلام، وبه كتب في 2 من رجب الفرد عام 1102هـ ـ 30 مارس 1691م.

إلحَاقُ نَصِّهِ : والخيرُ الذي تعمله فينا وفي نفسك وفي إخوانك هو مسألةُ ساقيةِ تامركنت لا تقطع عنها أبداً، ولا يشارِكُهُمْ فيهَا أَحَدٌ أبداً سرمداً، وَشُدَّ روحَكَ في عبد الجبار، شُدَّ روحكَ معه، أَعِنْهُ، أَعِنْهُ، أَعِنْهُ على أملاكِ إخوانك في كل ما يحتاجك إليه، أو يطلبُهُ منك، ولا تغفل عنه بوجهٍ من الوجوهِ، وهذه البراوَةُ

بعد أَنّ أرسلنا لك أُخْتَهَا مع وصيفنا حمو بن أبي الحمين والكاتب السيد محمد الصغير، المدعو هَامَانّ، أردفنَاهَا لك بهذِهِ تأكيداً عليك، فاللَّهَ اللَّهَ، ثم الله الله، ثم الله الله في مُضَمَّنِهَا، والله يُرْضِي عنك، ويصلح رأيك، ويثمر غرسك، ويجعلك من أولادِ الحلالِ، ويسدد رأيك، وينبتك نباتاً حسناً آمين، يارب العالمين، صح به في تاريخه، انتهى.

الرسالة: 11

ولدنا مولاي المامون أصلحك الله، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد : فاعْلَمْ أَنِّي كنت أتكلم مع ذلك الأَبْلَهِ ابن أخينَا عبد الكريم بن محرز، وهَا هُوَ عندنا وأرَادَ الإنصرافَ، ولا تَظُنَّ أن فيه عمارةً، فَمَا تَمَّ شَيْءٌ، ولا تتعَامَى على أحدٍ من الشرفاء تظهَرُ لك فيه منقصَةٌ، أو بيانٌ على قبيحةٍ، أو يصدر منه تعَدٍّ على أحدٍ، أو يفحش، أو يخرج عن حدِّهِ في مسألةٍ، ولا تَقِلْ أحداً منهم في الحَقِّ، واعْتِبْ على من استحقَّ العَتَبَ مِنْهُمْ.

واشْدُدْ، ولا تتعامى لأحدٍ منهم في شيءٍ أصلاً، والحقُّ أولى في القريبِ والبعيدِ، فلقد قال لي : أردت الإنصرافَ عن داري، فقلت له لماذا؟ فقال : إني أخاف من السرقةِ، فقلت له ومن يشتغل بِهَا في تافيلالت؟ فقال : ما رأيت من يسرق هنالك هذه الساعة إلا العبيد، عبيد اكناوى، لأنهم كثُروا عند الشرفاء جداً، فسكَتُّ عنه، ونسيتُ أَنْ أكتبَ لك على هذه المسألةِ حينئذٍ.

وأنا كنت عازماً على أَنْ أكتبَ لك على شأنها ثَمَّةَ في الفورِ بلا بطئٍ، إلى يوم كتبه كنت أتحدَّثُ مع خديمنا دحمان غرنيط على ما فعَلَ بِهِ عبيد اكناوى من الضربِ والقتلِ ذلك العامِ، فتفكرتُ فيما قال لنا ابن أخينا عبد الكريم بن محرز، وقال لي بعدها : وكذلك أخونا العباس بن الشريف، ولا بَقِيَ شكٌّ في أن عبيدَ اكناوى كثُروا بتافيلالت، ولا يعمل ذلك العَمَلَ إلاَّ هُمْ.

وإذا كان كُلُّ شريفٍ له عبدٌ أو عبدانِ، وكلُّ واحدٍ من الشرفاء له اثنانِ أو ثلاثةٍ فهم الآن بتلكَ البلاد مثلُ عددِ الشرفاء وأكثر، فمن كَثُرَ مَالُهُ من الشرفاء لا يصبر حَتَّى يعملَ عبداً أو اثنين فيصيرون هم أقوى من غيرهم، ومن عَمِلَ عبْدُهُ عَمْلَةً، أو سرق سرقةً يقول أحدُهُمَا : عبدُكَ عَمِلَ كذا وكذا، أو سرق كذا، يقول لَهُ هُوَ : عبدُكَ هُوَ الَّذِي عَمِلَ ذَلِكَ، وعبدي ما عَمِلَ شيئاً، ويعظمُ فسادهم على الناس، ولا يبقى جنانٌ ولا دارٌ إلا ويدخلونها، ولا تمرٌ إلا ويعملون اليَدَ فيهِ، ولا كرطٌ إلا ويسرقُونَهُ، ولا حاجةٌ يفرِّطُ فيها صاحبُهَا ولو ساعةً إلا وتسرق ، ولا يظهر لها أثرٌ.

فبِاللَّهِ الذي لا إله إلا هو لا قَبِلْتُ منْكَ فيهِمْ عذْراً، إلاَّ تحزم فيهِمْ على كُلِّ من قبضتَهُ منهُمْ أصلاً، وخصوصاً عبيد أهل وادي أفلي منْهُمْ، ولا تَقِلْ منهُمْ لا عبيدَ أَبيكَ متاعنا، ولا عبيدَ الشرفاء، ومهما أُوتِيَ لكَ بعبْدٍ سَرَقَ، أو دخل داراً، أو رمى اليَدَ في دارٍ أو جنانٍ، فاقدِمْ به لوسطِ السوقِ على ملأٍ من الناس، ثم اضرب رقبته، وذلك موضعُهُ، ولا تدفنه حتى الدفنِ، والشريفُ لا يَبِيتُ في داره من عندِكَ إلا بعبدٍ آخر مثْلَ عبْدِهِ، حتى لا يبقى على النَّاسِ منهُمْ ضررٌ أصلاً.

ولا تُطْلِقْ لهم بطرفٍ، ولا تجعلِ الشرفاء يعملون لك عبيدُهُمْ في الناسِ الفعالَ القبيحةَ، ويصيرُ كُلُّ واحدٍ منهم يرمي دعوى عبدِهِ على عبدٍ الآخر، ولا تجدُ أنت ما تقبضُ منهُمْ، وهُمْ بأرواحِهِمْ الشرفَاءُ أَقْعِدْ كُلَّ واحدٍ منهُمْ عندَ رأْسِهِ، وأَرِيهِ ما يليقُ بهِ في نفسِهِ، ومن جاءَكَ منهم على دعوى مع صاحبِهِ افرقْ مَعَهُ فيهَا بِمَا

اقتضَاهُ النَّظَرُ في الوقتِ، وتكلم معه وأنصفه إِنْ كان مظلوماً، واضْرِبْ على يَدِهِ إِنْ كَانَ ظالماً.

ومن جاءك يُحَشِّمُكَ بطلَبِهِ ويريدُ أن يشمتَ فيكَ منهم قُلْ لَهُ : إذا أحببتَ أن تطلُبَ ولك حاجةٌ في شيءٍ علَيْكَ بوالدنا نصره الله، وتَفَادَى مِنْهُ ذلك، وتخلَّصْ منه بحسن التخلص، ولا تعطيهم فيك الرخَاءَ للطلبِ، فلا يرجعون عنك، ولا يَفُكُّكَ مِنْهُمْ شيءٌ، ولا تأتي لهم على غرضٍ أصلاً، ونحن نعرِفُ كُلَّ واحدٍ منهم وما يستحِقُّ، ولا نستحي منهم في الحقَّ إِنْ جاؤونا، ونعرِفُ منهم ما لَيْسَ تعرِفُهُ أنتَ ولا غيرك، ولا يقدر أَحَدٌ منهم أن يفُوهَ لدينا إلا بِمَا لاَبُدَّ لَهُ منه.

ونقول لك مسألةً عن وَالِدِنَا مولاي الشريف رحمه الله، سمعتُهَا مِنْهُ بِأُذُنَايَ هَذِهِ، ووعيتُهَا منه، ولم أنسَاهَا من ذلك الزمان إلى الآن، وهي أَنَّ والدَنَا مولاي الشريف رحمه الله لَمَّا أَبْصَرَ أخانا مولاي محمد بن الشريف رحمه الله يسرفُ في قتلِ عبيده كل يومٍ وعَلَى أَدْنَى شيءٍ، ولا يقبل لهم عثرةً، أغاضَ فعْلَهُ والدُنَا رحمه الله، ولم يقبل له ذلك فيهم، وبعث إليه من مكانه وأنا حاضرٌ واعٍ لهذهِ المسألةِ يخاصمه ويعاتبه على قتلِهِمْ، فقال للذي جاءه من عنْدِ والدنا قُلْ لَهُ :

اللَّهُ يُبَارِكُ فِي عُمُرِهِ، العبيدُ ليس لهم عقلٌ ولا فيهم حَسَبٌ يرتدعُونَ به عن القبيحِ، وأنا عندي مِنْهُمْ بتافيلالت اليوم نحو ستة عشر مائة من العبيدِ، وأهل تافيلالت عندهم مائةُ دشرةٍ، فإذا أطلقنا لهؤلاءِ العبيد على أغراضهم هذا يسرقُ داراً، وهذا يسوسُ نخلةً من خبان، والآخرُ يحصد كموناً من زرعٍ ويحمِلُهُ في شَامِيَتِهِ، وهذا يرمي يدَهُ في هذا، وهذا يتعدَّى على هذا، فتبقى تافيلالت

علينا خاليةً من فِعْلِ هؤلاء العبيد، وكلُّهُمْ يفِرُّونَ منَّا ويتسللونَ لمحمد الحاج بالزاوية، وندور نحْنُ مَعَ مَنْ نُعَمِّرُ تافيلالت ولا نَجِدُهُ، فأنَا إنْ تغافلتُ عن العبيدِ، وتجاوزتُ لهم في العقابِ يَا أَبِي يُنْشَئُ عن ذلك فسادٌ كبيرٌ في البلدِ، ولا يردهم عنه شيء إلا الصحيحُ، فبالأمسِ عَمِلُوا اليَدَ في العُلُوجِ، وقبلها سرقوا الكرطَ من الموضعِ الفُلاَنِي، وَعَمِلُوا كذا وكذا، وَعَدَّدَ عليه مع الذي جَاءَهُ من عنْدِ والده مسَائِلَهُمْ كُلَّهَا، فلما بلغ لوالدِنَا كلاَمَهُ رحمه الله علِمَ أَنَّهُ ما أجَابَهُ إلا بالحقيقة، ولا خاطبهُ إلا بالصدق، ولا رَدَّ عليه إلا بالحذرِ بما لابد منه من واضحِ العذرِ، فحينئذٍ قال له : قُلْ لَهُ : أحسَنْتَ أحسنت، والرأيُ ما رأيْتَ، ولم يَبْقَ له عليهِ عتابٌ بعد ذلك اليومِ أصلاً، وأنت اليوم إذا تغافلت عن العبيدِ في تافيلالت، وأطلَقْتَ لهم على شهَوَاتِهِمْ، ولم تُخَدِّمْ فيهِمْ السيْفَ يلعبُونَ بكَ مَعَنَا، ولا تأْمَنْ عتابنَا وغضبَنَا، فالشرفاءُ والحمد لله كثيرونَ، وعبيدُهُمْ شَتَّى، وَهَاهُمْ يطلقونهم بوادي أفلي وبتافيلالت فَوْضَى يعملون في الناسِ ما أَحَبُّوا وما أَرَادُوا، وإذا سُرِقَ شيءٌ أو وَقَعَتْ في البلدِ قبيحةٌ كُلُّهُمْ يتبرَؤُنَ لكَ منْهَا، ويصير هذا الشريفُ يقُولُ : عبدُكَ هُوَ الذي عَمِلَهَا، والآخرُ يقولُ : ما عَمِلَهَا إلا عبْدُكَ فلانٌ، وعبْدِي ما عَمِلَ شيئاً، ويكثرُ فسَادُهُمْ بسببِ ذلك، فنامرك أَنْ تَتَحَزَّمَ للعبيدِ بحزَامِ الجدِّ، وَرُدَّ لهُمْ بالبالِ، وخدم فيهم السيفَ، ثم السيفَ، ثم السيفَ، على قدرِ جرائمهم وطغيانهم، فالشريفُ إن عَمِلَ عَبْدُهُ عَمْلَةً، أو جَنَى جنايةً لا تقول له شيئاً، وعبدُهُ اقبضهُ واضربهُ بالمخَارِيطِ في وسطِ السوقِ، وهو ينظُرُ إليه، وأغرمْ له عبْدَهُ، ولا يبيتُ إلاَّ بِهِ فِي دَارِهِ، وعبدُكَ أو عبْدُ والدِكَ هُنَالِكَ فِي اتِّجَارٍ أو غيْرِهِ إنْ عَمِلَ

شيئاً اقطعْ لَهُ رَأْسَهُ، ولا تُفْلِتْهُ، والله يُعَرِّضهُ خيراً، فما عندك من يحجر عليكَ، ولا من يضرب يديك في الحقِّ، ولا يصدك عن الحكمِ ولا ينفعُكَ في ذلك إلا السَّيْفُ، ولا تقبَلْ بَقَاءَ جسارةِ العبيدِ عليك، وإن تمَادَوْا على غوايتهم يتَجَاهَرُ عليكَ حَتَّى غيرُهُمْ، فأنا بريءٌ منكَ والتَّرَاخِي في هذا الأمر، وإِنْ تغَافَلْتَ عنهم بَعْدَ هَذَا ولم تَتَحَزَّمْ لضبطِهِمْ كُلَّ الضبطِ حتى لا نسمَعَ بذكرِ هذهِ المسألةِ بِأُذُنِي، فإنَّكَ لاَ تَأْمَنُ منَّا، ولا نقبل منك فيها عذراً، ولا نصبر لك فيها لا بوجهٍ ولا بحالٍ، والسلام، في 12 رمضان عام 1102هـ ـ 9 يونيه 1691م.

الرسالة: 12

ولدنا مولاي المامون أصلحه الله، سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، وبعد :
فَبِنَفْسِ ما يصلك حاملُهُ الحاج الواردُ بخبَرِ موت أخينَا مولاي الحران رحمه الله بمكةَ شرفها الله، وَجِّهْهُ لأولادِ أخينا مولاي مهدي ومولاي عبد المالك أصلحَهُمُ اللَّهُ، يشرَحُ لهُمْ خبرَ موتِهِ، ويقُصُّ عليهم ما خصَّهُ اللهُ به من المَوْتَةِ الحسنةِ بالحرم الشريف، وما حضَرَ له من خيَارِ الناس والأشراف والأركاب والحجاج، لتزيحَ بعضَ التوجعِ عن قلوبهم.

وبعد يومٍ أَوْ يومَيْنِ أو ثلاثةٍ وَالحَاجُّ حَامِلُهُ عندهم مقيمٌ أَبْلِغْ أنتَ إليهم وعَزِّيهِمْ في عمِّكَ، وأَزِحْ من قلوبهم بعضَ الأغيار والأكدارِ، وَوَسِّعْ في أخلاقهم، وحتى أنتَ في نفسك وأولادك وأهالينَا جميعاً لاَبُدَّ وَأَنْ يُظهروا في نفوسهم بعْضَ التوجعِ لموتِ أخينا رحمه الله، وإن كنا نحن لا نجزَعُ من الموتِ، ولا نبكي على من مات، ولا يهمنا من الدهر خَطْبٌ من الخطوبِ، ولا فَقْدُ قريبٍ أو بعيدٍ، لأَنَّ ثقتَنَا بالله وتوكلنا عليه، ومن توكل على الله كفاه، والكفايةُ بالله، لكن لاَبُدَّ من إظهارِ ما حَلَّ بالأهلِ والإخوانِ وأولادِ الأخ عندكم حتى يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا يسوءهم يسوءنا، وما يغيِّرُهُمْ يغيرنا، وأَنَا وهم في موتِ والدهم وغيرِهِ سواءٌ، من غير بروزِ ذلك عنكم كثيراً كثيراً، لكي تتآلفَ الأخوةُ بينهم، وتألفُهُمْ ويألفُونَكَ، وتسكنُ نفُوسُهُمْ إليك ويودونك ويحبُّونَكَ، وتذهب عنهم الأحزانُ والأكدارُ، وتوسع في أخلاقهم، ولا يُنْفِرُونَ منك، فَامْشِ إليهم الأَيَّامَ لدَارِهِمْ، ووسع لهم في أخلاقهم، وأزِلْ لهم

غيارَهُمْ وما حَلَّ بهم، ولا تَغِبْ عنهم بَلْ زُرْهُمْ يوماً بعد يومٍ حتى تذهب أحزَانُهُمْ، وينصرف عنهم غيارهم من كُلِّ وجهٍ، ولاَبُدَّ والسلام.

إلحاق بنصه : وبعد انصرافِ الحَاجِّ عنَّا بهذا الكتابِ بنصفِ يومٍ بلَغَنَا ابْنُ أخينا مولاي مهدي أصلحه الله، فَرَدَدْنَا الحَاجَّ وقبضنَاهُ هنا، ومَكَّنَا البراوات من مولاي مهدي أصلحه الله، فَهَا هُوَ يصلك، وقد أَذِنَّا له وتكلمنا معَهُ يُحْصِي لنا جميع ما خَلَّفَهُ أبوهُ رحمه الله من الأهل والعيال والأجنة والمال والأثاث والخدم والعبيد، ولا يغادرُ مسألةً إلاَّ ويعرفنا بها في دارِهِ ودَارِ إخوَتِهِ، ويرْجِعُ إلينَا في الفَوْرِ عزماً عزماً دُونَ تراخٍ ولا تَوَانٍ، فَقِفْ لَهُ فيمَا يحتاجهُ منْكَ، وعند رجوعهِ إلينا نُوَكِّلُهُ إن شاء الله على الجميعِ، ونفوضُ له التفويضَ التَّامَ، ونعطيه ما يَخُصُّهُ من عَوْلَةِ السمن والزرع وغيرها إن شاء الله، فلا يبطأ عنَّا هنالك ولو ساعةً واحدةً، وولد محمد بن رضوان ابعثْهُ لنا يحضر مع الفقهاءِ والطلبةِ قراءَةَ سيدي البخاري، ولاَبُدَّ عزماً عزماً، وَهَا وصيفُنَا حامله معَهُ يرجعُ ولا يفَارِقُهُ، ولاَبُدَّ والسلام، في 24 من شعبان المبارك عام 1099هـ ـ 24 يونيه 1698م.

الرسالة: 13

ولدنا مولاي المامون أصلحك الله، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد : فاعلمْ أَنَّ أخاكَ السعيد حكايتُهُ نعيِّنُهَا لك ونسردُهَا عليكَ، لتفهمَهَا وتعرفهَا وتتحققهَا، وذلك أَنَّ أُمَّهُ كانت عند وصيفٍ لمولاي الرشيد، وهَرَبَ، فمُنِعَتْ منْهُ، وفي أثناء ذلك المنْعِ وقع البِنَاءُ بهَا منَّا بعد طُهْرِهَا، وفي قُرْبِ ذلك رَدَدْنَا أُمَّهُ لزوجها الأَوَّلِ الذي كانت عنده، ولم يقَعْ لها طهرٌ عندَهُ ولا شيءَ ممَّا يوجِبُ ويثبت اللِّحَاقَ له ولا النفيَ.

وقبْلَ هَذَا سألنَا السيد عبد القادر الفاسي، وقررنَا لَهُ حكايتَهُ، فلَمْ يُلْحِقْهُ، وسَأَلْنَا بعد ذلك السيد عبد المالك التجمُوعْتِي فَأَلْحَقَهُ، وسَأَلْنَا بعْدَهُ السيد الحسنَ اليُوسِي فلم يُلْحِقْهُ، والآنَ بوصولِهِ إليكَ اجمَعْهُ عندَكَ، واجمَعْ معَهُ السيد عبد المالك التجموعتي، وقرِّرْ لَهُ الحكايةَ، وعرِّفْهُ بذلك بسياسةٍ وعقلٍ وتحقُّقِ مسألةٍ، وعَرِّفْهُ بصحَّةِ ذلك، وانظُرْ لَهُ أينَ تسكنه في موضعٍ، وَعَيِّنْ له نحْوَ الثلاثمائة نخلةٍ يعيشُ فيهَا، واقطعْهَا لَهُ وَرَضِّيهِ بها، وسَكِّنْ معه أُمُّهُ في المَوْضِعِ الذي تعينُهُ لَهُ، وَقِفْ في هذهِ المسألة حتى تفهمهَا وتتبينهَا أنتَ، وتعمَلُ ما يَلِيقُ في ذلكَ ويصلحُ إن شاء الله والسلام، في 27 من جمادى الأولى سنة 1099هـ ـ 30 مارس 1688م.

الرسالة: 14

ولدنا المامون أصلحك الله ووفقك وأعانك، سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد : فقد وجهْنَا إليك ولدنا مولاي محمد أصلحه اللهُ وثبَّتَ غرسه، وأعطيتك في زيارتِهِ سرجاً مليحةً من الذَّهَبِ عياديةً، وفيها ركابٌ من الذخائرِ النفيسةِ، والحوائجِ المثَّمَّنَةِ التي لا تُوجَدُ إلاَّ في خزائنِ الملُوكِ، فالركابُ من النقرة، وتطبيقُهُ من الذَّهَبِ، عليه ما يزيدُ على الأربعَةِ مثقالٍ من خالصِ الذَّهَبِ، ومسَاميرُ التطبيق من الذَّهَبِ، والركابُ بنفسِهِ منْ خالصِ الفِضَّةِ، وفيهِ صناعةٌ كبيرةٌ تروقُ النَّاظِرِ ويستملِحُهَا الخاطرُ، فلا تكاد تُوجَدُ تلكَ الصناعةُ إلاَّ فِيهِ، وما وجهنَاْه لك في زيارة ابنِنَا مولاي محمد أصلحه الله وثبَّتَ غرسَهُ إلا لتتعرَّفَ من ذلك معزَّتَكَ عندَنَا، واختصَاصَكَ لدينَا، ولأنَّنَا نحبُّكَ ونؤثرك لبِرِّكَ بِنَا، ولِمَا توسَّمْنَا فيك من الفائدةِ، فالله يجعلها عليك مباركة سعيدة، فاحفظها ولا تفرط فيها، فإنها ذخيرة من الذخائر الكبار، والذي أوصيك عليه هُوَ أَنْ تَتَهَلاَّ بمعنى تعتني في مولاي محمد أصلحه الله، اتْهَلاَّ فيه وَرَبِّيهِ تربيةً مليحةً، وَفَشِّشْهُ وَخَنِّثْهُ، ولا تقهَرْهُ كمولاي محرز، فَرَبِّ ولدَنَا تربيَّةً مُفَشَّشَةً، والله يصلحه ويثبتُ غَرْسَهُ.

واعلَمْ أنَاَّ وجهنا وُصَفَائِنَا أصحابِ وصيفِنَا ناصر بن النجاعي، ووصيفنِا الكراوي معهُمَا لخديمنا موسى المنوكي يتوجَّهُونَ معَهُ لمعاذرِ المَشْمَسِ، أقا، وتسنت، وصنط، ويخَيِّمُونَ عليهم حَتَّى يُأَدُّوا حقَّ بيتِ المالِ الذي عليهم هذه سنوات، ويقْضُونَ إنْ شاءَ الله أغراضاً في تلك البلادِ، فإنها جاءَتْ بالزرعِ هذه السَّنَة،

وَصَابَاتُهَا بِالسِّنِينَ، فلاَ نجدُ لهَا أحسَنَ من هَذِهِ السَّنَةَ، ومنهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ يجْتَازُونَ للفَائِجَةِ.

فإذا وصلتك هذه المحلَّةُ في حفظ اللهِ وأمانهِ فَاتْهَلاً بمعنى اعتني فيها، وإذا خصَّهَا شيءٌ من الزَّمْلِ فاعطِهَا نَحْوَ الخمسينَ بعيراً تحملُ عليْهَا رباطاتها وجلالتها وعمائرها، وَوَجِّهْهَا في حفظ الله وأمانته، ويَصِلُكَ صحبَةَ وصيفنِا مولود المشاوري وصيفٌ اسْمُهُ موسى الكناوي، وكان من عبِيدِ محرزٍ، ولما قبضنَاهُ عندَنَا بقيَتْ امرأَتُهُ وامرأةٌ وصيفٍ آخرٍ واسْمُهُ مرزوك الدكالي عِنْدَ محرزٍ، فاعطيهِ فِيهِمَا زُوجْ بمعنى إثنان خدم فِي الخَادِمِ، سواء كانوا له أو لابْنَةِ أخينَا مولاي الرشيد رحمه الله، فأعطِيهِ أربع خدم، زوج بمعنى إثنان في الواحدةِ.

ووجه لنا هذا الوَصِيفَ موسى بامْرَأَتِهِ وأولاَدِهِ، وزوجة مرزوك الدكالي وأولاده، ولابد يأتوننا مع وصيفنا مولود المشاوري، وَشُدَّ رُوحَكَ في أشْغَالِكَ، وَكُنْ ضابطاً لكل ما هنالك، واللَّهُ يُيَسِّرْ عليك ويعينك بمنه آمين، وتصلك صُحْبَةَ وصيفنِا مولود المشاوري ثلاثَ عشْرَةَ بقرةً حلُوبَةً وَفَحْلٌ، منها أَحَدَ عشرَةَ بقرةً لولدنا مولاي محمد أصلحه الله، ومنها بقرتَانِ درعٌ، واحدةٌ عجلُهَا أحمرٌ، وواحدةٌ عجلُهَا أبيَضٌ لابنةِ أخينا مولاي المهدي التي عِنْدَ وَلَدِنَا مولاي الشيخ أصلحه الله، فاعْطِيهِمَا لَهُ واقبِضْ أنتَ الإحدى عشر التي أَعْطَيْنَا لمولاي محمد أصلحه الله، والسلام، في 4 رجب الفرد المبارك سنة 1101هـ ـ 3 أبريل 1691م.

الرسالة: 15

ولدنا مولاي المامون أصلحك الله، سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد : فَاعْلَمْ أَنَّ أخاك مولاي بَنْصَرْ جَاءَ بحَرَمِ مولاي إدريس جعلَنَا اللَّهُ في حماه، فأرسلْنَا إليهِ حتى كان واقفاً بيْنَ أيدينَا، وأخذْنَا نوبخُهُ لعصيَانِهِ لك محتجين عليه بما سطَّرْتَهُ لنا في كتابكَ، لأنك لا تخاطِبْنَا إلا بالصدقِ.

وفي أثرِهِ دخلَ علينَا أخُوكَ شقيقُكَ المهدي، فقرأنَا عليْهِمَا كتَابَكَ، فَزَعَمَا أن الذي رميْتَ بهِ أخاكَ بَنْصَرْ أنتَ هُوَ المشتغلُ به، ونحْنُ لم نصدقهما فيمَا نَسَبَاهُ إليكَ، ولمْ نقْبَلْ كلامهُمَا في جانبِكَ لجميلِ ظننا فيك، وتنزيهنَا إياك من كل شبهة، فَإِلَى الآنَ ساعة ما تقْرَأْ كتَابَنَا هَذَا، توكَّلْ على اللهِ وَارْكَبْ حصانَكَ مصحوباً بالسلامة والعافية وتعالى في حالِكَ لِتُقَابِلَهُمَا في وُجُوهِهِمَا ونسمَعُ إن شاء الله كلاَمَكُمْ جميعا، لأني ثَقَّفْتُهُمَا وقبضتُهُمَا إلى أَنْ تقدمَ بالسلامةِ، تُدَافِعُ عن روحكَ.

ولا أَحْكُمُ فيكم جميعا إلا بالشريعة المحمدية، وبما حَكَمَ به سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ولده منَ الجَلْدِ ثمَانِينَ، وأنتَ إئْتِ معَكَ بمَنْ يشهَدُ لَكَ ونقبَلُ شهَادَتَهُ في بَرَاءَتِكَ ممَّا لَمزَاكَ بِهِ وَرَدَّاهُ عليْكَ، فإذا تكلمتَ مَعَ أخَوَيْكَ أَمَامَنَا وغلبتَهُمَا بِالحُجَّةِ الصحيحةِ، والشهادةِ الصريحةِ، حَكَمْنَا بمحضرِكَ وأصلحْنَاكَ معَهُمَا، ونمَكِّنْهُمَا لكَ في يَدِكَ ترجعونَ لمكَانِكُمْ جميعاً إن شاء الله، ونعطيكَ من غنيمةِ العرائشِ ما يكتُبُ اللهُ لَكَ منها، ممَّا يَلِيقُ بك وتشمَلُكَ برَكَتُهُ، وإيَّاكَ ثُمَّ إياك أن تَتَرَاخَى في القُدُومِ بالعزْمِ لنفصلَ بينكُمْ بالحَقِّ، فإنك إنْ

تَأَخَّرْتَ عن القدومِ وأبطَأْتَ عنِ المجيءِ عزماً يَصِحُّ فيكَ ما نَفَيْنَاهُ عنْكَ، وتخافُ على نفسِكَ، وبالأَمْسِ جِئْتَنَا لمراكشٍ في قصاصِ طَرْشَةٍ ادَّعَى عليْكَ بها ابْنُ عمِّكَ، فأحرى في معصيةٍ من معاصي اللَّهِ تُنْفِيهَا عَنْ رُوحِكَ، وَتُبَرِّأُ نفسَكَ منها، فَاقْدِمْ بالسلامة من غيْرِ تَرَاخِي ولا مُهْلَةٍ، فإنِّي لا أطلقُ أَخَوَيْكَ إلاَّ في يَدِكَ، ولابد والسلام، في 4 صفر سنة 1101هـ ـ 17 نونبر 1689م.

الرسالة: 16

ولدنا المامون أصلحك الله وحفظك، وغلى طريق الهداية وَفَّقَكَ وأرشدكَ، سلامٌ عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خيرٍ كاملٍ، وفضلٍ من الله عميمٍ شاملٍ، وبعد : فقد تَشَكَّى لَنَا بِكَ محرز على شَأْنِ أصحَابِهِ، وقال بأنَّكَ أخذْتَهُمْ لَهُ وحُزْتَهُمْ إليكَ، وَأَوَّلُ مَنْ ذَكَرَ منهم ولد مُومَنْ أورَاغْ، ومن أشياخِ تافيلالت وكُبَرَائِهَا، فيتكَلَّمُ في أهلِ السفَالاَتِ كُلِّهِمْ.

وإِنْ كَانَ كُلُّ مَنْ خالطَ محرزٍ واستخْدَمَهُ ليْسَ فيهِ خيْرٌ ولا مصلحةٌ ولا منفعةٌ، فلا يمْكنُكَ طَرْدَ هؤلاءِ ولا مُبَاعَدَتِهِمْ وإهمَالِهِمْ كأنهُمْ جَاءَتْ بهم الطرقةُ لمعرِفَتِكَ ولخدمتكَ وأنتَ أَوْلَى بهم مِنْ محرزٍ، فيحولونَ بينَكَ وبيْنَ إخوَانِهِمْ وجمَاعَتِهِمْ، غَيْرَ أنك خَدِّمِ الكِلاَبَ خِدْمَةَ البَرَاهِيشِ، ولا يَتَلاَهَوْا عليك مثلَمَا تَلاَهَوْا على محرزٍ، الذي كانَ خافضاً لهم العنَانَ على المساكينِ يعملُونَ فيهِمْ ما أَرَادُوا، عشَرَةً يأكلونَهَا، وواحدةً يُبَلِّغُونَهَا إليهِ، ويَذُمُّونَ عليْهِ كُلِّ شيءٍ وهو لا يشْعُرُ بهمْ، ولا يعرِفُ ما هُمْ يعمَلُونَهُ.

فَعَرِّفِ الكَلْبَ مَوَاضِعَهُمْ، ورَاقِبْ أحوَالَهُمْ، واخْتَبِرْ جريتهُمْ وسيرَتَهُمْ، إلى أن تكونَ عندك مسائِلُهُمْ كُلُّهَا نصْبَ عينَيْكَ، بحيْثُ إنْ أُكِلَتْ في تافيلالت ولو تمرَةٌ بغيْرِ إِذْنِكَ لا يَبِيتُ خَبَرُهَا إلَّا عِنْدكَ، وتَعْرِفُ مَنْ أكلَهَا وتعَاقِبُهُ عليْهَا، ولاَ تَقُلْ له عَثَرْتُ في شَأْنِهَا حَتَّى ما يعود أَحَدٌ يتصرَّفُ وَلَوْ فِي شربةِ ماءٍ بغيرِ أمرِكَ، ولاَ تُجَسِّرْ عليكَ الكِلاَبَ، ويهْزَؤُونَ بكَ مثْلَ استِهْزَائِهِمْ بمحرزٍ واستخْفَافِهِمْ بِهِ.

وإيَّاكَ ثُمَّ إيَّاكَ والمَيْلُ لمخالطةِ الشرفَاءِ والجمُوعِ معهُمْ، وخصوصاً ذَوِي الأحداثِ منهم، فلا تُجَسِّرْ عليْكَ ابْنَ أخٍ ولا ابْنَ أُخْتٍ، وكُلُّ من يأتيكَ منهُمْ بلا حاجةٍ قُلْ لَهُ : سِرْ لِشُغْلِكَ ولخدمةِ جَنَانِكَ ونَخيلِكَ، فأنَا مقبوضٌ في خدمة الحقِّ، ولستُ جالساً هُنَا بصددِ جماعتِكَ وجمَاعَةِ غيْرِكَ، فاخدمُوا شغلَكُمْ الذي أقامكُمْ اللهُ فيه، وأَنَا أخدُمُ شغلِي الذي أقامني الله فيه، ومن جاء منكم شاكياً بمظلمةٍ، أو رَفَعَ إلي دعْوَاهُ في مسألةٍ فلْيُبَيِّنْ لي خبَرَهَا، وأنا أحكُمُ لَهُ أو عليْهِ بالحقِّ إن شاءَ اللهُ.

وغير هذا فلا تُسْمِعْهُ لهم، ولا تُجَسِّرْهُمْ به، ولا تخالطهم إلاَّ بالذي يَدْعُو لك دعوةً صالحة، فأجلِسْ كلَّ واحدٍ عِنْدَ حَدِّهِ، وأَبْقِ على هَيْبَتِكَ أَحْسَنَ لَكَ، وكل من تراهُ منهم اشتغل بما لا يعنيه، أو تحرَّكَ ولو في فرَاشِهِ تحركاً لا يُعْجِبُكَ، فاحذَرْ فيهِ وازْجُرْهُ وتَوَعَّدْهُ، وحظهُمْ عَلَى أنفسِهِمْ وعلى حضَاءِ مُرُوءَتِهِمْ، إلى أَنْ تَسِيدَ عليهِمْ كلهُمْ إنْ شَاءَ الله، وتربحَ جميلَهُمْ وأَجْرَهُمْ.

وما زالُوا ينفعُونَكَ وتنْفَعُهُمْ، ويحمدُونَكَ وتحمَدُهُمْ، ويستفيدُونَكَ وتسْتَفيدُهُمْ، حتى يستلذُوا الحُكْمَ ويحمدون عاقبتَهُمْ، فحينئذٍ يحمدُونَكَ ويحِبُّونَكَ ويدعونَ لك بخيرٍ، وأما اليوم الذين هُمْ فَوْضَى كُلُّ واحدٍ يعمَلُ ما أَرَادَ، ويقُولُ مَا أَحَبَّ، وكلُّ واحدٍ منيفاً عَنِ الآخَرِ فما زالُوا مَا عَرَفُوا للحُكْمِ حَقّاً، ولا سلَكُوا للحقيقَةِ طريقا.

وما نبهْنَاكَ عليهم وحذرْنَاكَ مِنْ مخالطَتِهِمْ إلاَّ أنَّا خِفْنَاكَ أنْ يُحْرِجُوكَ على قَدْرِ أغرَاضِهِمْ وشهوَاتِهِمْ، يعملُونَ بِكَ ما أرَادُوا، وإنْ صحَّتْ لَكَ معَرَّةٌ فِي جُرَّتِهِمْ

يُحِبُّونَهَا لَكَ، ويَتَفَرَّجُونَ فيكَ، ويستَخِفُّونَ بِكَ، وَيَتَلاَهَوْا عليْكَ مثْلَ مَا تَلاَهَوْا عَلَى محرزٍ إِلَى أَنْ زَبْلَحُوهُ (بمعنى خدعوه) وأصَابَهُ ما أصَابَهُ مِنْ تَغْيير خَوَاطِرِنَا .

ومثلُ مَا وقَعَ لمولاي عبد الله بن هاشم مع أولاد مولاي محمد رحمه الله حَيْثُ رأَوْهُ تَشَوَّفُوا إليهِ أهلُ تافيلالت، وصاروا ينصتونَ إليه في ذلك الوقتِ، وأعجبته رُوحُهُ، فخافُوهُ يفسد عليهِمْ عملَهُمْ ويشارِكُهُمْ وقتئذٍ في أمرِ بلادهم، فوجهوا له أبو حامدٍ تحَايَلَ عليهِ إلى أن سقاهُ الخمرَ وَشَطَّحَهُ، فلما جَاءَ أهلُ تافيلالت ووجدوا مولاي عبد الله بن هاشم يَشْطَحُ مَعَ أبي حامد قَالُوا : هذا مولاي عبد الله الَّذِي نَحْنُ نَرْتَجِي مِنْهُ كَذَا وَكَذَا، فاستَخَفُّوا مسأَلَتَهُ، وحقَرُوا كُلُّهُمْ حجَّتَهُ، وصاروا يتفرَّجُونَ فيه، والحديثُ قيَاسٌ، فَارع بَالَكَ مِنْ تلك المعرَّةِ وأمثالِهَا، وسبَبُ كُلِّ شيءٍ هو مخالطةُ الشرفاءِ، فجَنِّبْهُمْ لتبقى معهم في الوَقْرِ أَحْسَنَ لَكَ وَلَهُمْ، وسواء مولاي عبد الواحد بن محرز أو مولاي عبد الرحمان بن هاشم وغيرهم، ويكونونَ عندك كلُّهُمْ بمثابةِ الشرفاءِ كلهم، فلا تُسْقِطْ خَاطِرَكَ على متاعِ أحدٍ، ولا تأكل طعامَ أحدٍ أصلاً، ولا تثق في ذلك بأحدٍ، واللَّهَ اللَّهَ في إحياء بَيْتَةِ الشرفاءِ إِنْ أَرَدْتَ رضَاءَنَا، فشُدَّ رُوحَكَ في إحياءِ مُرُوءَتِهِمْ، وفي السيادَةِ عَلَيْهِمْ، حتى تكونَ في وسطِهِمْ كأخينا مولاي محمد رحمه الله، الذي كانوا يغضبون كلُّهُمْ لغضَبِهِ، ويرضون كلُّهُمْ لِرِضَاهُ، ولا يقدر أَحَدٌ منهم يتكلَّمُ في جانبِهِ، وتُوُفِيَ في دارِهِ مع عيالهِ.

وتَاللَّهِ إن لم تقتفي بذلكَ الأثرِ لاَ قَبِلْتُكَ أبداً إن شاء الله، وَهَا أنتَ رأيتَ محرزاً أَيْنَ أَدَّتْهُ قلَّةُ حزْمِهِ وعدَمُ ضبْطِهِ، والمُومِنُ من اتَّعَظَ بغيرِهِ، فحَرِّضِ الشرفَاءَ على

حضَاءِ مروءتِهِمْ، واشتغالِهِمْ بأسبَابِهِمْ، وبقراءَةِ أولاَدِهِمْ، وتعميرِ مسَاجِدِهِمْ، واللَّهَ اللَّهَ فِي خديمنِا دحمان غرنيط، اتْهَلاَّ فِيهِ بمعنى اعتني به لأَنَّا جعلنَاهُ على جميعِ أملاَكِنَا التي اشترَيْنَاهَا، فهُوَ الذي يَجْرِي عليهَا والمتولي أمْرَهَا وخدمتها وحَضَائهَا، فشُدَّ ظَهْرَهُ، واحتزِمْ معَهُ، وكُلُّ ما يَتَوَقَّفُ له عندكَ من مصالحِ أملاكنَا نَفِّذْهُ له في حِينِهِ وَهُوَ واقفٌ، وَاللَّهَ اللَّهَ في العمارةِ والعَدْلِ، اللَّهَ اللَّهَ في العمارةِ والعدلِ، واللَّهُ يُصلِحْكَ بمَنِّهِ، وَإِنْ وَقَفَ لك خديمُنَا عبد الرحمان غرنيط فيما يُصلِحُ به خدمةَ أملاكِنَا وأصُولِنَا فَأَعِنْهُ بِتْوِيزَةٍ وشبهها بالعقلِ والسياسةِ، ونَادِي أهلَ البلاد وكُلُّ قصرٍ استنجِدْهُمْ في خدمةِ المُلْكِ الذي يَلِيهِمْ بالعقلِ، وإيَّاكَ والضرر بأهل تافيلالت، فلا تُكَلِّفْهُمْ ببيتٍ ولا بمؤونةٍ ولا بعلفٍ ولا بغير ذلك،

وإيَّاك والسقاطةُ التي تضُرُّ بمروءتكَ مثل ما أضرَّتْ بمن قبلك، واللَّهَ اللَّهَ في العدلِ، اللَّه اللَّهَ في العدلِ، وشُدَّ روحَكَ مع خديمنا عبد الرحمان غرنيط، اتْهَلاَّ فِيهِ، ولا تَدَعْ من ينازعُهُ في تلك النائبَةِ بني بستري الذين أعطينَاهُمْ لَهُ يستعِينُ بهم على خدمةِ أملاكنَا ومصالحِنَا، والسلام، وكتب في 22 من ذي القعدة سنة 1098هـ ـ 29 شتنبر 1687م.

الرسالة: 17

ولدنا المامون أصلحك الله، سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد : فَاعْلَمْ أَنَّهُ يصلك كتابٌ من قِبَلِنَا كتبنَاهُ لأهل ديوانِ تنبكتو على ظهْرِ براوةِ خديمنا موسى المَانُوكِي التي أخبرنا فيها عن وُرُودِ هديتهم، وأعلمنا فيها بوصولها بلادَ درعة، فنأمرك مؤكداً علَيْكَ أَنْ تختارَ من أصحابك مَنْ تَثِقُ به يُوَصِلْهَا إلى خديمنا موسى المانوكي، وَيَقِف معه حتَّى ينظرَ لها موسى المانوكي من يتَوَجَّهُ بها لأهل تنبكتو، ويأتي بجوَابِهَا، وبما أشرنا عليهم به فيها، لأن موسى المانوكي هوصاحبُ تلك البلاد التي هي بابُ السودان.

فاكتُبْ أنتَ كتابك لموسى المانوكي، وحرِّضْهُ على الإعتناءِ ببعثِ كتابنَا وعلى حرص جوَابِهِ، وإن لم يعْتَنِي به كما ينْبَغِي يجْبِدُ (بمعنى يَفْتَحُ) معنا ما لا يَقْدِرُ عليه، فأكِّدْ عليه ذلك وَشُدَّ روحكَ فيهِ، وَلاَبُدَّ.

واعلم أنَّا وَجَّهْنَا لك صحبة خديمنا السيد الجزولي الكاتب خديمنا محمد بن عبد الرحمان العريبي، وأمرناك تعطِيهِ مائةَ ناقةٍ، وتشهدها عليه في ذمته بِستَّةِ مثاقيل ذهبٍ للناقة، وتحسبُهَا فِي ذلكَ الأَلْفِ مثقالٍ الَّذِي أخذْتَهُ ودفعته في ثمنِ جنَانِ الرسياني، وأنتَ انظُرْ في جماعة الشيخ محمد بن عبد الرحمان العريبي جملةً من إخوانه وأهلِ قبيلته تَجْعَل تلكَ الإِبِلَ في ذمَّتِهِمْ، وتشهد عليهِمْ لبيتِ المال، والإشهَادُ لأن الشيخ محمد بن عبد الرحمان كما علِمْتَ قَدْ عَمَّرَ وَكَبُرَ سِنُّهُ، فالإشهادُ على غيْرِهِ أَوْلَى.

وَهَا نحنُ أمَرْنَا السيد الجزولي فيقيمُ عندك إلى أَنْ يأتيَ جوابُ خديمنا موسى المانوكي ببعثِهِ لبراوةِ أهل تنبكتو، ويحضر لمسألةِ هذهِ الإبلِ والإشهَادِ عليها، ويقِفُ لها حَتَّى يمكِّنَهَا لهُمْ، ويأتينا بعقدِ الإشهَادِ على ذلك، وأنت اعْطِيهِمْ إبلاً مليحةً لاتخسرهم في القيمَةِ، واستوص خيراً بخديمنا المذكور حتى تُوَجِّهَهُ مقضي هذه الأغراضِ، ولاَبُدَّ والسلام، في 16 من شعبان المبارك سنة 1101هـ ـ 26 ماي 1690م.

الرسالة: 18

ولدنا الأعز مولاي المامون أصلحه الله، سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد : فاعلم أن خدَّامَنَا أهلَ الغُرْفَةِ وَفَدُوا على مقامنا العلي بالله، وشكروك وأثنوا لنا عليك من الخيرِ الكثيرِ، بارك اللهُ فيك، بارك الله فيك، وَهَا نحنُ رَدَدْنَاهُمْ إليك في حفظٍ وكلاءةٍ على أن تَقِفَ معهم حتى يعينوا نوبتَيْنِ للشرفاءِ، وأهل مانوكة فقد أكدنا عليهم بذلك وألزمناهم به حتى قبلوه، ولكنْ بشرطِ أن يرْفدُوا ساقية نوْبَتَيْهَا من الهريهرة البرانية حَتَّى تكونَ ساقيتهم وحدهَا، فَقِفْ لهم في ذلك إِلَى أن يعملُوهُ.

ولاَبُدَّ والتأكيد عليك أشد التأكيد أن تستوصي خيراً بأهلِ الغرفةِ، بحيث لا يخدم لهم أَحَدٌ أصولنا التي في بلادهم إِلاَّ أهلُ الغرفةِ، ولا تدع من يزاحمهم في خدمةِ أصولِنَا ولا من يشاركهم فيها، وكذلك أَسْقِطْ عنهم كُلَّ كلفةٍ من السَّخَارِي وَالتَّوَايِزِ وغير ذلك في غير بلادهم، فلا يخدموا إِلاَّ في بلاَدِهِمْ فَقَطْ، ولا تُلْهِهِمْ بشغلٍ آخر كيفمَا كَانَ، فشُدَّ روحَكَ فيهم، شُدَّ روحَكَ فيهم، والخيْرُ الذي تعمله فينَا اعمله في أهلِ الغُرْفَةِ، والله يصلحك ويرضي عنك والسلام.

إلحَاقٌ : وثم التأكيدُ عليْكَ أنت تقف لهم أنت بنفسِكَ يوماً أو يومين أو ثلاثة أيام، أَوْ مَا كَفَاهُمْ منك حتى يعرِفَ كل واحدٍ شغلَهُ وخدمته، وحتى يدفنوا كل مصرفٍ ما عَدَا مصرف النوبتين المذكورتين، ولا تغفلْ عنهم حتى تُسَرِّحَ للناس شغلَهُمْ، والله يرضي عنك والسلام

إلحاقٌ آخر : وَقِفْ لأهلِ بلادك وُقُوفَ الرجالِ، وأَعِنْهم إذا احتاجوا أو أرادوا الإعانةَ، لأَنَّ تلك الساقية تنفَعُ الشرفاءَ، وتنفع مانوكةَ، وتنفع الناسَ عامةً وخاصةً.

فلابأس أن تعينَهُمْ على إخراجهَا، وشُدَّ روحَكَ في أهل الغرفة كما قلنا لك، اللَّهَ اللَّهَ فيهم، ثم اللَّهَ فيهم، وهَلْ مثْلُ تلكَ القبيلةِ يغفلُ النَّاسُ عنْهَا، أو يفرِّطُونَ فيهَا، واللَّهِ ما عندنَا أعز ولا أحب في أهل بلادِنَا من أهلِ الغرفةِ، فواللَّهِ حَتَّى نذْكُرَ فيهم عهْدَ مولانا الشريف الأول، ونكافيهم على خيْرِهِمْ السَّابِقِ فينَا، فاعرِفْ هذا وَعَامِلْهُمْ بِهِ، ولاَبُدَّ ولاَبُدَّ، وهذه شهران وَهُمْ عنْدَنَا، وها نحن رغبْنَاهُمْ في هاتين النوبتَيْنِ ما دُمْنَا في الحياةِ، ومن بَدَّلَ أَوْ غَيَّرَ فاللَّهُ حسيبُهُ والوكيلُ عليه، في 16 شوال عام 1102هـ ـ 13 يوليوز 1691م.

الرسالة: 19

ولدنا الأرضى مولاي المامون أصلحه الله، سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته، لا زائِدَ بحمدِ اللَّهِ إلا الخير والعافية، أما بعد : فتلك الهديةُ والعادةُ التي كانت تصل من الله تعالى للشرفاءِ على يدِ أبيكَ، في كُلِّ سنةٍ هديةً، وَصلَتْ، نؤكد عليك أشدَّ التأكيدِ أَنْ تَقِفَ وُقُوفَ الجِدِّ والإعتنَاءِ أنت وخديمنا دحمان غرنيط، وادفعُوهَا لَهُمْ كَما نُحِبُّ، ولا تقطعْ عن أحدٍ من الشرفاءِ ولا الشريفاتِ عادةً تعوَّدَهَا، واعط لكل ذي حقٍّ حقَّهُ، واضبطْ ضبطاً مليحاً، وخديمنا دحمان غرنيط عنده زمَامُ ذلك وديوانُهُ، لأنه مَارَسَهُ وعَرَفَهُ، ودفع المالَ على يَدِهِ للشرفاءِ والشريفاتِ كَمْ مِنْ سنةٍ، فتعاونوا على ذلك واضبطوه كلِّياً حتى لا يضيعَ لأحدٍ حَقٌّ تَعَوَّدَهُ وأَلِفَهُ مِنَّا.

وأما إخوانُك المتزوجون وأخواتُكَ المستحقين فلا بأسَ عليك أن تحاولَ عليهم بزيادةٍ تجبر قلوبهم بها، ويستعينون بذلك على قضاء أغراضهم ومآربهم وضرورياتهم، غير أَنَّ الشرفاءَ والشريفات لا تنقصْ لأحدٍ منهم قليلاً ولا كثيراً من عادته، فإِنَّا لا نقبل ذلك ولا نرضَاهُ منكم، وَهَا نحن بعثنا لك من هنا مع خديمنا دحمان غرنيط قنطاراً من المالِ، فاجمعه إلى تلك التسعمائة مثقالٍ التي بقيت عندك من المالِ الذي دفعه لك عبد العزيز بوطاهر، وادفع لكلِّ واحدٍ من الشرفاءِ والشريفات متَاعَهُ وعَادَتَهُ.

وإذا لَمْ يُوَفِّ لك ذلك المالُ الغرَضَ الذي هو عندنا كالواجبِ المفترَضِ، فَسَلِّفْ علِيْنَا ما تستكمل به حِسْبَتَكَ في مسألة الشرفاءِ، ويأتينا دحمان غرنيط بِزمَامِ

ذلك ونهايتِهِ، وزده لك إن شاءَ اللَّهُ قريباً كَمَا استسلفْتَهُ، ولا نَغْفُل عنْكَ ولا نَتْرُككَ تَتْعَب ولا تَتَمَرَّتُ بمعنى تتعب كثيرا بِحَمْلِ الدِّينِ، وما زِلْنَا إن شاء الله نُعْطِيكَ قبيلةً كبيرةً معتبرةً تتَوَسَّعُ فيها، وتستعينُ بها على مروءتك وشغْلِكَ وعملك، وَتَجِدُ في يدِكَ ما يعينُكَ على مصالِحِكَ ومصَالِحِ إخوانك وبناتِ أبيكَ، لأنَّكَ رجلٌ ذُو شفقَةٍ وحنانةٍ على إخوانك وأخواتك، بَلْ وَعَلَى سائرِ الشرفاءِ والشريفاتِ، نعرف ذلك فيك ونتحققه منك، وسبَبُ ذلك أنك كنت عزيزاً علينا، وملحوضاً بعين الرضا لدينا، فلا نتركك تَتَمَرَّتُ بمعنى تتعب كثيرا ولا تحتاجُ ولا تَتَحَمَّلُ ثِقْلَ دِينٍ أبداً، فكلَّمَا تستَسْلِفُهُ مما يكمل لَكَ عادَةَ الشرفاءِ زِدْهُ لكَ بالفورِ إن شاءَ اللهُ.

فاجتهد في ذلك واضبطه، والله يعينك ويرضي عنك، ومسألةُ ذلك النخيلِ الذي كنا اشتريناه في مزكيدة لأولادِ ولد أخينا مولاي أحمد بن محرز، وعاملنَاهُمْ بشرَائِهِ لوجهِ اللهِ تعالى، إذا هم أحبُّوا متَاعَهُمْ فاللهُ يُهَنِّيهِمْ، فلا نحبُّ لأولادِ ابْنِ أخينا إلا ما نحبه لأنفسنا وأولادنا، وإذا أحبُّوا أن تُعَوِّضَهُ لهُمْ فاشترِ النخيلَ وَعَوِّضْهُ لهم بمحضرِ أعيانِ الشرفاءِ وكبارِهِمْ، وأمَّا اشتراؤُهُ منهُمْ بالدراهم فلا تُسَاعِدْهُمْ على ذلك، ولا تشتَرِيهِ منهم بالدراهم أصلاً، فتلكَ المعاملةُ التي عاملنَاهُمْ بهَا لوجهِ اللهِ نُحِبُّ أن يبقى أجرَهَا وثوَابَهَا متصلاً للأَبَدِ إن شاء الله.

ومسألةُ نَزَائِلِ العربِ الَّذِي جَمَعْتَ عليكَ لا حاجةَ لكَ بهم ولا بجميلِهِمْ ولا بكثرةِ كلاَمِهِمْ، فلا فائدةَ ولا نتيجةَ، يظلون كُلَّ ساعة يتجمَّلُونَ عليك، ويقولون : هَا نَحْنُ مخازنية، هَا نَحْنُ مراهين، هَاهُمْ كَذَا هَاهُمْ كَذَا، وذلك مما يتعبكَ ويشوشكَ، ويضركَ ولا ينفعكَ، فاتَّكِلْ على الله لا تَتَّكِلْ على العربِ، وَاعْمَلْ أصحَابَكَ الذين

ينفعونك، وَهَا أَنْتَ عَرَفْتَ وَجَرَّبْتَ وبقيتَ منيفاً عن داركَ سنَتَيْنِ أو أكثرَ، وعرفت من تنفعُكَ خدمتُهُ ممن يضرُّكَ قربُهُ وعشرَتُهُ، فالصاحبُ والخديمُ إذا كان بالمنَّةِ والجميلِ والكُرْهِ ليس هو صاحباً ولا خديماً، وإنما هو عدوٌّ مبينٌ، لا ينفع عند الحاجةِ إليهِ، ولا يتكل الرجلُ الحازمُ عليه، فاجعل اتكَالَكَ في الله، وَاعْمَلْ أصحَابَكَ الذين تستريح فيهِمْ وتنفَعُكَ خدمتُهُمْ، وَشُدَّ رُوحَكَ، شُدَّ رُوحَكَ، شُدَّ رُوحَكَ، وتَدَارَكْ ما فاتكَ من الغفلةِ والتَّرَاخِي، والله يوفقك ويعينك على أمور دينك ودنياك، وَهَا نحنُ كتبْنَا براوةً لأخيك مولاي محمد بن الشريف، وأمرنَاهُ فيها بالصحبة معك والمودة لك، وعرفناه بما عرَّفْنَاهُ، الله فيه وفيك، فابعثها له واعملوا بمقتضاها، والله يوفقكما ويعينكما.

استدراكُ خيرٍ : وتلك الدراهم التي كُنَّا قُلْنَا تَسْتَلِفُهَا وَتُكَمِّلُ بها هَدِيَّةَ الشرفاءِ ولازِمَهُمْ، هَا نَحْنُ كَمَّلْنَا لَهُمْ مِنْ هُنَا، ودفعناها لغرنيطٍ، ونقَصْنَا عنْكَ كُلْفَةَ سلَفِهَا، والآنَ لاَ تُسَلِّفْ شيئاً، ولا تتكلَّفْ إلا بدفعِهَا لأربابهَا على الوَصْفِ الذي أشرنا بِهِ عليك، والله يعينك ويرضى عنك، والسلام، في 20 من محرم الحرام عام 1108هـ ـ 19 غشت 1698م.

الرسالة: 20

ولدنا المامون أصلحه الله، سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد : فاعْلَمْ أنك حيثُ توجهْتَ من عندنا ما توَجَّهْتَ إلا بقصد عمارةِ تيزيمي، وحضَاءِ بمعنى حماية أملاكها واقتصارِكَ عليها دُونَ غيرها، والآن حيث صرت تتكلَّمُ في تافيلالت وفي تلك البلادِ كُلِّهَا يجب عليك أن تقدمَ لِعَلِيِّ مقامنَا لنتكلَّمَ معك في أمورِ تافيلالت، ونُريكَ كيْفَ تتصرف بالحقيقةِ في تلك الصحراء كلِّهَا إن شاء الله.

ونتفَاوَضُ معك في حُجَّةِ سكنَاك، هل يكونُ بتافيلالت وَتَتْرُكُ تزيمي، فَنُرِيدُ حينئذٍ كيف يكونُ انتقالُكَ إليها بالسلامةِ، وتبقى في موضعِكَ وتتصرف منه إن لم يبعدك، وَنَتَّفِق معَكَ على ما يصلحُ بِكَ وعلى ما يكونُ لَكَ فيه خيرٌ وصلاحٌ إن شاء الله، فأوصي أَخَاكَ أصلحه الله على موضعِكَ، ونَوِّبْهُ في مكَانِكَ، وحضِّضْهُ وَنَبِّهْهُ وَعَرِّفْهُ، وتعالى إلينا أنتَ في حفظِ اللَّهِ وأمانِهِ بالعزم قبل أن ينزِلَ الثلجُ في تلكَ الطريقِ.

فاركَبْ في مائةِ فارسٍ من خيلِكَ وائْتِنَا لجهةِ الغربِ، فإنْ لقيتَنَا في بلاد تادلا أو بحوْزِ زاويةِ الدِّلاَءِ نتكلَّمُ معك ونُنَبِّهُكَ ونوقظُكَ، ونُرِيكَ ونعرفكَ كيفَ تتصرَّفُ في البلاد، وكيف تكون مباشرتُكَ للشرفاءِ، ونفَوِّضُ لك وندعو لك بدعوةٍ صالحةٍ، ونودِّعُكَ لله وكلاءته، ولعلك تتلقَانَا في الموضعِ الذي ذكرناه لك وترجع في حَالِكَ بالسلامةِ.

واعلَمْ أنَّ أولادَ عمِّكَ جاؤونا شاكينَ منْكَ على شَأْنِ أخيهِمْ عبد الواحد مِنْ كونكَ خَيَّرْتَهُ عليهم، فصارَ يتَجَاسَرُ عليهم بسبَبِكَ، ووَجَدُوا في أنفسهِمْ من ذلك، ولم يَذْكرُوا لنا عنك غير هذا، وَغَاضَتْنَا شكايتُهُمْ، ووبخنَاكَ كثيراً لأجلهِمْ، وأردنَا أَنْ نُوَجِّهَ لك من يزنككَ عليهِمْ، وحيْثُ عَلِمْنَا بسببَِ ذلك أَنَّ أروَاحَهُمْ ضاقَتْ من قلَّةِ الطلوعِ والنُّزُولِ الذي اعتَادُوهُ وأَلِفُوهُ سَكَتْنَا عليكَ لئلاَّ نروعكَ وندهشكَ وَنُجَسِّرْهُمْ عليكَ بسببَِ ذلك، غيرَ أَنَكَ واللَّهِ ما عَمِلْتَ خيراً ولا صادفت صواباً في مخالطتِكَ لعبد الواحد بن محرزٍ، فَلَوْ كُنْتَ تُحْسِنُ مخالطةَ الشرفاءِ كُلِّهِمْ وتنزلهم منازِلَهُمْ، وتعرف كلَّ واحدٍ منهم وَمَا هُوَ علَيْهِ، ولا يَتَلاَهَى عليكَ أحدٌ منهم فما عليك أَنْ تخالطَهُمْ وتباشرَهُمْ.

وحيثُ قبَضْتَ عنْهُمْ يَدَكَ وضربتَ صفحاً عنْ خلطَتِهِمْ فَمِنْ حَقِّكَ أَنْ تحملهُمْ كُلَّهُمْ ولا تختصّ بعبدِ الواحد بن محرزٍ ولاَ بغيرِهِ، فتعمل في نفسِكَ خيراً، وتبقى مع إخوانك وجماعتك في الوَقَارِ، ودَعْهُمْ مِنْهُمْ لأَرْوَاحِهِمْ، والَّذِي يأتيكَ منهم يُدَوِّرُ الجماعةَ والفضولَ أَخْزِرْ فيه، وقل له : سِرْ لشُغْلِكَ، ولا تعمل فيهم فَرْزاً، إلا الذي يَأْتِيكَ شاكياً بمظلمةٍ فاحكُمْ لَهُ أَوْ عليْهِ بالحقيقةِ.

والأشرافُ الكبارُ إِنْ طلَبْتَ منهم دعوةً صالحةً تربَحُ أجرهَا، وأَمَّا مخالطَتُكَ لعبد الواحد بن محرز فواللَّهِ ما لك فيها خيرٌ ولا صلاحٌ، لأنه لاَ يدُلُّكَ على خيرٍ ولا يوافقك عليه، ولا تنال بخلطتهِ مَكْرُمَةً ولا طائلةً، وإن شَكَكْتَ في هذا فانظُرْ لفعلِهِ مع أولادِ أبيهِ وأمِّهِ، وتَاللَّهِ ما أحببنَاهُ نحْنُ دونَ إخوتهِ إلا لعمارتهِ دار أبيهِ فَقطْ، وأَمَّا هُوَ فرجلٌ إِبْلِيسٌ، كثيرُ وَسْوَاسٍ قسنَاسٌ، قَدْ أطلعَنَا اللَّهُ على مسائلهِ

وعرفنا ما هُوَ عليه، فمَا هُوَ يَدُورُ لَهُ إلاَّ ليَفُوزَ عنكَ، ويَقْضِي بك حَاجَةً، وَيَتَلاَهَى عَلَيْكَ كما تَلاَهَى بمحرزٍ قبلَكَ، فيَجْتَمِعُ معَكَ ويمْشِي لأصحَابِهِ أَهْلِ سِرِّهِ فيقول لهُمْ : وَاللَّهِ حَتَّى أُزَهِّقَهُ، وَأُعِيفَهُ لأَبِيهِ، حسبَمَا ذالكَ منْهُ وذَكَرَهُ لنَا إِخْوَتُهُ.

وَهُمْ صادِقُونَ في مقالتهِمْ بدليلِ ما أَرَانَا الله من مسائلِهِ، وبما تقدَّمَ لنا من الإطلاعِ على دسائسِهِ، فقد قبضنَا عليه براوةً كان كتبهَا لأخيه أحمد بن محرز، حيث كان محرزٌ بدرعةَ مع مبارك ولد حمو بن كروم، ومهدي بن الزوغي، وهُوَ يقولُ فيها لأخيه حيث سَمِعَ خبرَ محرزٍ فَرَّ مِنْ درعةٍ، ورأينا براوته بأَعْيُنِنَا ونحنُ في تلك الساعة في تاكموست، وجَاءَ محرزٌ للفَائِجَةِ، وشاهَدْنَا كتَابَهُ له بذلك، ونقَلَ لَنَا عنْهُ بُورِيمَةَ كَمْ مِنْ نقيصةٍ وكم من دسيسةٍ، وما قال فيه إخوتُهُ إِلاَّ حقّاً، فوَجَدَكَ ضَبُعاً، وَهُوَ يَتَلاَهَى عليْكَ،

وأَمَّا لَوْ كُنْتَ رجلاً وتعرفتْهُ كمعرفتنا نحْنُ إيَّاهُ ما يحوزك هُوَ ولا غيرُهُ، وتكون جعلتَهُ مِنْ جملةِ إخوتِهِ، ولا خيريةَ عليهِمْ في شيءٍ، وحيثُ ألقَاكَ على قَدْرِ يدِهِ فَهَا هُوَ يعمَلُ فيكَ ما أرَادَ، وصارَ يمشي بك لأَخْنُوسٍ لِدارِهِ يتجمعُ معَهُ، وأراد أن يُزَبْلِحَكَ (بمعنى يخدعك) مثلَمَا زَبْلَحَ مَنْ كان قبلَكَ، وتَاللَّهِ العظيمِ إِنْ خالطْتَ أحداً من الشرفاءِ بعد اليوم أَوْ عملْتَ فَرْزاً في أولاد عمك واختصصتَ بأحدٍ منهم ، ولم يكونوا عندك كلهم سواء، أو أكلْتَ طعَامَ أحدٍ حتى ترى مِنَّا مَا لاَ يُعْجِبْكَ إِنْ شاء الله.

واعلَمْ أَنَّ عمَّكَ عمرَ بْنَ يوسف كلفنَاهُ بشراء الأملاكِ التي تليقُ بنَا وتَوَالِينَا، وأمرناه بمعاوضةِ ما تَلِيقُ بنا معاوضتُهُ، فهو رجلٌ مهينٌ في شغلِهِ، بطيءُ الحركةِ

في عملِهِ، وتلك المسألةُ التي أردنَاهُ إليها لا ينبغي فيها التَّأَنِي، ولاَ يُحْمَدُ فيهَا إلاَّ الإنجازُ والمبادرَةُ، لأَنَّا أحببْنَا تلكَ الأملاكَ وأردناهَا للأولاَدِ والبنينِ إنْ شاء الله، وذلك حقُّهُمْ ونصيبُهُمْ من بيتِ المالِ بين المسلمينِ، والفوز بالجنة إنْ شاء اللهُ.

فأردْنَا منْهُ أَنْ يُنْجِزَ بمفَاصلَةِ تلكَ الأملاكِ، وبتصفيتِهَا وحيازتِهَا لنحصيهَا ونعرفَ قدرَهَا ونهايتَهَا، ونعينَ لكلِّ واحدٍ منكُمْ حقَّهُ ونصيبَهُ في حياتنَا إنْ شاء الله، ونتأَمَّلَ جميعَ ذلك، فإن وجدنَاهُ قدْرَ حقِّكُمْ في بيتِ المالِ فتبارَكَ الله، وإن وجدنَاهُ أَقَلَّ من حقِّكُمْ فَنُوفِي لكُمْ منه نصيبَكُمْ إن شاء الله والسلام.

الرسالة: 21

إلى الأَبْلَهِ المُغَفَّلِ المَامُون، بعد السلام عليك، اعلَمْ مِنْ براوتكَ هذه التي بلغت عنِّي شَأْنَ أَخْذِ اللَّهِ أولاد ادليم وَمَا فِيهَا إِلاَّ كلمتَانِ وحرفَانِ، لم يبق لنا شكٌّ في كَوْنِكَ أبلَهَ مغفلاً أحمَقَ حمَاراً لاَ تفْقَهُ شيْئاً، ولا تضبطُ مسألةً أصلاً، وأَعْرَبْتَ لنَا عن كيفيَّةِ عقلِكَ وقصُورِ همتِكَ عن عدمِ إدرَاكِ ما أرادَهُ النَّاسُ فيكَ، وأُظْهِرَ للعيَانِ عنْكَ أنَّ هذا الأَمْرَ الذي نُصِبْتَ له بعيدٌ عليْكَ، ليْسَ لكَ فيهِ مَرْسَى ولا سبَاحَةَ ولا معرِفَةَ، إذِ السابِحُ الذي يعُومُ ويسبَحُ يظْهَرُ من تعَامُلِهِ مع المَاءِ في أوَّلِ مرَّةٍ، فإنَّهُ لا يتردَّدُ للسباحةِ والعوْمِ إلاَّ مَنْ كانَ عارفاً بِهَا، وكذلك هذا الأمرُ الذي نحنُ فيه فمثْلُكَ الذي يُصَدَّرُ بِهِ ولا تظهَرُ فيهِ نتيجَةٌ ولا مطنَّةٌ ولا رياسةٌ، بعد أَنْ يَبْقَى فيه الأعوامَ والسنينَ، ولا يزدَادُ بهما إلاَّ غفلةً، ولا يعتَمَدُ فيهِ علَيْهِ ولا يعرف، ولا يُرْتَجَى لَهُ علاجٌ ولا صلاحٌ ولا فلاحٌ، فحَيْثُ جِئْتَ الحِمَار تكتُبُ على أوْلاَدِ ادليم بعد أَنْ بَلَغَكَ بشيرُ العربِ الَّذينَ غزوهُمْ مِنْ رَقَاقِيصِ وَلد النَّصيرِي تَكُونُ قد عرفْتَ كيف تتكلَّمُ معهُمْ، وكيف تتلَقَّى خبرَهُمْ، وتبحثُهُمْ على كيفية ظفرِهِمْ بِهِمْ، وعلى الموضع الذي أدركُوهُمْ به، وكيف تحاربوا معهم؟ وكيف هزَّمَهُمُ الله بين أيديهِمْ؟ وكيف تمكنوا منهم؟ وكم ماتَ من أولئك البُغَاة؟ وبالبِلاَدِ التي كانوا نزولاً فيها وانتهت هزيمتُهُمْ وهرُوبُهُمْ إليْهَا؟ وكم هلكَ منهُمْ وأُخِذَ ونُهِبَ وقُتِلَ ومَاتَ، ومن لَمْ يُظْفَرْ بِهِ منْهُمْ؟ وتقولُ للنَّصيرِي العربي الذي بَلَّغَكَ بخبرِ أولاد ادليم : إنَّ فيهم قبائلَ شَتَّى، وأفخاداً عديدةً، أولاد عرب، وأولاد مساهل، وأولاد يعلى،

والشهالي وغيرهم، فَمَنِ الَّذِي وقع فيه الواقعُ والأخذُ؟ ومن حضر منهم ومَنْ لَمْ يحضُرْ منهُمْ؟ ومن هلك ومن نجا؟ وتقول : في أَيِّ وقتٍ خرجتم إليهم من الغِزْلاَنِ؟ وكم سِرْتُمْ من يومٍ إليهم حتى أدركتُمُوهُمْ؟ وكمْ من ليلةٍ وأنتُمْ مُجِدُّونَ إليهم؟ وعلى أَيِّ طريقٍ سلكتُمْ في الصحراء؟ ومن لقيَكُمْ من العربِ؟ ومن هرَبَ منْكُمْ؟ ومن أَنْذَرَ عليْكُمْ؟ ومن نصحَكُمْ ومن غشَّكُمْ؟ وما أشبهَ ذلك، إِذْ هنالكَ قبائلُ شَتَّى، سَلاَّم، وإذاوبلال، ومريبط، وأولاد إدريس، وتكنة وغيرهم.

وبعدَ أَنْ تسألهُ عَنْ هذَا كُلِّهِ تكتبُهُ لنَا كُلَّهُ مفصلاً ومبيناً حرفاً حرفاً، لأن معرفةَ الأشياءِ راحةٌ، ولا تقنَعُ مَعَ ذلكَ إلاَّ بتوجيهِ العربي النَّصِيرِي بنفسهِ مع صاحبِكَ المطَاعِي، وتقولُ لنا في براوتك : هَا نحْنُ قَدْ عرَّفْنَا سيدنَا نصرهُ اللهُ بكُلِّ ما كان من خبَرِ غَزْيِّ أولاد ادليم، وأَعْلَمْنَا أبَانَا نصره الله بكيفيةِ أخذهِمْ على الحقيقةِ، وعرَّفْنَا سيدَنَا كَمْ سارُوا إليهِمْ وبالبلادِ التي أدركُوهُمْ فيهَا، وهي بلاد أولاَدِ العَرْبِيَّةِ مِنَ المغافرةِ، وأدركُوهُمْ فيهَا على كَمْ وَكَمْ ليلةٍ مِنَ الغزلاَنِ، وإلاَّ وجهنَا النَّصِيرِي الواصلَ إلينَا بنفْسِهِ لسيدِنَا نصره الله، الذي فيه كيفيَّةُ الخبَرِ، وعندَهُ صحَّةُ ما شَاهَدَ وما رَأَى بعينِهِ وسَطَّرَهُ بنفسِهِ.

فهَاكَذَا كانَ من حقِّكَ أن تعملَ الحِمَار المُغَفَّل الأَبْلَه، وأما كونُكَ توهمُ علينا بكلمةٍ في براوتكَ، إيهْ هَلْ أُخْرِسْتَ، ولَمْ تَزِدْ عليها تعريفاً إلاَّ أولاد ادليم أُخِذُوا، فحَتَّى الأحمَقُ يقولُ تلك الكلمةَ، فالرجلُ يظْهَرُ مِنْ براوتِهِ، والعاقِلُ يُعْرَفُ مِنْ كلاَمِهِ، ونحْنُ عندنَا هُنَا رقاقيصُ خديمِنَا عبيد بن إبراهيم العربُ المغافِرَةُ من السودانِ، ولَهُمْ هُنَا عندنَا نحو ثمانيةٍ وعشرينَ يوماً، اعطُونَا الخبَرَ عَنْ أولاد ادليم

وغيرِهِمْ، وعرفُونَا حيْثُ كانوا نزولاً، وليْسَ هِيَ ضايةُ سيدي محمد ، وكونهم في جوارِ المغافرَةِ عن يومينِ وثلاثة، وكونها تلك البلاد هي بلادُ أولاَدِ العربية بنفسها، وفي علِمنَا أخبَارُ تلكَ القبيلةِ بلداً بلداً، ولا يحول بيننا وبين خيْرِ تلك الناحيةِ شيءٌ، ولا أغْفَلَنَا الله عن شيءٍ بفضل الله.

وَأَنْتَ يَالْحِمَار كونك بالصحراءِ وقاعدتها تافيلالت، تَرِدُهَا وفودُ العرب، ويأتيها الصادرُ والواردُ من كل ناحيةٍ، وأنتَ فيها اليوم بمثابَةِ الأميرِ، ولا بينك وبين تلك الصحراء حينذاكَ سُوسٌ ولا غيرُهَا، إلا بسيطُ الأرض من تافيلالت إلى القبلَةِ، فكيف تجهَلُ أخبارَهَا، ولا تعلَمُ أحوالها كلَّهَا، ولا تعرِفُ أحداً بها ومياهَهَا ومعَاطِنَهَا بأسرِّهَا، ولكنك غيْرُ عربيٍّ، ولست بحازمٍ في شيءٍ، وكما كُنْتَ عليهِ أَوَّلاً البلَهُ والغفْلَةُ باقِياً عَلَيْهِ، ولم تَزِدْ عليْهِ شيْئاً ولستُ أَنَا بحمْدِ اللهِ غرياً الذي أَقْصَرْتُ ولايتَكَ على تافيلالت وجيرَانِهَا، التي كانت تَكْفِي فِيهَا قِيَادَةُ بَارَى العَبْدِ أَوْ ولد الحاج عمارة.

وَلَوْ رأينَاكَ تصلُحُ لِمَا هُوَ أكثَرُ منهَا لاخترنَاكَ لَهُ، واليومَ تافيلالت كبيرةٌ عليكَ أنتَ، ولا تقدِرُ عليهَا، ولا تضبط أحوالها ولا أحوَالَنَا فيها، وما تاتيكَ عليهِ براوتنا مع خديمِنَا دحمان غرنيط عليه تَعْمَلُ، فَبِاللَّهِ الذي لا إله إلاَّ هُوَ إِذَا لَمْ تعمَلْ بكُلِّ مَا فِيهَا، وَخَصَتَّكَ بمعنى نَقَصَتَّكَ مسألةٌ من ذلك لم تعملْهَا، ولم تُشْفِ لنَا غليلاً فيهَا حَتَّى أُوقِعُ بِكَ وَأُغَبِّرُ أثَرَكَ بين الناسِ.

فَمَا أَعْجَبَنَا حالُكَ بشيءٍ، وكتابُكَ هَذَا زَادَ فيكَ خبرةً، وأعربَ لَنَا عَنْ كونكَ عَمِّياً غائباً عنْ هذا الأمرِ، بعيداً عنه، ليسَ لك فيه عقْلٌ، ولاَ مُدَّ لك فيه بَاعٌ ولا

فهمٌ ولا إدراكٌ أصلاً من كل وجهٍ، فالرجلُ العامي الأبلَهُ المغَفَّلُ لاَ يُوَلَّى خطَّةَ المخزنِ، ولا يصلُحُ لهَا إلاَّ الذي يعرِفُ الأشياءَ وتتُوقُ نفسُهُ لإدراكِ الغوامضِ من الأمور البعيدةِ، ويعرف كيف يتكلَّمُ، وكيف يكتب، ويكونُ قلَماً بطرَفَيْنِ، وديواناً ولساناً، يظل يتكلَّمُ ولا يحقر من يسأل، ويجعل زَيَّ العربِ شعارَهُ ودثَارَهُ، ويفحص عن النقيرِ والقطميرِ، ولا يُغَيِّبُ عنْكَ خبَرَ ناحيةٍ ولا سريَّةٍ، ويكونُ تيقظُهُ أغلَبَ عليْهِ من سِنَتِهِ وغفْلَتِهِ، وإذا أتَتْهُ مسألةٌ لا يقبلُهَا عنْ أوَّلِ ساعةٍ ويصرفها من حيثُ كَانَتْ، ولا يكون مصدقاً لأوَّلِ قائلٍ، ولا مكذِّباً لكُلِّ مُخْبِرٍ، ويعمَلُ الحزْمَ على الجِهَتَيْنِ.

فواللَّهِ إلاَّ حضَرْتُ والدي المرحوم بفضل الله مولانا الشريف قدس الله روحه، وهو يَسْخُنُ في بيْتٍ في داره، وقد دخلتْ عليه خادمةٌ وبيدها بساطٌ فيه بعضُ الحُبَارِ، أدخلتْهُ مِنْ عنْدِ أخينا مولاي الرشيد رحمه الله، فردَّهَا لَهُ مرتين أو ثلاثة وهو يقول : قُلْ لَهُ في أَيِّ موضعٍ تجار الصيَادَة، وفي أي بلدٍ وَمَعَ مَن اصْطَادَهَا، وطيورُكَ شيّخُوا أَمْ لاَ؟ ومن شاخَ منْهُمْ؟ ومن فيهم لائقٌ بالإصطيادِ وَمَنْ لاَ؟ وكيف عملت في صيِادَتِكَ؟ وجعل يردُّهَا إليه مرَّاتٍ عديدة على هذه المسألةِ وحدَهَا، فذلك من شأْنِ أهلِ الحزمِ، ومن طبْعِ الوُلاَةِ وذَوِي الأَقْدَارِ والمعرفةِ بأمورِ الدهر.

ولقد بلغنا أن الرشيدَ أمَرَ ولدَهُ الأمِينَ يسرِّجُ له حصاناً، فانصرَفَ، ثُمَّ أَمَرَ المَامُونَ أَخَاهُ بمثلِ ذلكَ، فرجعَ لَهُ فَقَالَ لمولاَنَا نصره الله : أَيُّ حصانٍ يُسَرَّجُ لأميرِ المؤمنينَ مِنْ خيلِهِ المباركةِ؟ فقال له : الحصانُ الفلاني، فقال له : بِأَيِّ سرجٍ من سروجِ أمير المؤمنين؟ فقال : بالسَّرْجِ الفلاني، فقال له : وَبِأَيِّ لِجَامٍ؟ فقال له :

اللِّجَامُ الفلاني، ولاَ انصرَفَ عنْهُ حتَّى أعرَبَ له عن كُلِّ مسألةٍ بخلاَفِ أخيهِ الأَوَّلِ الذي وَثَبَ على جهلٍ ولا يرى ما يعمَلُ ولاَ ما يوافِقُ غرَضَهُ.

وقال مَلِكٌ لبعضِ الوزراء : اعْطِ لِهَذَا بهيمةً من بهائِمِنَا، فقالَ له : أمن النَعَمُ أَوْ مِنَ المُحَرَّمِ الأكلِ؟ فقال له : من النَعَمُ، فقال له : من البَقَرِ أو مِنَ الغنم؟ فقال له : من الغنم، فقال له : من الأَبْيَضِ أو من الأسودِ؟ فقال له : من الأسودِ، فقال له : ذكراً أو أُنْثَى؟ فقال له : ذَكَرٌ، فقال له ابْنُ حَوْلٍ أو حولينِ؟ فقال له : إِبْنُ حَوْلٍ، وتعجَّبَ الملكُ من صرامةِ الوزيرِ وحزمهِ وكثرةِ تيقظهِ، فصرَّفَهُ ودعَا له بخيرٍ.

وأنتَ وَالٍ على قاعدة المغرب سجلماسة، وهي بلادُ الصحراءِ إلى السودان والنيلِ، ولا نجِدُكَ تعرِفُ معرباً، ولاَ تَفُظُّ خبَراً، ولا تتلقى أحداً، ولا تعطي كلاماً لقريبٍ ولا لبعيدٍ، وإنما أَنْتَ أخرسٌ أَبْلَهٌ، لا تضبطُ تافيلالت ولاَ أقَلَّ منهَا، وبراواتك كلُّهَا براواتُ عَامِّي أجْلَفٍ غَبِيٍّ أغْلَفٍ لاَ يفْقَهُ شيْئاً، ولاَ تزيدُ فيهِمْ على كلمةٍ أَوْ كلمتينِ، وذلك من فرطِ الجهلِ وقصُورِ الفهمِ والعقلِ وعدمِ الإدراكِ، ولا عنْدِي إِلاَّ أنَّكَ ذُو غبَاوَةٍ وغُلْظِ طَبْعٍ لا تصلُحُ لشيْءٍ ولا لطَبْخٍ، وأحوالُنَا بتلكَ البلادِ مفرطةٌ، كأَنِّي أشاهدُهَا وأرَاهَا بعيْنِي، ولَوْ كَانَ لكَ عقلٌ وفيكَ حزمٌ ومعك نهُوضٌ لهذَا الأمرِ الذي نحْنُ فيه لَظَهَرَ فيكَ ذلكَ في العَامِ الأَوَّلِ، أو في الذي يَلِيهِ، ولو رأيناكَ تعمَلُ عملَ أهلِ النجدة والفائدة والرجولية، وعمَلَ أهلِ العمارةِ والفائدةِ الذي يكونُ الرجُلُ اليَوْمَ في حالةٍ ويصبَحُ غداً في حالةٍ آخرى أفضَلَ منْهَا ما أبقَاكَ اللَّهُ بتافيلالت التي يصلُحُ لولايتِهَا عبْدٌ أَوْ أَمَةٌ، وليسَتْ هذهِ بأَوَّلِ وصيَّةٍ أَوْصَيْتُكَ بها، ولا أَوَّلَ مخاطبةٍ خاطبناك بها وبأكثَرَ منْهَا، وحالَتُكَ الأولى هي

حالتُكَ الآن من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ، اللهم إنَّا قد آثرنَاكَ وعَمِلْنَا لك من الخيرِ ما عملَهُ اللَّهُ لَكَ، فلم تعمَلْ بمكَافَاتِه، ولم تُقَدِّرْ قَدْرَهُ، ولا كيْفَ تَتَلَقَّاهُ، ولا من أين تبدَأُهُ، ولا من أين تختمهُ، ولاَ مَرَّحْتَنَا عنْهُ بضبْطِ مسألةٍ، ولا عندَكَ عليهِ حجَّةٌ تحتَجُّ بهَا، ولا فائدةٌ واحدةٌ مفردةٌ تُدْلِي فيهَا وبهَا، لا ظاهرة ولا باطنة، والمخزَنُ لاَ يُؤْمَنُ عَطَبُهُ، ولا يَسْلَمُ مِنْ غضبِهِ ولدُهُ وصديقُه إِنْ كانَ لَكَ، ولا يصبرُ للَّذِي يكونُ مَعَهُ على حَالتِكَ، وَإِنْ صَبَرَ له يوماً لا يَصْبِرُ له شهراً، أَوْ رُبَّمَا يحْضَى عندَ الملوكِ مِنْ أهلِ هذهِ الخطَّةِ الدينيةِ أَعْدَى أَعَادِيهِ إِنْ كانَ معَهُ فهُمٌ وتيقظٌ ونهوضٌ لِمَا أُرِيدَ مِنْهُ، فِطْرَةُ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليهَا، لا تبديلَ لخلق الله، ولن تجد لسنَّةِ الله تبديلاً، وهذهِ البراواتُ كنَّا نريد أن نكاتبَكَ بهَا مِنْ قَبْلِ هذا، وأحوجتنَا إليها من كُلِّ وجهٍ، والآنَ وقفت على السَّبَبِ، وعملتَ لنَا ما اقتضَاهُ الحالُ أَنْ نُخَاطِبَكَ بِهَا ،وَأَصْلُ ما حرضناك عنْهُ وقرأنَا عليكَ قَوْلَ لَقِيطِ الأَيَادِي الذي كَتَبَ بِهِ إلى قبيلتهِ إِذْ هُوَ يقُولُ :

أبلغ إياداً وخلل في سراتهم * إني أرى الرأيَ إن لم يعص قد نصعَا

لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه * هَمٌّ يكاد سنَاهُ يقصم الضلعا

ما زال يحلب هذا الدهر أشطره * يكون متبعاً طوراً ومتبعا

لامترفاً إِنْ رخاءُ العيْشِ ساعده * ولاَ إِذَا عضّ مكروهٍ به خشعا

وقُلْنَا لَكَ ما كتب به الحجاج بن يوسف لِعَبْدِ الملك بن مروان من خبر عبد الرحمان بن الأشعث، وجوابُهُ لَهُ هَذَا، وقال له : يكفيكَ ما أوصى بِهِ البَكْرِيُّ أَخَاهُ

زَيْداً، وَكَوْنُ الحجَّاجِ بَعَثَ مَنْ يُبَرِّحُ عَلَى مَنْ يَعْرِف كَيْفَ هيَ وصيَةُ البَكْرِيِّ أخاهُ زيداً إلى أَنْ جاءَ رجلٌ كانَ مقيماً على أبوابِهِ سبعَةَ أشهرٍ، فقال له : البكري هو موسى بن جابر البكري الحنفي، وأخاه زيد هو ابن عمه زيد بن بكر، قال له :

أقولُ لزيْدٍ لا تترتر فإنَّهُمْ * يرون المنايَا دون قتلِكَ أو قَتْلِي

فإن وضعوا حرباً فضعها وإن أَبَوْا * فعرضةُ نارِ الحرب مثْلُكَ أَوْ مِثْلِي

وإِنْ رَفَعُوا الحرب العوان التي ترى * فشب وقود النار بالحطبِ الجزْلِ

إلى آخرها، وكم حرضنَاكَ على هذا الأمرِ،وكم أرشدناكَ إليه وأنتَ أنتَ، ونحنُ باللَّهِ ما أحوجنا الله إليه، ولا توقفْنَا على فائدَتِكَ ولا فائدةِ غيرِكَ، وقد منحَنَا اللَّهُ ما قلدنا وما أغنَانَا الله به من فضله وإحسانه وغفرانه، بِمَا أنا أظنُّهُ فيه بحمدِ الله، فظنِّي فيه جميلٌ، وإليه يقُولُ في الأثرِ الصحيحِ : أن عند ظن عبدي بي، وظَنِّي فيه لاَ يعملُ لِي إلاَّ الخيرَ وما أنا رَاجيه، فلا نعوِّلُ إلا على فضلِهِ لا في الدنيا ولا في الآخرة إن شاء الله، فإذا أردت أن تعمَلَ بما يُبْقِيكَ اللَّهُ فيهِ من عمَلِ الجدِّ والنهوضِ فيما عملنَاهُ لكَ منَ الخيْرِ بما هو من مكافَاتُهُ، وبما تستديمُ بهِ من بقاءِ النعمةِ والرياسةِ عليْكَ، وتجدُ في ذلكَ كلَّ الجدِّ، وإذَا لم تعمَلْ لذلك وَجْهَهُ الذي يُنَفِّسُ لَكَ ما أنتَ فيهِ فأنت أَعْمَى.

وبعْدَ أن انْصَرَفَ عنَّا صاحبُكَ المصابحِي ما رأينا يَلِيقُ بنَا في إنهَاءِ ما في قلُوبنَا إليك، وإلقاءِ ما بَلَغَ فينا عليكَ، ويُنْهِي لك مشافهَةَ ما قلنَاهُ لكَ، ومَا أغاضنَا عليكَ، ويحذِّرُكَ وينْذرُكَ عن كُلِّ مسألةٍ مسألةٍ إلاَّ خديمُنَا الأرضَى السيد عبد الحق، الكاتبُ الذي تَعْرِفُهُ ويَعْرِفُكَ، وهُوَ الذي رَغَّبْنَا في كتابتك حيث أمرنَاهُ فِيهِ،

فَثِقْ بِهِ واحملْ عَلَى قولِهِ، واصْغَى إليْهِ في كُلِّ ما يقولُهُ لكَ سراًّ وجهراً، ونحْنُ ما وثقْنَا إلاَّ بِهِ، يَأْتِينَا جَمِيعُ إخوانِكَ كلِّهِمْ وما يَأْتِينَا بِهِ عليْهِ نَعْمَلُ إنْ شاءَ اللَّهُ، وأنتَ أَخْبَرُ والسلام، انتهى

فإن وضعوا حرباً فضعها وإن أَبَوْا * فعرضةُ نارِ الحرب مثلُكَ أَوْ مِثْلِي

وإنْ رَفَعُوا الحرب العوان التي ترى * فشب وقود النار بالحطبِ الجزْلِ

إلى آخرها، وكم حرضنَاكَ على هذا الأمرِ،وكم أرشدناكَ إليه وأنتَ أنتَ، ونحنُ باللَّهِ ما أحوجنا الله إليه، ولا توقفْنَا على فائدَتِكَ ولا فائدةِ غيرِكَ، وقد منحَنَا اللَّهُ ما قلدنا وما أغنَانَا الله به من فضله وإحسانه وغفرانه، بِمَا أنا أظنُّهُ فيه بحمدِ الله، فظنِّي فيه جميلٌ، وإليه يقُولُ في الأثرِ الصحيحِ : أن عند ظن عبدي بي، وظَنِّي فيه لاَ يعملُ لِي إلاَّ الخيرَ وما أنا رَاجِيه، فلا نعوِّلُ إلا على فضلِهِ لا في الدنيا ولا في الآخرة إن شاء الله، فإذا أردت أن تعمَلَ بما يُبْقِيكَ اللَّهُ فيهِ من عمَلِ الجدِّ والنهوضِ فيما عملنَاهُ لكَ منَ الخيْرِ بما هو من مكافَاتُهُ، وبما تستديمُ بهِ من بقاءِ النعمةِ والرياسةِ عليْكَ، وتجدُ في ذلكَ كُلَّ الجدِّ، وإذَا لم تعمَلْ لذلك وَجْهَهُ الذي يُنَفِّسُ لَكَ ما أنتَ فيهِ فأنت أَعْمَى.

وبعْدَ أن انْصَرَفَ عنَّا صاحبُكَ المصابحِي ما رأينا يَلِيقُ بنَا في إنهَاءِ ما في قلُوبنَا إليك، وإلقاءِ ما بَلَغَ فينا عليكَ، ويُنْهِي لك مشافهَةَ ما قلنَاهُ لكَ، ومَا أغاضنَا عليكَ، ويحذِّرُكَ وينْذِرُكَ عن كُلِّ مسألةٍ مسألةٍ إلاَّ خديمُنَا الأرضَى السيد عبد الحق، الكاتبُ الذي تَعْرِفُهُ ويَعْرِفُكَ، وهُوَ الذي رَغَّبْنَا في كتابتك حيث أمرنَاهُ فِيهِ،

فَثِقْ بِهِ واحملْ عَلَى قولِهِ، واصْغَى إليْهِ في كُلِّ ما يقولُهُ لكَ سراًّ وجهراً، ونحْنُ ما وثقْنَا إلاَّ بِهِ، يَأْتِينَا جَمِيعُ إخوانِكَ كلِّهِمْ وما يَأْتِينَا بِهِ عليْهِ نَعْمَلُ إنْ شاءَ اللَّهُ، وأنتَ أَخْبَرُ والسلام، انتهى

فإن وضعوا حرباً فضعها وإن أَبَوْا * فعرضةُ نارِ الحرب مثْلُكَ أَوْ مِثْلِي

وإِنْ رَفَعُوا الحرب العوان التي ترى * فشب وقود النار بالحطبِ الجزْلِ

إلى آخرها، وكم حرضنَاكَ على هذا الأمرِ،وكم أرشدناكَ إليه وأنتَ أنتَ، ونحنُ باللَّهِ ما أحوجنا الله إليه، ولا توقفْنَا على فائدَتِكَ ولا فائدةِ غيرِكَ، وقد منحَنَا اللَّهُ ما قلدنا وما أغنَانَا الله به من فضله وإحسانه وغفرانه، بِمَا أنا أظنُّهُ فيه بحمدِ الله، فظنِّي فيه جميلٌ، وإليه يقُولُ في الأثرِ الصحيحِ : أن عند ظن عبدي بي، وظَنِّي فيه لاَ يعملُ لِي إلاَّ الخيرَ وما أنا رَاجِيه، فلا نعوِّلُ إلا على فضلِهِ لا في الدنيا ولا في الآخرة إن شاء الله، فإذا أردت أن تعمَلَ بما يُبْقِيكَ اللَّهُ فيهِ من عمَلِ الجدِّ والنهوضِ فيما عملنَاهُ لكَ منَ الخيْرِ بما هو من مكافَاتُهُ، وبما تستديمُ بهِ من بقاءِ النعمةِ والرياسةِ عليْكَ، وتجدُ في ذلكَ كلَّ الجدِّ، وإذَا لم تعمَلْ لذلك وَجْهَهُ الذي يُنَفِّسُ لَكَ ما أنتَ فيهِ فأنت أَعْمَى.

وبعْدَ أن انْصَرَفَ عنَّا صاحبُكَ المصابحِي ما رأينا يَلِيقُ بنَا في إنهَاءِ ما في قلُوبنَا إليك، وإلقاءِ ما بَلَغَ فينا عليكَ، ويُنْهِي لك مشافهَةَ ما قلنَاهُ لكَ، ومَا أغاضنَا عليكَ، ويحذِّرُكَ وينْذِرُكَ عن كُلِّ مسألةٍ مسألةٍ إلاَّ خديمُنَا الأرضَى السيد عبد الحق، الكاتبُ الذي تَعْرِفُهُ ويَعْرِفُكَ، وهُوَ الذي رَغَّبْنَا في كتابتك حيث أمرنَاهُ فيهِ،

فَثِقْ بِهِ واحملْ عَلَى قولِهِ، واصْغَى إليْهِ في كُلِّ ما يقولُهُ لكَ سرّاً وجهراً، ونحْنُ ما وثقْنَا إلاَّ بِهِ، يَأْتِينَا جَمِيعُ إخوانِكَ كلِّهِمْ وما يَأْتِينَا بِهِ عليْهِ نَعْمَلُ إنْ شاءَ اللَّهُ، وأنتَ أَخْبَرُ والسلام، انتهى

الرسالة: 22

إلى الفقيه العلامة، الصدر الفهامة، المدرس البركة الحجة، القاضي الأعدل، محبنا أبي البركات، السيد ابن الحاج، حفظه الله ورعاه ونفعنا بمحبته آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ولا متعرف بحمد الله إلا الخير والعافية، ونعم الله السابغة الضافية، نحمده تعالى ونشكره ونستزيده خزائن نعمائه الوافية.

وبعد فإنه قد ورد على أبوابنا العالية بالله الرجل الصالح السيد أحمد بناصر بقصد الزيارة، وحين التقينا معه طلبنا منه بذل النصيحة والدلالة على رجل من أهل الظاهر وسر الباطن نستعين به على أمر ديننا ودنيانا وما نحن بصدده من أمور الخلافة، وأكدت عليه في ذلك، وحين فهم الرغبة منا والجد دلنا عليك، وقال لنا فيما يرويه عن والده سيدي محمد ابن ناصر رحمه الله وإن العارف بالله الفقيه السيد أحمد بن العربي ابن الحاج رجل من بيت كبير علما وصلاحا وزهدا، رجل من أهل السر الباطن متبحر في العلوم الدينية واللدنية يتولى خطة القضاء بالمدينة البيضاء أواخر عمره، نجل الإمام الولي العالي العارف الرباني، صاحب الكرامات أبي إسحاق إبراهيم ابن الحاج البلفيقي السلمي دفين مراكش نسبه إلى العباس بن مرداس، وقد كان أخبرنا بهذا العلامة الهمام السيد الحسن اليوسي عن شيخه المذكور وسمعته من غيرهما، فلاح لنا بذلك أن السر من أهله والدر من معدنه**,** الله أعلم حيث يجعل رسالاته، فنحمد الله الذي جمع لنا فيك ما نحبه:

شرف العلم وعلو النسب، فأسهمنا من دعائك الصالح في خلواتك وجلواتك، وابذل لنا النصح الواجب لنا عليك.

وقد شكرنا لكم صنيعكم كونكم امتثلتم أمرنا وساعدتمونا على توليتكم الخطة وأطعتم الله بطاعتنا، بارك الله فيكم، ذلك الظن فيكم، والمعهود من صالح محبتكم، فقد كنت مهتما من عدم قبولكم تلك الخطة ويتغير خاطرنا عليكم، فحين وصلني قبولكم لها وامتثال أمرنا سجدت لله شكرا، ووالله ما حملني على توليتكم تلك الخطة إلا إحياء شعائر الدين من بعد غربته كما قال عليه السلام: بدا الدين غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء، وأنت منهم.

وتقرر عندي سيرتك الجميلة، ووصفت لنا أوصافك الحميدة الغريبة الجليلة، التي عز وجودها في هذا الزمان، فهي التي تدل على علو نسبك وحسبك ودينك، وخصوصيتك من بين أهل زمانك، نفعك الله ونفع بك، وأسعدنا بمعرفتك، ونفعنا بمحبتك.

فقد أخبرنا أن أهل الذمة أخزاهم الله أتوك ليلة العيد بما وظفناه عليهم من كسوة القاضي التي يخطب بها خطبة العيد، فضربت بها وجوههم، وأبيت قبولها منهم، فأنهوا الأمر لشيخهم بعد أن عزمت على عقوبتهم أشد العقوبة، فذكر لي أنك امتنعت من قبولها، فجزاك الله عنا خيرا، فمثلك في هذا الزمان وجوده أعز من الكبريت الأحمر.

وأخبرنا خديمنا الناظر رضوان وأنك امتنعت من قبض ما كان يقبضه أمثالك من الأوقاف، وإنما قبلت من ذلك شطره مع ما أنهي إلينا من تحريك في الأحكام

وتوقفك في المسائل وردها إلى غيرك مع غزارة علمك وتضلعك في الفقه، فالحمد لله الذي أنعم علينا بوجود أمثالك في دولتنا نستعين به على أمر الدين، فالله سبحانه يعيننا على القيام بالواجب لك علينا آمين ...

آمر باحترام دارك وقرابتك ومن له أدنى انتساب إليك، فدارك جعلناها حرما وزاوية، فمن لاذ بها واحترم فعليه أمن الله وأمننا، ومن تعدى أمرنا في ذلك فقد خلع ذمة الله وخالف أمرنا.

والله تعالى يتولى هداك، وينفعنا بمحبتك، ولنا عليك مزيد الدعاء في سائر خلواتك وتوجهك لنا بقلبك، فالله سبحانه يوفقنا لطاعته وامتثال أمره آمين، يا رب العالمين، والسلام.

الرسالة: 23

نص رسالة وجهها السلطان المولى اسماعيل لسيدي عبد القادر الفاسي

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه

الطابع الاسماعيلي في وسطه. اسماعيل بن الشريف الحسني رعاه الله وفي دائرته كتب مرتين : اليمن والاقبال وبلوغ الامال:

العالم العلامة المدرس الدراك الفهامة الفقيه... السيد عبد القادر بن علي الفاسي سلام عليكم و...وبعد فقد بلغنا كتابك وفهمنا ما تضمنه بشأن ابن نافع والله مالنا علم بما جعل عليه... ذلك فعله عبد الله الروسي من غير مشورة... الى ان رفعتم لنا خبره والآن فها نحن أمرنا... بسببه وخدمة صناعاته ولا تزل تلتمس لنا... به وعقب الصلوات التي لا يشك السائل ان الله ... ولابأس ان رفعتم لنا حاجة مسلم برغبة في ... بذلك رعبه فالتي قضاها الله فلا لنا عن استيفاد... والتي لم يقضها فلا قدرة لنا على التصرف الا بي... ملحوظة بعين الرعاية ومنزلتك في قلوبنا لا ح... لوجه الله الله تعالى وتكريما واجلالا والسلام . وكتب ...الخير ثمانية وثمانين وألف.

الرسالة: 24

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم الله وبه كتب اسماعيل لطف الله به.

العالم العلامة الفقيه من نسأل الله أن يعصمه من كل داء ويقيه السيد عبد القادر بن علي الفاسي سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فلتعلم أن البال لم يزل متعلقا بكم منذ حل ذلك المرض بمدينة فاس راجين لكم السلامة وأسعد ماسمعناه أن قيل لنا انتم وأولادكم على خير وعافية بعد ان سالنا عنكم وعن أهلكم وأولادكم فحمدنا الله تعالى حيث نجاكم الله وشكرناه على عافيتكم ولا نطلب من الله الا بقاءكم اذ أنتم دار علم وموت العلماء قد جرحت منا الاكباد وتفطر منها الفؤاد فالله يحفظكم ويحرسكم بعينه التي لاتنام ويجعلكم في كنفه الذي لا يضام انتم في يمين الرحمن وكلتا يديه يمين انتم في حمى الله الامين انتم في حصن الله المنيع وفي ودائع الله التي لاتضيع فالله يجعلكم في كفالته ويتوجكم بتاج سلامته آمين والسلام وكتب ثالث عشر من جمادى الاولى سنة تسعة كذا وثمانين وألف.

الرسالة: 25

وكتب لأبي عبد الله محمد فتحا بن عبد القادر الفاسي بما لفظه بعد الحمدلة والصلاة والطابع الشريف محبنا في الله الفقيه العلامة السيد محمد بن الشيخ أبي محمد عبد القادر الفاسي أنعم الله صباحك وأبقى فيما يرضي الله تبارك وتعالى نجاحك سلام عليك ورحمة الله وبركاته عن والحمد لله هذا ومما يجب به التأكيد عليك أننا نقدم لك شهادة الله تعالى ومحبتنا نحن فيك لا محبتك أنت فينا فإننا نعلم علم يقين أن محبتنا فيك أكثر من محبتك... هذه شهور وأعوام ونحن نطلب ونترقب منك نصيحة إلينا دينية نستعين بها ونعتمد مع الله تبارك عليها في ديننا وماسمحت لنا بها محبتك فيها فهذا أقوى دليل وأكبر شاهد على أن محبتنا فيك أكثر ولذلك اقسمنا عليك بها أنك إذا رأيت من يعطي من أهل فاس موزونة واحدة دون الاندلسي واللمطي الا ما تكلمت على ذلك وتبرأت ممن تصدى لهذه المسألة هنالك، فإن هذا المال الموظف إنما هو على الأندلسي واللمطي فقط وها نحن ألقينا إليك واعلمناك بها لتكون على بصيرة منها فلا تسكت إن رأيت غيرهم يعطي شيئا فتكلم وانصح ولا تسكت فإنه لاينبغي لعالم مثلك أن يكون في مدينة مثل مدينة فاس ويرائي أهلها ويستحي من الحق ويراعي فيه هذا أندلسي وهذا لمطي فلا يحل لمومن يتحلى بالعلم والدين أن يكون على هذا المهيع فإن...العالم عز الدين ابن عبد السلام لما أن قيل له أن بيوت المال ضعفت ولم يبق بها ما يعطي في أرزاق الجيش قال لهم أنظروا هؤلاء الاعلاج

وهؤلاء المماليك يباع منهم من يباع ويستبيع نفسه من قدر عليها وتجتمع أموالهم ويدفع لبيت المال فقال له من أشفق عليه وتخوف من قربائه اتتكلم ياسيدي بهذا الكلام وهؤلاء الاعلاج والمماليك فيهم القواد والأكابر وأعيان الجيش ربما يصدر من بعضهم فيك شيء أو يقتلك فقال لهم ومن لي بهذه المزية حتى يقال إن عز الدين ابن عبد السلام مات على كلمة الحق وما راءى فيها أحدا وأنت وأبوك رحمه الله في تلك المدينة وما تكلمتم لهم بما ينفعهم في دينهم وهذه مدة مديدة والناس تعاين منكم كلمة حقيقية تصدعون بها لعامة الأهل وتنصحوهم بما يجب عليكم وتنفعونهم وتذودون عنهم مع الله تبارك وتعالى بهدايتهم وارشادهم للحق وتعرفونهم بأمور الخلافة ونفعها إياهم وشمول العافية بها عليهم واكتسابهم فيها من الهناء والأسباب والتجارات وجلب المرافق ونجح الأولاد وتقول لهم أنت هذه المدينة هي أحوج مدن المغرب كلها للخلافة فإنها ماكان يدافع عنها قبائل المغرب إلا الملك وما كان يستقيم حال معاشهم الا به وتحرضهم على محبته وان يعظموا ما عظم الله تبارك وتعالى من حرمته وحقه وأما إذا بقيت تلك المدينة للأندلسي واللمطي الذين يزعمون أنهم عمارتها فوالله ما كانوا يقدرون أن يدافعوا عنها حتى أولاد جامع الحييانة الذين كانوا يقتلونهم بأطراف المدينة ويسلبونهم من وراء السور ووقائعهم معهم لاتخفى عنك فذلك العام الذي خرجوا للشراكة من فاس بستين ألفا وأخذوهم في الخمسين وتغلبوا عليهم...وأخرجوهم منه فما دار عليهم العام حتى اجتمعوا بخيامهم وتبرءوا... نزلتهم وكروا عليهم في المترب وقتلوا منهم مقتلة كبيرة وشمتوا بهم شموتية عظيمة مازال الناس يضربون بها

المثل فهذه شرذمة من الشراكة مازال الناس يؤرخون بواقعتهم ويقولون " عيطة المترب" وأي شيء هم الأندلس واللمطيون فوالله ماهم الا أحداث وأوجاس وأهل خزي وفسق وغدر فإذا لم تكن لهم الخلافة يستظلون بظلها فما هم الا سلب لكل وافد وطارق فكان من حقك حفظك الله أن تنصح أولئك وتكلمهم وتنفعهم بخطبك الدينية ومواعظك العلمية وتدافع عنهم بنصيحتك إليهم وتكون معينا لهم على الطاعة والخير فعلى هذه المسألة استشهدنا لك بعز الدين ابن عبد السلام وعليها حرضناك بذكره وأما نحن فالله تبارك وتعالى ولينا وبفضله وكرمه كفيلنا فإذا نفعتهم... إذا استهديتم للخير واسترشدتم... تعالى عليهم وتربح ثوابهم ...في الحق.

الرسالة: 26

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه

الطابع الاسماعيلي في وسطه. اسماعيل بن الشريف الحسني رعاه الله وفي دائرته كتب مرتين : اليمن والاقبال وبلوغ الامال:

محبنا الفقيه السيد محمد بن عبد القادر الفاسي وفقكم الله وارشدكم وأصلحكم وأعانكم سلام عليكم ورحمت الله تعالى وبركاته عن الخير والعافية وبعد فقد وصلنا جوابكم على المسألة العلمية التي كنا تكلمنا فيها مع والدكم وهي من قلد عالما لقي الله سالما فأريناه لمحبنا الفقيه الفقيه كذا مكررة العلامة السيد عبد المالك التجمعتي كذا وللفقيه السيد احمد بن ا...وقريء بمحضرهما وأعجبهما واستحسناه غير اننا نحن لم يقنعنا منك... ولم يملأ عيوننا وقلوبنا ولم تشف لنا فيه غليلا ولا عرجت لنا فيه على المسألة ؟ التي وقع عليها الكلام والسؤال بنفسها ولا بينت لنا... ومن رويت عنه هل قالها امام من الأئمة الاربع كإمامنا مالك رضي الله عنه او كالشافعي او كابن حنبل أو كأبو كذا حنيفة وتنقل لنا كلامهم في هذا المعنى وكلام غيرهم الى أن تستظهر لنا ذلك وتفيدنا به وتحقق ؟ وعندك فائدة المسألة المسؤول عنها وغيرها وتجيبنا جوابا يشفي الغليل ولا يبقى لأحد مايقول بعده حتى ان لو رآه اهل مصر لاقروا بعلمك ويشهدوا به وذلك هو المظنون من داركم والمعروف من مدينتكم اذ ما تفتخر فاس على سائر المدن والاقاليم والاقطار الا بالعلم حتى ان لو جاءهم عالم براني لم يرضوا بعلمه

ولم يبالوا به وقد حزنا السيد الحسن اليوسي على سكنى فاس واشتغاله بالقراءة فيها فاشتكى من اذاية أهلها وذلك لايكون في الانسان الا أن يعلم ان الله تعالى أعطاه من العلم ماكفاه عن الغير وقد قال تعالى وفوق كل ذي علم عليم ومنتهى العلم الى الله العظيم وأظن ان العلم تراخت مسألته عندكم وعطلت معاطاته في بلادكم حتى أن على الفلوس رحمه الله حاك علمائكم وطلبتكم واحدا بعد واحد وكانوا كلهم يتقونه فليس فيهم من عجزه ولا من قهقره ولولا أنه وجدنا ملجمين له زاجرونه كذا محن شهوة نفسه لا نطلق له بطرف ولا نغفل وتحقق منا أننا نضرب على حق الله تعالى لكان أفتى للناس بمالا يفتى به ولخرج للمذهب الاندلسي وما رده ذلك الا راه ما رآه منا لأننا والله ما نغفل عن التحظيظ كذا على العلم والاعتناء بتدريسه وكثرة معاطاته ولا نقبل أن ينقل العلم من فاس وهي الموصوفة به أكثر من كل بلاد فالله الله في الاحتزام على العلم ثم الله الله في الاحتزام عليه وفي بثه وإفشائه قبل أن تعضوا عليه الأنامل بالنواجد ونطلب من الله تعالى أن نكون من السعداء عند الله ولا يندثر العلم في زماننا والله تعالى يحفظنا وإياكم مما قيل في ذلك ويرشدنا جميعا ويسلك بنا أحسن المسالك آمين يارب العالمين والسلام وفي الثامن من شوال سنة ستة وتسعين وألف.

الرسالة: 27

الحمد لله نص رسالة موجهة لسيدي محمد بن عبد القادر الفاسي من السلطان مولاي اسماعيل

الحمد له وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم الطابع الاسماعيلي

محبنا السيد محمد بن عبد القادر الفاسي سلام اما بعد فاعلم أننا ماكنا وحسبنا أنهم ذلك سرقوا هذه السرقة وهم الذين اجترؤوا عليها وسرقوها فرحنا لذلك وقلنا الحمد لله طهر الله منها أيدي المسلمين عند اعداء الله الكافرين زال ظهورها عند الاعلاج؟ من ظهورها عند المسلمين سيدنا عمر رضي الله عنه لما لولده الحمد لله الذي طهر أيدي المسلمين من دمى وقلده عنق من اعداء الدين وهذه كبيرة على اهل المغرب فحمدنا الله على براءتهم منها كنا ننتظر اللذين ارتكبا ذلك وهربا اليكم وما أسلما دماءهما بذلك فلما أبطأ قدومهما قدما علينا وهددنا هما وقلنا لمن حضر أضربوا يشهد النصارى عليه انه على ملتهم ودينهم وان ما كان صدر منه حيلة ومات على ذلك ونحن والحمد لله لنا نية صالحة وقصد حسن في النبي صلى الله عليه وسلم وقد سمحنا لأهل فاس فيما كنا جعلنا عليهم في حالة وصفت خواطرنا عليهم الا الخير لوجه الله تعالى ووجه ما اشتملت عليك تلك المدينة من الاشراف والعلماء وامة النبي صلى الله عليه وسلم

من الضعفاء والمساكين فليكونوا منا على في ذلك وها نحن كتبنا لأهل فاس بذلك والله يصلح أحوالنا ويرضيه ءامالنا بمنه والسلام وفي الحادي ..

مبتورة الآخر فلا يعرف تاريخها ولكن رسالة أخرى في نفس الموضوع مؤرخة بالثاني والعشرين من شوال سنة 1101 الموافق السبت 29 يوليه 1690

الرسالة: 28

رسالة من السلطان مولاي اسماعيل لسيدي محمد بن عبد القادر الفاسي يسأله فيها عما يجب إتخاذه من التدابير ضد قبيلة بني عامر التي انحازت للنصارى بتاريخ أواسط جمادى الاولى سنة 1104 الخميس 22 يناير 1693

الطابع الاسماعيلي

الفقيه العالم البركة السيد محمد بن عبد القادر الفاسي سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فموجبه اليكم أعزكم الله مسألة هؤلاء بني عامر الذين يأوون النصارى ويفرون من المسلمين وصاروا هم واياهم يدا واحدة فما حكم الله في مالهم هل يخمس فيؤه أو يقسم على من غزاهم للفارس والراجل وهل فيه غلول لمن كتم شيئا منه أم لا أو يصرف الى بيت مال المسلمين وفي مصالحهم العامة والخاصة. أجبنا في ذلك بما يزيل الاشكال فلقد صح وثبت عنهم انهم تحت إيالة النصارى وفي ذمتهم من غير اضطرار لهم الى ذلك وأرض الله والحمد لله واسعة ولهم فيها متسع فان قالوا خفنا من الترك ومن جورهم مثلا فقد كذبوا فالترك عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم فأحرى عنهم وكلاهما ضعيف وانما دخلوا تحتهم لقلة دينهم وضعف ايمانهم واستحبوا الكفر على الايمان واختاروا المذلة الشنيعة عليهم بين قبائل المسلمين وتوددوا مع النصارى وتباغضوا مع المسلمين قال تعالى لاتجد قوما يومنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم . هؤلاء لايخفى على

كل أحد أنهم كذلك. بين لنا حكم الله فيهم وفي مالهم مفصلا والله تعالى يرعاكم وقد أمرنا وصيفنا هذا حامل الكتاب اليك أن يزورك ويلتمس منك البركة والدعاء لنا وله فانه ممن ظهرت لنا نجابته وصلحت سريرته وعلانيته وكل من نحبه في قلوبنا نحضه على محبتنا وزيارتك فأنت لنا القدوة فادع لنا بصالح دعائك كثر الله أمثالك آمين آمين وكتب في اوسط جمادى الاولى من عام أربعة ومائة وألف.

الرسالة: 29

نص رسالة من مولاي اسماعيل لسيدي محمد بن عبد القادر الفاسي في شان كتاب أبي بكر الاعرج في التاريخ يطلب منه أن يبحث له عمن ينسخه بعد تنقيحه والزيادة فيه بعد مراجعته عليه وعرض كل مسألة من مسائله عليه بتاريخ 14 ربيع الثاني سنة 1105 الاحد 13 دجنبر 1693

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الطابع الاسماعيلي محبنا الفقيه العلامة السيد محمد بن عبد القادر الفاسي رعاكم الله سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد يصلك كتاب بل أوراق ألفها الاعرج وقد توفي بتازة هذه الأيام من الله ومنك تنظر لنا مع خديمنا عبد الخالق طالبا فقيها ناسخا أديبا تاريخيا ينسخه لنا ويراجعك عن كل مسالة منه فما كان منه صحيحا وعلى أساس العلم وأهل الادب ومن التاريخ المنصوص ينسخه ويقيده وان عرف شيئا زائدا عليه يزيده عليه فيه ويطالع الدواوين ويراجع سيادتك الفضلى أبقاها الله وما كان من عند مؤلفه ومختلفة ومن عند رأسه وترهاته كذا وقوافيه المستنبطة منه فلا معنى ولا فائدة يحذفه ويطرحه عنه ولا ينسخه ولا يقيد لنا إلا مالاق بالحال وما هو صحيح ومكافاته علينا واجبة ان شاء الله ومازال يظهر لنا اجتهاده وما زاد فيه مما تضمنه أو ألقى منه من الغث الذي لا يلتفت إليه ان شاء الله تعالى فالله الله فينا في هذه المسالة الله الله فينا لها

وخديمنا عبد الخالق نأمره أن يعين صاحب التأليف والناسخ بكل ما يتوقف له فيه ولابد والسلام وفي الرابع عشر من ربيع الثاني عام خمسة ومائة والف.

الرسالة: 30

نص كتاب وارد على سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي من السلطان مولاي اسماعيل قطع محل الحمد لله والصلاة منه بتاريخ 21 ربيع الثاني 1105 الاحد 20 دجنبر 1693 في شأن الشرفاء أولاد مولاي عبد السلام بن مشيش

محبنا العلامة الجامع المتفنن البركة العالم الصدر الاوحد السيد محمد رعاكم الله سلام عليكم ورحمت الله وبركاته وبعد فاعلموا شرفاء قدة تنازعهم بجهة الفحص مع خديمنا القائد على لايئول حالهم لخير الكريمة صانها الله منه ويقولون هؤلاء فينا شرفاء وهؤلاء اخواننا وهؤلاء بنو عمنا وهؤلاء في عمود نسبنا وهؤلاء اولاد مولاي عبد السلام نفع الله كذا تنقص به وهؤلاء أولاد فلان وفلان وطال تشاجرهم على ذلك وتفاقم نزاعهم سنين هذه مع خديمنا المذكور وحرنا معهم من جميع الوجوه ولا درينا منهم الشرفاء ممن ليسوا شرفاء منهم فاقتضى نظرنا ان الزمنا هؤلاء الناس وهم جماعة من وجوه اولاد مولانا عبد السلام نفعنا الله به من أولاد ابن عبد الوهاب وفيهم الكهول والشيوخ والشيب ومن يوثق به ويعتمد عليه وديانته بأن يقيدوا لنا كل من عرفوه بالشرف ومن ذلك النسب من أولاد سيدنا مولاي عبد السلام بن مشيش من اخوانه وبني عمه وذهبوا من عندنا بذلك والان أتونا بتقييدهم بخطهم على كل من عرفوه في كل بلد وفي كل قبيلة وفي كل موضع وشهدوهم على ذلك وحضره وقيده وبلغنا من كبيرهم وقاضيهم وثقتهم الفقيه السيد محمد ابن عبد الوهاب ولا يخفاكم حاله وورعه وعلمه وها

كتابنا وقد أصدرنا اليكم هذا التقييد الوارد من عندهم لتطالعوه وتجمعوا له الفقهاء وتحضروهم له جميعهم وتصححوه من كل وجه وتضعوا عليه خطكم ليقال أن هذا البحث صدر من جانبنا في هذا الوقت المبارك ووقف النظر عليه منكم ومنا فلم يبق فيه كلام ولا بحث بعده لأحد كائن من كان ولانقبل منكم عذرا في هذه المسالة لابوجه ولا بحال ولابد والسلام وفي الحادي والعشرين من ربيع الثاني عام خمسة ومائة وألف.

الرسالة: 31

ومن ذلك ما كتبه لصاحب تونس يحبذ فعله بقطع الامتياز على الاجنبي ويوصيه على أهل الجزائر ويحذره من الركون إليهم واتخادهم أصدقاء ونصه:

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم إلى أخينا في الله الأمير الأجل الأرضى الأمثل صاحب بلاد تونس وعمالتها وأحوازها وبلادها وإيالتها السيد ابراهيم الشريف امنك الله ورعاك وسددك بمنه ووقاك وسلام عليك ورحمة الله وبركاته ورضوانه الاعم وتحياته أما بعد فإنه لما ورد على مقامنا العالي بالله الركب القفولي المغربي من حجاج بيت الله وأخبرونا عن طريقهم في ذهابهم وإيابهم الى أن ذكروا لنا أنهم اجتازوا عليكم بطرابلس فوجدوكم بها ففرحت بهم وأكرمتم وعظمت جانبهم محبة منكم فينا واعترافا منكم من الاحسان على ايدينا وانكم لاهجون بمحبتنا مقرون ذلك في غيبتنا فقلنا لهم جزاه الله خيرا فغن شكرها ذلك الرجل وعرفها فمن شان الاشراف ومن الاتصاف بالانصاف واظهاره بالاعتراف والشكر على الاحسان واجب على الانسان قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم اذ من لم يشكر الناس لم يشكر الله الا أن بعضهم ذكر لنا انكم أردتم أن توجهوا لنا هدية تجددون بها العهد معنا وتستديمون ببعثها المودة التي بيننا لحسن فضل الله تعالى ولا نسعى في شيء مما يرضيه جل وعلا الا لوجهه الكريم راجيا ثوابه الجسيم نساله سبحانه ان يتقبل أعمالنا وأن يبلغ من الخيرات مقصودنا ويمالنا لكن هديتك لنا وخيرك معنا هو

مسالتان فقد سمعنا انك جعلت احداهما واعجبنا صدورها منك وفرحنا بوقوعها على يديك وهي مسالة الزرع الذي كان يباع بتلك البلاد للنصارى دمرهم الله وإنك منعتهم منه كل المنع وقلت إنه حرام بالشرع والطبع وأزلت تلك المعرة الشهيرة التي كانت سبة في الاسلام ووصمة كبيرة في الدين باجماع الأئمة الاعلام اذ لايرضاها مومن عاقل ولايتساهل فيها الا مارق من الدين أو بأحكام الله جاهل وقد رأيت وشاهدت تساهل من تقدمت في بيع الزرع للكفرة ومخالطتهم في الاقوات وغيرها من المسائل التي لاتحل للمسلمين البررة ويأبى من معاملتهم بها أهل الدين فقد عاقبهم الله على ذلك وما حل ماحل بهم الا من خوضهم في تلك المهالك والمسألة الثانية هي مسألة جيرانك أهل الجزائر نوصيك أن تتوافق أنت وإياهم على المسالمة وجميل المعاشرة فإنكم كلكم في قطر واحد وجيران في البلاد وايالتكم واحدة ورعيتكم واحدة ليس بينكم حاجز ولا سترة الا أنك لاتامن فيهم لنفسك ولا تدخل في زمرتهم براسك وكلما قدرت عليه من الخير في الوسع منهم فهو أحسن وأليق لك وكون كلمتك واحدة أوفق فاعرف ذلك ونوصيك ولا نحرضك الا على هاتين المسألتين والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق بمنه آمين والسلام.

الرسالة: 32

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما

محبنا في ذات الله الفقيه الاجل العلامة السيد محمد رعاكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته عن الخير والحمد لله انه لايخفى على كريم علمكم أننا نثق بكم في كافة أمورنا ولايعزب عن غرسناها بتلك البلاد وتولى أمرها أخونا مولاي الرشيد رحمه الله اخرى وبعضها بمعاوضة وبعضها بشراء و كان فيما ظهر لنا أنه كان يتحرى ونظرنا في ذلك وتعقبناه فخفنا أن يكون بعض تلك المعاوضة وبما كان فيه مما يتوهمه العقل من أجل بعد بعض المواضع المعاوض بها فقلنا أن صرف ذلك أحسن واذخر وأرجى ثوابا عند الله تعالى وهؤلاء الناس الذين أكثروا تلك المواضع ربما أخذوها من المسجد بثمن قليل لابال له ولا شك ان ذلك الوقت الذي أكثروا فيه لم تكن على حالها اليوم من الغرس والعمارة وحسن الحال لأنا شاهدناها حين اجتزنا منها عام اول لما أن اجتزنا لغزو وهران والعرب المتنصرة فرأيناها على حالة مليحة من العمران وحسن ان يكون ربما بقي من حق تلك الأملاك شيء عند متوليها ان هم استوفوا مدة الجزاء حق الحبس ويتقوى للملاك والعمار حظهم وربما يتضرر الحبس من ذلك فاحببنا من سيادتكم ان تمنعوا النظر في ذلك وتتجشموا كلفة الوصول الى المسايل؟ يوم يخف عليكم مثل الخميس او شبهه وتخرجوا معكم من أرباب النظر والبصر العارفين بشان ذلك

وبالاستيجار وبكل من له خبرة بالبساتين والاملاك والغراسة وغيرها مما هو في معنى ذلك وتنظروا الصلاح والسداد ابقاء ذلك على حاله زيادة ثمن الاستيجار او ان كان الحبس قادرا على القيام بذلك الوظيف من غرس وخدمة وعصر ذلك وتكاتبونا بمقتضى ما يظهر لكم وما عليه المعول وماجرى العمل والله تعالى يديم النفع بكم ءامين والسلام وكتب في الثاني عشر من شعبان عام خمسة ومائة وألف .

الرسالة: 33

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

محبنا في ذات الله العلامة الاجل الخير البركة السيد محمد بن الشيخ البركة السيد عبد القادر الفاسي أمدكم الله بتوفيقه وأعانكم على سلوك سبيل الحق وطريقه سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه وتحياته عن الخير والعافية ونعم الله السابغة الضافية لله الحمد وله المنة أما بعد فانه لايخفى على كريم علمكم ولا يعزب عن ثاقب فهمكم ما أقامنا الله فيه من هذا المنصب الذي أقامنا فيه وطوقنا من حمل أعباء هذه الخلافة ولله المنة تفضلا منه على عبده نساله تعالى ان يرزقنا المعونة على ما فيه اقامنا وقد علمتم حفظكم الله أن هذا الامر لابد له من ناموس يحفضه ويكون له عونا وحصنا وهو اتخاذ الجند الذي هو عدة الله في أرضه وبه حماية بيضة هذه الأمة به تشحن ثغورها وتأمن ويرتدع غاويها ولا يخفاكم أهل المغرب وماكانوا عليه من تناسي الخلافة وتقلص ظل المملكة ولما طوق الله بنا هذا الامر ورزقنا عليه المعونة نظرنا في الجند الذي عليه مدار أساس الخلافة وبه قوامها فما وجدنا مدنية فيها عصبية ولا قبيلة فيها حمية تطوق أعناقها هذا الطوق وتتقلد هذه الربقة فمدينة فاس لا تحتاج الى أن نخبرك بها ولا ان ننهي اليك حالها تشكت من الضعف كثيرا حتى أنا ان أردنا ان نخرج منها ألفين أو ثلاثة آلاف لايساعدون عليه ويزعمون أنهم لايقدرون على الوصول لهذا العدد ولا ينسبون اليه ولولا ما جبلنا عليه من الحياء وأحببنا أن

نبحث فيه لما قصروا عن العدد المعروف لهم قبل في أيام أخينا الرشيد رحمه الله كان من بعض قواده عمر الحماظي الذي شم لخدمة المخزن ولقيادة الجيش بعض الرائحة وكان أخوك السيد عبد الرحمن رحمه الله كلمه في بعض من لاذ به من أقاربه ومن معارفه ورغبه في اسقاطه عن ديوان الرماية فامتنع له كل الامتناع وأبى أن يقبل له شيئا من الاستشفاع وقال له والله ان لم تتركني من هذه الشفاعة حتى أعطيك أنت مكحلتك فبلغت مقالته مولاي الرشيد الذي كان لايسمح في شيء من أمر الجند وأعجبته كثيرا وضحك منها كثيرا ونحن لما جبلنا الله عليه من الحياء الذي هو والحمد لله شعبة من شعب الايمان حين رأينا أهل فاس بالرماية وبخدمة الجند تكاسلوا وأدعوا الضعف وآثروا الراحة على غير أن الراحة أنما هي في الدخول تحت غفلنا عنهم ونظرنا في غيرهم من المدن والقرى والقبائل فيهم غناء ولا قابلية لشيء والوصفان من النجدة والحزم والقابلية والصبر ما ليس في غيرهم من الاحرار كاليهم فاستخرنا الله تعالى وتقدمنا الى جندا وحصنا واخماد نيران الفتن بين المسلمين ورأينا اقتنينا منهم جندا بمجرد اجتماعهم من وسط قبائلهم وادخالهم في ديوان جند الجيش يصبر على ذلك طاقته وجهده وهو مع ذلك لاينسى بلده الذي خرج منه ومعه ماقدر عليه من الماشية أو الحراثة ولا ينقطع تشوفه عن معهده وحين يجد تراخيا من هذا الضبط الذي هو عليه أو فلتة لا يحبسه عنها شيء ويترك مادخل فيه من ديوان المسلمين ويقصد قبيلته فأما يضرم عليها نارا حين يقع البحث عليه اما أن يبقى نسيا منسيا بعد أن اكل من بيوت أموال المسلمين ورواتبهم العدد الكثير فرأينا من

توفيق الله تعالى ان الاليق بهم والاحوط لهم والانفع أيضا من اخراجهم عن الوعيد الوارد فيهم من والى قوما من غير إذن مواليه الى آخر الحديث على قائلة أفضل الصلاة والسلام هو شراء جميع من ملكه الشرع منهم؟ التحري لأمر أوجب ذلك من التسري وفي هذا الشراء والحمد لله كما لايخفى عن سيادتكم سر كبير وقد رزقنا الله فيه وله المنة سهولة ومن علامة الاذن التيسير وراينا هؤلاء طلبة الوقت مقصرين عن الخوض معنا في هذا الفن تقصيرا أدى بهم على التشكيك ولم يزيدوا مع كثرة البحث منا والتنقير عن أصول هذا الفن لمسائله والاستيعاب لفروعه وأصوله وتعريف مفصله من مجمله إلا نفورا وشكا مع تحققنا إنا والحمد لله على جادة قويمة موفقون من الله تعالى سالكون طريقا مستقيمة نفوسنا مطمئنة وقلوبنا ساكنة لم يزدنا كشف الغطاء بقبولهم ذلك وتصحيحهم له قبولا ولا قوى لنا تغافلهم عنه أو تقولهم فيه تشكيكا الا أنا نظرنا في أمرهم فرأيناهم ساكتين لا ينطقون بحق ولا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر واذا نحن بحثناهم عن أمر لا ينقصون في الجواب وأعيانا أمرهم مع انا والحمد لله متعودون بالحق ومجبولون على قبوله والعمل به فمن أجل ذلك خاطبناهم بهذه الكراسة وقلنا لهم ان انتم قلتم لا يسوغ شراء هؤلاء الوصفان لهذه المصلحة جميع أهل هذا المغرب من أهل مدنه وقراه أرونا من يقوم بهذا الوظيف الديني فأفتونا بفتوى تبيح لنا ترك اقتناء الجند واتخاذه رأسا وها الكراسة المذكورة تصلكم فطالعوها واعرفوا ما تضمنته وهل خاطبتهم به صواب أم لا ولا نكلفكم عليها على جميع من هنالك من الكناديز الذين يزعمون أنهم طلبة وما عرفوا الا

الخلوات واذا سئلوا عن علم تلجلجت ألسنتهم حتى يعرفوا ما فيها عرفنا منه ووالله الذي لايحلف بأجل منه حتى يعرفهم بحوله وقوته ثمرة ومرادنا ويقفوا عليها عيانا حيث نخدهم بأنفسهم جيشا ورماتا كذا يرابطون عليها وينظرون ما أقام الله فيه هذا الجند وما يتحمله لاكن الحمد لله الذي أثاب عليها وجعل فيها الاجر لما فيها من منافع العباد ومصالح البلاد والجواب عما تضمنه هذا الكتاب بعد اطلاع كافة الطلبة من أهل عليه وعلى السؤال المقرر والسلام وكتب في الخامس والعشرين من الحجة الحرام عام ثمانية ومائة وألف.

الرسالة: 34

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما الله به وبه كتب اسماعيل لطف الله به.

محبنا البركة القدوة العلامة السيد محمد بن الشيخ البركة السيد عبد القادر ابن علي الفاسي وفقكم الله وأعانكم سلام عليكم ورحمت الله وبركاته عن الخير والحمد لله والى هذا فقد بلغنا كتابكم وقرأناه وفهمنا ما تضمنه لفظه ومعناه فعلى كل حال كنا لما جبلنا الله عليه من الخير ومن محبة العلم نتبرك بكتب أمثالكم ونريد أن نستفيد منها فائدة علمية ندخرها لدينا ونحفظها عندنا تزيدنا الى ما لدينا من الحق الذي وفقنا الله اليه يقينا وتقوية لكن لم يستوف المعنى الذي كتبنا لك عليه وقررناه في السؤال من الامر الذي دار الكلام بيننا وبين العلماء فيه وكثرت المحاورة والمراجعة بسببه فكان من الاولى والاكد المقدم هو تحرير حرف النزاع وبيان صورة المسألة وحقيقتها حتى نتحقق ونعرف ما جاء في صدور طلبة هذا الوقت من الامر الذي ركبنا فيه بعون الله بحر السلامة ومركب النجاة وامتطينا فيه صهوة الشرع الكريم أعزه الله وقد رأيناهم أولا أجابوا وافتوا وكتبوا وخاطبوا كما علمت أنت وتحقق عندك وعندهم وعند كل أحد ولا يخفى أن المسألة المقررة عند الناس والمعروف لديهم فيها أنها مهما ازداد البحث فيها انكشف القناع وارتفع الغطاء عنها وتحررت أصولها وفروعها وفصولها لاتزداد الا بيانا ووضوحا ولا يزيد صاحبها الا غبطة وتقوية وطلبة الوقت هؤلاء وان تقدم

منهم ما تقدم من الكلام في هذه المسألة رأيناهم كلما ازداد البحث والتنقير والتحرير والتحري وكشف القناع لا يزدادون إلا تلكيا كذا ويريد تلكؤا ونفورا وتلكيهم مرة ورجوعهم أخرى وقبولهم تارة ونفورهم أخرى ماعرفنا له وجها شرعيا ولا طبعيا فان كان لديهم لهذه المسألة أساس صحيح ونقل صريح ورأوا ما رأيناه نحن من الصواب الذي وفقنا الله اليه وأعاننا عليه ورأينا فيه التيسير من كل الوجوه والمصلحة العامة التابعة للمسلمين من كل جهة فرجوعهم الى الحق والانصاف والاعتراف والاسعاف هو أولى من المكابرة والمغالطة وهنالك تطلب المعاملة والمسامحة والاغضاء ويكون لها محل وموضع وان كانوا على غير ما رأيناه وظهر لهم خلاف ما قصدناه فالعمل بالاوامر الشرعية والرجوع الى الفتاوي الفقهية نحن من فضل الله الذي علينا أولى من يمتثلها ويعمل بها وينصفها من نفسه وما أردنا نحن باطلاعهم على ما كتبناه وسطرناه الا ليعلموا أن الحق والحمد لله طبعنا الله عليه وأرشدنا اليه فأما ان يعترفوا به وينصفوا من أنفسهم فقلوبنا والحمد لله مجبولة على الخير والرأفة بالخلق والشفقة عليهم وكل ما يظن بنا من الخير يوفيه الله سبحانه والله مانعلم أن قلوبنا يصلها غيظ على أحد من خلق الله الا الامر ديني نحب الاعراب عن وجه الصواب فيه وذلك هو الموجب لتسطير الكراسة واطلاع طلبة الوقت عليها حتى يعلموا ما نحن عليه ويزول ما كان يتلجلج في صدورهم وما عندكم انتم وعند أولائكم الناس فيها فإن الناس أحد رجلين إما رجل عالم عامل اشتركنا معه محبة لله تعالى إذا سألناه عن علم أفتى وأجاب وباطنه عندنا وظاهره سواء فلا نظن به الا الخير: وأما رجل اتصف

بالعلم وبضاعته من العمل مزجاة وذلك منه هو موجب انتقال حالاته التي توجب لنا معه كثرة المراجعة حتى يتبين له الحق ويتضح له وجه الصواب ومع هذا كله فالسلامة حاصلة والحمد لله والنجاة عندنا بحول الله مضمونة لتمسكنا بالشرع واقتدائنا به في جميع الأقوال والافعال ان شاء الله وها الكراسة المتضمنة لهذه المسألة التي نحن موفقون اليها من فضل الله لديكم وهي حاضرة عندكم فعليها وعلى ما تضمنته يكون الجواب وكل ما ظهر لنا من قبل الشرع أعزه الله يحمل على القبول والمبرة والاجلال والتكريم والامتثال وأما أنت في خاصة نفسك فمحبتك وعملك وعملك كافيين في ترجيح ما لديك من العلم وأولائكم الناس الاخرون تعين عليهم الجواب حتى يتضح لهم الحق الذي رأيناه ويتبين لهم ان شاء الله وجه الصواب والسلام في عشية الثامن والعشرين من الحجة الحرام عام ثمانية ومائة وألف.

الرسالة: 35

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما وبه كتب العبد الفقير الى الله الذي دخل بابا من أبواب الله وطلب فيه النجاة من مولاه الساعي في مصالح عباده البادل جهذه مع مقدرة الله تعالى في منافع أرضه وبلاده الملهم بعون الله تعالى فيما امتطاه الى التسديد والتوفيق السالك بفضل الله جادة وطريق اسماعيل بن الشريف لطف الله به.

محبنا الشيخ البركة العلامة السيد محمد بن الشيخ البركة القدوة السيد عبد القادر بن علي الفاسي وفقكم الله وأنار بصائركم والى ارشاد السالك فتح سرائركم سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد بلغنا كتابكم الاول والثاني الذي وجهتم صحبة الكراسة التي وجهناها وبمقتضى الحق وصميم الصدق أمليناها وقد تضمنت أسئلة شتى عن أمور عدة كان من الاولى والاوجب هو الاسفار عن نقابها والافصاح عن مضمون نتيجتها وصوابها بأقوال مفيدة وفتاوي سديدة تفصح عما صدر به السؤال وتزيح كل اشكال وتعرب عما في الضمير وتخبر عما تحقق لديكم من العلم ولا ينبئك مثل خبير: فنحن من فضل الله علينا حيث جبل الله قلوبنا على الخير وساقه من كرمه العميم الينا الحق أول ما نريد سماعه: والخير عند الله تعالى هو من صدع به وأبرزه الى الخارج وكشف عنه قناعة: ولسنا ممن يستفزه الاطراء والمدح: ولا ممن يجوز بالتغالي والاطناب بطلب الاغضاء والصفح: فأنتم حفظكم الله المشار اليهم عندنا بالبنان والعدول

المبرزون الذين لا يعدل عنهم الى غيرهم في هذا الزمان: فان النفس كانت تطمئن بما يصدر منكم من الفتوى: وان كان كلام الغير فيه بعض الجدوى: فليست النفس التي طبعها الله وله الحمد على ما طبعها عليه من محبة الحق تميل إلا اليكم: ولا كانت تعتمد في الفتاوي الفقهية والامور الشرعية إلا عليكم: اعتمادا على مسألتين اثنتين احداهما محبتكم التي بيننا وبينكم سليقة طبيعية غريزية ربانية غير مشوبة بشيء لأن المحبة إذا كانت لله وفي ذات الله انتجت واتصلت والمسألة الثانية الاحسان الذي كنا نقصد به الله وفي ذات الله انتجت واتصلت والمسألة الثانية الاحسان الذي كنا نقصد به الله تعالى هو يغرس المودة في القلوب : ويؤلف بين المحب والمحبوب: فعلى كل حال من الاحوال قلوبنا والحمد لله مطمئنة بكم ولا يخفى ذلك عن علمكم : سلوا عن مودات الرجال قلوبكم, فتلك شهود لم تكن تقبل الرشا, ومن أجل هذا فلابد من نظركم فيما أجاب به الغير وتصحيحكم لما تضمنته الاجوبة التي وردت من قبل القاضي بردلة وصاحبه اذ لا يمكن الاعتماد على مجرد فتاويهما دون مطالعتكم وقبولكم أوضح القبول لأنه وإن كان لايمكن متسما بسمة العلم فانه مقصر فيه والمحبة الحاملة على أن يصدع صاحبها بالحق الله تعالى هو العالم بالضمائر ومكنونات السرائر فإنا نخاف من الله تعالى أن اتهمناه بقلتها ولا نتحمل أمر تبوثها وكان من الواجب والصواب اللازب هو الامساك عن الاشتغال بالاطناب واستعمال ماهو مطلوب من الجواب, بمجرد الحق وصميمه وطول الكلام وجلب النقول وفتاوي العلماء وصريح المذهب واصابة المفصل وتتبع ألفاظ السؤال والجواب عنها حرفا حرفا وفصلا فصلا ليكون

الجواب مطابقا للسؤال مزيحا كل اشكال مفصحا عن الحق الذي لا يعدل عنه الى غيره سبحانه وتعالى جبلنا عليه وأرشدنا اليه وجعل فينا بمحض فضله أشواقا الى سماعه وميلا الى قبوله وتشوقا الى الاصغاء اليه بصحيح مذهبه منة من الله على عبده والى هذا اليكم فيما قبل هذا بأن العذر والمعذرة وطلب السماح هذه الاجوبة التي توجهت إلينا وردت علينا لم تطابق المقصود ولم المعهود من وجهين أحدهما حيث لم تكتبوا على ما كتبه طلبتكم بالموافقة ولا بالتصحيح ولم تعرجوا على أجوبتهم بتلويح ولا تصريح بما ذكرناه لكم من اطمئنان النفس إليكم والثاني حيث رأيناكم مازلتم تطلبون السماح لهم والاغضاء عنهم فيما تقدم منا لهم من الوعيد والتهديد وذلكم هو غاية ما كان يصدر منا لمن تمسك بطرف من العلم أو تشبث بشيء منه حرصا على التحلي به والانتهاج بمنهجه القويم ومذهبه كي يصدعوا بالحق ويقولوه ويتمسكوا به ويتعودوه فعلى كل حال تعين الجواب عليكم أنتم ونحن للحق قابلون وبه قائلون فأمعنوا النظر وأجيبوا جوابا يشفي العليل ويبرد الغليل ويرفع من الاشكال ما يوقع في المحذور: وأعلموا حفظكم الله أن هذا الجواب الذي كنا نتطلبه منكم ونريد صدوره عن حملة العلم وعندكم هو مما تقدم لنا معهم فيه الخوض والكلام في هذه الامور التي تقدم الكلام فيها وكان يقع منهم في بعض الاحيان التلكي عنها فمرة يجيبون وتارة يتوقفون فأحببنا أن نطلع على الصحيح والقول الصريح في ما كنا نتحرى فيه من الاستكثار من الشهود وعدم الاكتفاء من البيانات بالعدد المعهود حرصا على التمسك بظاهر الشرع وفحواه وقطعا لمدعي باطل بما يرد دعواه ولسنا والحمد لله ممن يكلفكم

بجواب عن ما تضمنته هذه الكراسة بنفسها ولا نقول أنها ممن يحتاج الى الجواب عنها ولا الى كلام لأنا ذكرنا فيها اذ كتبناها وأمليناها السبب الموجب للدخول والخوض في هذه الكراسة ما يزول به العذر ويتجه به الحق ويعرف السبب الحامل لاقتناء هذا الجند المذكور من ضعف أهل الغرب وغير ذلك مما هو ظاهر للعيان ومقول بكل لسان وان كان تقدم لنا الجواب في هذا المعنى كم من مرة مع وضع خطوط القضاة وأهل الفتيا وغيرهم على الدواوين المشحونة بذلك مما وقع به الاستقلال والاكتفاء والثبوت لاكن حيث تجدد البحث والتنقير وزيد في التحري والتحرير وقصد الاستقصاء في تمليك من تبتت ملكيته ورقية من ظهرت رقيته بشهادة القطع على الموجود منهم مع اقراره وشهادة السماع الفاشي على غير الموجود مع التحري في تلقي الشهادات والاستكثار من شهود البينات وتزكية من ثبتت عدالته وارتضيت حالته من الشهود ورأينا في ذلك من التحري ما يطمئن به القلب ويرتفع به الريب أحببنا فتاويكم على ذلك بالمنقول والمعقول وعزو القول الى قائليه من الائمة الاعلام وصريح الفتوى في ذلك من علماء الاسلام باسهاب واطناب واطالة في الجواب وأنتم حفظكم الله المعتمد والمقصود فحرروا لنا الجواب المقرر المعهود والمعروف وبينوا لنا حكم الله في هذه المسألة التي طال الكلام فيها وأحببنا الاسفار عنها من أصلها وما قولكم فيمن أقيمت عليه هذه البينات وثبتت عليه بالجم الغفير هذه الشهادات على أن الاستكثار من الشهود مطلوب وخصوصا في البوادي والقرى المشهود عليهم والشهادة على عينهم والله تعالى أعلم بمقصودنا ومرادنا من جلب المرافق والمصالح والمنافع الخاصة والعامة

لعباده وما لنا من النية في هذا السعي لذي اقامنا فيه لأرضه وبلاده أنه العالم بالنيات والمطلع على الاسرار الخفيات بمنه وكرمه ءامين والسلام وكتب في الثاني من المحرم الحرام فاتح تسعة ومائة وألف.

الرسالة: 36

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الى محبنا في الله الفقيه العلامة الاجل السيد محمد بن عبد القادر الفاسي شفاه الله وعافاه وأطال عمره وأبقاه وسلام عليك ورحمة الله وبركاته عن الحين والحمد لله والنعم المتوالية وله المنة أما بعد فقد كتبناه لك كتب الله لك سعادة أبدية وعافية مديدة لك أنه لا يخفاك مانحن نتكلم فيه مما لايحتاج الى إعادة ولا الى زيادة للفن الذي علمت والمتصدر للوظيف الذي عرفت وهو الفقيه العدل عليليش ذكر لنا وان خديمنا القائد عبد الله الروسي كتب له كتابا أعلمه من أمر ما وجهناه اليه من البحث في حراطين فاس وفيمن استوطنها من أهل تلك الجهة وكأنه يستحثه للقدوم ويرغبه في الوفود عليه بقصد تصفية هذا الامر وفهم منه كأنه لم يعرف كيف يخوض فيه ولما أن ذكر لنا هذا الكلام استفهمناه فقال لنا نصرك الله هذا الوظيف الذي نصبتني اليه من الكلام استفهمناه فقال لنا نصرك الله هذا الوظيف الذي نصبتني اليه من الكلام مع قبائل العرب وأهل البوادي كنت بعد ان أعمل جهدي وأفرغ ماعندي وأسلك في مسألتهم مسلك الشرع أعزه الله ولا اترك من واجب الشرع ولا من شروطه التي يتشوف الشرع اليها ويتوقف عليها شيئا كله كنت اتهم نفسي ولا أثق بديوان من هذه الدواوين ولا أقدر ان أخاطر بها نصره الله الا بعد أن أصل فاس وأطالع قضاتها وعلمائها على ما وأطلب منهم تصفح جميع الدواوين حتى يقبلوها ويستقوا عليها وحينئذ نصره

الله بالذي قبلوه مني أتيت به والذي لم يقبلوه مني كنت اتركه ولا اكلف ذلك وأنت نصرك الله قلدتني هذا الامر ونصبتني اليه وقد تتبعت أمر وصفان القبائل كلها أو جلها حتى استحققتهم بالموجب الشرعي الذي لم يبق لقائل فيه ما يقول وقد علمت نصرك الله ما تقدم في هذا الغرب من الزيغ والفتن وماهي العادة في الناس من الشغل والجولان في الاقطار وخصوصا في هذا أحمر الجلد فمهما كانت مجاعة أو مسغبة لا أعادها الله على المسلمين فهم أو من كان يضطرب ويجول من الناس وباس هي مدينة كبيرة وحاضرة من الحواضر يحوز الناس على الانحياز اليها التمدن والخير والصنائع ولا يخلق من أهل هذه الجلدة الرقبة من تمدن وتنوسي وطال مقامه بها وطال عهده بالفرع الذي هو منه او القبيلة التي ينتسب اليها ولا يعلم بالفرع الذي هو منه أنه اشتمل عليه الرق أو يعلم ويتعامى ويسكت أما تسترا منه على نفسه وترفعا حيث تحضر وتمدن وبعد عهده بمن يعرفه وينتسب اليه أو جهلا منه او تربصا حتى يجد مقالا يلتفت الشرع الى دعواه وان لم يكن لها أصل ومع طراوة الحال وجدته يجب البحث والتفتيش في حراطين المدينة من أجل هذا المعنى ليعرف كل واحد أين أصله وأين الفرع الذي هو منه ومدينة فاس نصرك الله بها من يعرف هذا الفن ومن يحققه وأنا أحببت من الله ومن سيدي نصره الله أن يعفيني من هذا الامر الذي يشير به علي القائد عبد الله من قدومي عليه ويسمح لي في الوصول الى فاس فان فيها من يكفي في هذا الامر ومن يقوم بهذا الوظيف فحين رأيناه استعفى من ذلك أعفيناه وأقلناه عثرته وعذرناه فطلب منا الجواب للقائد عبد الله وان نأذن له فيه ليجيبه عن كتابه كما

كتب له فاذنا له في الجواب وبعد ان كتبه اتانا به واطلعنا عليه وقرأناه فما وجدناه نطق الا بالصواب وبالحق الذي لا غبار عليه فبعد ان قرأناه قلنا له هذا الكتاب الذي كتبته للقائد عبد الله لا يليق أن يقرأ عليه الا بحضرة الفقيه العلامة السيد محمد بن عبد القادر ويفهمه فيه ويخاطبه بما تضمنه من الحق ومن صميم الصدق فإن هذا الرجل السيد محمد عليليش هو ممن فتح الله عليه في هذا الفن وممن عرفه بمراكش ونشأ فيه وربى عليه ولقد كان خائفا حين دخل هذا الوظيف فما رأى ينفعه فيه الا الجد وأعمال الحزم وأبدى واظهر فيه امورا كثيرة لم تكن تعرف فيما تقدم من هذا الزمان وأحي علما كاد أن يندثر وهو علم الفرائض فان فيه الباع الكبير واليد الطولى الى غير ذلك من الامور التي أحياها الله به فلن يطبق ولا أن يظن لديك حفظ الله الروسي اقرأه تمامه لأنه هذا الامر فان معه والعدول الموثقون والقضاة وغير في هذا الوظيف ان هم , نصحوه وبذلوا المجهود معه ولا يمكنه غير ذلك ولا الا هو فانصحه وانصحهم وليشتغلوا بهذا الامر شغلا جديا ولابد وأحضر والعدول لقراءتها واعلم رعاك الله أن تلك الخمسمائة رام التي كانت بطنجة عمارة النصارى بالبحر وقلنا حيث كان الجيش والحرب على سبتة جبرها الله لابد لطنجة من عمارة وكنا سمعنا برجوعها والبحر باق على حاله فرددناهم من الطريق الى طنجة ثم اننا قلنا لخديمنا القائد علي بن عبد الله إذا فرغ البحر وان تأتي بهم الى سبتة فالنظر لك ففعل ما أمرناه به ثم انا كتبنا له أيضا وقلنا له إذا كنت في غنى عن رمات أهل فاس وأحببت أن توجههم في حالهم فابعثهم ولا تترك إلا الرماة الاولين الذين كانوا

هنالك من قبل ونحن نخلف لك عوضهم من رماة أحمر الجلد هذا رماة فاس يقدمون في صالحهم ونحن نخلف له عددهم من الوصفان الذين هم جند الله سبحانه فنخبرهم بهذا واقراه عليهم والله تعالى يعافيك ويكمل راحتك بمنه ءامين والسلام وكتب ليلة اليوم الاول من ربيع النبوي سنة 1110 كما بخط سيدي محمد في ظهره على عادته في كل الرسائل .

الرسالة: 37

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الى محبنا في الله العلامة الاورع الاتقى البركة شيخنا ونجل شيخنا القدوة الابر الاحضى الاعز علينا سيد محمد بن عبد القادر الفاسي أمتع الله به وزاد في قوته ومعافاته وصحته بمنه سلام كريم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد انتهى إلينا ما سطرتموه في مسطوركم لخديمنا اذا؟ أحمد اليحمدي وقرره إلينا حرفا حرفا وفرحنا لأجل قلوبكم التي هي معنا ولصالح دعائكم لنا ولانتعاش بدنكم الكريم من ألمه وضعفه ولا خصنا شيء من حبور أو سرور لما قيل لنا هذا خطكم وكتابتكم وحمدنا الله على ذلك وكيف لا وليس عندنا أعز ولا اولى ولا أحظى ولا أكرم على نفوسنا فلتدعوا لنا بصالح الدعاء في جميع الاوقات ويعود سلامنا على الزكي الاتقى الفقيه العلامة الانجب سيدي الطيب وسائر دائرتكم وأهاليكم وها نحن كتبنا لكم كتابا آخر مع هذا وقلوبنا وجوارحنا كلها معكم فلتكن قلوبكم كذلك معنا أنتم واعرفوا قدر محبتنا فيكم ومن أحب قوما فهو منهم نسأل الله أن يعملنا منكم دنيا وأخرى والسلام وفي السابع عشر من شهر الله شعبان عام اثني عشر ومائة وألف.

الرسالة: 38

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

محبنا في ذات الله العلامة الاجل القدوة البركة السيد محمد بن الشيخ القدوة سيدي عبد القادر بن علي الفاسي سلام عليك ورحمة الله وبركاته عن الخير والعافية وبعد فاعلم حفظك الله وأرشدك أنا كما علمت اقامنا الله تبارك وتعالى فيما اقامنا فيه من حماية دينه والذب عن أمر نبيه وأمينه ولا بد لهذا الامر من البيضة التي تذب عن الاسلام والبيضة هي الجيش وهي عماد هذا كله وملاك الامر جميعه وقد راينا وشاهدنا مع ما جمعناه من هذا الجيش الم فاس من الجند والدخول في الديوان لأن جيش فاس كما علم وتقرر وهو الجيش وهذه المرة المباركة التي توجهنا فيها لهذه الشرق وتوجه معنا من توجه منهم لا فيما يقفون فيه الا أنهم مفتقرون الى تأويل كبير ومحتاجون الى بركة ظهر لنا فيهم عيانا انهم مفتقون اليها ونظرنا في ذلك فما رأينا يليق بنا وبهم في ذلك الا ان نجعل معهم واحدا من اولادنا حفظهم الله ليجد بعضهم لبعض بركة وهذا ولدنا مولاي زيدان أصلحه الله هو أعز أولادنا عندنا وله لدينا أثرة ومكانة لما علمناه فيه من الحنانة والمحبة في القريب والبعيد واحببناه ان يسكن بفاس الجديد يتبرك بها فانها كرسي مولانا إدريس نفعنا الله به وطالعها طالع مبارك أحببناه أن يعمل لذلك الجيش تأويلا وديوانا مليحة كما عهد له في القديم بأن يعمل

لذلك ديوانا عجيبا لجميع لوازمه من قواد وكواهي وباشوضات يجروا ذلك على القانون المعتاد والسنن المستقيم أحببناك أنت ان تح عند ولدنا مولاي زيدان أصلحه الله ليتبرك بك هو وجميع ذلك الديوان وتخيرهم هم أحبوا أن نجريهم على قانون ديوان مولاي أحمد الذهبي فتبارك الله وان أحبوا القانون الذي أجراهم عليه مولاي الرشيد رحمه الله فجلهم يعرفه ويعلقه وأنت الواسطة بيننا وبينهم في هذا التخيير وكل ما يجب لهم في بيت المال يصلهم من راتب وعولة وغير ذلك وكل ما نسأله لهم نحن يعملونه حتى يكون ذلك ان شاء الله مرتبا ترتيبا جيدا على قانون قويم ومهيع مستقيم وها حامله محبنا مولاي يحي المريني وجهناه مع ولدنا مولاي زيدان أصلحه الله ليقف معه حتى يسكنه في فاس ويلقيك معه ويحضر لهذا الكلام ولهذا الديوان السعيد المبارك بحول الله فثق به ث نستوهب منك الدعاء الصالح والله يعينك بمنه آمين والسلام من المحرم الحرام فاتح عام ثلاثة عشر ومائة وألف.

الرسالة: 39

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

محبنا في ذات الله ولينا من أجله العلامة البركة المرتضى في قوله وفعله الشيخ السيد محمد بن الشيخ السيد عبد القادر بن علي الفاسي أدام الله عليه صحته وأبقى عليه بركة العلم وعزته.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته عن الخير والعافية ونعم الله السابغة الضافية لله الحمد وله المنة أما بعد فقد وافى مقامنا العالي بالله من لدنكم خديمنا الكاتب السيد الخياط ابن المنصور بكتابكم وفرحنا كثيرا لوروده من جنابكم ورؤيته لكم وتجديده العهد بكم وكررنا السؤال عنكم لما لنا فيكم من الحب الراسخ والود الشامخ الذي نسأل الله الانتفاع به والزلفى لديه بسببه ولما في قلوبنا من الشفقة عليكم والرأفة والحنانة لكم وقد أنهى إلينا كلاما نقله عنكم صفاء قلوبنا واستفهامكم عن حالة موجودة من أجلكم فحاشى لله ومعاذ الله أن يخطر ذلك منا على بال منه بحال من الاحوال اذ مكانتكم عندنا في نفوسنا عن كثرة مراسلتك والتمتع بمخاطبتك والمحاورة في يعرض من الامور كلها كبيرها وصغيرها الا ما يدركنا من الشفقة عليك والتوجع لك والرافة بك لما نعلم من ضعف بنيتك وتوالي هذه الامراض التي هي للمؤمن زيادة أجر وثواب وبودنا من الله سبحانه أكرم مسؤول ان لو متعك الله سبحانه وتعالى بصحتك وعافيتك

ونتمنى راحتك ولو بالنفس بهذه الخلافة ان يكون فيها أمثالك الهداة السراة والاعيان الاثبات الذين يقتدى بهم ويتمذهب الى الله تعالى بحسن مذهبهم مع كثرة ما عم أهل الجيل من الامور التي لا تخفى على عارف مثلك من تراكم الجهل وقلة ذوي الفضل وتقديم من لا يستحق التقديم وتصدير من لا يستوجب التصدير كما قيل:

نهدي الامور بأهل الرأي ما صلحت وان تولت فبالا شرار تنقاد

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

ووالله الا نرثي لحالك ونشفق عليك ونتعمد ترك السؤال عنك قصدا من أجل محبتكم في قلوبنا خوفا أن نجاب بما لايسر نفوسنا وما زلنا نضرع الى الله تعالى في كل وقت نتحين فيه الاصابة، ونستشعر فيه الانابة ونظن أنه وقت إجابة ونكثر فيه الدعاء الى الله سبحانه أن يديم عليك صحتك ويطيل بقاءك للانتفاع بك اذبكم وبأمثالكم يقتدى وبأنوار معارفكم يهتدي وبكم تنور البصائر وتطيب النفس وتزداد اطمئنانا ويزيد القلب وثوقا والحق اتضاحا والصدر انشراحا وكيف لا وأنت بحمد الله فريد دهرك ووحيد عصرك وأنت لعمري أحق ان أقول فيك ما قاله سنديف مولى بني هاشم في أبي العباس السفاح، لأنك في علمك لا يجاريك أحد:

أنت مهدي هاشم ومداها كم رجوك أناس بعد أناس

لانا نتحقق ونجزم أن ليس لك اليوم والحمد لله نظير في علمك وديانتك وصلاحك وقد علمنا ما كان مع الملوك من العلماء والائمة في دولهم وأعصارهم وفي أوقاتهم وأجيالهم وبالامس قريبا وما بالعهد من قدم على رأس الستين بعد الالف لما أن دخل أخونا مولاي محمد رحمه الله لهذا الغرب بايعه فيه مايقرب من أربعمائة عالم من أهل العلم وذوي الاقدار والاحساب والاخطار وجلهم سمعنا به وعرفناه وأدركنا كثيرا منهم فكيف لا نأسى على مثلك أولا نشفق عليك ونطلب الله آناء الليل وأطراف النهار في بقائك وليس لنا في هذا الوقت المبارك من أنظارك ثلاثة أو أربعة نستعين بهم ونقتدي بآرائهم ونعتضد بحسن مذهبهم على ما أقامنا الله فيه وعلى ما ظهر لنا من التيسير الذي هو من علامة الاذن والتوفيق والتأييد من الله سبحانه في اقتناء هذا الجنس من أحمر الجلد الذين أملينا حجتهم كم من مرة ومهما نظرنا فيها أو زدنا فقها نرى التوفيق من الله باديا والتيسير ظاهرا وعلامة الخير لائحة ولله المنة ان في حجتهم من الامور والمصالح الزائدة على انقاذهم من ورطة الوعيد مالا يعبر عنه بلسان ولا يعرفه الا من نور الله بصيرته من أهل الايمان ففي عجزهم عن الانتماء لغير مواليهم كما في الصحيفة وغيرها من آثار الكتب الصحيحة وموافقتها ما في غيرها من الكتب حسبما أطلعناكم عليه في تاريخ بغداد وغيره وحسبما نقله الائمة رضوان الله عليهم ودرءهم عن كثير من المفاسد التي كانوا يرتكبونها ويضيفونها الى

الاباق واللعنة الواردة فيهم والانتفاء من أنسابهم ومواليهم نا لايخفى على عاقل ذي فطنة ونظر فضلا عن العالم الذي أطلعه الله على أمورهم فكم وكم منهم انتسب الى غير سيده وكم وكم التزوير والعقون الى مايضيف الى ذلك من المفاسد المقطوع بفعله اياها من قلة الدين وقطع الطرقات وارتكاب المحارم والتكثر على أربابه الى مافي هذا المعنى من الامور المحظورة شرعا وطبعا ولا كمعرفة أبائهم فانهم كانوا اول ما أقامنا الله في هذا الامر وسطا علينا ويريدون الدخول معنا وان يكونوا جيشا وجند من غير قصد ولا نية صالحة في أن يكون من جملة الدواوين الذين هم عدة الله في أرضه وإنما قصارى أحدهم وشهوته ان يتوصل الى دنيا يدركها أو الى امرأة حرة من حرائر المسلمين يتزوجها وقد أداهم ذلك الى الفعل والى تزوجهم من ساداتهم وقد رأينا من فعل ذلك وشاهدناه وعرفناه ولما ان ألهمنا الله سبحانه وتعالى الهيم وأطلعنا على أمرهم وأظهر لنا التيسير فيهم نهضنا بمعونة الله تعالى لهم من العمل الجد وقعدنا لهم بالمرصاد وعرفنا كل واحد منهم حده واقعدناه عند راسه وعرفناه مقدار نفسه وانتماءه المحقق من هو وما يجب عليه والى من كان ينتسب وينتمي اشتغلنا مع معونة الله تعالى لنا وفضله علينا بتربيتهم تربية التعليم وإخراجهم قبالة الجند الذي لابد منه ولا محيد لمتولى أمر المسلمين عنه اذ وهو زرب الدين وحماية بيضة المسلمين وما يعقل هذا الا العالمون العارفون الذين باشروا الامور من أخبار الاقدمين والاولين فلله الحمد على ما أنعم وله الشكر نسأله سبحانه أن يقبل أعمالنا ويجعلها خالصة لوجهه من الخيرات ءامالنا بمنه وفضله والسلام.

كتب في رجب الفرد ومائة.

الرسالة: 40

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الى الفقيه الاجل الملاحظ المرعي المبجل السيد محمد بن عبد القادر الفاسي أبرأ الله سقمه وشفى ألمه ومنحنا وإياه العافية وأدام علينا آلاءه الضافية سلام عليك ورحمة الله وبركاته أما بعد فقد قرأنا كتابك ووعينا خطابك وأمعنا النظر في منطوقه ومفهومه وأجلنا الخاطر في باهر رياض علومه وتتبعنا فصوله واستقصينا محصوله فما وقع البصر ولا أنتج النظر ولا حصلت الفكر شيئا زائدا على تحصيل الحاصل وهو ذكر شيء مقرر معروف ومفروغ منه وكل مسلم موحد والحمد لله بالغ إليه ومصمم عليه والى غايته بفضل الله وأصل من كونك حفظك الله تبدي وتعيد وتنقص وتزيد وتكرر المفردات والجمل مخبرا عما سلف لك ومثنيا على نفسك بما قدمته من العمل ومن أنك تحب سيد الانام الذي يشاركك في محبته وتعظيم جنابه سائر الانام الخاص منهم والعام وجميع من شملته دعوة الاسلام بل رب انسان عامي لا يعرف من العلم الا ضروريات دينه يجاري ويباري العلماء الاعلام في محبة المصطفى صلى الله عليه وسلم أو يزيد عليهم بنيته الصالحة وبصحة يقينه فليحمد العبد المومن مولاه الذي وفقه لهذه المنفعة ويعلم أن الحق على كثير من النفوس الامارة مرو عقبة وأي عقبة وما أقول الا ما ثبت في المنقول عن الرجل الصالح الزاهد ابراهيم بن أدهم خطة الملك لم تدع لي صديقا بل ولا جميما ولا مداجيا بالمصافاة والمكامات حقيقا فالكتاب والخطاب

إذا هو جاء من عالم قدوة مثلك تملأ منه الابصار وتنصت الى فوائده وفرائده الآذان وتنبسط لسماعه وقراءاته الافئدة وتتشرف الى حل مقفله الاذهان وكتابك هذا أيها الفقيه على علو منصبك في العلم لم نستفد منه زيادة على المعلوم ولا شيئا مما كنا نترقبه فيه من دقائق العلوم وهذه الطريقة المثلى ومجالس العلم التي سمعنا حديثها يتلى والثناء عليها يكرر ويجلى وددنا والله أن لو رأينا لها نتائج لان لنا بها شغفا ولنا فيها حاجة بل حوائج فذكرك اعتكافك على طلب العلم وطول لبثك ومكنك في تحصيله وتدريسه وشهرتك بأخذ الحظ الوافر من غامضه ونفيسه وانتحالك له من لدن كنت ولدن نشأت أمر مسلم صدقت وصدقناك فيما أثنيت على نفسك من ذلك وباعك في العلوم لا يجحد ولا يتمارى فيه من الخاصة والعامة أحد ولاكن أروني أين هؤلاء التلاميذ والطلبة المدرسين كذا الذين جنوا ثمارها ولبسوا ديباجها أو أطمارها يراهم الرائي اليوم عاقدين في العلم المجالس آتين من دقائقه ورقائقه بما يتنافس فيه المتنافس اذا هم ختموا مجالس علومهم وتنزه المتنزهون في بساتين فهو مهم رفعوا الاكف مبتهلين بالدعاء الصالح لاشياخهم ومحط رحالهم ومناخهم فطالما استقصينا الخبر والبحث عمن حصل علما أو أدبا جما وبرز في فنون العلم رواية ودراية وفهما ودرسا ومطالعة وتضلع فصاحة وخطابة وهمة وبراعة وبلاغة من أبناء هذا العصر ممن تخرج عليك ومن مجلسك أو مجلس غيرك من المدعين العلم المتفقهين في الدين ليظهر للناس بعلمه ونجابته نقربه من مجلسنا للانتفاع به والاخذ عنه والاستفادة منه كلا والله ما وجدنا من يكون بهذه المثابة ولا على هذه الصورة كما كان السلف رضوان الله

عليهم اذ لم نجد مثل هذا ولم نسمع بخبره ولا بشرنا بأحد من نجباء الطلباء الموثوق بعلمهم ونجابتهم والمحتاج إليهم لأجل تهذيبهم وقليل ماهم ولا كان اهتمامنا دائما الا من علمهم وعزة وجودهم في زماننا هذا مع كثرة شغفنا بحب العلم وأهله ويعلم الله تعالى أنا ما قصرنا في التحريض ولا تعامينا عن الارشاد الى طلب العلم والاشتغال به في عامة مجالسنا وخاصتنا وظاهرها وباطنها نسأله سبحانه أن يثيبنا على ذلك ويسلك بنا في الدارين انجى المسالك وبالجملة العالم العامل المنتفع به في علمه وديانته ونصحه ومحبته مثلك اليوم غريب ومهضوم غذا لم يسمع منه عند البعيد أو الغريب كما أن الخلافة في هذا الاوان عند من لا يعرف حقها ولا يقدر عند الله قدرها ولا يشكر الله على اقامتها للحدود والمصالح الشاملة النافعة لجميع الخليقة في السر والعلانية التي يستقيم بها الوجود حتى هي غريبة عند الجهال الغافلين أو المتغفلين عن أمور الدنيا بل أمور الدين وأنت في كتابك هذا قد أطنبت وما أوجزت على ما وصفنا لك في صدر الكتاب الملمع للاعراض عن المقصود بشبه العتاب ورحم الله عبد الملك بن مروان حيث قال في جوابه للحجاج ابن يوسف وقد أطنب له في براءة عن خبر عبد الرحمن بن الاشعب يكفيك ما أوصى به البكري أخاه زيدا واستكفى له بهاتين الجملتين وختم له الكتاب والرجل قرشي والآخر كما علمت تقفي والفصاحة والبراعة في قريش وغيرهم من العرب أقصر هما والسنة وفصاحة اذ قريش سادات العرب ولغتهم أفصح اللغات ولما قرأ كتابه الحجاج بن يوسف لم يدر ما معناه ولا حقيقته ولا مبناه لا يجازه واختصاره ولم يعرف قوله يكفيك ما

أوصى به البكري أخاه زيدا ولم يزل حيران يبحث في العرب عن معنى الكلمتين ويتطلب من يشرح له معنى الجملتين حتى جيء له برجل من العرب ذي فصاحة وبيان كان مقيما على بابه مدة من سبعة أشهر على غرض له عنده وأعلمه بذلك فقال له اما البكري فهو موسى ابن ابي بكر الحنفي وزيد هو ابن عمه وقد كتب له فأطنب وأسهب فأنشد وأرشد قائلا:

فقلت لزيد لا تثرثر فانما يرون المنايا دون قتلك أو قتلي

فان وضعوا حربا فضعها وان أبوا فشب وقود النار بالحطب الجزل

وان رفعوا الحرب العوان التي ترى فعرضة نار الحرب مثلك أو مثلي

فسر الحجاج يتلقى المسألة عن الاعرابي وسري عن قلبه وتعجب من غزارة علم عبد الملك وفصاحته لكونه جمع له في جملتين وكلمتين قضايا وأمورا عجيبة مع الايجاز والفائدة من غير اطناب ولا اسهاب فقال الحجاج قبح الله من قال أن ميراثنا خير من الادب وأنت حفظك الله وأدام النفع بك كان يكفيك عندنا ومعنا في جوابك من براعة الكلام وحسن الخطاب ما هو مثل ذلك أو أخف منه ونحن أعرف الناس بحقك وبحق العلم وأهله ومنصبه من كل واحد نحمد الله تعالى ونشكره الا إذا أنت أطنبت وأسهبت في ذكر فوائد غريبة ومسائل من العلوم على الافهام عويصة غير قريبة وافدتنا بها فلا نسأم من سماعها ولا من دعائها فما زالت العلماء تفيد وتستفيد وتنقص في مخاطبتها ومناظرتها وتزيد ورثنا الله علم

مالم نعلم وجعلنا ممن يصادف عين الصواب ان سكت أو تكلم آمين وما استثقلنا مما ذكرناه لك من الاسهاب والاطناب في كتابك الا حيث اكثرت ولم تصرح بل ولم تعرج على ذكر المسألة بعينها وتقول مقصودة ولم تقل لنا في كتابك الحمد لله الذي عرف الله الحق لعبده ووجهت أيدك الله اللوم والعتاب والعقوبة على الفريقين فقط الاندلس واللمطيين وتركت نصرك الله كل من سواهم وأعرضت عن كافة أهل المدينة والحق والصواب معك في توجه العقاب عليهم وسوق الملام بالخصوص اليهم لأنهم رماتك وهم في الديوان القديم جند وجيش ورماة خلفا عن سلف ولا معذرة لهم في عجز أو تقصير وقد صاروا اليوم لا جدوى لهم ولا نفع يرجى فيهم ولا فائدة تترقب منهم والحق هو ما عملت لهم نصرك الله وهم أهل ومحل لكل ما أتاهم منك من لوم أو عتاب فهكذا أحببناك أن تكون قلت لنا في براءتك وجوابك الذي نسبنا لك فيه الاسهاب والاطناب وما أملينا عليك نحن في هذه المخاطبة وأكثرنا الا حيث رأيناك جنحت بنفسك لما سوى ذلك وأعرضت عن هذه المسألة المتعين ذكرها والمحقق أمرها وهي مما ؟ لا يمكن ولا يجمل التغافل عنها ولا التعامي عن الجواب عنها وأما نحن فما أظن أننا أسأنا إليك في شيء من كل ما خاطبناك به في تلك البراءة التي أجبت عنها الا في مثل اني أحبك أكثر مما تحبني أنت فلقد نسبت لنفسي كثرة محبتي فيك أكثر من محبتك فينا ولا يطلع على مافي القلوب الا علام الغيوب فسامحني في ذلك ثم سامحني ثم سامحني ونسأل الله تعالى أن يجعل محبتنا وقلوبنا موافقة متساوية في المودة والمحبة الى أبد الابد اذ المرء مع سقطت للكاتب من أحب كما ثبت في الاثر

الصحيح وكذلك ما أطلنا عليك في هذه المخاطبة ولا أكثرنا في المراجعة الا محبة وتأنيسا ومذاكرة لك ومعك وعلى سبيل الحنان والتعطف والشفقة عليك ولك والله تعالى يحفظك ويرعاك والسلام وبه كتب في الرابع من رجب الفرد المبارك عام خمسة عشر ومائة وألف.

الرسالة: 41

من عبد الله تعالى العالي بأمر الله المتوكل في جميع أموره على الله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الهاشمي المنيف اسماعيل بن الشريف الحسني أيده الله ونصره وبدائرته انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا أيد الله أوامره وظفر جنوده المنصورة وعساكره آمين الى عظيم الروم وكبير مملكة الفرنسيس والمتولي أمرهم والمتصرف في احكامهم لويز الرابع عشر السلام على من اتبع الهدى واجتنب سبل الردى، أما بعد فاعلم أنه ورد على مقامنا العلي بالله النصراني التاجر ولد إصطيل القونص وزعم أن بيده من عندكم أمر وتفويض استظهر لنا بمكتوب على لسانكم يدل على الاذن له في الكلام فيما يظهر له لدينا من مهماتكم واغراضكم، ويتوسط فيما يعرض لكم بحضرتنا العلية صانها الله فلم نشك أنه مكتوبكم وإذنكم، غير أنا لم نعتمد على قوله ولم نر الكلام معه في شيء من ذلك لكونه تاجرا وليس هو من خواص اصحابكم ولا من كبار خدامكم وأعيانكم، إذ ليس من شأن التجار الدخول في الكلام مع الملوك زلم يكونوا وسائط فيما يعرض لهم، فالتاجر إنما يتكلم فيما هو من وظيفه فقط الا اذا كان التاجر يسعى في تبليغ كلام هذا لهذا أو حصول المواصلة أو حمل رسالة يقع بها البعث من الجهتين فنعم وهذا غاية ما تحصل من كلام التاجر لا غير، فان كان لكم غرض في الكلام بجد وخلوص نية فابعث الينا واحدا من كبار أصحابكم الذين يوثق بهم ويتكلم معهم وياتينا بهذا القصد وبهذه

النية، وإن أحببتم ان نوجه لكم واحدا من خيار خدامنا وكبار أهل بساطنا العلي بالله فابعثوا الينا مركبا يحمله من عندنا، ونبعثه لكم بالإذن الصحيح وحاصل ما نتكلم به معكم في هذه الاسارى التي لكم عندنا أن نعمل لكم فيها الفداء نصرانيا واحدا بمسلم، ولا نبتغي عندكم الا من هو هنالك من أهل سلا والرباط وتطوان وفاس والقصر ومكناسة الذين أخذوا دون العشر سنين الى ست سنين الى أربع فاقلهم من ذلك ومن سواهم في غير هذه البلاد المذكورة ومن كان فوق العشر سنين لا نتكلم معكم فيه بشيء سوى هؤلاء الاسارى، ولولا هؤلاء التجار من عندكم أزعجونا في الكلام والمراجعة في هؤلاء الاسارى الذين لكم عندنا وأهلهم هنالك يزعجون هؤلاء التجار وهم يترادفون علينا بالقول في حجتكم كم من مرة ما ابتغينا فيهم كلاما ولا عندنا هنالك أسارى تكبر عيننا مسألتهم أو من هو معروف عندنا بوجهه الا البحرية ومن هو من أمثالهم وان اتفق رايكم على بعث من تعينونه من خدامكم ياتي معه بجميع من هو هنالك من الاسارى المذكورين الى قرب المرسى ونتفاصل معه بوجه لائق ممكن ونعطيه أساراكم ونأخذ منه المسلمين، هذا بهذا، ولا يرجع إلا بقضاء الغرض إنشاء الله والوجه اللائق بكم من بعث بعض أصحابكم أو بعث المركب لصاحبنا، اعلموا سبحانه الموفق للأمور والمعتمد عليه سبحانه، والسلام على من اتبع الهدى.

وكتب لغرة ربيع النبوي المفضل عام ثلاثة ومائة وألف (22 نونبر 1691)

الرسالة: 42

ومن ذلك ما لفظه الموجود منه بسم الله الرحمان الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم حسبنا الله ونعم الوكيل ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم عن أمر عبد الله المتوكل على الله المفوض أمره في سائر أحواله وجميع أقواله وأفعاله الى خالقه ومولاه أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين اسماعيل بن الشريف بن علي الحسني ايد الله سلطانه ومهد بالعافية اوطانه آمين يارب العالمين وبعده الطابع بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني أيده الله ونصره وبدائرته إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا الى عظيم الروم وكبيرها ومالك أزمة أحكامها وتدبيرها وعارفها بقواعد الامارة وخبيرها وارث درجة الملك عن أسلافه وأجداده ومضيف ما جل من طارق ذلك الى ما عظم من قديم الرأي المعظم (دون لويز) الرابع عشر انبلادور فرنسا وصاحب كرسيها الاشهر السلام على من اتبع الهدى وآمن بالله محروسة مكناسة امن الله أرجائها وخص بالخيرات الدائمة أنحائها ونحن نحمد الله تعالى ونشكره على ما أسدى من النعم وأزاح من النقم وافاض من المواهب والرغائب ودرأ من الأغيار والمصائب لالأحصي ثناء عليه هو كما اثنى على نفسه لا الاه الا هو سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا وقد ورد على مقامنا العلي بالله كتابكم الذي وجهتموه الينا قبل هذا باشهر عديدة فقرأناه وتعرفنا لفظه ومعناه ووقفنا منه على أمرين إثنين أحدهما تجديد العهد بنا وتأكيد ما لكم من

الود والمحبة في جنابنا وتلك عوائد الملوك وسيرهم مع بعضهم على مرور الدهور وتقاضي الازمنة والعصور جزاكم الله عنا أفضل ما يجازى به أمثالكم فلقد أديتم الواجب وقضيتم المفترض بين الملوك واللازم وحتى نحن والله الا نحب مراسلتكم ومكاتبتكم على الدوام ونود ان لاتنقطع عنا لاسيما ان كانت هاكذا الاغراض انتهى.

الرسالة: 43

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، من عبد الله تعالى الإمام المظفر بالله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسني، أيده الله ونصره، ثم الطابع بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني، والله وليه وبدائرته العز والإقبال.

إلى عظيم الروم بفرانصيص لويس الرابع عشر من هذا الاسم، السلام على من اتبع الهدى، وباعد طريق الغي والردى.

اما بعد: فاعلم ان الذي ظهر لنا أنك ليس عندك قول صحيح، ولا كلام رجيح، ولا أظنك إلا غلب عليك أهل ديوانك، وصاروا يلعبون بك كيف شاءوا ولا بقى لك معهم ضرب ولا لقب، ودليل ذلك أننا ما زلنا ما قبضنا منك صحة قول ولا أبرمت معنا كلمة وقبضناها عليهم، وثبتوا فيها ووفوا بها، والإنجليز تكلموا معنا كلمة وقبضناها عليهم، وثبتوا فيها ووفوا بها، والإنجليز تكلموا معنا كلمة وقبضناها عليهم ووفوا عليهم، وثبتوا فيها ووفوا بها، والإنجليز تكلموا معنا كلمة وقبضناها عليهم ووفوا بها، فحين ذهب خديمنا لبلادهم لما أن طلبوا منا ذلك فرحوا به وأكرموه وبروا به، وأتى من عندهم بعشر مائة مكحلة، وستة عشر مائة قنطارا من البارود ومائة وسبعة من المسلمين، أطلقوهم من الأسر لوجوهنا، وعملوا من الخير ما علموا مراعاة لنا، وثبتوا في قولهم ووفوا معنا، فالحاج على معنين حيث أسر له ولده لاذ بالبعض من خدامنا واسترحم به، وقدم إليكم على شان أولئك

المسلمين، وجاز على دار السباع ودار النعام، وأتى إليكم بما أتى ولا شعرنا به ولا عرفناه كم أخذ، وقلنا: إنه إن وصلكم ولابد تعلمون له غرضه في اولئك المسلمين، وتسرحونهم، فإذا به هو تحيل على ولده إلى أن جاء به وأنتم ما علمتم صوابا في غيره، ولا صدر منكم ما تراعون لأجله.

ثم بعد ذلك قدم لعلي مقامنا صاحبكم انبشدور واتانا بشيء من الخرق مع فالصوا الحرير وهل نحن ممن يعجبه ذلك ويسره؟ فنحن معشر العرب لا نعرف إلا الصحيح، ولا يسرنا إلا ما فيه مصلحة المسلمين كلهم، ومع ذلك أعطينا لصاحبك عشرين نصرانيا سيفطناه بها، وظننا أنك ولابد تراعى الخير وتبعث لنا ولو عشرين مسلما تجبر بها خواطرنا، وتكون هي الطريق للكلام الذي تريده منا، فإذا بك ما علمت شيئا من هذا، ولا جازيت بإحسان.

وثانيا قبضنا لك سفينة قبل أن يقع الكلام بيننا وبينك بثلاثة أيام أو أربعة على التحقيق، وهي موسوقة بالسكر وتبغة وثقفناها نحوا من ثلاث سنين بقصدك، ولا تركنا احدا يمد يده فيها، وقلنا غنك تراعي خيرنا، وتعمل لأولئك المسلمين طريقا وتسرحهم، وإن كانوا ليس فيهم من هو خديمنا ولا من هو محسوب من جيشنا، ولا من هو معرفتنا، فما هم غلا من لا خلاق لهم، ولا يركب البحر عندنا إلا أهل التمرين، ولو أطلقتهم وإن كانوا ليسوا بشيء فتكون عملت الخير بذلك، وتقول إنك عملت مسألة تراعي عليها، وأعظم من ذلك كله هو ان رئيسا من بلادنا اسمه التاج كان أعطاه صاحبك الذي اتانا خط يده على أنه يشتري سفينة من الجزائر يسافر بها قرصان وما عليه فيمن لقيه من

فرانصيص, فلما أن اشتراها وسافر بها وغنم قطارمة موسوقة بالرخام والريال مع ما فيها من الحرير وغيره وبعثها مع اصحابه ستة وعشرين مسلما، وتعرضوا لها سفنكم وأخذوها وثقفتها انت أياما، ثم بعد ذلك مزقتها والمسلمون الذين كانوا معها خدمتهم في الغراب، فلماذا لم تردها وثقفتها سنين كما ثقفنا نحن الأولى والثانية من بعث إنافة بمحلنا وتنويها بشريف مكاننا وكانت المواصلة بين الملوك والمراسلة مستتة ومشروعة وإن اختلف اللسان وتباينت الأديان.

فجازيناه على فعله. وكافيناه على شغله، ووجهنا له من خدامنا أنباشا دورا وصل إليه. وقدم عليه. كما شاهدته ورايته ففرح بسفيرنا وأكرمه إكراما كثيرا، وسر به وبمقدمه سرورا كبيرا. ورجع من عنده مغبوطا مسرورا.

فلم نزل نراعى لهم ذلك، ووفينا له جميع ماكنا عملنا معه في طنجة ولم نرد البال على شيء مما كان يعمله بها حين اراد الرحيل عنها، وكان ينقل خزائنها ومدافعها وسكانها، وأهل جوارها من المسلمين يرون ذلك وينهونه غلينا ويقصون ما يشاهدونه علينا وما ألقينا غليه في ذلك البال. ولا التفتنا إليه بحال من الأحوال. وماذلك إلا مكافاة له على صنيعه مع سفيرنا، ووفاء بالقول الذي كان طلبه منا، ووددنا ان لو كان أخوك بقي حيا غلى أن يشاهد صنع الله الذي صنعه لنا في فتح العرايش من يد لصبنيول، ويرى محاصرة سبتة اليوم وما كان اهلها يصرفونه عليها من الأموال، وما كان يلزمهم في مؤنتها من ملايين الريال، لتحقق وفاؤنا عليها من الأموال، وماكان يلزمهم في مؤنتها من ملايين الريال، لتحقق وفاؤنا له، وغضضنا الطرف عنه وعلم ان القول والعهد الذي أعطيناه لم ننقص

شيئا منه، فالصواب الذي كان من أخيك والحق الذي كان يعرفه لنا هو سفينتكم؟ وهل هذه هي صحة القول؟ فهذا مما يدل على عدم صحة كلامك ومما يثبت الإخلال بقولك، وقلة وفائك.

فحتى الآن، فالذي ظهر لنا انه ما يليق بنا معك إلا الشر، وإذا أردت تثبيت المهادنة وإبرام الكلام فيها وإمضاء حجتها، فابعث لنا من عندك قونصو بالتفويض على الأمر، ويجلس هنا في إحدى مراسينا ويكون الأمناء معه في هذا كله، ونبرم معه هذا الأمر ويكون من أهل الحل والربط عندكم، وإلا فإن ظهر لكم خلاف ذلك فاعلمنا، وعرفنا بما عليه عملك، وما أضمرته طويتك والسلام على من اتبع الهدى وفي التاسع من شعبان سنة خمس وتسعين والف.

الرسالة: 44

وكتب لسلطان الإنجليز بما نصه: الحمد لله وحده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا رب غيره، ولا معبود سواه، ثم الطابع السلطاني بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني، وبدائرته إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا، ايده الله بعزيز نصره وأمده بمعونته ويسره وخلد في الصالحات شريف مناقبه، وجميل ذكره، آمين يارب العالمين:

إلى طاغية الإنجليز القاطن ببلاد الفرانصيص يعقوب المسمى بلسانهم جامس، سلام على من اتبع الهدى، وتجنب سبيل الغي والردى و وآمن بالله ورسوله ثم اهتدى.

اما بعد: فإنا كتبناه غليك وأوردناه عليك وأوصلناك بهذا الكتاب. واعتنينا لك بهذا الخطاب لمسالتين اثنتين إحداهما دينية والأخرى سياسية دنيوية، وموجب إيرادهما عليك التنبيه لك واللأيقاظ والنصح والإرشاد، وذلك ان أخاك الذي كان مملكا على الإنجليز من قبلك كان عرف لنا من الحق ما عرف، وتقرر عنده من لدنا ما لهذا الدين الشريف على غيره من الشفوف والشرف، فكان من أجل ذلك يطلب منها المهادنة على طنجة، فبعث لمقامنا العلي بالله من اصحابه وخدامه المرة

سبب الكتب إليك مكافاة على صنيعه، وهو الذي أوجب مكاتبتك بهذه المراسلة لنعرض عليك فيها الأمرين المذكورين أول الكتاب، فاما الدينية منهما ففيها خير الدنيا والآخرة لما فيها من رشدك ونصحك إن وفقك الله تعالى.

وذلك أن تعلم أن الله سبحانه جل جلاله، وتقدمت صفاته وأسماؤه، إنما خلق هذا الخلق ليعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئا, قال الله سبحانه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعموه. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.﴾ سورة الذاريات.

وهذه العبادة التي أوجب الله على خلقه لابد لها من وسائط يبلغون عن الله لخلقه ما أمرهم به، ومن رحمته بخلقه ورأفته بهم أن جعل لهم وسائط بينهم وبينه من جنسهم، أرسلهم إليهم من أنفسهم واختارهم من أنفسهم، فبعث لهم رسلا يبلغونهم عن الله ما جاءوا به من عنده، فآمن بهم من أراد الله سعادته، وكفر بهم من كتب شقاوته.

وختمهم بخاتم أنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وجعله خاتم النبيئين وسيد المرسلين، وجعل دينه خير الأديان، وشريعته أفضل الشرائع، وملته خير الملل.

ولقد بشر به وبمبعثه عيسى، كما بشر بعيسى موسى بن عمران على نبينا وعليهما وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام، ونبينا عليه السلام وإن كان آخر الأنبياء بعثا فهو أولهم خلقا.

ومم يجب اعتقاده ان الانبياء كلهم يجب الإيمان فلا نفرق بين احد منهم، وأن المسيح بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام هو أحد الرسل الذين جاءوا عن الله من غير ادعاء مما تدعون، ولا إطراء مما تطرون، قال الله تعالى في حق امه الصديقة: ﴿ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا

وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ سورة التحريم: وقال تعالى في حقه: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم من تراب ثم قال كن فيكون﴾ سورة آل عمران: وقال تعالى: ﴿...إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتبهوا خيرا لكم إنما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد مافي السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا. لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عباده ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا﴾ سورة النساء.

ومن المعتقد ان المسيح رفعه الله إليه، وأن اليهود لعنهم الله ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وأنه ينزل بين يدي الساعة فيجد المهدي من هذه الأمة من ولد فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم يقاتل الدجال، ويجده قد أقيمت عليه الصلاة فيقول له تقدم يا نبي الله أو ياروح الله، فيقول له عليه السلام عليك أقيمت عليه الصلاة فيقول له تقدم يا نبي الله أو ياروح الله، فيقول له عليه السلام عليك أقيمت فيصلي خلف رجل من أمة نبينا صلى الله عليه وسلم ويحكم بشريعته، ويقتل الدجال فينكره النصارى، ويقتلهم ويقتل اليهود حتى يكلمه الحجر، ويقول يا بني الله هذا يهودي ورائي فاقتله.

وقد أخبرنا بهذا كله نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله والذي نفس محمد بيده ليوشكن أن ينزل فيكم المسيح بن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ولا يقبل إلا الإسلام.

وهو معدود في أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم وقد عرف هذا جماعة من أعلام النصارى وملوكهم الذين هداهم الله ومن عليهم باتباعه كالنجاشي ملك الحبشة حتى عد من الصحابة وصلى عليه نبينا صلى الله عليه وسلم يوم مات وهو بأرض الحبشة، وهو أحد من خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم ودعاه إلى الاسلام، كما خاطب قيصر ملك الروم جد هذا الملك الذي لجأت إليه وأنت مقيم لديه، ولقد كتب إليه يدعوه غلى الإسلام، فلما قرأ كتابه ووعاه وكان عنده من العلم المكنون ما عنده، سال من حضره من العرب عن صفاته وأحواله وسيرته وما يدعو عليه وما يأمر به وما ينهى عنه فقال إنه النبي المنتظر الذي بشر به عيسى، وسيملك موضع قدمي هاتين وشاور أرباب دولته وأهل ملته في اتباعه فضجوا وحاصوا حيصة الحمر الوحشية فساعفهم وساعدهم بخلا بملكه وحين بلغ خبره نبينا صلى الله عليه وسلم قال: ضن اللئيم بملكه فلقد رسخت في قلبه معرفة هذا الدين وفضله على سائر الأديان لكنه لم يسمح بملكه.

وبكل حال من الأحوال فهذا الدين الحنيفي هو الذي اختاره الله دينا، وارتضى له نبيا أمينا، وجعله أفضل الأديان، قال الله سبحانه في محكم القرآن: ﴿إن الدين عند الله الإسلام...﴾ . وقال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ سورة آل عمران. فمن أمعن النظر واستعمل الفكر ووزن الأديان بميزان الحق والعقل عرف أن دين الإسلام هو الدين، وأن غيره كله لعب وعبث من لدن بعث الله نبينا الذي ختم به الأنبياء، وتقرر لديه انها كلها باطلة وأهلها للنار.

وقد وقع اختبار الأديان وأيهم أفضل لبعض عقلاء النصارى، وقد نظر فيما عليه المسلمون وفيما عليه النصارى وفيما عليه اليهود فأراد أن يختبرهم من جهة المعقول، فأتى نصرانيا وقال له أي الأديان أفضل؟ دين النصارى أو دين اليهود أو دين المسلمين؟ فقال له النصراني دين النصارى أفضل، فقال له وأي الدينين أفضل دين اليهود أو دين المسلمين؟ فقال له النصراني: دين المسلمين.

فأتى اليهودي وقال له أي الأديان أفضل دين المسلمين أو دين النصارى أو دين اليهود؟ فقال له: دين اليهود, فقال له: وأيهما أحسن أدين النصارى أم دين المسلمين؟ فقال له: دين المسلمين.

فأتى المسلم وقال له: أي الأديان أفضل؟ فقال له دين المسلمين فقال له: وأي الدينين أفضل دين اليهود أو دين النصارى؟ فقال له: لا خير فيهما معا.

فالدين القويم هو دين المسلمين، فعرف هذا النصراني المذكور بعقله أن الدين هو دين الغسلام وأن ما سواه محض ضلال، وأن اليهود والنصارى ليسوا على شيء وقد وقع معنى هذا في كتابنا قال الله عز وجل: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب...﴾. سورة البقرة.

وها نحن قد أملينا عليك نبذة من الآي القرآنية والأحاديث النبوية والدلائل المعقولية المطبقة على أفضلية هذا الدين القويم، وغيره كله إنما هو في سواء الجحيم، وأنت إن خممت مع رأسك وفكرت في نفسك واخترت الدار الآخرة على الدنيا ودخول الجنة على النار، فأنت عرفت سبيلهما، فاتبع هذا الدين الحنيفي

وانطق بالشهادتين فإن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ولو قالها مرة في عمره، ويدخلها بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم فإن له في أهل الكبائر والجرائم والذين نفذ الوعيد فيهم شفاعة عظمى خصه بها ربه في الموقف العظيم، والله إن أنت اعتقدت هذا الاعتقاد ووفقك الله إليه وعلمت ما عمله قيصر من اعتقاده بقلبه وتيقنه به في نفسه حتى تحمد ذلك حالا ومآلا إن شاء الله.

فهذه المسألة الدينية التي نصحناك بها والمسألة الدنيوية هي إذا أنت أحببت الإبقاء على دين الكفر فدين قومك الإنجليز أخف وأيسر عليك من عبادة الصليب، ومتابعة الذين يجعلون لله الولد وينزهون عنه رهبانهم، وأي شيء رأيت في تغريبك عن وطنك وبعدك عن بلدك وخروجك عن ملة أبيك وجدك وتدينك بدين غير دين قومك، وإن كان الجميع على ضلال فدينكم أنتم معشر الريكس أيسر من أولئكم المتوغلين في الكفر، وحتى امرأتك الفرنسية التي كانت تحوزك على التعبد بدينها، ها أنت الآن افترقت معها، فعلى ماذا أنت باق في جوار الفرنسيس تارك ملتك وادع ملك أبيك وأخيك لغيرك بالفلامك يتملك على جنسك وأنت بالحياة، فوالله ما أحببنا لداركم ولا لمملكتكم يتولى رياستها الفلامك أو غيره، فالغ عنك ما تقدم بينك وبين قومك فغن الصواب معهم في الإنكار عليك بسبب الدين الذي اختلفت معهم فيه، واعتذر لهم وعاودهم وراجعهم، والله لولا انا أناس عرب لا معرفة لنا بالبحر، أو كان عندنا من يحسن معرفته، أو نستوثق به في الجيش ونطلقه في يده حتى نكاتب الإنجليز ونبعث لك من الجيش ما تدخل به عليهم وتتولى به ملكك.

ولكن مسألة واحدة نعرفك إياها فحاول حتى تتصل من بلاد الفرنسيس، واقصد لجوبة بلاد ديوانكم وجه وكلام ومن هنالك تقرب المسافة بينك وبين قومك، وتسهل عليك مناولة الكلام معهم، لكن بحيث لا يكون للافرنسيس بك شعور، وأما إذا عرفوا منك فلا يتركونك ولا يطلقونك لمسألتين: إحداهما لا يريدونك تترك دينهم وترجع إلى دين قومك، والثانية يخافون أنك إذا راجعت قومك ربما تعاديهم وتحاربهم لاسيما حيث عرفتهم وعرفت عزة بلادهم، والملوك دائما تحذر من مثل هذا، وقد نصحناك وأريناك ما يليق بك في دينك ودنياك ووالله ما نكره لك الهداية والرشاد.

وقد بلغنا انك تروم الوصول إلى رومة، فإياك وأن تحدث نفسك بشيء من ذلك، فإنك إذا دخلتها تحتل بها ولا تطمع في الخروج منها ولا في ملك بعدها أبدا، فعلى كل حال إن أنت راجعت قومك ودينك نجدد معك ما كان بيننا وبين أخيك، ووالله مازال خديمنا الذي كان عنده يذكر لنا من صوابه وخيره ما أوجب مكاتبنا لك بنصحنا، وقد أحببنا أن تكون المودة والمراسلة بيننا وبينك فتنتفع بها على كل حال إن شاء الله، والسلام على من اتبع الهدى.

وكتب في النصف من شعبان المبارك عام تسعة ومائة وألف.

الرسالة: 45

من خطاب لملك الإسبان :

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، من عبد الله إسماعيل المتوكل على الله المفوض أموره إلى الله، أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسني أيده الله آمين. ثم الطابع الملوكي بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني أيده الله ونصره وبدائرته: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا :

إلى عظيم الروم وملك إصبانية وبلاد الهند والمتولي أمورها والمتصرف في أقطارها "دون كراوس" السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فقد بلغنا كتابكم صحبة خديمكم "دون منويل بيردلون" وخديمكم "دون ابيل مسيح" وهو الكتاب الذي وجهتم لنا جوابا عن كتابنا الذي أصدرناه إليكم خديمكم "دون ابيل مسيح" مافي خاطركم وما طلبتموه منا من فك هذه المائة من النصارى الذين وقع الكلام قبل هذا، رددنا إليكم جواب كتابكم، ووجهناه مع خدم دارنا العلية بالله كاتبنا ومتولي الخط الأقرب من بساطنا السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير، ولولا مزيتكم عندنا ومعرفتنا بمنصبكم ما سمحنا بفراق كاتبنا عن بساطنا لمهمات أمورنا، وأدنا لخديمنا الأكبر الأعز الأشهر أبي الحسن القائد علي بن عبد الله أن يبعث معه رجلا من اصحابه، فوجه خديمنا عبد السلام بن احمد جسوس معاشرا له ومرافقا، وعند الكاتب المذكور قضية دخول

جند الإسلام المظفر بالله على نصارى العرايش وفي علمه وعلى باله كان ما كان في ذلك من الكلام والأسباب، وكيفية الخبر في ذلك.

فثقوا به وتعرفوا منه فإنه حفظه ووعاه من اوله غلى آخره لملازمته لبساطنا العلي بالله في سائر أوقاته، ونحن بلا شك كنا أعطينا القول لهذه المائة من النصارى بالسراح، ولكن وقع من النصارى ما اختل به منهم من الأنساب ما يوجب عدم الوفاء لهم بذلك، فمنهم من كان ينادي بلفظ مينا على رءوسهم، ومنهم من لم يرض بخروجهم على ذلك لذلك القول وكاد يفتك بمن دخل إليهم من خدامنا الذين أوفدناهم عليهم، وبعضهم ركب لجج البحر فارا بنفسه حتى أدرك وقتل على الموج، وحاجنا مع هذا كله كبار ملتنا وعلماء شريعتنا وأئمة ديننا بأن قالوا لنا: إن المسلمين كانوا أشرفوا على الغنيمة ساعتئذ ووقع الغلب والظفر، ولم يبق للنصارى إلا الموت بالسيف أو الغرق فلا وجه لسراحهم في الشريعة رأسا.

وكنا في أثناء هذه المدة كلها نتراد الكلام مع هؤلاء العلماء حفظهم الله، وقالوا لنا: هؤلاء المائة يكونون أسرى ويسترقون من كل وجه، كيف وقد أخذوا العرايش من أول وهلة بلا موجب، بل أضغطوا الشيخ ابن السلطان الذهبي وقبضوا عليه حتى أنفقوا عليه أموالا عديدة ومسكوا اولاده بسببها حتى أعطاهم العرايش على ضغط منه وعلى غير تاويل حقيقي في ذلك.

وذكرونا في مسالة غدر أسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم بما يزيد على الأربعين ألفا بعدد تعدد الشروط على ستين شرطا، ولم يوفوا بواحد منها إلى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الأندلس في كل بلد

وقرية بعد بلد وقرية، فألفيناهم ما تكلموا إلا بالحق، وبقينا في حيرة من أجل هذه المسالة من وجهين: الأول لا نقدر نخالف شريعتنا التي هي أساس ديننا، والوجه الثاني ذلك القول الذي سمعه في تلك المائة أحببنا الوفاء به، وأنفت نفوسنا أن يسمع عنا الناس قلنا كلمة ولا نوفي بها، ولولا معارضة ولا كثرة اعتراض ولم يلزم فيه من حجة الشرع إثم، فأردنا كم تعملون لنا وجه خلاص هذه المائة بالوجه الذي عملناه لكم وأعطيناكم فسحة فيه، وإلا فالمائة المذكورة ارقاء أسارى من جملة إخوانهم.

وذلك أن تعطونا في الخمسين نصرانيا من هذه المائة خمسة آلاف كتاب مائة كتاب عن كل نصراني من كتب الإسلام الصحيحة المختارة المثقفة في خزائنهم بإشبيلية وقرطبة وغرناطة وما والاها من المدن والقرى حسبما يختارها خديمنا المذكور من المصاحف وغيرها وتعطون خمسمائة أسير من المسلمين في الخمسين الأخرى عشرة أسرى لكل نصراني، وإن لم توجد الكتب هي مرادنا فاجعلوا عوضها من أسرى المسلمين وأعطوهم لنا من الأسارى الذين في الأغرية وغيرهم، وقبلنا منكم في العدد المذكور الرجل والمراة والصبي والصغير أو الكبير والشيخ المسن من إيالتنا وغيرها، إذ ما لنا قصد غلا في الثواب في فكاك أسرى المسلمين كيفما كانوا، ومن أي بلاد كانوا.

وإلا فالاعتناء الكلي إنما يكون بأهل الدواوين من الجند أو العلماء حملة الشريعة وعامة المسلمين إنما نقصد بفكاكهم وجه الله تعالى، فإن أنتم سارعتم لهذه المسالة فما عملكم إلا الخير في أرواحكم وفي إخوانكم، وإن ثقل عليكم هذا

الأمر ولم تقدروا عليه فأرجعوا خديمنا الكاتب الذي وجهناه إليكم في أمان الله كما أتاكم والمائة من النصارى نصيرهم من جملة الأسرى إخوانهم يخدمون مثلهم.

وإذا نحن أبصرنا منكم المسارعة لأغراضنا والجد في ابتغاء مرضاتنا وأنجزتم بأرواحكم في هذه المسالة فلا ترون منا إلا ما يعجبكم وحتى باقي نصاراكم الذين هم عندنا من أصحاب العرايش وغيرها من غير هذه المائة نعمل لكم الكلام في سراحهم بما يرضينا فيهم عندكم إن عملتم الواجب الذي لنا عليكم، وتعرفهم الصواب الذي تعين عليكم كما ذكرتم في كتابكم، وبرجوع خديمنا حامله بما ذكرناه في هذه المسالة نتلقاه هذه المائة نصراني لسبتة ويكون ملتقى الجميع فيها ولا عندنا معكم في هذا إلا الجد الصحيح والعمل الصريح بحول الله تعالى.

الرسالة: 46

كتاب لعلماء فاس بالحض على الدؤب في الاجتهاد في بث العلم وصرف نفائس الأنفاس في نفع العباد و إحياء البلاد:

الحمد لله وحده وصلى الله عليكم ورحمة الله وبعد فانتم عالمون ما ورد في فضل التعلم والتعليم وما هدى الله به الامة الى الصراط المستقيم وقد جعلكم الله نظاما لهذا الدين القويم وتوجكم وفتح بصائركم وصرف همتكم الى مايرضي مولاكم وجعل ما أنعم به عليكم من العلم غير قاصر على أنفسكم فاجرى النفع لعامة المسلمين وخاصتهم كبيرهم وصغيرهم شريفهم ومشروفهم وصار بكم ليل الجهل نهارا وصرتم شموسا يستضاء بها واقمارا وبذلتم جهدكم في اتباع السنة وقمتم في انتشارها أحسن قيام ولم تأخذكم في ذلك سنة واتبعتم ماورد في ذلك من الآثار الواردة عن خير الأبرار فاجتهدوا في تعليم العلم لأهله واغتنموا ماورد في فضله ورغبوا فيه بالقول والعمل لتحمدوا عاقبة ذلك عند حلول الأجل فقد ورد تعلموا العلم فان تعلمه خشية وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد والفكرة فيه تعدل الصيام ومدارسته تعدل القيام وتعليمه لمن لايعلمه صدقة وبذله لهله قربة لنه منار سبيل أهل الجنة والأنيس في الوحشة والصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والدليل على السراء والضراء والسلاح عند العداء والقرب عند البعداء يرفع الله تعالى به اقواما فيجعلهم للخير قادة هداة يقتدى بهم وأئمة في الخير تقتبس آثارهم وترضي أعمالهم وينتهي غلى رأيهم وترغب

الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمنحهم وكل رطب ويابس يستغفر لهم حتى الحيتان في البحر وهوامه وسباع البر وانعامه والسماء ونجومها لان العلم حياة القلب من العمى ونور الابصار من الظلمة وقوت الأبدان به تبلغ منازل الأبرار ومجالس الملوك والدرجة العليا في الدنيا والآخرة به توصل الارحام وبه يعرف الحلال والحرام وهو إمام العمل والعمل تابعه يلهمه الله تعالى السعداء ويحرمه الاشقياء.

العلم خير من المال العلم يحرس صاحبه, المال تنقصه النفقة والعلم ينمو بالانفاق, منفعة المال تزول بزواله والعلم تكتسب به الطاعة في الحياة وجميل الذكر بعد الوفاة خازن المال ميت وهو حي وصاحب العلم حي مابقي الدهر العلم حاكم والمال محكوم عليه، وسئل الخليل بن أحمد هل العلم أفضل او المال قال العلم، قيل له فما بال العلماء يزدحمون على أبواب الملوك والملوك لايزدحمون على أبواب العلماء، قال لمعرفة العلماء بحق الملوك وجهل الملوك بحق العلماء، ولست والحمد لله من هذا القبيل وليس إلى سلوكه سبيل فإني أعلم أن الملوك حكام على الدنيا والعلماء حكام على الملوك وأعلم أن العالم في الأرض كالنجم في السماء، من ترك العالم ضل ومن غاب عنه النجم تحير وإن العالم كالسراج من جاء اقتبس من نوره ولا ينقص من علمه شيء، واعلم أن بالعلم ساد من ساد وانتظمت مصالح الدين والدنيا والمعاد وبه تتنور بصائر أهل العرفان ويتضح الحق من الباطل ويتبين الرشد من الغي ويظهر الايمان وبه يحصل التقدم في المحافل وترفع به الدرجات في العاجل والآجل وبه تتكشف للأذهان معان تطرب بها الأرواح وتنشرح لها النفوس في الغدو والرواح لاتبتغي بدلها بيضاء ولا صفراء ولا فرائد

ونفائس ولا درا، لاكن العالم اذا لم يعمل بعلمه مرت موعظته على القلب كما يمر الماء على الحجرة الملساء والكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلب واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان، العالم من اتقى الله وانتم علماء المسلمين وأئمة الدين طرق سمعنا انكم اشتغلتم باللذات واتبعتم الشهوات واتبعت العامة والخاصة حتى كاد أن يضيع العلم من فاس وهي ام مدن المغرب فيكون في غيرها أضيع فنأمركم أن ترجعوا لما كنتم عليه من الاجتهاد ونفع الحاضر والباد واعلموا بما ينفعكم يوم المعاد وستعمكم منا عطايا تعم المعلم والمتعلم متبوعة بغيرها من غير ألم الانتظار والابعاد ولا تسويف ولا تخصيص زيد أو عمرو نعم من ظهر منه الجد في المطلوب والمراد أخصصه بصلات وزيادة رفع القدر وينال مرغوبه في كل أمر وتحمد عاقبة اجتهاده في السر والجهر ومن بقي على تقصيره ولم يراع كتابنا ولاأمره تركناه على حاله ولانراعيه في أقواله ولا أفعاله والسلام.

صدر بذلك أمرنا في خامس عشر جمادى الثانية عام خمسة وعشرين واحدى عشرة مائة.

الرسالة: 47

ومن جوابه للشيخ العالم الناسك الوارع أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي عن شرحه لصغرى الامام السنوسي إذ كان وجهه اليه على وجه الهدية:

إلى كبير فقهاء عصره وإمام أئمة الأقطار والأمصار لاخصوص قطره ومصره خاتمة المحققين وبغية سلف المؤيدين النسمة الطاهرة والبركة الباطنة والظاهرة ذي السنن الأنوري والعرفان الابهري أبي عبد الله الشيخ محمد الخرشي المالكي الأزهري أعلا الله مقامه وأعانه على ما فيه من تهذيب المقاصد الدينية أقامه ومتع المسلمين باقتفاء آثاره ومن عليه من الكمالات العلمية والعملية لقضاء جميع وطره السلام عليكم أيها الفجر اللامع والبحر الذي طيب المعاطش وقرط المسامع ولازالت نفحات الفتوحات تترادف عليكم وتتوالى وأنوار عوارف معارف تتكاثف بهاتيكم الارجاء الأريحية وتتوالى، هذا وأنا أيها الماجد الدار والقطب الذي عليه بين أفاضل وقته المدار منذ ولانا الله امور عباده وأقامنا فضلا منه لحياطة دينه وكلاءة بلاده لم نزل نجتهد في جمع الكلمة بحسب الامكان ونجد في حسم مادة البغي بكل محل من هذه الآفاق المغربية ومكان ونحتفل بطهارة أديم الأرض والجهالة والافك حتى أسعف الاسعاف والحمد لله بنيل ذلك المؤمل ولم يكن الا على حسن الثقة بالله في تحصيل ذلك الأرب المعول...

...وفي صحبة هذا الكتاب بلغتنا نحلتكم الأثيرة ومنحتكم التي هي أنفع مكسب وأنفع مكسب وأنفس ذخيرة وهي شرحكم الأزهر للعقيدة الصغرى التي

هي من أجل العقائد وتحليتكم جيدها من غرر مباحث بما هو أجمل من درر القلائد فوقع ذلك منا موقع الاغتباط وارتبطت أغراضه بجواهر القلوب غاية الارتباط، فلكم معنى بعيد الى الافهام قريب وذي عجمة من الالفاظ المشائخ غريب ومبحث ناقص من مباحث المهمات كمل وجاد على المستفيد بأمتع مامنه أمل وكأين من تقرير تحرير طالما اغتاصت خباياه على الماجد النحرير ولطائف معان ازال عن جمال محياها اللثام إلى غير ذلك من المطالب اللطيفة والفوائد المستحسنة المنيفة تقبل الله تعالى في ذلك أعمالكم وبلغ من جميع الخيرات العاجلة والآجلة آمالكم آمين يارب العالمين غير أنه حفظكم الله ربما وقعت فيه بعض مسائل النظر فيها مجال وللبحث فيها موضع عند من أجاد النظر وأجال، وأرجو بحسب سلامة الطوية وكرم هاتيكم الأخلاق الطاهرة الزكية أن لا بأس بذكر الواحدة منها ليعرض على هاتيكم الأنظار ويختبر بمعيار الفكر مما حواه ساحكم الأحفل من جهابذة النظار، ففي مبحث أقسام الحكم العقلي بعد تعريف كل منها وذكر سر العدول فيها عن المصادر الى الاوصاف المشتقة منها كما ذكره المصنف في بعض كتبه مانصه أما ما وقع لأبي محمد عبد القادر من أن هذه المصادر لاتعرف كما صرح به علماؤنا فهو شيء غير معروف عندهم ولاندري من هؤلاء الذين يمنعون تعريف المصادر بل كتبهم مشحونة بذلك كتعريف المؤلف الألوهية بالاستغناء والافتقار فيه وهو مصدر تعريف ابن عرفة التقليد بانه اعتقاد جازم بغير دليل وتعريف الزكاة بانها مصدر إخراج جزء من المال وتعريف المازري وغيره الطهارة بانها إزالة النجاسة أو رفع الحدث بالماء وتعريف النحويين

التثنية بانها ضم إسم إلى مثله وغير ذلك فإن هذا الكلام الانتقادي تتعلق به على وجه الاختصار في الانتصار ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ما ذكره أبو محمد من أن هذه المصادر يعني الوجوب وقسميه لا تعرف هو الأمر المشهور المعروف التعاطي بين الخاص من أئمة الصناعة والجمهور، قال الشيخ أبو عبد الله بن عرفة رحمه الله ورضي عنه في الفصل الرابع من الباب الأول من الكتاب الأول من كتابه الذي حادى به طوالع البيضاوي ما نصه المسالة الأولى في تصوراتها يعني الوجوب وما معه من بديهة وفيها لايمكن تعريف شيء منها الا ببيان دورية لايمكن تعريف الواحد منها الا بسلب الآخر عنه ه. وتتبع كل ما لائمه الفن في ذلك يطول فليراجع كلام الفخر في المباحث المشرقية وأقره ابن الرقام وفي الملخص وسلمه الأبهري وغيره وكلام السعد في المقاصد وشرحه والعضد في المواقف وغير ذلك وقد بلغت المسألة من الشهرة إلى أن كانت مذكورة في الحواشي الباسينية على شرح المصنف وما شأنه ذلك يجل عظيم قدركم عن اغفاله والتوقف فيه فضلا على التصميم على انكاره.

المبحث الثاني: ان تقرير تعاريف هذه الحقائق وإنكار ما ذكره أبو محمد يقتضي اعتقادا أن هذه المطالب نظرية وان تعاريفها المذكورة حقيقية وأنها مع ذلك صحيحة وكل ذلك محل منع. أما الأول وهو أنها ضرورية غنية عن الكسب بتصريح غير ما واحد من أئمة الفن بذلك، كما قبل فيما تقدم عن ابن عرفة انها بديهية، وقال السعد: تصورات هذه المعاني يعني الوجوب وما معه ضرورية حاصلة لمن لم يعرف طرق الاكتساب وكذا في المتعدد من شروح الطوالع وغي

ذلك. وأما الثاني وهو أن تعاريفها غير حقيقية فلتصريح جماعة من أئمة الفن أيضا بذلك قال السعد عقب ماسبق ما نصه: قد تعرف تعاريف لفظية ولذلك لا يتحاشى أن يقال الوجوب إمتناع قبول العدم وقال في الشرح بعد أن ذكره: إنها ضرورية، وقد قال على سبيل التنبيه الوجوب اقتضاء الشيء الوجود الى آخر كلامه.

وقد حرر المحقق النصير الطوسي في شرح الإشارات إلى الأعراض الذاتية لموضوعات العلوم إذا ذكرت أولا قبل التصديق بموجودها لا تعرف إلا بحسب الأسماء دون الماهيات والحقيقة وبسطه يوقف عليه في محله، وتبعه على ذلك القطب الشيرازي في أوائل شرح أصل ابن الحاجب والسعد في شرح الرسالة الكتابية: وظاهره ان هذه المطالب هي الأغراض الذاتية لموضوع علم الكلام التي يثبتها المتكلم في مسائله فيما يفيد ثبوتها من صحيح الأدلة، ولهذا قال في محل المقاصد:

تمدها الأحكام لا نزاع ووجوب الجواز الامتناع

تقع في المحمول من مسائله فهي مباديه ومن وسائله

وهذا نظير ما قال ابن الحاجب في الاحكام الشرعية وقرره جماهة من شروحه ومحشيه وأقروه، وأما الثالث وهو إن التعاريف المذكورة لهذه المطالب على تقدير أنها حقيقية هي غير صحيحة. فما سبق عن الفخر وغيره من أنها دورية

لايمكن تعريف الواجب بأنه الذي لا يتصور في العقل عدمه تعريف له بامتناع العدم واستحالته، وكذا يقال في تعريف الجائز بانه الذي يصح في العقل وجوده وعدمه لأن الصحة بمعنى سلب الامتناع ونفى الاستحالة. وأما تعريف المستحيل بأنه الذي لايتصور في العقل وجوده فتعريف للشيء بنفسه لأن عدم التصور المأخوذ في تعريفه هو معنى الامتناع والاستحالة المعروفة فكان تعريفه بذلك تعريفا له بنفسه، لكن لما كانت التعاريف المذكورة لفظية بحسب التبيه والتعريف اغتفر فيها ذلك كما قال السعد وغيره.

وليس كل ما يغتفر في اللفظي يغتفر في الحقيقي لأن الاول من قبيل التصديقات والاخبار عن مسمى اللفظ المجهول بأنه هو مسمى اللفظ المعنى يقبل المنع وتقام عليه الأدلة النقلية عن أهل الوضع بخلاف الثاني على ما قال ابن الحاجب وغيره. وللسيد الشريف في شرح المواقف مزيد تحرير تتأكد مراجعته. وبتحقيق هذه النبذة يضمحل الانتقاد الذي أشرتم إليه من أن تصدير التعاريف المذكورة بالنفي متعقب من حيث أن النفي يجب اجتنابه في التعاريف. وما درى هذا المنتقد أن ذلك الاجتناب إن ثبت عنهم إنما هو في التعاريف الحقيقية للأمور الوجودية دون اللفظية وتعاريف للأمور العدمية والاعتبارات العقلية، وليته درى بأي شيء يعرف المصنف وينبوعه كالمقترح والشرف الفهري التنزهات وأوصاف السلوك كالقدم مثلا.

المبحث الثالث: أن مقتضى ما ذكره في التعقب على أبي محمد يفهم أن معنى التعريف عندهم هو خاص بالمصادر المذكورة لا يتجاوز إلى الاوصاف المشتقة منها

وأنه مع ذلك عام في كل مصدر غير مقصور على الوجوب وصاحبيه، ولذلك جيء في النقص بخصوص المصادر دون أوصافها وعمم فيها بذكر التقليد والطهارة ما معهما، وكلا الأمرين غير مسلم. أما الأول فلأن المصدر متوس من وصفه ولازم له فامتناع تعريفه لتعذره كما ذكره الفخر الرازي وغيره لتعذر وصفه، لأن تعذر الأعم واللازم تعذر للأخص والملزوم. وتصريحهم بامتناع تعريف المصدر تلويح جلي بامتناع تعريف وصفه المشتق منه. وبالجملة فالقول بانهم إنما منعوا تعريف الوجوب والامكان والامتناع دون الواجب والممكن والممتنع مما لا معنى له ولا قائل به وليس في كلام أبي محمد ما يدل عليه وإنما مقصوده كما تقدم بدلالة السياق منع كل من المصدر والوصف المشنق منه من الأمور الثلاثة. وأما الثاني وهو ان المنع عام في كل مصدر غير مقصور على الواجب وصاحبيه حتى يتوجه النقص بتعريف التقليد والطهارة فهو غير مراد لأبي محمد ولا لغيره من الائمة وليس في كلام واحد منهم ما يفهم ذلك العموم ولا يوهمه بأدنى وجه لأن السياق دال على إن الكلام في الوجوب وما معه تم في الاتيان بكلمة الإشارة من كمال بيان الغرض على أتم وجه ما لا يحتمل معه حمل لفظ المصادر على العموم في كل مصدر مصدر حتى تندرج الألوهية والزكاة، وإن أمكن ذلك الحمل مع ترك الاشارة على ضرب من التأويل ونوع من التساهل انتهى.

الرسالة: 48

وكتب للولي الناصح الدؤب على نهج سلفه الصالح مولاي التهامي بن محمد بن عبد الله الشريف الوزاني بما نصه الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما إلى أخينا وابن عمنا الماجد الفاضل الأتقى السيد محمد الأصغر بن المحب السيد محمد بن عبد الله الشريف العلمي سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد بلغنا عنك من حسن الخلق وجميل السيرة والمسكنة والعفاف والديانة والاقبال على ما يعنيك مع الميل والهوى بقلبك وجوارحك لمحبة جانبنا العالي بالله وكثرة دعائك الصالح لنا في سائر أوقاتك فالحمد لله على ذلك وقد قيل وما أحسن قول من قاله (الانصاف من شيم الأشراف) فلا شيء أجمل لك وأليق بك من هذه المآثر الشريفة والنسبة الكريمة المنيفة التقوى والخوف من الله تعالى ولم يبق لك مع هذا كله الا أن تبذل النصائح لكل أحد خاص أو عام وأرشد الناس وأرهم مايجب عليهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم ومحبة صاحب الوقت والدعاء الصالح له في جميع الأوقات لما ثبت عن الفضيل رحمه الله من كانت له دعوة صالحة فليخص بها أمير المؤمنين ونحن ما عندنا أحب منك وأنت على هذه الحالة الحسنة تنصح الناس وتخاف الله وتدعو لنا بصالح الدعاء في جميع أوقاتك، من يكون مثلك الشرف والتقوى، فمن مثل هذا تكون لنا المعونة عند الله تعالى على ما أقامنا الله فيه من حمل هذه الأمامة والقيام باعباء الحق في مسائل الخلق والنصرة على من عاداه وناواه كما

وقع للمرحوم بالله أخينا مولاي محمد قدس الله روحه في مباشرته لقتال أهل الساحل من سوس حيث تالفوا عليه بالحرب في تفيلالت فاجتاز يوما وهو في اقتحام ذلك على الرجل الفاضل الخير الودع الناسك مولاي العربي بن محرز بزاويته بالمراني وهو ابن عمنا فقال له مولاي محمد كيف أمولاي العربي بن محرز هذا كله يجري علينا ولا تعاونوننا فكونوا معنا بقلوبكم فإننا منكم وأنتم منا فقال له نفعنا الله به أنتم بسيوفكم ونحن بكفوفنا فانظر هذه الغيرة على الجانب من أهل الله ومن الأهل والأقارب قال تعالى ذرية بعضها من بعض فافهم ذلك واعرفه وكن فيه على بصيرة وسلم منا على والدك البركة والسلام وكتب في الرابع والعشرين من المحرم فاتح عام سبعة عشر ومائة وألف.

الرسالة: 49

وكتب لأولاد سيدي عياد الديوري القاطنين الآن بوادي اعريش بالقرب من وادي ملوية بما نصه بعد الحمدلة والصلاة والطابع الصغير داخله اسماعيل بن الشريف الحسني دعاه الله وأعز نصره وخلد في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره بمنه آمين وبتعرف منه بحول الله وقوته ونصرته ومعونته اننا أقررنا وأبقينا حملته متمسكين بالله تعالى ثم في المرابطين الخيرين أحباءنا أولاد السيد عثمان بن الولي الصالح سيدي عياد الديوري نفع الله ببركته وهم أهل زاوية السيد الفضيل بن المسناوي والسيد محمد بن الباجي وجميع إخوانهم أولاد السيد عثمان أهل الزاوية على ماكانوا عليه من قديم فلا سبيل لمن يخرق لديهم عادة أو يحدث لديهم نقصا أو زيادة وهم محسوبون على الله وعلينا ومن جملة زوايا الصحراء فعلى بعهد الله وميثاقه وسيدنا محمد بن عبد الله ان تشكوا لنا باحد كلفهم ولو بجرعة ماء حتى نقطع راسه ونمثل به وماؤهم الذين بواد نون وعقبة العرائص يجرونه للولي وللزاوية المذكورة وكذلك جميع بلادهم المعروفة والمألوفة لهم والديور يتركهم من البناء في زاويتهم بالخوخات وليسوا منهم ومن بنى عندهم ولو بيتا واحدة سقط على رأسه إن شاء الله تعالى وعلى هذا يكون عملهم والواقف عليه يعمل ولايخالف ولا يتعداه والسلام وفي السادس من شعبان المبارك عام ثلاثة وثلاثين ومائة وألف.

الرسالة: 50

وكتب لأبي عبد الله محمد فتحا بن حمزة العياشي لما ورد على حضرته الشريفة بما نصه بعد الحمدلة والصلاة عن أمر عبد الله العلي الامامي السلطاني الاسماعيلي أمير المومنين المجاهد في سبيل العالمين الشريف الحسني أيده الله ونصره، وسن له فتحا مبينا ويسره آمين... يستقر بحول الله وقوته هذا الظهير الكريم والامر المحتم العميم الخطاب الجسيم المتلقى بالاجلال والتعظيم بيد حامله محبنا الخير الدين الفقيه الاجل الافضل سيدي محمد بن الفقيه الاجل العالم الاوحد الولي الصالح الرباني التبرك به حيا وميتا المرحوم بكرم الله سيدي حمزة بن العالم العارف بالله تعالى محبنا وخلاصة ودنا سيدي عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي آمين يتعرف كل من يقف عليه بحول الله وقوته لما ورد على حضرتنا العلية بالله مع إخوته وابناء عمه وتعزية والده رحمه الله في جنابه غاية الفرح وكرمناه غاية الاكرام هو ومن معه لما رأيناه من أهل الخير والصلاح واتباع السنة المحمدية أبقينا السيد محمد بن حمزة جله يتصرف فيها بالخير والصلاح كما كان والده قبل وأسبلنا عليهم أردية الستر والتوقير والاحترام والرعي الجميل المستدام وعلى جميع من هو محسوب ومنسوب اليه وعلى زاويته من رعيانهم وخماميسهم ووصفانهم وغير ذلك من سائر ماهو معلوم لهم من قديم وحديث فلا يطالبهم أحد به ولا يقرب ساحتهم لا بوجد ولا بحال ومن قربهم او طاف بهم أو تعدى عليهم أحد في شيء بالله الذي لا إلاه الا هو حتى ينتقم الله

منه أشد الانتقام كائنا من كان وعليه بتقوى الله في سره وجهره والاجتهاد في قراءة الفقه وفنونه وأصوله وفروعه واتباع سنة نبيه وسنن أسلافه وأدعيته الصالحة لمن ولاه الله أمر عباده وكذلك طلبنا منه أن يزورنا كل سنة عند ختمة قراءة سيدي البخاري بحيث لا يتأخر عن القدوم ولابد. في عشري صفر عام 1130 ه.

الرسالة: 51

وكتب للطبيب السيد الحاج عبد الواحد بن محمد غريط بما نصه بعد الحمدلة والصلاة والطابع السلطاني الكريم كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره بيد ماسكه محبنا وأعز الأحباب لدينا الخير الدين المتطبب السيد الأبر الحاج عبد الواحد بن المرحوم بكرم الله سبحانه السيد محمد غريط الأندلسي يتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركته إننا ابقيناه على ماهو له من الاحترام التام المطلق الشامل العام وعلى التحرير من جميع الوظائف كلها والتباعات بإسرها ابتغاء وجه الله العظيم وثوابه الجسيم ومحبته فينا ومسكنته واشتغاله بما يعنيه واجتنابه لما لايعنيه وكذلك أقاربه وأصهاره ومن أضيف اليه يسلك مسلكه في الاحترام بحيث لا يخرق أحد من ولاة الأمر جانبه بخرق عادة، أو يتوجه إليه بما يخالف هذا الأمر الكريم من دواعي النقص والزيادة، رعيا لما وصف به وتمسك به من الدين والجري على سنن أولي الخير المهتدين وحسب الواقف عليه يعمل به ولا يتجاوز عن كريم مذهبه ولابد والسلام في ثاني عشر من ذي الحجة الحرام عام واحد ومائة وألف.

الرسالة: 52

وكتب من بعده لولده أبي محمد عبد السلام بما لفظه الحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه وسلم عن الأمر التالي الامامي السلطاني الاسماعيلي الشريف الحسني وبداخل الطابع اسماعيل بن الشريف الحسني أيده الله وبدائرته انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا وبعده جددنا بحول الله وقوته ونصره وتأييده ومعونته هذا الكتاب الكريم ذا الأمر المطاع المحتم الصميم المتلقى بالدوام بالاجلال والتعظيم لخديمنا الفقيه السيد عبد السلام بن خديمنا السيد عبد الواحد غريط الأندلسي وأولاده السيد محمد العربي والسيد عبد الواحد غريط المدعو الكبير والسيد محمد الطيب ومحمد على التوقير والاحترام والتنزه عن كل مسالة أو تباعة يخاطب بها العوام فقد اسقطنا عنه وعن أولاده جميع المطالب والكلف والوظائف والتبعات جلت أو قلت شملت أم عمت من غير متابع لهم ولا مطالب في قلامة ظفر على الدوام وممر الليالي والايام والشهور والاعوام، جرناه وأولاده لوجه الله تعالى ولقراءتهم العلم وتدريسهم ومواظبتهم عليه ومحبتهم لجانبنا العلي بالله تعالى ونسئل الله تعالى ان يدخر لنا أجرهم وثوابهم آمين ونأمر من يقف على هذا الكتاب الاسمى السعيد ان لايخرق عليهم عادة من كافة أولادنا وفرهم الله وخدامنا ووصفائنا وأهل حضرتنا العلية بالله تعالى مكناسة الزيتون حرسها الله وان يتركوهم على ما انعمنا به عليهم من التوقير والاحترام والملاحظة

اليهم بالمبرة والاكرام ومن رامهم باذاية او سوء أو تابعهم في قليل أو كثير أو جليل أو حقير نحفر جدره ونقصم ظهره كائنا من كان والواقف عليه يعمل به بالدوام ولا يحيد عن كريم مذهبه والسلام وفي مهل شهر الله جمادى الثانية عام ستة وعشرين ومائة وألف سنة .

الرسالة: 53

رسالة من السلطان مولاي إسماعيل ملك المغرب إلي الأمير سعد بن زيد أمير مكة والمدينة (بداية القرن 12 ه، أواخر القرن 17م).

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد، من عبدالله المتوكل على الله الغني به عمن سواه المفوض جميع أموره إليه المعتمد في ساير أحواله عليه إسماعيل بن علي بن الشريف الحسني. إلى من تحلت الأيام بمحاسن شيمه، وأحجمت الأقلام دون مراقي هممه، الأرقى الأنقى الأزكى أخينا وابن عمنا الشريف المحترم السلطان سعد بن المقدس المرحوم بكرم الله السلطان زيد أسعدنا الله وإياكم باتباع مناهج رشاده، ووفقنا وإياكم لمصالح بلاده وعباده، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه الأعم وتحياته أما بعد، فقد كتبناه لسيادتكم وأنهيناه لمجادتكم عن ود ثابت الأساس، وعهد جار في طريق المحبة على (الصفحة الثانية مبتورة) وأربابها وموضعها، والنصيحة عامة الوجوب محمودة المطلوب، سيما لأهل ذلك الحرم الشريف والجناب المعظم المنيف الذي هو حرم الله وحرم رسوله ﷺ. وقد عظمه الله تعالى، وورد فيه من الآي القرآنية والأحاديث النبوية ما فيه كفاية لقلب كل من يؤمن بالله ورسوله، فإنه بيت الله ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام وحج المسلمين، ومنه أول أرض مست نسمة رسول الله ﷺ، ومنه ظهرت أعلام النبوءة، واتصلت المعجزات، ومنه كانت البعثة الشريفة، وفيه كان ابتداء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ومنه أسري به عليه الصلاة والسلام، وكم وكم (هكذا في النص) له من الفضائل التي لا يتناولها الحد ولا

يأتي عليها الإحصاء والعد. وكذلك طيبة المطهرة، فهي دار الهجرة وبها منازل الوحي، وفيها أكمل الله الدين، ومنها كانت البعوث والسرايا والغزوات، وفيها أظهر الله الدين وأعز الإسلام والمسلمين، وفيها قبض روح رسول الله ﷺ، وفيها روضته بها جمع القرآن، ومنها استقامت الخلافة ووقعت الفتوحات في المشارق والمغارب، ومنها اجتثت قواعد أصول الدول الكبيرة الفارسية الكسروية والرومية القيصرية والتركية الخاقانية والديلمية والحبشية والبربرية، وكم لها من الكمالات التي لا تتناهى، والمحاسن التي لا تضاهى، ففضائل الحرمين الشريفين الله أعلم بها منا، والخلافة قدرها عند الله عظيم وثوابها عند الله جسيم وهي وراثة النبوءة، وقال ﷺ: "السلطان ظل الله في أرضه"، و"إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"، فطوبى لمن طوقه الله بطوقها وعرف مقدار حقها، وقام فيما أقامه فيه سيده على قدم اعتنائه، وأدى شكر سابغ نعمه تعالى وآلائه، ونظر لأمة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ بما ينظر به لرأسه ونفسه، وعمل ليومه، واعتبر بما جرى عليه في أمسه، ولاسيما إذا كانت الخلافة في بيتها من قريش. قال عليه الصلاة والسلام: " الخلافة في قريش وغيرهم متغلب"، و"قدِّموا قريشا ولا تقدموها"، و"الأمراء من قريش". ولما أن جرى بين المهاجرين والأنصار، رضوان الله على جميعهم، من الاجتهاد والكلام ما جرا يوم سقيفة بني ساعدة، وقال بعض الأنصار ممن لم يكن، والله أعلم، سمع هذه الأحاديث الشريفة وهو يخاطب المهاجرين: "منا أمير، ومنكم أمير"، فقال له سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " منا الأمراء، ومنكم الوزراء"، وقام خالد بن الوليد رضي الله عنه خطيبا وأجاد، أبدأ وأعاد،

وقال في آخر كلامه: "والله يا معشر الأنصار لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: " الخلافة في قريش" ما أبعدتها منكم، ولكنكم كذا ولكنكم كذا يتمنى عليهم". ولكن ذاك كلام حق، ولو بقي رجل واحد من قريش ما طمع فيها غيره، وأنت والحمد لله من علياء قريش نسبا وحسبا، فاحمد الله على تلك النعمة التي ألبسك جلبابها وفتح عليك بابها، ولاحظ ما في الخلافة من الخيرات العميمة والأيادي الجسيمة ، إذ بها تقام الحدود الشرعية وعليها تبنى الأحكام الدينية، وبها تصان أموال التجار وترغم أنوف الماردين من الفجار، وبها يستقيم الحج والجهاد، وبها ينتصف المظلوم من الظالم في سائر البلاد، وبها تأمن الرفاق في جميع الآفاق، ولله در القائل: لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل وكـان أضعفنـا نهبـا لأقـوانـا فمناصب الخلافة شريفة، ودرجاتها عند الله منيفة، ويكفيك من هذا ما وقع ليزيد مع أبيه معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد جاءه ذات يوم في وقت لم يكن يأتيه فيه وهو يبكي، فقال له: يا أبت، أعتق رقبتي من النار، فقال له: وبم يا يزيد؟ قال له: بلغني عن رسول الله ﷺ حديث وهو قوله: "من ولي من أمر هذه الأمة شيئا ثلاثة أيام فعدل فيها حرم الله جسده عن النار"، فازداد به أبوه غبطة، ووعده بمطلبه. ومن أنعم الله عليه بولاية الحرمين الشريفين فهو الذي يجب على من يحبه أن يهنئـه بما أنعم الله عليه، فهنيئا هنيئا لك بما خولك الله وأولاك، والواجب عليك أن تتعرف فضل الله ونعمه وتشكر كرمه، قال تعـالى: و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم: ‌، وقـد قـال رسول الله ﷺ: " فبروا النعم بالشكر"، وأنـت وإن كنـت والحمد لله من بيت العدل فقد ندب الله تعالى إلى التذكرة قال جل من قائل:

"﴿فَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾الذاريات: ، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الرعد: ، وإذا صدرت التذكرة ووقعت الموعظة والتبصرة من أهل بيت واحد كانت أوقع في النفوس. وقد أودع الله سبحانه قلوبنا من المحبة لدينك الحرمين الشريفين، والحمد لله ما لا يكيف (هكذا)، وجبلنا على الرحمة والشفقة على سكانهما بما لا يوصف، نرجو من الله أن نفوز بذلك يوم القيامة، ومع هذا فالرجل لا تتوق نفسه إلى مسألة يخاطب بها ولا إلى نصيحة يؤديها إلا إذا عرف من نفسه أنها خالصة لوجه الله الكريم، وعرف ممن يخاطبه بها أنه يقبلها. فإن النصيحة كالحكمة التي قال فيها رسول الله ﷺ: " لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم"، وأي فائدة وحكمة تكون أو تطلب ككلمة ينفع الله بها جمعا من المسلمين، وقد كنت قبل هذا في ولاية تلك الأماكن الشريفة، وسعدت بك وبأبيك من قبلك تلكم الأقطار كلها، إذ داركم دار الإمارة والمملكة والبركة يعرفها الناس قرباء أو بعداء بأسرهم، ويفدونها بأموالهم وأنفسهم، ثم كان من قدر الله ما كان، فأقمت سنين عديدة في غير أرضك ووطنك، وأصبحت مفارقا لأهلك وأولادك وسكنك، فليعتبر ابن عمنا بما فات عليه وليتذكر، قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ الحشر: 2 ، ووالله ما أنجزنا إليك هذه الرسالة إلا حيث علمنا وتحققنا أنها تنفعك، وتقع منك إن شاء الله كل موقع، ويحصل لنا الأجر والثواب من أجلها، ولو كان غيرك ما كانت تطيب أنفسنا مخاطبته بمثل هذا الخطاب، ووالله إلا كان ذلك الرجل ابن عمنا أحمد بن غالب هنالك وإن كنتما متساويين في النسبة الشريفة، فلم تسكن له أنفسنا، ولا

طابت بولايته خواطرنا، وإن كان هو يعرف حقنا، ولا يجهل قدرنا، ودائما كان يكاتبنا ويواصلنا، ويعمل الخير مع أبناء عمنا، ولقد كان ابن عمنا مولاي عمر بن هاشم رحمه الله أيام قدومه للحجاز تعارف معه، واصطحبا، وعمل معه خيرا كثيرا، ولما جاء من هنالك أعاد علينا جميع ما عمله معه من الخير، ومع ذلك فلم نجبه عن كتبه إلا بمجرد السلام والمواصلة، وقط ما خاطبناه بنصيحة ولا أدرنا معه كلاما بما هو زائد على السلام الواجب رده بين الأنام، وأما أنت والله كانت نفوسنا تميل إليك وتأنس بك. وعندما بلغ وفد الحجاج أول ما سألنا شيخ الركب الشيخ الحسيني عنك، فبشرنا برجوعك لبلدك ووطنك، وأخبرنا بعودتك لذلك الحرم الشريف بولاية عملك، ففرحنا بذلك فرحا كبيرا، وسررنا والله سرورا كثيرا، وحمدنا الله لكم وشكرناه وأثنينا عليه بما هو أهله، وطابت نفوسنا بولايتك وسكنت خواطرنا من جهتك، واستشرفت قلوبنا إلى تهنئتك، ففكرنا في قدوم الحاج لتلكم البلاد، فرأيناه يبطؤ علينا، وألقى الله في خلدنا هذا الكلام، وكتبنا به إليك. والله ثم والله ما شرعنا في كتبه لك إلا في اليوم الثالث من قدوم الحاج، واخترنا للسفارة هذا الرجل الذي يرد عليك به إن شاء الله، وهو ربي (هكذا) نعمنا وصيفنا الحاج أحمد لما عهدناه فيه من الفائدة والنجدة والصبر، وقد كان قبل هذا بالبلاد المشرقية وجال في تلكم الأقطار، وتردد ما بين حواضرها وبواديها سفيرا وساعيا بين تجارها وأعيانها نحوا من ثمانية عشر سنة، فهو يعرف تلكم النواحي كلها، ويصبر للطريق برا وبحرا، إلى ما يضاف إلى ذلك من مداخلته معنا وملازمته في غالب الأوقات لنا، فمن لدن رجع من المشرق وهو

متصل الخدمة بنا عارف بما لم يعرفه غيره من سيرنا، وهو واحد من الملازمين لأعتاب دارنا العلية بالله، فاخترناه لهذه المسألة من هذه الحيثية، وبادرنا لك بهذا الكتاب معه اعتناء بك وتأدية لنصحك، وأرجو الله تعالى أن يقع منك موقعا ننتفع نحن بثواب أداء النصيحة وتجار (هكذا) إن شاء الله عليها، وتنتفع أنت بقبول ذلك وبالعمل به، ويكون بحول الله وقوته سلما وسببا بيننا إلى مواصلة كبيرة واستدامة مودات كثيرة، ونجد معا بركة لذلك الحرم الشريف في أنفسنا وذريتنا. وقد أحببنا من الله ومنك يا ولد عمنا أن تحتزم (هكذا) لهذا الأمر، ولا تأخذك في الحق لومة لائم، وتكون على أهل الباطل فظا غليظا، وعلى المستضعفين والمساكين وأهل الخير شفيقا رفيقا، وتراعي الله عز وجل وحرمه ورسول الله ﷺ في حرمه، وأي حرمة كحرمة أمته وأهل شريعته وملته، ولا تدع فيه بوجه من الوجوه ملحدا ناظرا لقوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الحج: وقال رسول الله ﷺ: " أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومتطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه" ، وأن تحب الضعفاء والمساكين الواردين على تلكم المعالم والمشاهد بقلب شائق وحب صادق لقوله عليه الصلاة والسلام: " ابغوني (في) الضعفاء والمساكين؛ فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم" ، وأن تنصب من يوصل إليك حاجة الناس لقوله عليه الصلاة والسلام: "أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغ حاجته، فمن أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة"، وانصر الله ينصرك، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إن تّنصرِوٍا پلّهّ يّنصرٍكٍمّ ّيےيٍثّبٌتً أّقًدّامّكمٍ﴾ محمد: 7وتعرف أنك مسؤول عن رعيتك قال عليه السلام: "كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته"، وتحافظ على مصدوق (هكذا) قوله تعالى: ﴿پّذٌينّ إن مّكّنّاهمً فٌي الأّرًضٌ أّقّامٍوا پصّلاةّ ّيےآتّوٍا پزّكّاةّ ّيےأّمّرٍوا بٌالًمّعًرٍوفٌ ّيےنّهّوًا عّنٌ پمنكّرٌ ّيےلٌلّهٌ عّاقٌبّةٍ الأمٍورٌ﴾ الحج:. واخش واتق دعوة المظلوم؛ ففي الحديث الشريف: "اتقوا دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب"، وانظر لما أوصى به لقمان الحكيم ابنه حسبما أخبر الله تعالى عن حكايته، قال عز وجل: ﴿يّا بٍنّيّ أّقٌمٌ پصّلاةّ ّيےأًمٍرً بٌالًمّعًرٍوفٌ ّيےانًهّ عّنٌ پمنٍكّرٌ ّيےاصًبٌرً عّلّى" مّا أّصّابّكّ إنّ ذّلٌكّ مٌنً عّزًمٌ الأمٍورٌ ّيےلا تٍصّعٌرً خّدّكّ لٌلنّاسٌ ّيےلا تّمًشٌ فٌي الأّرًضٌ مّرّحْا إنّ پلّهّ لا يٍحٌبٍَ كٍلّ مخًتّالُ فّخورُ﴾ لقمان: . وصل رحمك فقد قال ﷺ: "صلة الرحم تزيد في العمر"، ولا يخفى على سيادتك ما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم في تلك الأماكن الشريفة، فاستقامت لهم الدنيا والدين، وصلحت بصلاح أحوالهم جميع أمور المسلمين، فالعدل حسن من جميع من ولاه الله من أمور أمة رسول الله ﷺ شيئا، وإذا كان من بيت النبوءة وجاء من بيت الطهارة كان أحسن، والعدل مطلوب ومستحسن في جميع الأقاليم وبقاع الأرض كلها، وإذا كان في الحرمين الشريفين كان أشد استحسانا وأكثر غبطة. فولاية نحو يوم وليلة في ذلك الحرم يعدل الإنسان فيهما أحب إلى من نوَّر الله بصيرته من كلما (هكذا) يهواه ويتمناه، فنحب منك أن تأخذ بطريق العدل والحزم وحسن التدبير في جميع أحوالك وتكون ضابطا محتزما (هكذا) في كلما (هكذا) هنالك، فما كتبناه لك إلا ثقة بأخوتك وحمية على مروءتك

وصحبة فيك واعتبارا بما فات عليك، والكيس من الناس من دان نفسه وقدم أمور دينه على أمور دنياه، وزهد فيما عند الناس رغبة فيما عند الله، والعاقل من نظر في العواقب فتدبرها، ونظر لما فات عليه من الأمور وتذكرها، ففي كلام الحكمة: تعاقب الأحفاد بما فعلته الأجداد، فلينظر أخونا وابن عمنا لنفسه وولده ويعمل بما يرضي ربه في بلده، فقد حملتنا محبة ذلك الحرم الشريف وإيثار ذلك الجناب الطاهر المنيف على تذكرتك ونصيحتك، وقد عودنا الله سبحانه التذكرة والنصيحة لجميع من عرفناه من المسلمين ووجدنا (الصفحة الأخيرة مبتورة)".

انتهى.

الرسالة: 54

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

من عبد الله إسماعيل المتوكل على الله المفوض أمره إلى الله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسني أيده الله أمين.

(الطابع الشريف)

إلى عظيم الروم، وملك أقاليم إسبانية وبلاد الهند والمتولي أمورها والمتصرف في أقطارها دون كارلوص. السلام على من اتبع الهدى أما بعد، فقد بلغنا كتابكم صحبة خديمكم دون مانويل بيردلون وخديمكم دون أبيل مسيح (علق الدكتور العمراني على هذين الاسمين وكتبهما بالحروف اللاتينية أما الأول فقال عنه الاسم الصحيح هو مانويل فييرا دي لوكو Manuel vieira Lugo وأما الثاني فهو Dou Abel Messia وهو الكتاب الذي وجهتم لنا جوابا عن كتابنا الذي هذا صدرناه لكم ووصلكم صحبة الفرايلي قبل هذا.

وبعد أن قراناه وفهمنا لفظه ومعناه وألقى إلينا خديمكم دون أبيل مسيح ما في خاطركم، وماطلبتموه منا من فك هذه المائة من النصارى الذين وقع الكلام فيهم قبل هذا، رددنا إليكم جواب كتابكم، ووجهناه مع خديم دارنا العلية بالله، كاتبنا ومتولي الأقرب من بساطنا السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير ولولا مزيتكم عندنا ومعرفتنا بمنصبكم ما سمحنا بفراق كاتبنا عن بساطنا لمهمات أمورنا.

وإذنا لخديمنا الأكبر الأعز الأشهر أبي الحسن علي بن عبد الله أن يبعث معه رجلا من أصحابه، فوجه خديمنا عبد السلام بن أحمد جسوس معاشرا له ومرافقا. وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الإسلام المظفر بالله على نصارى العرائش. وفي علمه وعلى باله كل ما كان في ذلك من الكلام والأسباب، وكيفية الخبر في ذلك فثقوا به وتعرفوا منه. فإنه حفظه ورعاه من أوله إلى آخره لملازمته لبساطنا العلي بالله في سائر أوقاته.

ونحن بلا شك كنا أعطينا القول لهذه المائة من النصارى بالصراح، ولكن وقع من النصارى ما اختل منهم من الأسباب ما يوجب عدم الوفاء لهم بذلك، فمنهم من كان ينادي بلفظ "مينا على رؤوسهم" ومنهم من لم يرض بخروجهم على ذلك، لذلك القول، وكاد يفتك بمن داخل إليهم من خدامنا فارا بنفسه حتى أدرك وقتل على الموج.

وحاجنا مع هذا كله كبار ملتنا، وعلماء شريعتنا وأئمة ديننا، بأن قالوا لنا : إن المسلمين كانوا أشرفوا على الغنيمة ساعتئذ، ووقع الغلب والظفر، ولم يبق للنصارى إلا الموت بالسيف أو بالغرق، فلا وجه لسراحهم في الشريعة رأسا، وكنا في هذه المدة نتراد الكلام مع هؤلاء العلماء حفظهم الله وقالوا لنا هؤلاء المائة يكونون أسارى ويسترقون من كل وجه. كيف وقد أخذوا العرائش من أول وهلة بلا موجب، بل أضغطوا الشيخ ابن السلطان الذهبي، وقبضوا عليه حتى أنفقوا عليه أموالا عديدة، ومسكوا أولاده بسببها حتى أعطاهم العرائش على ضغط منه، وعلى غير تأويل حقيقي في ذلك. وذكرونا في مسألة غدر أسلافهم بأهل

غرناطة وغيرهم بما يزيد على الأربعين ألفا بعد تعدي الشروط على ستين شرطا، ولم يفوا بواحد منها... إلى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الأندلس في كل بلد وقرية، فألفيناهم ما تكلموا إلا بالحق، وبقينا في حيرة من أجل هذه المسألة من وجهين :

الأول : لا نقدر أن نخالف شريعتنا التي هي أساس ديننا.

والوجه الثاني : ذلك القول الذي سمعه في تلك المائة أحببنا الوفاء به، وأنفت نفوسنا أن يسمع عنا الناس قلنا كلمة ولا نوفي بها، ولولا معارضة العلماء لنا بهذا الاحتجاج القوي، لكنا سرحنا هذه المائة من الفرايلي وأصحابه الذين أتوكم قبل هذا مسرحين. فلأجل هذا أبصرنا كلام علمائنا في هذه النازلة بد منه، ولا محيد عنه، وأحببنا أن يسمع الناس أنا وفينا في قولنا، ولم يلزم فيه حرج ولا معارضة، ولا كثرة اعتراض، ولم يلزم فيه من حجة الشرع إثم. فأردناكم تعلمون لنا وجه خلاص هذه المائة بالوجه الذي عملناه لكم، وأعطيناكم فسحة فيه، و إلا فالمائة المذكورة أرقاء أساري من جملة إخوانهم، وذلك أن تعطونا في الخمسين نصرانيا من هذه المائة، خمسة آلاف كتاب، مائة كتاب عن كل نصراني، من كتب الإسلام الصحيحة المختارة المثقفة في خزائنهم بإشبيلية وقرطبة وغرناطة، وما ولاها من مدن وقرى، حسبما يختارها خديمنا المذكور من المصاحف وغيرها. وتعطون خمسمائة أسير من المسلمين في الخمسين الأخرى. عشرة أساري لكل نصراني. وإن لم توجد الكتب التي هي مرادنا، فاجعلوا عوضها من أساري المسلمين وأعطوهم لنا من الأساري الذين في الأغربة وغيرهم. وقبلنا منكم في

العدد المذكور الرجل والمرأة والصبي الصغير أو الكبير، والشيخ المسن، من إيالتنا وغيرها، إذ ما لنا قصد إلا في الأجر والثواب في فكاك أسرى المسلمين كيفما كانوا ومن أي بلد كانوا. وإلا فالاعتناء الكلي إنما يكون بأهل الدواوين من الجند أو العلماء حملة الشريعة، وعامة المسلمين إنما نقصد بفكاكهم وجه الله تعالى. فإن أنتم سارعتم لهذه المسألة فما عملكم إلا الخير في أرواحكم، وفي إخوانكم، وإن ثقل عليكم هذا الأمر ولم تقدروا عليه فأرجعوا خديمنا الكاتب الذي وجهناه إليكم في أمان الله كما أتاكم والمائة من النصارى نصيرهم من جملة الأساري إخوانهم يخدمون مثلهم. وإذا نحن أبصرنا منكم المصارعة لأغراضنا، والجد في ابتغاء مرضاتنا، وأنجزتم بأرواحكم في هذه المسألة، فلا ترون منا إلا ما يعجبكم، وحتى باقي نصاراكم الذين هم عندنا من أصحاب العرائش وغيرها من غير هذه المائة نعمل لكم الكلام في سراحهم بما يرضينا فيهم عندكم أن عملتم الواجب الذي لنا عليكم، وتعرفتم الصواب الذي تعين عليكم كما ذكرتم في كتابكم.

وبرجوع خديمنا حامله بما ذكرناه في هذه المسألة، تتلقاه هذه المائة نصراني بسبتة ويكون ملتقى الجميع فيها، ولا عندنا معكم في هذا إلا الجد الصحيح، والعمل الصريح بحول الله تعالى.

وكتب لسادس عشر ذي الحجة الحرام خاتم عام واحد ومائة وألف (1690.9.20).

الرسالة: 55

ومما كتب به مولانا اسماعيل إلى قائده عبد الله بن حمدون الروسي:

سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وأصلح الله رأيك وسهل الله علينا في فتح العرائش، وجعله على يديك، واعلم أنك عندي ممن لم يتهم في خدمتنا، ومن أنصح الناس إلينا، وتحب الخير إلينا أكثر من جميع الناس، وليس عندي في خدامي مثلك، ولا أعز منك كما تعلم مني ما ذكرته لك. ثم الآن ظهر لي أنك غير ناصح لدين الإسلام حيث وجهتك الى فتح العرائش ولم تقم بالواجب الذي عينته عليك.

ويجب على من ولاه من ولاه الله أمر المسلمين متلنا إذا ولي أميرا على القتال أن يكون من أهل النجدة في القتال، ومن أهل المحبة في نصر دين الإسلام ومحو دين الكفار.

فاخترناك عن غيرك ووجهناك لذلك لظننا أن فيك ما وصفناه لك، والآن خاب المظنون فيما نوبناه فيك، والله هو حسبي وحسبك ونعم الوكيل. وإن اردت ان نقدم عليكم بنفسي وما يكون ما ينوب المسلمين من الكلفة أنت المتحمل بإثمه فأنا فاعل ذلك، وليس أنا أفضل ممن فعل ذلك قبلي ولا أنت أفضل من سيف الدولة ولا أبي فراس وابن حمدان الذين قاموا بما وجهناك إليه عند غيرنا. في 13 من ذي القعدة عام 1100.

فلما قرأ الروسي هذا الكتاب بكى وقال هو وصفني بما ذكر في خدمته لم يسألني لأن ذلك من فعل الخلفاء لأمرائهم، وحيت وصفني بعدم النصح للإسلام

أخدت في نفسي عليه. ثم تقلد سيفه وما نزعه حتى فتحت، واشتد في القتال ليلا ونهارا وما نام ليلة إلى أن فتحت. انتهى.

الرسالة: 56

رسالة من السلطان مولاي إسماعيل إلى فليب الخامس ملك إسبانيا يطلب منه فيها تحرير أسير جزائري

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لارب غيره، ولا معبود بالحق سواه

عن الأمر العلي بالله المؤيدي المنصوري السلطاني الإمامي العلوي (الطابع السلطاني بداخله)

أسماعيل بن الشريف الحسني أيده الله)

(وبدائرته أنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

أيده الله ونصره، وظفر بيمنه جنوده وعساكره آمين، يارب العلمين

إلى طاغية قشتاله، اليون، راغون، نباره، ميورقة، منورقة، الأندلسية العليا والسفلا وغيرها فليب كينط.

سلام على من اتبع الهدى

أما بعد فقد ورد لمقامنا العلي بالله رجل مسكين من أهل جزائر مزغنة، وتلاقينا معه في يوم عيدنا المبارك القريب من التاريخ، وذكر لنا بأن ولده اسمه محمد بن صوفه أسير عندك في إيالتك إسبانية، وهو الآن في الغراب المسمى قباطنه واستحيينا منه لكبر سنه ولغربته في بلادنا وقصده إلينا، فنادينا على النصارى الفرايلية الاسبنيول الذين عندنا، وتكلمنا معهم في شأن ولد هذا الرجل

المذكور، فقالوا لنا إنهم لاقدرة لهم على تسريحه إلا بإذنك وبمشورتك، فلذلك كتبنا لك هذا الكتاب الكريم أسماه الله لتسرحه لنا بعد أن عينا نصرانيا واحدا من جنس الإسبنيول اسمه منويل ابانيس ووجهناه لمدينة تطوان يجلس بها أن يقدم المسلم الأسير محمد بن صوفه المذكور ونسرحه حتى هو بحول الله وقوته، وكذالك نقضوا لك جميع مايعرض لك من الأغراض الجائرات في إيالتنا المباركة إن شاء الله تعالى بتوفيقه، وقد سرحنا قبل اليوم واحدا من النصارى الفرايلية كان أسيرا عندنا أطلقناه في يد النصارى الأسرى، واليوم رأيناهم قصروا في ذلك ولم يمدوا أيديهم في الكلام فيهم معنا، فأظنهم لاإذن لهم من قبلك، فإذا أعطيتهم الإذن فما نعمل لهم إلا غرضهم على عادتنا المباركة معهم

والسلام على من اتبع الهدى

وكتب في السادس والعشرين من ربيع الأول النبوي المفضل الشريف عام ثمانية وعشرين ومائة وألف.

الرسالة: 57

رسالة السلطان مولاي إسماعيل الى فليب الخامس ملك اسبانيا تتعلق بمعاملة الاسبانيين ليهودي من خدام السلطان

الحمد لله وحده ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم

عن الأمر العلي بالله تعالى، المؤيد المنصور الهاشمي أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الشريف الحسني

أيده الله ونصره، وظفر بمنه وكرمه جنوده المباركة وعساكره، آمين.

إلى فليب كينط طاغية قشتالة، واليون، وراغون، وبسكاية، وغليسية والأندلسية الشرقية والغربية، والهند، وغير ذالك مما منسوب لإيالتك

سلام على من اتبع الهدى، وعمل بمقتضاه ثم اهتدى

أما بعد، فلتعلم وأن قبل هذه الساعة بأيام قليلة كنا أرسلنا لمدينة قالص يهوديا من اليهود الذين يتسخرون لنا في مقتضيات الأمور الدنيوية ليقضي لنا بعض الأغراض بها، واسمه سيمون ضلضان، ومعه ستة من اليهود يخدمونه، وبيده كتابنا الأسمى مكتوب لخديمك المتولي أمر الكلام على يدك في مدينة قالص، ونحن نذكر له فيه بأن يترك اليهودي المذكور يتمشى بعض أيام محدود مقدار مايقضي أغراضنا المباركة فيها، ظننا أن هذا أمر خفيف وليس فيه تصعيب ولاتعنيف، ثم إنه ظهر لنا بما صدر منه أن لاقدرة له بذلك، ولو كانت له القدرة لفعل وإنما ذالك تعلقا من ديوان آخر يسمى عندكم بالإنكسسيون، فلذاك كتبنا

لك, لأنك مالك، وكل شيء ولابد فمرجوعه إليك هنالك، وأما قول أهل ديوان الإنكسسيون إن الإنسان إذا اختار لنفسه دينه لاتفسده له العقائد الحادثة، مع أنهم إذا كان ولابد من ذالك فيعينون لهم رجلا عاقلا من أهل ديوانهم المذكور، ويصحبهم ويلازمهم في طريقهم ولا يتكلمون مع أحد من العامة في أمور دينهم، كما هي عادتهم معهم، أو ما علمت أن في إيالتنا المباركة عندنا من النصارى الفرايلية الكنائس والأماكين الذين يكفرون فيهم على عادتهم بأصنامهم وصلبانهم، وجميع مايحتاجونه في كنائسهم وذالك كله مكروه عندنا في ديننا، وأجزنا لهم ذالك لأجل ماتقدم لأسلافكم من حسن المخاطبة معنا، ولهذا نحب منك المكافات في أن تأذن للذمي المذكور يدخل مدينة قالص ويستقر فيها نحو شهرين أو ثلاثة حتى يقضي مآربنا بها من غير متعرض له في ذالك، وكل مايعرض لك من الأغراض الجائزة في إيالتنا السعيدة يقضى لك عندنا بحول الله وقوته انتهى.

وكتب في عشرين من محرم الحرام فاتح عام تسعة وعشرين ومائة وألف.

الرسالة: 58

الحمد لله وحده

ولا حول ولا قوة إلى بالله العلي العظيم،

لا رب غيره ولا معبود سواه.

من عبد الله المتوكل على الله المفوض أمره إلى مولاه الغني به عمن سواه أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين.

(الطابع)

أيده الله بعزيز نصره وأمده بمعونته ويسره وخلد في الصالحات شريف مناقبه وجميل ذكره آمين يا رب العالمين، إلى طاغية الإنجليز القاطن ببلاد الفرنسيين يعقوب المسمى بلسانهم جيمس سلام على من اتبع الهدى وتجنب سبيل الغي والردى وآمن بالله ورسوله ثم اهتدى، أما بعد فإنا كتبناه إليك بهذا الخطاب لمسألتين اثنتين إحداهما دينية والأخرى سياسية دنيوية وموجب إيرادهما عليك التنبيه لك والإيقاظ والنصح والإرشاد وذلك أن أخاك الذي كان ملكا على الإنجليز من قبلك كان عرف لنا من الحق ما عرف وتقرر عنده من لدنا ما لهذا الدين الشريف على غيره من الشفوف والشرف فكان من أجل ذلك يطلب منها المهادنة على طنجة، فبعث لمقامنا العلي بالله من أصحابه وخدامه المرة الأولى والثانية من بعث[1] انافة بمحلنا وتنويها بشرف مكاننا، وكانت المواصلة بين

[1] يعني الكولونيل كريك وكان ذلك سنة 1681.

الملوك والمراسلة مستتة ومشروعة وإن اختلف اللسان وتباينت الأديان، فجازيناه على فعله وكافيناه على شغله ووجهنا له من خدامنا الباشادور، وصل إليه وقدم عليه، كما شاهدته ورأيته. ففرح بسفيرنا وأكرمه إكراما كثيرا وسر به وبمقدمه سرورا كبيرا ورجع من عنده مغبوطا مسرورا فلم نزل نراعي له ذلك ووفينا له في جميع ما كنا عملنا معه في طنجة. ولم نرد البال إلى شيء مما كان يعمله بها حين أراد الرحيل عنها وكان ينقل خزائنها ومدافعها، وسكانها وأهل جوارها من المسلمين يرون ذلك وينهونه إلينا ويقصون ما يشاهدون علينا وما ألقينا إليه في ذلك البال ولا التفتنا إليه بحال من الأحوال وما ذلك إلا مكافأة له على صنيعه مع سفيرنا ووفاء بالقول الذي كان طلبه منا. ووددنا أن لو كان أخوك بقي حيا إلى أن يشاهد صنع الله الذي صنعه لنا في فتح العرائش من يد الصبنيول، ويرى محاصرة سبتة اليوم وما كان أهلها يصرفونه عليها من الأموال وما كان يلزمهم في مؤنتها من ملايين الريال لتحقق وفاءنا له وغضنا الطرف عنه وعلم أن القول والعهد الذي أعطيناه لم ننقص شيئا منه. فالصواب الذي كان من أخيك والحق الذي كان يعرفه لنا هو سبب الكتب إليك مكافأة على صنيعه وهو الذي أوجب مكاتبتك بهذه المراسلة لنعرض عليك فيها الأمرين المذكورين أول الكتاب. فأما الدينية منهما ففيهما خير الدنيا والآخرة لما فيها من رشادك ونصحك إن وفقك الله تعالى وذلك أن تعلم أن الله سبحانه جل جلاله وتقدست صفاته وأسماؤه إنما خلق هذا الخلق ليعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئا قال الله سبحانه «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو

الرزاق ذو القوة المتين». وهذه العبادة التي أوجب الله على خلقه لابد لها من وسائط يبلغون عن الله لخلقه، ما أمرهم به. ومن رحمته بخلقه ورأفته بهم أن جعل لهم وسائط بينهم وبينه من جنسهم أرسلهم إليهم من أنفسهم واختارهم من أنفسهم، فبعث لهم رسلا يبلغونهم عن الله ما جاءوا به من عنده، فآمن بهم من أراد الله سعادته، وكفر به من كتب شقاوته. وختمهم بخاتم أنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيئين وسيد المرسلين وجعل دينه خير الأديان وشريعته أفضل الشرائع، وملته خير الملل. ولقد بشر به وبمبعثه عيسى كما بشر بعيسى موسى بن عمران على نبينا وعليهما وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام. ونبينا عليه السلام وإن كان آخر الأنبياء كلهم يجب الإيمان بهم فلا نفرق بين أحد منهم وأن المسيح بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام هو أحد الرسل الذين جاءوا عن الله، من غير ادعاء مما تدعون ولا اطراء مما تطرون. قال الله تعالى في حق أمه الصديقة: «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتابه وكانت من القانتين»، وقال تعالى في حقه «إن مثل عيسى عند الله كمثل لآدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» وقال تعالى: «إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلا لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله، ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا»، ومن المعتقد أن المسيح رفعه الله إليه وأن اليهود لعنهم

الله ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وانه ينزل بين يدي الساعة فيجد المهدي من هذه الأمة من ولد فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم يقاتل الدجال ويجده قد أقيمت عليه الصلاة فيقول له تقدم يا نبي الله، أو يا روح الله، فيقول عليه السلام عليك أقيمت فيصلي خلف رجل من أمة نبينا صلى الله عليه وسلم ويحكم بشريعته ويقتل الدجال فينكره النصارى ويقتلهم ويقتل اليهود حتى يكلمه الحجر، ويقول يا نبي الله هذا يهودي وراءي فاقتله. وقد أخبرنا بهذا كله نبينا صلى الله عليه وسلم، بقوله والذي نفس محمد بيده ليوشكن أن ينزل فيكم المسيح بن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، ولا يقبل إلا الإسلام. وهو معدود في أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم. وقد عرف هذا جماعة من أعلام النصارى وملوكهم الذين هداهم الله ومن عليهم باتباعه كالنجاشي ملك الحبشة حتى عد من الصحابة وصلى عليه بينا صلى الله عليه وسلم يوم مات، وهو بأرض الحبشة. وهو أحد من خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم، ودعاه إلى الإسلام، كما خاطب قيصر ملك الروم جد هذا الملك الذي لجأت اليوم إليه، وأنت مقيم لديه. ولقد كتب إليه يدعوه إلى الإسلام فلما قرأ كتابه ودعاه وكان عنده من العلم المكنون ما عنده، سأل من حضره من العرب عن صفاته وأحواله وسيرته وما يدعو إليه وما يأمر به وما ينهى عنه، فقال انه المنتظر الذي بشر به عيسى وسيملك في اتباعه فضجوا وحاصوا حيصة الحمر الوحشية موضع قدمي هاتين. وشاور أرباب دولته وأهل ملته فساعفهم وساعدهم، فخلا بملكه. وحين بلغ خبره نبينا صلى الله عليه وسلم قال ضن اللئيم

بملكه. فلقد رسخت في قلبه معرفة هذا الدين وفضله على سائر الأديان لكنه لم يسمح بملكه. وبكل حال من الأحوال فهذا الدين الحنيفي هو الذي اختاره الله دينا وارتضى له نبيا أمينا وجعله أفضل الأديان، قال الله سبحانه في محكم القرآن: «إن الدين عند الله الإسلام» وقال تعالى: «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين». فمن أمعن النظر واستعمل الفكر ووزن الأديان بميزان الحق والعقل عرف أن دين الإسلام هو الدين وأن غيره كله لعب وعبث، من لدن بعث الله نبينا الذي ختم به الأنبياء، وتقرر لديه أنها كلها باطلة وأهلها النار. ولقد وقع اختيار الأديان، وأيهم أفضل لبعض عقلاء النصارى وقد نظر فيما عليه المسلمون، وفيما عليه النصارى، وفيما عليه اليهود، فأراد أن يختبرهم من جهة المعقول فأتى نصرانيا وقال له أي الأديان أفضل، دين النصارى أو دين اليهود أو دين المسلمين؟ فقال له النصراني دين النصارى أفضل فقال له وأي الدينين أفضل: دين اليهود أو دين المسلمين؟ فقال له النصراني دين المسلمين. فأتى اليهودي وقال له أي الأديان أفضل دين المسلمين أو دين النصارى أو دين اليهود؟ فقال له دين اليهود، فقال له وأيهما أحسن أدين النصارى أم دين المسلمين؟ فقال له دين المسلمين. فأتى المسلم وقال له أي الأديان أفضل؟ فقال له دين المسلمين، فقال له وأي الديني أفضل: أيدن اليهود أو دين النصارى؟ فقال له لا خير فيهما معا، فالدين القويم هو دين المسلمين. فعرف هذا النصراني المذكور بعقله أن الدين هو دين الإسلام وأن ما سواه محض ضلال وأن اليهود والنصارى ليسوا على شيء. وقد وقع معنى هذا في كتابنا، قال الله تعالى: «وقالت اليهود

ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء، وهم يتلون الكتاب». وها نحن قد أملينا عليك نبذة من الآي القرآنية والأحاديث النبوية والدلائل المعقولية المطبقة على أفضلية الدين القويم. وغيره كله إنما هو في سواء الجحيم وأنت إن خممت[1] مع رأسك وفكرت في نفسك واخترت الدار الآخرة على الدنيا ودخول الجنة على النار فأنت عرفت سبيلهما فاتبع هذا الدين الحنيفي وانطق بالشهادتين فإن من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل الجنة ولو قالها مرة في عمره. ويدخلها بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم، فإن له في أهل الكبائر والجرائم والذين نفذ الوعيد فيهم شفاعة عظمى، خصه بها ربه في الموقف العظيم. ووالله إن أنت اعتقدت هذا الاعتقاد ووفقك الله إليه وعملت ما عمله قيصر من اعتقاده بقلبه وتيقنه به في نفسه حتى تحمد ذلك حالا ومثالا إن شاء الله. فهذه المسألة الدينية التي نصحناك بها، والمسألة الدنيوية هي إذا أنت أحببت الإبقاء على دين الكفر فدين قومك الإنجليز أخف وأيسر عليك من عبادة الصليب ومتابعة الذين يجعلون لله الولد وينزهون عنه رهبانهم. وأي شيء رأيت في تغريبك عن وطنك وبعدك عن ولدك وخروجك عن ملة أبيك وجدك وتدينك بدين غير قومك؟ وإن كان الجميع على ضلال فدينكم أنتم معشر «الريكس» أيسر من أولئكم المتوغلين في الكفر. وحتى امرأتك الفرنسية التي كانت تحوزك على التعبد بدينها، ها أنت الآن افترقت معها. فعلى ماذا أنت باق في جوار الفرنسيس، تارك ملتك وادع ملك أبيك وأخيك لغيرك راض «بالافلامك» يتملك

---

[1] يريد «خممت» أي فكرت، وهو استعمال عامتنا.

حلى جنسك وانت بالحياة. فوالله ما أحببنا لداركم ولا لمملكتكم يتولى رياستها «الفلامك» أو غيره. فالغ عنك ما تقدم بينك وبين قومك فإن الصواب معهم في الإنكار عليك بسبب الدين الذي اختلفت معهم فيه، واعتذر وعادوهم وراجعهم. ووالله لولا أنا أناس عرب لا معرفة لنا بالبحر أو كان عندنا من يحسن معرفته أو نستوفق به في الجيش نطلقه في يده، حتى نكاتب الإنجليز ونبعث لك من الجيش ما تدخل به عليهم وتتولى به ملكك. ولكن مسألة واحدة نعرفك إياها فحاول حتى تتصل من بلاد الفرنسيس واقصد لشبونة بلاد البرتغال. وها زوجة أخيك البرتغالية اليوم هنالك، ولقد كان لها عند أهل ديوانكم وجه وكلام. ومن هنالك تقرب المسافة بينك وبين قومك وتسهل عليك مناولة الكلام معهم، لكن بحيث لا يكون للافرنسيس بك شعور. وأما إذا عرفوا منك ذلك فلا يتركونك ولا يطلقونك لمسألتين، إحداهما لا يريدونك تترك دينهم وترجع إلى دين قومك والثانية يخافون أنك إذا راجعت قومك ربما تعاديهم وتحاربهم، ولاسيما حيث عرفتهم وعرفت غرة بلادهم، والملوك دائما تحذر من مثل هذا. وقد نصحناك وأريناك ما يليق بك في دينك ودنياك، ووالله ما نكره لك الهداية والرشاد. وقد بلغنا أنك تروم الوصول إلى روما، فإياك وأن تحدث نفسك بشيء من ذلك فإنك إذا دخلتها تحتل بها، ولا تطمع في الخروج منها، ولا في ملك بعدها أبدا. فعلى كل حال إن أنت راجعت قومك ودينك نجدد ما كان بيننا وبين أخيك. ووالله مازال خديمنا الذي كان عنده يذكر لنا من صوابه وخبره ما أوجب مكاتبتنا لك بنصحنا إياك. وقد أحببنا

أن تكون المودة والمراسلة بيننا وبينك، فتتنفع بها على كل حال إن شاء الله والسلام على من اتبع الهدى، وكتب في النصف من شعبان المبارك عام تسعة مائة وألف.

الرسالة: 59

وجه السلطان مولاي إسماعيل رسالة إلى المرابطين أولاد سيدي عبد الله الحجام على إثر تصرفهم الغير اللائق نحو الضريح الإدريسي ونحو حفدة المولى إدريس ونصه:

» الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه. »

الطابع السلطاني.

إلى المرابطين أولاد سيدي عبد الله الحجام.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فالذي أرشدكم إليه وأحضكم عليه وألزمكم بسلوك سبيله وطريقه، شفقة عليكم ورأفة بكم، ونصيحة لكبيركم وصغيركم، هو أن تقفوا عند حدكم، وتعرفوا قدر أرواحكم وقدر من جاورتم، وجعلكم الله تحت كنفه، وأسكنكم فضلا منه قريبا من ضريحه، وصيركم مجاورين له، هو السيد الكامل، إنسان عين المغرب، ومؤسس قواعد الدين فيه، سيدي مولاي إدريس الأكبر نفعنا الله ببركاته، وأفاض علينا وعليكم من أسراره ونفحاته، ولقد أراكم تكثرون اللغط، والقيل والقال والزيادة والنقصان، حذوه وقريبا منه وفي جواره، وتشتغلون بالمشاحنة و المنافسة و المشاجرة و الضد مع الشرفاء حجيته والقائمين على مصالح خدمته، وذلك لا يليق بكم ولا يجمل منكم، ولا يرضاه لكم عاقل ولا يقبله منكم أحد. فأنتم وإن بلغتم ما عسى أن تبلغوا لا يمكن لكم ولا يحسن بكم إلا الصبر وخفض الجناح

والإنقياد لمن تولى حجابة ذلك الضريح الشريف، الطاهر المنيف، ولو تولاها عبد حبشي، فأحرى الشرفاء المحسوبون عليه، والراجعون في عمود نسبهم إليه. فالمشاحنة معهم لا تحمد منكم بوجه من الوجوه، وعلى كل حال اللغط والزيادة والنقصان بقرب ذلك الضريح المبارك لا أقبله ولا أرضاه ولا أصبر فيه لأحد، ولقد أوحى الله سبحانه إلى عبده، وسيد خلقه، مخاطبا لهذه الأمة : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون» وصاحب ذلك الضريح الشريف قد عرفتم قربه من المصطفى، وعرف قدرَه كل مسلم مومن موحد من المشرق والمغرب، فتعظيمه وتوقيره وإجلاله واحترام جانبه وغض الأصوات عنده والتلطف معه ولين الجانب لمن أدلى إليه بنسب أو سبب، فتعيَّن عليكم وعلى غيركم. فإذا أحببتم العافية لأرواحكم والخير لأنفسكم دنيا وأخرى فلا تجهلوا لذلك المقام قدرا، ولا تؤذوه برفع أصواتكم، ولا بكثرة لغطكم وزياداتكم ونقصانكم، وتأدبوا معه الأدب الذي ينفعكم ويراد منكم، فإنا والله لا نتجاوز عمن يؤذي ذلك الجانب برفع كلمة، بل ولا نفس من الأنفاس إن أطلعنا الله عليه، فردوا البال لأرواحكم، وتوبوا إلى الله من تلويث ذلك المقام الشريفي الإدريسي بما ينقصه أو يغض من قدره عند العامة العمياء، فوالله لو كان قصارى هذا الشنآن، وهذا الشيء الذي أنتم تحاولونه، وتخوضون فيه وتكثرون الكلام في شأنه، مقتصرا علينا وعلى إخواننا حتى نتعامى عنكم ونصبر لكم فيه، ولاكن خشينا أن تتمادى إذايتكم حتى يبلغ حالها إلى الإخلال بشيء من واجبي نور هذا المغرب

ومصباحه وأصل خيره الأبدي السرمدي وعزه الدنيوي والأخروي سيدي مولاي إدريس جعلنا الله في حماه، وإذا بلغت إذايتكم إلى ذلك المقام وصبر لكم فيما يخاف ويخشى على هذا المغرب كله من غير اختصاص بكم مما هو أعظم من شهواتكم وغاياتكم ومراداتكم نسأل الله السلامة والعافية.

وقد أرشدناكم وبصرناكم وبشرناكم، وحذرناكم وأنذرناكم، وبيّنا لكم الحق والصواب، فزيدوا أو انقصوا، وكثروا أو أقلّوا، فأنتم أخبر بأرواحكم، والسـلام.

في مهل شهر الله المحرم الحرام عام أربعة ومائة بعد ألف.»

الرسالة: 60

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

النصر والإقبال، وبلوغ الآمال.

إسماعيل بن الشريف الحسني. رعاه الله.

كتابنا هذا، أعزه الله، بيد محبنا الفقيه الأرشد، العلامة المتفنن، السيد أحمد ابن الحاج. ويعلم منه، بحول الله وقوته، أنا أبقيناه على كراسيه المعروفة له بمحروسة فاس، يدرس بها وينتفع بها وبأحباسها، بلا منازع له ولا مزاحم أبدا. لابد. وحسب الواقف عليه العمل بمقتضاه، ولايخالفه ولايتعداه، ولابد. والسلام.

وفي الثالث عشر من ربيع الأول النبوي المفضل، عام خمسة ومئة وألف.

الرسالة: 61

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

النصر والإقبال، وبلوغ الآمال.

إسماعيل بن الشريف الحسني. رعاه الله.

الفقيه الأجل، السيد محمد، ابن المقدس المرحوم بكرم الله، سبحانه، السيد أحمد ابن الحاج.

سلام عليك، ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فعظم الله أجرك في والدك، رحمه الله، بمنه. فلقد أخبرنا بموته الفقيه العلامة السيد سعيد العميري، وأشار علينا بولاية خطة القضاء التي كانت بيد والدك، للفقيه السيد الحسن ابن رحال، وأمرنا بذلك، فأخبرنا خديمنا الأعز الأقرب الأحظى، القائد عبد الله الروسي أنك رجل فقيه، ذو ديانة ومسكنة ومروءة، وانك تليق وتصلح لتلك الخطة، وهو أعرف بكم منا، فها نحن وليناك على بركة الله تعالى، خطة القضاء بالمدينة البيضاء، وأسندنا إليك أجرها، فاجتهد واحتزم، وقف على ساق الجد والاجتهاد، فيما ولاك الله سبحانه على أيدينا، ولازم القراءة والتدريس، وإياك والتراخي أو التغافل أو الكسل. وها نحن وراء ظهرك، نشد أزرك، ونخبر أمرك. والله يعينك بمنه. آمين. والسلام.

وكتب رابع ربيع النبوي المفضل، عام تسعة ومئة وألف.

الرسالة: 62

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

النصر والإقبال، وبلوغ الآمال.

إسماعيل بن الشريف الحسني. رعاه الله.

إلى الفقيه القاضي السيد محمد بن أحمد ابن الحاج. سلام عليك ورحمة الله وبركاته. وبعد: فاعلم أن محبنا الفقيه النبيه الفرضي الحيسوبي، السيد محمد بن بلقاسم عليلش الحضرمي، حين ورد على مقامنا العلي بالله، من عندكم من فاس، ذكر لنا الفقيه القاضي السيد العربي بردلة، ذكرك له بخير، وارتضاك لتلك الخطة التي أنت بها، وحتى محبنا الفقيه المذكور، شكر لك سيرتك، وأثنى لنا عنك خيرا، وقاله فيك.

وأنت دم على ما أنت عليه، فها نحن أقررناك على خطتك تلك، وأبقيناك بها، فاجتهد في القراءة واشتغل بها، واعرف قدر تلك الخطة، وراقب الله سبحانه في سرك وعلانيتك. والله يعينك ويسددك.

وأنت نأمرك، مؤكدا عليك، أن تقف معه، وفوق الجد والحزم فيما وجهناه له، ولا تقصر على إعانته على هذا الوظيف الديني الذي كلفناه به.

الرسالة: 63

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

النصر والإقبال، وبلوغ الآمال.

إسماعيل بن الشريف الحسني. رعاه الله.

كتابنا هذا، أسماه الله وأعز أمره، بيد حامله الفقيه النزيه الخير الوجيه الأرشد، السيد عبد الرحمان، ابن الفقيه العلامة الأفضل، القاضي الأعدل، السيد محمد، ابن العلامة الهمام البركة القاضي الأعدل، شيخ الجماعة، أبو العباس، سيدي أحمد ابن الحاج، نفع الله به، وقدس روحه في فراديس الجنان، آمين.

يتعرف منه بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركاته، أننا نفذنا له جميع ما كان بيد والده وجده المذكورين، من الأحباس والأوقاف، والإمامة بمسجد جامع النارنجة، من حومة البليدة، من حضرة فاس، أمنها الله، والتدريس بكراسي مدرستي العطارين والمصباحية، وكرسي سيدي البخاري، نفع الله به، بجامع القرويين، بظهر خصة العين، المحبس عليهم وعلى عقبهم وعقب عقبهم، حكم شرط المحبس، فإن لفظ المحبس كلفظ الشارع.

أنعمنا عليه بجميع ذلك، يستبد من مستفاد خراجه الموقوف عليه، على الحالة التي كان بيد والده وجده، من غير منازع في ذلك، ولا معارض ولا مزاحم. والواقف عليه من النظار والقباط، وولاة أمرنا، يعمل به ولا يتعد(اه إلى غيره).

كما أسبلنا على الفقيه المذكور، ومن انضاف إليه من ولديه وولدي أخيه، أردية التوقير والاحترام، والرعي الجميل المستدام، والحمل على كاهل المبرة والإكرام، فلا تخرق عليهم عادة، ولا يحدث لديهم أمر ولانقص ولا زيادة، فإننا تابعين في ذلك أمر الله، في قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان، ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء.﴾ والله سبحانه يوفقنا وإياهم لما فيه رضاه، ويصلح أحوالنا وأحوالهم،آمين. والسلام.

أوائل جمادى الأولى عام ثلاثة وثلاثين ومئة وألف.

الرسالة: 64

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

النصر والإقبال، وبلوغ الآمال.

إسماعيل بن الشريف الحسني. رعاه الله.

كتابنا هذا، أسماه الله وأعز أمره، بيد ماسكه الفقيه الأجل، الزكي الأحفل، السيد عبد الرحمان، نجل العلامة الهمام الأفضل، القاضي الأعدل، أبي البركات، أحمد ابن الحاج.

يتعرف منه، بحول الله وقوته، أنا أنعمنا عليه وعلى عمه الفقيه الأرشد، السيد الحاج العربي، الغائب الآن ببلاد السودان، بما ادعي على العم المذكور، من أن تحت يده وفي حوزه، لصاحبنا وكاتب خديمنا الباشا غازي، وبيد الكاتب السيد أحمد أكايز الكرفطي، وأن الكاتب المذكور، كان أبضع عند العم المذكور، حين كان مصاحبا له بتوات أمانة، ما ينيف على الأربع مئة مثقالا زلفه، كان شاركه بها شركة الفرائض، وهي بذمته عدا إلى الآن. وحين أنهى الأمر إلينا خديمنا ساقصح المذكور، بعد وفاة الكاتب المذكور، طلبنا العم المذكور، وبحثناه عن ذلك، فأنكر ذلك، وأنه ليس له شعور به، فرفعناه إلى الشرع، مع خديمنا القائد الأنصح، القائد عبد الله الروسي، بزجبا أثمان على الفقيه المذكور، فصالحه خديمنا القائد المذكور، بأن قبض منه شطر العدة المذكورة.

وعند ذلك، تذكرنا محبة والده فينا، وعلمه وورعه وزهده، نفعنا الله ببركاته، أسقطنا على العم المذكور، وحامله ولد أخيه الفقيه المذكور، ما بقي من العدة المذكورة، إسقاطا كليا أبديا سرمديا، لوجه الله تعالى، ومحبة في العلم وذويه. وأبرأناهما من الدعوة المذكورة، بالإبراء التام، المطلق العام، الذي لاتعقب بعده ولا قيام، بحيث لا يطالبون به ولا لحد منهم، بسبب من ورثة الكاتب المذكور، لأن ذلك من حق بيت المال، عمره الله، بأن الكاتب المذكور لا مال له تأثله من أب أو أم. وإنما ذلك بولايتنا، والانحياش إلينا، وعلى المسلمين. ومن طالبهما بشيء من ذلك، فلا يلومن إلا نفسه. والله يتقبل منا صالح الأعمال. آمين. والسلام.

أوائل الحجة الحرام، من عام ستة وثلاثين ومئة وألف.

الرسالة: 65

وكتب لأبي العباس أحمد الخضر آل الولي الاشهر سيدي مغيث دفين مكناسة الزيتون بما لفضه:

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه تسليما عن الامر العلي الامامي المؤيد المنصور الاسماعيلي أمير المومنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسني وبداخل طابعه إسماعيل بن الشريف الحسني الله له صدر هذا الظهير الزعيم والامر المطاع الجسيم وهو الذي أعلن لماسكه بالرتبة المخصوصة بالتنويه وشيد للمعتمد على الله وعلى مباني الاجتباء والتنويه من الاعتناء الامامي السلطاني الاسماعيلي الشريف أبرم الله معاقده وأجمل من إحسانه الجميل مساعيه ومقاصده آمين يارب العالمين يستقر بحول الله وقوته بيد الأرضى الأحظى المرضي الأبر الأحفل الأنبل خديم الجناب الأسمى والملاذ الأهمى أبي العباس أحمد الخضر بن الفقيه العدل أبي عبد الله محمد نجل الفقيه العدل أحمد بن عبد القادر دعي بزغبوش حفيد الولي الصالح الزاهد الناسك قطب المشايخ الاعلام وتاج الأولياء الصالحين الكرام سيدي مغيث نفعنا الله ببركاته وأفاض علينا وعلى نبينا من أسراره ونفحاته اقتضى له ما يتوخى به الولاء الصريح والصفاء الصحيح من تكريم واضح الرسوم والايثار وتتميم لمواهب الاستصفاء الآمنة من الايثار اعتناء بقدره

الذي سمت به رياسة أسلافه في أعلا المظاهر ومتت بطرق العلم والعمل والمحبة في جانب الخلافة المؤيدة بالود الباطن والظاهر فاتخذ حفظه الله هذا الأمر الكريم راية يتناولها باليمين لايعتريها بحول الله ومنه الانفصال إلى يوم الدين إنعاما عليه بالعناية والتوقير الذي لاينسخ حكمه ولايبيد بحول الله وقوته على تعاقب الأيام رسمه رعيا لما له من الخدمة والسبقية والنصيحة التي لاحت غررا في وجه الزمان البهيم والامور التي توسل بها أدام الله عليه نعمته في الحديث والقديم ومن كثرة الاعتناء بشأنه والتنويه بمقدار حكمه وفعله أيده الله بعد صلاة الجمعة من تاريخه بمحضر العلماء الجلة وفقهاء الملة والأشراف والكتاب والحجاب وأعيان القواد المتصرفين تصرف الحق في البلاد أن لاحكم عليه لأحد مدة حياته فينه وبين مولانا الامام فيما عسى أن يكون من تصرفاته ولا كلام له مع أحد من القواد ولامن العمال والولاة بوجه من الوجوه اللهم إذا كانت بينه وبين أحد من الناس دعوى شرعية فأحكام الشرع العزيز تجري على كل مسلم بمقتضاها ولاسبيل لمومن موحد أن يتعداها أو يتخطاها بهذا قضى وأمر صاحب الأمر المطاع وأمر أن يخط في الدواوين والرقاع حكما التزمه أيده الله برورا لخديمه المذكور فلا سبيل لمن يتعقبه على مر الليالي والدهور والواقف عليه يعمل به والسلام.

وكتب في العشر من رمضان عام ثلاثة ومائة وألف.

الرسالة: 66

وكتب للعلامة المقريء خاتمة القراء الحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمان بن أحمد بصري المكناسي ما لفظه بعد الحمدلة والصلاة والطابع الشريف.

عن أمر عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين إسماعيل بن الشريف الحسني أيد الله أمره وأعز نصره وخلد في صحف المجد والحمد ذكره وأشرق في الصالحات شمسه وبدره يستقر كتابنا هذا أسماه الله بيد حملته أولاد ولي الله تعالى العارف بربه الصالح سيدي بصري نفع الله به وأولاده وحفدته ومن انتمى منهم إليه وخصوصا الفقيه الأجل السيد محمد بن أحمد بصري وبني عمه وأولاده وأولاد أولاده ما تناسلوا ويتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه العميم وبركته اننا أسبلنا عليهم جلابيب الايثار والوقار وكسوناهم أردية الاحترام ونمارق الاحلال والاكبار وعاملناهم بما يجب وما يجمل بنظائرهم من السادات الأخيار ووقرناهم وحررنا جانبهم وأكرمنا مثواهم وحاشيناهم من كل ما يغيض بقدرهم وأسقطنا عنهم كل مغرم أو تكليف وسلكناهم مسالك آبائهم وأجدادهم وأسلافهم من قبلهم وأنعمنا عليهم بمزيد اثرة وكريم خضرة على ذلك حيث هم بحمد الله من أولاد هذا الولي العارف المذكور ومن خيار أهل حضرتنا العلية بالله ومن لباب اللباب بها ومن أعيانها ومن

ذو الحسب والمروءة والأصالة منها ولاسيما وفيهم ومنهم النشأة الطيبة والنخبة الزكية الجامع لأشتات خصال الفضل والمجد حامل راية الاقراء وخاتمة الحفاظ والقراء الفقيه الصدر العالم العامل السني أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بصري وابن عمه الاحظى الأجل الانوه الفقيه النبيه الأمثل السيد أحمد ابن محمد فما عندنا أعز منه ومنهم فنحن منه وهو منا وفينا وإلينا ومحسوب على الله وعلينا والعلم والدين والسنة معه تجمعنا والجهل مع البدعة لغيره يفرقنا والعم والخلافة اخوان وما هو لدينا في نفوسنا الكريمة الا من أعيان العصر وأهوان النصر والقلوب تتجازى فلا يقرب أحد ساحته وساحة أهله وبني عمه وأقاربه بما يسوءهم أو يضرهم في نفوسهم أو يشوشهم على أسبابهم ومعاشهم أو أمر من أمور دنياهم في هذا الأوان ولا فيما يأتي من الأزمان ما تعاقب الجديدان واختلف الملوان على الدوام وما توالت السنون والأعوام من غير منازع ولامعارض ولا مرافع فيما قابلناهم به وحملناهم عليه واختصصناهم به وأردناه لهم وآثرناهم به عمن سواهم لأننا جربنا الناس وبلوناهم فألفيناهم ليسوا كغيرهم وكفى بشهادة الناس فيهم والناس شهداء الله في أرضه وما علمنا في جملة أولاد سيدي بصري إلا خيرا وضاحا ونجدة ومروءة وفلاحا وكيف يجهل قدرهم أو لا تراعى حرمتهم ولا نؤثرهم على من عداهم فنعهد بمسطورنا الكريم أعزه الله لكل من وقف عليه من أولادنا وولاة أمرنا وقوادنا ووصفاننا أن يعتقد فيهم معتقدنا وأن ينهج فيهم منهجنا حسب الواقف عليه العمل بمقتضاه ولايحيد

عن كريم مذهبه ولايتعداه صدر به أمرنا المعتز بالله والسلام بتاريخ ربيع النبوي عام اثني عشر ومائة وألف.

الرسالة: 67

وكتب لمزوار المؤذنين بالجامع الاعظم من مكناس أبي عبد الرحمن بن محمد الفاسي لقبا المكناسي دارا ومنشئا الشاوي أصلا المغراوي بما لفظه:

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما عن الأمر العلي الامامي المؤيد المنصور الاسماعيلي أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسني إسماعيل بن الشريف أيد الله أمره وأعز بحوله وطوله نصره وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره آمين. يستقر هذا الظهير الكريم والخطاب الجسيم والأمر المحتم الصميم بيد حامله الرجل الصالح الناسك المرابط الخير الدين الساعي للناس في المصالح أبي زيد السيد عبد الرحمن بن السيد محمد الفاسي لقبا المكناسي دارا ومننشئا وقرارا الشاوي أصلا المغراوي من أولاد عمارة أحد أولاد السيد يش بن حمدون الموقت مزوار المؤذنين بالجامع الأعظم الكبير من حضرتنا العلية بالله مكناسة الزيتون حاطها الله تعالى وجعلها محفوظة ملحوظة مقصودة وبعين الله التي لاتنام منظورة مرصودة آمين يارب العالمين يتعرف من يقف عليه اننا جددنا له حكم ما بيده من ظهائرنا الشريفة الطاهرة المنيفة وأقررناه على وظيفه الشريف الغني بشهرته عن التعريف وبسطنا يده على أمور وظيفه وتكليفه الديني على عادة المؤقتين والمزاوير قبله ليجتهد في شؤونه غاية الاجتهاد مستغرقا في العبادة

والطاعة نهاره وليله جاريا في ذلك على قانون النقباء والمزاور السالفين في رعي الأوقات وأقام عمد الدين ونعهد له ونطلب أن لايخلي أوقاته من الدعاء الصالح لنا ولذريتنا بالخير والسداد والتوفيق والهداية الى سواء الطريق وبسبب قيامه بهذا الوظيف الكريم والمنصب العظيم وملازمته موضعه المبجل الجسيم ومنصبه من المسجد العظيم وما علم من صلاحه ودينه وأمانته وخيره وثقته أسبلنا عليه وعلى أولاده أردية التوقير والاحترام وحملناه على كاهل المبرة والاكرام وحاشيناه عما يتطرق للغير من وسائل العوام فلا سبيل لمن يصل جنابه بوظيف أو مغرم أو تكليف قوي أو ضعيف رعيا لوجه الله تعالى الذي ألهمه رشده للقيام بالوظيف المذكور وهو موقر محترم على مر الليالي والدهور ومن قرب جانبه بسوء أو مكروه لا يلومن إلا نفسه ولا يضرب إلا رأسه ونعهد إلى خدامنا وجميع ولاتنا المتصرفين في هذه الحضرة العلية بالله عن أمرنا أن يوقروا هذا الرجل المبارك في نفسه وأولاده بحيث لا يناله ولا يعمه شيء مما عسى أن يعم أو ينال أهل بلاده وأن يعملوا بمقتضاه ولا يتعدوا ما أبرمه الأمر الشريف وأمضاه والسلام.

في الثالث عشر من ذي الحجة الحرام وعام ثلاثة وعشرين ومائة وألف.

الرسالة: 68

وكتب للسيد أحمد صفندلة بتحديد حرم الولي الصالح المتبرك به أبي العباس بن خضراء بما لفظه:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما عن أمر عبد الله المتوكل على الله المفوض أمره الى الله مولانا أمير المومنين أيده الله ثم الطابع بداخله إسماعيل بن الشريف الله وليه وبدائرته إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا يستقر بحول الله تعالى وقوته وشامل يمنه وبركته هذا الظهير الكريم المحترم الجسيم بين ماسكه المتمسك بالله ثم به الخير الأرضى الدين المرتضي السيد أحمد بن عبد الواحد المدعو صفندلة يتعرف من يقف عليه من أولادنا حفظهم الله وخدامنا وقوادنا ووصفاننا وجميع ولاة أمرنا العالي بالله إنا قلدناه بحول الله وقوته النظارة على أوقاف الولي الصالح المتبرك به أبي العباس سيدي أحمد ابن خضراء نفع الله تعالى به بحضرة حضرتنا العالية بالله مكناسة الزيتون حاطها الله كيفما كانت وحيثما تعينت وكذا مفتاح الربيعة المعدة لجمع الصدقات بضريح الولي المذكور وأقررنا حرم الزاوية المذكورة على ما عهد لها وعرف من قبل وذلك من درب الجنان إلى مسجد سيدي أبي يعزى المعروف الى سيدي زكرار الى زاوية سيدي محمد بن عبد الله الى سيدي مغيث بحيث لا سبيل لمن يخرق في الحرم المذكور

المحدود عادة بنقص ولا زيادة يعمهم من التوقير والتسجيل والتكريم ماعم الزاوية المذكورة رعيا لوجه الله العظيم ومراعاة لذلك الولي الجسيم فعلى من وقف عليه من ولاتنا وأهل عمالتنا يعمل بما فيه ولا يضرب عن يد من ولبناه أمر ذلك على هذا إن شاء الله يستمر العمل ما دامت الدولة العلوية وامتدت أغصان الدوحة الهاشمية النبوية شهر الله حجة الحرام عام اثنين وعشرين ومائة وألف.

الرسالة: 69

وكتب لأولاد أبي محمد صالح دفين آسفي بما لفظه:

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ثم الطابع الشريف بداخله إسماعيل ابن الشريف الله وليه وبدائرته إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا جددنا بحول الله تعالى وقوته وشامل يمنه وجميل بركته لحملته المرابطين الخيار أولاد الولي الصالح البركة الواضح سيدي أبي محمد صالح نفع الله به آمين وهم السيد بوحسون بن محمد والسيد الحاج الخضر بن أحمد والسيد إبراهيم بن أحمد والسيد عبد الفضيل بن أحمد بن عبد العزيز وأخوه السيد عبد الله والسيد الحاج إبراهيم بن محمد والسيد علال بن الحاج والسيد أحمد بن محمد صالح وأخواه السيد علي والسيد الحاج أحمد بن ابراهيم على ما بيدهم من ظهائرنا الكريمة وظهائر الملوك الكرام المتضمنة دوام التوقير والاحترام على زاويتهم والرعي الجميل المستدام بحيث لاسبيل لأحد أن يخرق عليهم عادة ولا أن يحدث لهم نقصا ولا زيادة كما وقرنا لهم جميع سكان زاويتهم المعروفة بالرباط بحيث لا يلزم أحدا من سكانها ما يلزم غيرهم من سائر الوظائف المخزنية والتكاليف السلطانية قلت أو جلت وكذلك أولاد عمه المرابطين المذكورين وهم السيد الحاج محمد بن عبد الله والسيد ابراهيم بن عبد الله والسيد الرضي والطالب علي

وقرناهم واحترمناهم يلزمهم ما يلزم إخوانهم المرابطين المذكورين ومن طاف بساحتهم يأخذه الله كما جددنا لهم على كافة العشرين دارا المعروفة لهم بالرباط. وهم داوود بن ابراهيم وأولاد عيسى وأولاد اخديم وعلي بن عبد الدايم وأخيه وعلي بن مسعود أسكري وسعيد بن مسعود بويل ويحيي البكار وأخيه منصور وأحمد بن محمد الاستاري ومحمد ابن موسى وابن أخيه ومحمد بن ادريس التامري واحمد بن محمد الاساري وأحمد أخياط وأحمد بن محمد الجرطي وإخوانه مسعود بن عبيد وعلي بن أحمد ومبارك بن أحمد وداوود الخراز وعلي أبنالي وعلى توقيرهم واحترامهم مراعاة لتعمير تلك الزاوية المباركة والاعتناء بذلك الثغر السعيد وكما جددنا لهم على أولاد يزدان ومبارك بن لحسن وأحمد بن مبارك القاطنين معهم وأبقيناهم على حكم ماهم عليه من التوقير وأبقينا لهم أصحابهم أهل انكا على حكم ما كانوا عليه مع أسلافهم خلفا عن سلف تجديدا تام الرسم متصل الحكم لايزال بعون الله جديدا ولا يزيده القدم إلا تأكيدا وحسب الواقف عليه العمل بمقتضاه والوقوف عندما حده وقضاه دون معارض ولا مداحض والسلام.

وفي منتصف ذي الحجة الحرام عام عشرين ومائة وألف.

الرسالة: 70

وكتب للمرابط البركة السيد سعيد ابن عبد السلام حفيد الولي الصالح السيد سعيد بن أبي بكر المشترائي دفين خارج باب وجه العروس أحد أبواب الحضرة المكناسية:

بعد الحمدلة والصلاة والطابع السلطاني الكريم يستقر هذا الظهير الكريم الذي حفظ نظام العز الشامخ البناء ولحظ المعتمد عليه من ذرية الصالحين بعين القبول والارضاء وفسح له مجال العناية التي أصلها ثابت وفرعها في السماء وجدد مراسم الخطوة لأبناء الفضلاء المتوارث عن جلة الآباء أصدرناه تكميلا للمقاصد واجزالا لعارفة النعم الحميدة المصادر والموارد للمرابط الفاضل الخير الدين الأتقى الأذكى الأنوه المبرور الموقر المشكور السيد سعيد بن عبد السلام بن أحمد بن أبي بكر الشيخ البركة سيدي سعيد بن أبي بكر بن علي بن أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن داوود بن علي بن أبي زيد عبد الرحمن بن أحمد بن الولي الكبير الجرس الشهير إمام الطريقة وشيخ الحقيقة وسيلتنا إلى ربنا سيدي أبي محمد صالح الدكالي الماجري القرشي المخزومي نفعنا الله تعالى ببركاته وأفاض علينا من بحور خيراته آمين أدام الله كرامته وتقواه وتولى إعانته على ما يرضاه وأظهر عليه لبوس الايثار والحرمة وأبقى لديه موارد كل نعمة ... يتجدد له بمعهود الاعتناء وأجراه من الكرامة على

ما توارثه الأبناء عن الآباء بما يحمل به على الكرامة والمبرة والرتبة السامية المستمرة والحماية التي تقي حماه المبارك وأهل بيته وذويه ضروب الضيم وتعرفه في أحواله كلها عوارف المسرة حملا يستمر دوامه ويومن انقراضه وانصرامه ونتثبت أوامره وتشيد أحكامه رعيا لما اشتهر به لدينا من صلابته في اقتفاء سلفه الكريم ومحبته ويتحاشون به هو وأهل بيته وزاويته وجميع من تمسك بحرم ضريح السلف الصالح واستظل بحمايته من سائر الوظائف الطارئة والكلف الناشئة محاشاة تتصل الأيام وتشتمل على الرعي المصاحب والاستماع بحيث لا سبيل لمن يطرق ساحة هذه الزاوية المباركة بهتك حرم أو خرق عادة أو يروم حماها إلا منع بحدوث زيادة وليكن هو ومن تعلق به من أهل هذه الزاوية المباركة في ذات الله إخوانا وعلى دفع الأذى والضرر عن حرم الزاوية أعوانا ويتلقوا من التجأ لها لخوف من أهل الخطايا و الجنايات الى التمسك بهذا الحرم بمناصرة تبريء من الوجع ويسكن ما عسى أن يحل به من الجزع بحول الله وقوته وسبيل من يقف على هذا الظهير الكريم أن يؤدي المبادرة لامتثال فرض التفخيم والتكريم والعمل بمقتضاه على سبيل التقديم ويتلقى أوامره الكريمة بالتكميل والتتميم والسلام.

في شهر ربيع الأول النبوي سنة اثنين ومائة وألف وجدد له هذا الظهير أيضا بتاريخ رجب عام ستة وعشرين ومائة وألف غير أنه لم يرفع فيه النسب الى الشيخ أبي محمد صالح.

الرسالة: 71

ومما كتب به شيخ شيوخنا العلامة قاضي الجماعة أبو شعيب سيدي محمد أبو مدين ابن حسين المنبهي نائبا في ذلك عن أمير المومنين وناصر الدين أبا النصر مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف نصره الله الى سيد الاولين والاخرين مولانا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الى ذروة المجد وهضبة الاحسان وقنة السيادة التي ما حام حولها ملك ولا أنساب ولا قدر على استيفاء تفاصيل مفاخرها الانيقة لسان. ولو اشتهر بترصيع القلائد وتسميط الفرائد الحسان وجرى في حلبة الاجادة والسبب الاتم في اعداد كل موجود. السلام عليك يا رحمة الله المهداة ونعمته السابغة المسداة ومقر حكمه الباهرة المبداة، السلام عليك يا من أرفض عنها لمهابته البراق وانقض لمسراه روح القدس يخترق به السبع الطباق، وانفتحت منها لاستفتلحهما الاغلاق وآض لامته بعد الاستيثار بحضرة القدس من أمهلت التكاليف ... من نفائس الاعراف الاطهار وصحابتك الاخيار، وخصوصا المهاجرين والانصار وفق كما عدتك التي تفوق الاحصاء، وتمتنع عن الاستيفاء والاستقصاء من رفيق إنعامك وغريق بحر فيضك وإكرامك المتواضع لذكرك المعترف بالعجز عن أداء واجب شكرك عبدك وابن عبدك المتمسك من سنتك الشريفة بعروة عهدك المتطارح بمراكب شوقه على سدتك العلية ومغناك الجميل الممتليء توقا وشوقا عبدك إسماعيل. ضاعف الله في ذلك الجناب الارفع اشتياقه، والى اقتفاء سيرته الغراء ومنهجه الابلج

استباقه، وان العبد حيث لم يسعه في الوقت الامكان بنقل خطاه الى أطيب بلد وأشرف مكان. اشتغالا بما طوق في رعاية أمتك، وحياطة ملتك الغراء وإحياء معالم سنتك. وجه أحد عبيدكم من صغار أولاده، واستنابه في الفراعة بين أيديكم بفدية وسعي ونهاية اجتهاده لما جاء في سنتكم الطاهرة بأن لا يبلغ عن المرء إلا آله الأدنون وأحقهم بذلك أفلاذ أكباده، وإيثار الصغير لمزيد اهتمام منكم بأمره. وبياض صحيفته لما سقط عنه فلم الخطاب في نهيه أمره. فنحن جميعا يا أكرم مبعوث وأشرف منعوت، نلوذ بجنابك، ونستضيء بثاقب شهابك، ونستجير بجوارك، ونقتبس بأضواء أنوارك والسلام.

الرسالة: 72

بعد الحمدلة والتصلية والطابع الشريف بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني كان الله له: خديمنا الحاج محمد بن علي معنينو سلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد. فاعلم أن عجوزا زوجة القباج الفاسي الكباص جاءت لمقامنا العالي بالله وذكرت بأن ولدها أسير بلاد النصارى بقالص وطلبت منا هذا النصراني حامله الذي إسمه منويل كيرس الذي صفته أبيض للطول أحول من جنس اصبنيول وذكرت أن أخا هذا النصراني هو الذي اشترى ولدها، ولما أحضر خديمنا عبد القادر بن عبد الرزاق هذا النصراني كان إمامنا ورأيناه التزم إخراج ولدها محمد القباج ويزيد أربع مائة ريال موزونة بوجهها على المسلم أمرنا خديمنا ابن عبد الرزاق أن يتولى الكلام مع النصراني ويقبض منه المسلم المذكور والأربع مائة ريال المذكورة وأنعمنا بالنصراني منويل المذكور والموصوف صدره على هذه المرأة لوجه الله تعالى وابتغاء ثوابه الجسيم لتخرج به ولدها الأسير المذكور وأطلقنا سراح هذا النصراني فإذا جاء كتابنا هذا أسماه الله فلا تمنعه من الركوب والجواز إلى بلاده ولياتك من النصراني براءة خديمنا بن عبد الرزاق الذي أمرنا أن يتولى قبض الفدية منه والمسلم والسلام.

وكتب في الثامن عشر من صفر الخير عام ثمانية وثلاثين ومائة وألف.

الرسالة: 73

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ثم الطابع الشريف بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني الله له: كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي بدره يستقر بين ماسكه الشريف الاحظى الأقرب نقيب الأشراف السيد عبد القادر بن عبد الله الجوطي الحسني يتعرف الواقف عليه أنا صرفنا عليه جميع الارض التي بسلفات الحائزة روضة الولي سيدي محمد بن موسى التي تجاوز الساقية وكدية علي ابن محمد وروضة سيد احميد البدري والبسابس والقطار الى الجبل صرفا كليا وإنعاما تاما قطعا وملكناها له ملكا على الدوام والاستمرار وبسطنا يده عليها بسطا كليا في جميع الاحوال من غير منازع ينازعه ولا معارض يعارضه بحول الله وقوته والواقف عليه يعمل بمقتضاه ولا يخالف سبيله ولا يتعداه والسلام.

في السادس من رمضان عام أربعة وعشرين ومائة وألف.

الرسالة: 74

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وصحبه وسلم تسليما ثم الطابع الشريف المطاع الأوامر بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني الله له ثم مسطورنا هذا يستقر بيد الشريف المنيف الحسيب الأصيل السري الأثيل محل ودنا وحبنا ولحمة نسبنا والآخذ بزمام لبنا عوض الوالد العضد والساعد المقدم في حلبة دولتنا خلد الله أوامرها على الأول والآخر أبي نصر سيدي عبد القادر بن عبد الله الجوطي الادريسي الحسني يتعرف منه ويعلم الواقف عليه أننا صرفنا عليه جميع الولجة السقي الكائنة بسيد المخفي وهي المقابلة لروضته نفعنا الله به يحدها شرقا الطريق الممرور عليها لأبي فكران والجهات البواقي الحجر الممزوج بالدوم المقوس على الولجة المذكورة مبدؤه من مشرع سيدي المخفي ومنتهاه دافع السدرة وقد اشتملت على سواقي ثلاث ساقية الريبة وساقية الشرفاء وساقية مسعودة ومن جملتها السويطة البعل التي بين الحد المقوس والساقية وكذا القطعة التي بين الطريق المذكورة والوادي الذي هنالك ومتصلة بالمشرع المذكور وكما ابقيناه أيضا على قبض أعشار كل من ... أهل البلد... صرفا تاما محفوفا بالرضا والقبول طيبة به أنفسنا منعمين به عليه وحبا وكرامة ما دامت إيالتنا العلوية بهذه الأقطار المغربية أسمى الله منارها وأيد بمنه عزها وفخارها وليس هذا مما يبلغ أصغر ماله لدينا من الحظوة والمكانة ولكنه قل من

كثر وغيض من فيض ولتغمرنه بحول الله بحار نعمائنا ولنضفين عليه من فضل الله ملابس آلائنا وعلى الله المعتمد في إكمال المقاصد وإنجاز المواعد والسلام.

وقيد بتاريخ ثمان وعشرين من جمادى الاولى سنة ... عرفنا الله خيره آمين.

الرسالة: 75

ومن ذلك إنعامه على طبيب حضرته الخاص العلامة الحكيم الماهر السيد عبد الوهاب بن العلامة النزيه الحكيم السيد أحمد أدراق بعمالة الجزية الواجبة على أهل الذمة القاطنين بالحضرة المكناسية:

بعد الحمدلة والصلاة والطابع الأنبل السيد عبد الوهاب بن الفقيه النزيه الحكيم الوجيه السيد أحمد أدراق يتعرف منه بحول الله وقوته أننا أنعمنا عليه بعمالة الجزية الواجبة على أهل الذمة بملاح مكناس حرسها الله وأذنا له في قبض ذلك ... بها إعانة له على ما هو بصدده من ملازمتنا وخدمة جنابنا العلي بالله على مقتضى حكمته وشريف صنعته إنعاما تاما والواقف عليه يعمل به والسلام.

في الرابع من صفر الخير عام سبعة وثلاثين ومائة وألف.

الرسالة: 76

ومن ذلك إجراؤه على أهل الدلاء الجرايات على ظهير الانعام عليه بما ذكر:

بعد الحدلة والصلاة والطابع السلطاني الكريم جددنا بحول الله تعالى وقوته لحامله الأرضى مولاي محمد بن عبد القادر الشريف المريني العمراني على مابيده من ظهيرنا الشريف أسماه الله المتضمن إنعامنا عليه لدار السكة في مراكش صانها الله فقد أبقيناه يتصرف فيها وأقررناه على قبض واجبها يستعين بذلك على قراءة العلم وتعلمه وزدناه قاعتها وأنعمنا عليه بها فنأمر مملوكنا الأقرب الباشا غازي أن ينفذ له دار السكة والقاعة ولا يترك من يتعدى عليه فيهما تجديدا تاما وحسب الواقف عليه يعمل به ولا يتعداه والسلام.

خامس ربيع الثاني عام اثنين وثلاثين ومائة وألف.

الرسالة: 77

ولما لبى داعي مولاه مولاي محمد المذكور منعما عليه أقر المترجم ولديه من بعده وهما المولى عبد الهادي والمولى عبد السلام على المنعم به المذكور بظهير سلطاني دونك لفظه:

بعد الحمدلة والصلاة: جددنا بحول الله وقوته لحملته محاجيرنا مولاي عبد الهادي بم مولاي محمد الشريف الحسني العمراني المدو الشيخ المريني وأخيه مولاي عبد السلام على ما بيده من ظهائرنا الشريفة المتضمنة إنعامنا على والده الموائد ووافر الصلات والعوائد مدة مقامهم بشريف أعتابه ويتبعهم متواصل كرمه حيث ساروا حسبما أشار لذلك صاحب زهر البستان.

الرسالة: 78

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ثم الطابع الشريف بداخله اسماعيل بن الشريف الحسني وليه الله وبدائره اليمن والاقبال وبعد ذلك كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره يتعرف منه بحول الله وقوته أننا أعطينا لوصيفتنا إبنة بومعيدة الشاوية بلاد مومن بن حم التي بالعزانية سقيا وبورا وجميع ما فيها من جنان وغيره من غير منازع ينازعها ولا معارض فنأمر من بها أن يرتحل منها والواقف عليه ولا معارض يعارضها فنأمر من بها أن يرتحل لهم منها والواقف عليه يعمل به ولا يحيد عن كريم مذهبه ولابد والسلام.

في السابع عشر من ذي القعدة عام أربعة وثلاثين ومائة وألف.

الرسالة: 79

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما عن الأمر العالي بالله الامامي المؤيد المنصور الاسماعيلي العلوي الفاطمي الهاشمي أمير المومنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف أيد الله تعالى أوامره وخلد في صفحات الدهر مزاياه واطلع في سماء المعالي شموس نصره المنيرة وبدوره آمين. يستقر هذا الظهير الكريم والخطاب الجسيم العميم والامر المحتم الصميم بيد حملته أبناء عمنا الشرفاء الاجلة البدور الاهلة حفدة الفقيه العلامة العارف الناصح الولي الصالح المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الادريسي الحسني القطب أبو عبد الله محمد بن يوسف الشهير بأبي درقة دفين وادي قيبان بأطراف تامسنا رحمه الله ورضي عنه ونفعنا به آمين. وهم النفر الثلاثة أستاذنا الفقيه ومؤدب أولادنا العلامة المشارك أبو عبد الله السيد محمد بن عبد النبي بن علي وأبناء عميه الفقيه الاستاذ أبو الجمال يوسف بن أحمد بن علي وابن عمهما الفقيه العلامة المشارك أبو محمد عبد الله بن ابراهيم بن علي وكافة إخوانهم وأبناء عمهم يتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته اننا جددنا لهم حكم ما بأيديهم من ظواهر أسلافنا الصادرة لهم من والدنا مولاي الشريف بن علي والاخوين مولاي محمد ومولاي رشيد قدس الله أرواح الجميع وظواهر الملوك السالفة قبل هذه الدولة السعيدة أطال الله بقاءها المتضمنة لهم مزيد التوقير والاحترام وجميل الرعي والتشريف المستدام على مر الليالي والايام

والشهور والاعوام والحمل على كاهل المبرة والاكرام والمحاشات عن كل وظيف قوي كان أو ضعيف وزدناهم كل ما يجبى شرعا من أصهارهم وخدامهم وأمنا على من دخل حصول عزائبهم من شارد وخائف حيث لا تهمل لهم سيادة ولا ترد لهم شفاعة ولا يحدث في أمرهم نقص ولا زيادة ولا سبيل لمن يريد عليهم هتك حرمتهم ولا على أصهارهم أو خدامهم أو جيرانهم فعلي بعهد الله ومولانا محمد بن عبد الله ان كل من قرب جانبهم بما يسوء حالهم أو بما يكرهونه لامن الخدام ولا من الوصفان قريبا كان أو بعيدا فلا يلومن إلا نفسه أيا كان بحول الله وقوته نقطع رأسه وقد بسطنا لهم يد التصرفات على جميع زواياهم المتفرقة في جميع النواحي والاطراف كزاوية جدهم الشيخ أبو درقة المذكور وزاوية جدهم أبي محمد عبد الله بوزرقون دفين الساحل من بلاد الشياظمة وزاوية أخيه الشيخ أبي البركات محمد دفين بلاد حاحة وزاوية أخيهما سيدي فصال دفين بلاد المصامدة بجزولة وجعلنا النظر للنفر منها عن مصالح الزوايات من غير منازع لهم فيها ويوكلون على أنفسهم بحسب النيابة من يدب عليهم في ذلك لمن ظهرت فيه نجدة الخدمة للضوارح المباركة لأجل بعد المسافة إراحة لهم وبسطنا لهم ولوكلائهم أيضا يد الحكم بأنواع التصرفات شرعا وطبعا على كل من يسكن بهم من الجوار والمساكين وأبناء السبيل أكلنا النظر في ذلك كله للنفر الثلاث المذكورين وفوضنا لهم بأنواع التصرفات والتعزيزات بالادب النافذ لمن يستحقه بالتفويض التام العام الشامل المطلق وأمرناهم أن يرحلوا من زواياهم كل من لايليق بهم في المجاورة دون توقف ولا تشوف لعامل بحيث لا يتركون في زواياهم المطهرين من جميع الشبهات

غير من يرضونه لأنفسهم في المجاورة وكما جعلنا لهم النظر في تفريق زكاتهم وأعشارهم يصرفونها على كل من يستحقها من الارامل والايتام والفقراء وأبناء السبيل من أبناء عمهم وخدامهم المحتاجين لذلك على حسب القانون الشرعي وفصوله أعزه الله وقلدناهم في ذلك وجعلناهم أمناء عليه دون معارض لا منازع قريبا أو بعيدا حرا كان أو وصيفا تجديدا لا يزال بعهد الله جديدا ولا يزيده الامر المولوي إلا تأكيدا أو تأييدا تام الرسم منفد الاوامر والاحكام ومن خالف هذه الاوامر يخف على نفسه والكلام ما يرى لاما يسمع وحسب الواقف عليه العمل بمقتضاه ولابد ولابد والسلام.

وكتب في 17 رجب الفرد الحرام عام ثلاثة وثمانين وألف.

الرسالة: 80

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

جددنا بحول الله وقوته، لحملته محاجيرنا مولاي عبد الهادي بن مولاي محمد(فتحا) الشريف الحسني العمراني المدعو بالمريني، وأخيه مولاي عبد السلام على ما بأيديهم من ظواهرنا الشريفة المتضمنة إنعامنا على والدهم رحمه الله بدار السكة بمراكش، حرسها الله وقاعتها. فقد أبقيناهم على ما كان يقبض والدهم فيها وأقررناهم على ذلك وزدناهم بحضرتنا العالية بالله أربعة أوسق من القمح وإثنان عروض وأربعين مثقالا يقبضون ذلك في كل سنة من عند خديمنا القائد علي ويشي. فنامر خديمنا المذكور أن يدفع لهم ما أمرنا به من الزرع والعروض والدراهم ومن تعرض لهم على هذا يخاف منا على نفسه، ويبعث حتى لصاحب مراكش خديمنا الباشا أحمد الروسي أن يعتني بهم في قبض واجب دار السكة والقاعة إلخ ... وحرر في ثامن محرم الحرام عام 1137 ه.

الرسالة: 81

من عبد الله تعالى أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين الناصر لدينه المجاهد في سبيله إسماعيل بن الشريف أيد الله أمره أبد فخره وأدام تأييده ونصره بمنه آمين.

إلى جماعة الاسطادوس أهل ديوان الفلمنك بعد السلام على اتبع الهدى اعلموا اننا كنا قبل هاذه الساعة تغيرنا على قنصوكم جواز سمط وافضناه أمر المهادنة التي كانت بيننا وبينكم وخرجت حينئذ سفوننا الجهادية ظفرها الله مسافرين في البحر فالتقى قبطان البحر رعاه الله وحفظه بسفينة للفلمنك موسوقة بالسلع وفيها ستة عشر نصرانيا فأخدها وأتى بها الى ان دخل مرستنا السعيدة المحفوظة بسلا المحمية المحوطة فلما استقر بها جاءنا خديمي دارنا العلية بالله الذمي حييم طلدان وابن عمه الذمي ابراهيم حييم ان واشتكيا علينا من علي مقامنا الموفق بحول الله غاية الرغبة ان ترد السفينة المذكورة على أربابها ففضلنا رغبتهما في ذلك ورددناها على أربابها ساعئد بجميع ما إحتوت عليه من نصارى وسلع ولم يضع لهم منها شيئا وأمرنا ببعثها عزما في الحين أين ما ما أرادوا وحيث ما أحبوا بها في حفظ وأمان إن شاء الله لأننا كنا أمرنا وأذنا له ان يقدم إلى بلادكم وكتبنا له اليكم بما في غرضنا وجعلنا له أجلا في أمر المهادنة قدره الى أن ينقلب الينا بالسلامة ان شاء الله من عندكم فان جاءنا شاكرا لصنيعكم معه ممثلين ما بيده من أمرنا قاضين لجميع ما تضمنه من أغراضنا

فما لكم في جانبنا العلي بالله الا مايرضيكم فيما هو موافق للشرع الكريم وسيظهر لنا مصداق ما كنتم تقولون في قيامكم بحقه واستعماعكم في قضاء أغراضكم لأمره والله على مانقول وكيل والسلام.

أوائل ربيع الثاني سنة اثنتين ومائة وألف عرفنا الله خيره بمنه آمين.

الرسالة: 82

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على من لا نبي بعده

من عبد الله تعالى الامام ملك المغرب وما والاه من أقطار الاسلام أمير المومنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسني (ثم طابع مستدير نقش وسطه) إسماعيل بن الشريف الحسني رعاه الله (وبدائرته يمينا) اليمن والاقبال وبلوغ الآمال (ومثل ذلك يسارا).

أيد الله أوامره، وخلد مفاخره الكريمة ومآثره، آمين، إلى عظيم الروم الامبراطور ببلاد فرنسية الرابع عشر من هذا الاسم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد اعلم أنه بلغنا أصحابنا صحبة كتابك، وذكروا لنا خيرك ومباشرتك لهم وشكروا لنا فعلك معهم واستحسنا برورك بهم وفرحك بجميعهم، فكذلك ينبغي لك أن تكون، إذ أنت من سلالة عظيم الروم الذي كتب له جدنا وسيدنا فلا نرضى نحن أن نتكلم إلا معك، لأنك قابض على أمرك وكلام طاعتك مقصور على رأسك، وأما الاجناس الاخرى فكلامهم عند أهل ديوانهم ولا يبلغون منزلتك عندنا أبدا لما نعلمه من علو همتك عليهم فأنت الذي تستحق أن تكون انبراضور على سائرهم ولا يستحق تاجهم إلا أنت. لأن يدك هي العليا عليهم بحذافرهم، وفي اليوم الذي يصلنا الباشضور من عندك فلا يعود إليك غن شاء الله إلا بما يسرك ويرضيك ولا لك عندنا إلا ما تريده وتشتهيه في خاطرك والسلام.

وكتب في خامس عشر ربيع الثاني ثلاثة وتسعين وألف.

الرسالة: 83

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

ثم الطابع السلطاني، بداخله: اسماعيل بن الشريف الله وليه ومولاه.

كتابنا هذا —أسماه الله وأعز أمره- بيد حامله الشريف الأجل، الخير الأفضل، السيد علي بن أبي القاسم المنوني.

يتعرف منه بحول الله وقوته أننا أسندنا إليه النظر والتصرف في أحباس الولي الصالح، المتبرك به: سيدي عمرو بن عوادة، نفعنا الله به، وأذنا له في قبضها، واخراجها عند من كانت، وقبل من تعينت، وحيازة ما يحاز منها، ومنعها من كل أحد كائنا من كان، بحيث لا يتصرف أحد في الاحباس المذكورة، ولا نظر لأحد في مصالح الروضة المدفون بها السيد عمرو المذكور، إلا الشريف المذكور، ووكلنا جميع ذلك اليه والى نظره، كيف يرى، وعلى أي حالة ظهرت له، من المصالح التي يعود نفعها على الحبس وعلى الروضة المذكورة: مثل الامام والمؤذن وغير ذلك مما فيه مصلحة دينية أو دنيوية، دون مزاحم له في ذلك ولا منازع ولا معارض ولا مدافع، وحسب الواقف عليه العمل به، والسلام.

وكتب مهل القعدة الحرام، عام احدى وعشرين ومائة وألف ...

الرسالة: 84

أمضينا لحامله المرابط السيد سعيد بن موسى حكم ما بيده من ظهائرنا الشريفة على زاوية سيدي عبد الله بن واسمين وتوليته النظر في أحباسه، والتصرف في جميع فصوله وأحباسه مرسا المسجد وغيره، ويرجع لصالح الزاوية المباركة، ونأمر عبد الرجا ودحان وعبد الواحد أن يقفوا له حتى ينفذوا الامر ويعضدوه لذلك، وقد أجلنا له شهرين فان ظهرت منه نتيجة وحزم يوجبان اقراره فقد أقررناه على ما هو عليه، وأن صحبه تراخ فينزع من يده ولا يعود اليه بعد، والسلام.

وكتب في الخامس والعشرين من ربيع الثاني عام ثمانية وثمانين وألف.

الرسالة: 85

أيد الله بعزيز النصر أوامره، وظفر جنوده وعساكره آمين آمين ... بن عبد النعيم واخوانهم نجل الولي الصالح المتبرك به حيا وميتا سيدي سعيد بن يبقى برد الله ضريحه، يتعرف منه بحول الله وقوته اننا أنعمنا على زاوية جدهم المذكور بأرض وبلاد واد طماس الذي بضريح الولي المذكور بعلا وسانية وهي بلاد القائد حم واخوانه أولاد كنيو وأولاد حضرية وبلاد أولاد بن حجاج وجنان عبادة، فقد تركناها وصيرناها حبسا على زاوية الشيخ المذكور بعلا وسانية، وأبقينا بأيديهم جميع بلادهم كفدان الزاوية وغيره بحيث لا يتصرف في ما انعمنا به عليهم من البلاد المذكورة الا بإذن المرابطين المذكورين ومشورتهم، ومن تعدى عليهم في ذلك يخاف على نفسه، وكذلك أبقينا على سكان زاويتهم توقيرهم واحترامهم على ما هم عليه من التوقير والاحترام وجعلنا النظر الجميل لهم في زاويتهم ممن لا يليق بسكناها، فمن نظروا فيه مذمومة أو فعل سوء يرحلونه عنهم وينقون زاويتهم ويطهرونها كما هي طاهرة و ... في ذلك والواقف عليه يعمل به والسلام.

في السابع من جمادى الثانية عام سبعة وعشرين ومائة وألف.

الرسالة: 86

كتابنا هذا ... بيد حامله المرابط الفقيه ... سيدي محمد بن أبي بكر بن محمد ابن أبي بكر الأقاوي من حصن أرز يتعرف الواقف أننا وليناه خطة القضاء بالمشمش (اناصر) من تيسينت إلى واد نون وأحوازه من عربان وغيرهم والفتوى فيها. فعليه بتقوى الله في السر والعلانية. وبسطنا له اليد على القضاة والفقهاء ينظر في أمورهم. ومن تعداه فلا يلوم إلا نفسه، ولا يجني إلا على رأسه والله حسيبه والسلام.

في الثاني من شهر رمضان المعظم عام أربعة وعشرين ومائة وألف وفوقه الطابع الكبير.

الرسالة: 87

محبنا الفقيه الأجل الولي الصالح سيدي محمد بن علي بن أحمد الرسموكي.

وبعد فالهمم منا مصروفة الى الحركة لتلك الجبال ان شاء الله. وأولى ما نقدم بها، ونبتديء بشأنه (أيت صواب) و(رسموكة) أركون وترددنا في أمرهم، من أجل مجاورتك اياهم فانهينا اليك حقيقة ما عندنا لتنظر في أمرهم، وتندبهم الى الطاعة، وأقدم بهم الينا. فعليهم أمان الله ورسوله، وليس لهم الا ما يسرهم ويرضيهم، بحول الله وقوته، أصلح الله الجميع، وكتب في حادي وعشرين ربيع النبوي سنة (ثم وضع أيضا تلك الحروف) ثم كتب تحت (استدراك وان لم يقدموا علينا قريبا ينتقم الله منهم، والسلام.

الرسالة: 88

ليعلم الواقف عليه ان جميع المنقطعين على وجه القراءة بزاوية المرابط الخير السيد محمد بن علي الرسموكي لا سبيل لأحد اليهم من (هلتيتة) وغيرهم، في محاسبة حركة، ولا سخرة، أيا كانت وتعينت، مراعاة في ذلك وجه الله العظيم، وثوابه الجسيم، والواقف عليه يعمل به، والسلام.

في ثالث جمادى الاخيرة اثنتين وتسعين وألف.

الرسالة: 89

يستقر هذا الامر الكريم، المتسم بنواسم التبجيل والتعظيم، بيد المرابط الخير البركة السيد محمد بن علي، يعلم منه أن أصحابه من (رسموكة) و(بعقيلة) و(سملالة) أنعمنا بزكاتهم وأعشارهم على طلبة مدرسته اعانة منا لوجه الله، على حق طلب التعليم المفروض، ونؤكد على الشيخ أحمد بن ابراهيم العسر، وكذلك على الشيخ ضاعز —لعل- بن الطالب وأحمد بن أحمد بن أحمد بن يعقوب وإخوانه ان لا يتطرقوا اليهم بساحة في شيء من الاشياء. ومن رام مد اليد اليهم. بمزاحمة أو غيرها تصله عقوبتنا وبحسبه يكون العمل، والله الموفق، والسلام.

في ثالث جمادى الاخيرة اثنين وتسعين وألف.

الرسالة: 90

محبنا السيد محمد بن علي المرابط الرسموكي، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فقد بلغنا ما أنت عليه من المحبة الصافية في هذه الدولة الشريفة، فجزاك الله خيرا، وبارك فيك، وأدام تصافيك، فالله الله في الاجتهاد والدعاء لنا بصلاح الاحوال، وسداد الافعال والاقوال، وحرض الناس على التمسك بطاعتنا، والبقاء على خدمتنا، الى أن يرونا عندهم في هذه الايام، بحول الله وقوته. والله على ما نقول وكيل. وقد أنعمت عليكم بما هو لبيت المال هناك ب (ولتيتة) وأحوازها بخط الوجاني (اسمن) و(انزي) و(انتر) وغابة (أمكور) وهي ما بين وادي (الغاس) و(اكليب) وغير ذلك من الاماكن المقيدة بخطه، اقطعناه لكم اقطاعا كليا، لما تمسكتم به من العلم والدين، سنة تسعين وألف.

الرسالة: 91

أنعمنا على خدامنا أهل (تامانارت) اخوان خديمنا القائد محمد التامانارتي كافة أحرارهم وحراطينهم بالرجوع لبلادهم وأصولهم وأراضيهم وجناتهم المعروفة لهم. وأمرناهم بالارتجاع، والسكنى ببلدهم (أكرض) كما كانوا، وأن يعمروها. فقد رددنا عليهم جميع متاعهم وأملاكهم وديارهم وأصولهم، وأسقطنا عنهم من ذلك جميع التكاليف والمطالب والتبعات، وحررناهم منها تحريرا دائما، محمولين فيه على كاهل المبرة والاكرام انعاما كليا. دائما بدوام الشهور والاعلام، من غير معارض لهم ولا منازع، رعيا لوجه أخيهم خديمنا الارضى القائد محمد التامانارتي، فاننا أردنا أن نوجهه لبلاده قائدا كما كان. وثبطناه قدر ما يسكنون ويوطئون له موضعه. وحسب الواقف عليه العمل بمقتضاه، والسلام.

في الرابع والعشرين في الربيع الثاني عام 1118 ه.

الرسالة: 92

مملوكنا أحمد العلج الذي عمدتنا بمعدن (تازالاغت) سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد فان كتابك الذي وجهته لخديمنا القائد محمد بن عبد الله التامانارتي بلغه لنا وقرأناه. وعرفنا مضمن خطابك، وما أنت عليه في خدمة ذلك المعدن، جزاك الله عنا خيرا. وهذا خديمنا القائد محمد التامانارتي المذكور، كثيرا ما أخبرنا بأنك أنت محتزم، وواقف على ساق الجد والحزم في أمورنا، وخدمتنا العلية بالله، جزاك الله عنا خيرا أحسنت أحسنت، الله يرضى عليك، ويزيد على عنايتك —لعل- والذي نؤكد به عليك انك تشد روحك في موضعك. واحتزم اليه، ورد بالك من كل جانب ومكان، ولا تغيب عنا الاخبار —كذا- تلك البلاد حيث كان. ورقاصك لا ينقطع عنا أبدا. ونؤكد له عليك ثانيا انك تتهلا في أولاد خديمنا القائد محمد التامانارتي ونستوصي بهم خيرا. وان احتاجوا الى شيء عندك فاقضي لهم. وعندك أن تفرط فيهم. وهؤلاء اخوانه اذا وردوا عليك بهذا الكتاب الكريم نأمرك أن تتهلا فيهم. وتستوصي بهم خيرا وإحسانا، وثق بهم في كل ما يبلغه عنا إليك —كذا- من أمورنا العلية بالله، وهذا أخوكم خديمنا القائد محمد التامانارتي، ها نحن ان شاء الله نبعثه في أثرهم لبلاده، ليبني داره ان شاء الله، ونوليه تلك البلاد ان شاء الله تعالى بحوله وقوته، وشد روحك ثم شد روحك في موضعك، ورد بالك لنا، والله سبحانه وتعالى يعينك على ما أنت عليه، والسلام.

وكتب رابع من جمادى الاولى (لعله من 1118 ه).

الرسالة: 93

ولدنا الأرضى مولاي عبد الملك أصلحك الله، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد فالمؤكد به عليك أصلحك الله وأثمر غرسك، هو أن تتهلا في حملته أولاد خديمنا القائد محمد التامانارتي، هذا الذي جاءنا، والذي هو بالبلاد، وعاملهم بالخير والاحسان، وراعهم لخدمة والدهم، ولملازمته الينا، وطول مكثه عندنا. حتى توفي رحمه الله، وان احتاجوك لبعض المقتضيات أقضيها لهم، واستوص بهم خيرا وإحسانا، فلا تسمع فيهم لقول قائل، والله تعالى بمنه يوفقك، ويرشدك بمنه ويمنه آمين، والسلام.

في أواسط ربيع (ثم لفظ المائة أو كلمة الثاني) عام ثلاثة وعشرين —لعل- وألف (أو سقط منه عشرين وبقيت المائة).

صح من أصله مع ما هو عليه. وطابعه في وسطه إسماعيل ابن الشريف الحسني وفقه الله. دون ما في دائرته مما لم أتبينه جيدا. فان صح أن تاريخ هذا الظهير 1123 ه.

الرسالة: 94

كتابنا هذا أسمى الله أمره، وأدام مجده وفخره، بيد خديمنا الانصح ومربي نعمتنا الاصلح: القائد محمد بن عبد الله التامانارتي وولده وإخوانه ليعرف به بحول الله وقوته، ويمنه وبركته، إننا وقرناهم واحترمناهم وحررنا لهم بلادهم وأرضهم وديارهم، وأجنتهم وأملاكهم، ومن انضاف اليهم من الاحرار والحراطين، والمرابطين، والمرابطين القاطنين معهم، وكذلك أهل الذمة، وكل من هو معهم ب(أكرض) وكل ما لزمهم، ووجب عليهم من الزكوات والاعشار يدفعونها لدار خديمنا القائد محمد التامانارتي، فهم إلينا ومنا إليهم، فلا يلزمهم شيء من المغارم والتكاليف السلطانية من كل ما سيجري على أهل (تامانارت) وغيرها من قبائل سوس. فقد صرفنا ما ينوبهم على دار خديمنا المذكور، لا يزاحمهم فيه مزاحم، ولا يعارضهم معارض. ونأمر ولدنا مولاي عبد الملك أصلحه الله أن يتهلا في أولاده ويحترمهم ويوقرهم ويعمل لهم بمضمون كتابنا هذا . أعزهم الله، ولا يترك من يتعدى عليهم في شيء، ومن ظلمهم أو تعدى عليهم فليحفر جذره –ولا يكلفهم أحد ولو بشربة ماء– والواقف عليه يعمل به والسلام.

في أوائل صفر الخير سنة 1127 ه.

وأعلاه طابع فيه مثل ما تقدم.

الرسالة: 95

على خديمنا الشيخ ابراهيم ابن خديمنا القائد محمد التامانارتي، سلام الله ورحمته وبركاته، عن اليمن والعافية، وبعد فاعلم أن والدك مع خديمنا القائد عبد الملك أما هدى أعطونا خبرك، إنك تحزمت في دارنا التي هي داركم. فذلك الظن بك، والمعتقد فيك. بارك الله فيك وأصلحك، والآن نأمرك أن تشد روحك فيها، فإنها قضيتنا، وكلامك معنا لا لغيرنا، ولا تنصت لكلام أحد كأننا من كان – ولا تعترر في أمورك. واحتزم في شغلك والله تعالى يعينك فيما أنت بصدده، ولا تخرج منها آناء الليل وأطراف النهار. فإن تلك البلاد بلدة الغدارين (حربيل) قبحهم الله. وإياك، ان خديمنا الشيخ مبارك بن عبد الله المرابطي وإخوانه، والشيخ أحمد أوبيهي المانوزي وإخوانه، والشيخ عبد العالي وإخوانه الساموكني تحزموا معك ووقفوا معك وقوف الجد والاجتهاد، في مصالحنا، وبنيان دارنا. وأعانوك على أعدائنا (حربيل) فالله يجازيهم عنا خيرا. ويعمرهم ولا يروا منا إلا ما يسرهم ويرضيهم بحول الله وقوته، ونأمرك أن لا تغيب عنا أخبار ذلك البلد. ما يزداد وما ينقص في تلك النواحي كلها. وكتبك لنا تأتينا على يد والدك، وعلى يد عبد الملك اوماهدى، فإنهما كثيرا ما شكروك ومدحوك بثناء الخير، فالله يكون في عونك، ويصلح حالك آمين والسلام.

في الثامن عشر من ربيع الثاني سبعة وعشرين ومائة وألف.

وأعلاه ذلك الطابع المذكور، وفي أواسطه بتر كما ترى.

الرسالة: 96

الأبر الأرضى ولدنا مولاي الشريف، أصلحه الله وخديمنا الباشا عبد الكريم بن منصور، سلام عليكما ورحمة الله وبركاته وبعد فاعلموا أن اخوان خديمنا القائد محمد التامانارتي حضروا لدينا بدارنا علية. وأتوا بما لديهم من ظهائرنا له ولأولاده، وبلادهم وما احتوت عليه من الاملاك والاجنة والسواقي، وكذلك أهل (اكرض) بوادي (تامانارت) من حراطين وأحرار وذميين وما انحازاليهم من سكان وغيرهم، يدفعون زكاتهم وأعشارهم ومطلبهم بيده بدار القائد محمد المذكور ب(تامانارت) وأخرجناهم من القبائل الذين هم بإزاءهم، فلا مدخل لهم فيهم. فقد أنعمنا لهم بهم، فلأنه خديمنا ومعتوقنا إلينا، يعني والينا، ومحبوب علينا فقد عرفتم ما كان بيننا وبينه، ونؤكد عليما أن تتهلا فيهما. ولا تترك من يطوف بأختهما، ولا يقربهما، وكذلك نؤكد على وصيفنا سعيد بن الخياط اتهلا فيها. هذا قليل في حقهما عندنا، وكل ما يحتاج اليه فاقصدوه لهما من الزرع وغيره، ولا تتركوا من يزاحمهم، ولا يترامى عليهم. فلأن القائد محمد خديمنا، وملازم بابنا، وعزيز علينا. دون من كان بسوس، فو الله الا كنا بنصروه ونستحيوا منه – كذا– فإياكم ثم إياكم أن يطوف أحد بساحتهم والسلام.

وفي سابع وعشرين رجب الفرد سنة ثمانية وعشرين ومائة وألف؟ وضمير التثنية لابراهيم ومنصور. كما يظهر، وأعلاه ذلك الطابع نفسه.

الرسالة: 97

كتابنا هذا أسمى الله تعالى أمره، وأطلع في المعالي شمسه المنيرة وبدره: ليعلم من وقف عليه من خدامنا ووصائفنا وأولادنا، أننا حررنا لخديمنا القائد محمد التامانارتي وأولاده بلادهم وأملاكهم، وأجنتهم وسواقيهم، أبقيناهم بها، وكذلك أهل (أكرض) بوادي (تامانارت) من حراطين وأحرار وذميين، ومن انحاز إليهم من سكان وجيران، يدفعون زكاتهم وأعشارهم ومطلبتهم ووظائفهم لدار خديمنا القائد محمد المذكور. فلا مدخل لهم من غيرهم من القبائل في كل شيء جليلها وحقيرها، فقد أنعمنا له بهم فلأنها دارنا، وهم خدامنا، وله الحق علينا. فلا ينازعه في كل منازع —ولا يعارضه معارض، والواقف عليه يعمل بمضمنه ومقتضاه في سابع وعشرين من رجب الفرد سنة ثمانية وعشرين ومائة وألف؟

وفوقه طابعه المتقدم.

الرسالة: 98

ولدنا الأرضى مولاي الشريف، أصلحك الله، وخديمنا الباشا عبد الكريم بن منصور، ووصيفنا سعيد بن الخياط، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد اعلموا أن اخوان خديمنا، ومربي نعمتنا، القائد محمد التامانارتي وردوا على مقامنا العالي بالله بهديتهم، وفرحنا بهم لوجه خديمنا، وحررناهم له ليتعاون بهم. وأنعمنا عليه بقبيلته (أكرض) أحرار وحراطين وأهل الذمة، وجميع ما احتوت عليه (أكرض) إنعاما كليا يجمع زكاتهم وأعشارهم ومغارمهم، وجميع ما يلزمهم من الوظائف المخزنية، والتكاليف السلطانية. قلت أو جلت، فمنهم لخديمنا المذكور ومنه إليهم، فلا مدخل لأحد غيره فيهم، كائنا من كان. واستوصوا خيرا بأولاده وقبيلته، وجميع ما يحتاجون عندكم اقضوه لهم ولابد. والسلام.

وكتب في الثاني من رمضان المبارك عام ثمانية وعشرين ومائة وألف.

وفوقه ذلك الطابع.

الرسالة: 99

خديمنا الحسن الحريبلي، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد أعلم أن القائد محمدا التامانارتي حين سمع أن الشيخ محمد بن كريش الاداوئلالي هو وولد السيد محمد تاركماط كتبنا لهم على البلاد التي ذكروها لنا وغشونا فيها، جاءنا بعد ذلك التامانارتي، وقال لي: نصرك الله، البلاد بلادي، وأنا اشتريتها، وفكرني في الشراء حين كنا محاصرين (تارودانت) حين كان مولاي الحران رحمه الله، وحضرنا له الشراء، وباذننا خلص ثمنها. ويخبرنا فيها، فاترك له بلاده، ولا تترك من يقربها له بوجه ولا بحال، فإنه رجل مسكين جربناه كم من مرة. فوجدناه لا ينقز على متاع الناس، وحين كانت بلاده وفي حوزه وفي ملكه وعلى يدنا، وهو هنا عندنا، فاتهلا فيه. ولا تترك من يتجاسر عليه وعلى أولاده وأملاكه وساقيته، وأينما كان في (تامانارت) وغيرها لا يقربه أحد فيها إلا أولاده، فانهم معاتيقنا، واقبض له متاعه من عند من كان لا ولديه ولا غيره –كذا ولعله لا الدوبنلالي ولا غيره– وكل من تعدى عليه اقطع له ظهره، وأولاده محررون موقرون، هم ومن معهم من أهل (أكرض) اعمل لهم أنت الخير، كما عمله لهم ولدنا مولاي الشريف، أصلحه الله، وخديمنا الباشا عبد الكريم، وجازيناهم بخير، واتهلا فيه أنت كذلك، والسلام.

في أوائل جمادى الثانية عام تسعة وعشرين ومائة وألف.

وفوقه الطابع المتقدم.

الرسالة: 100

إلى خديمنا الشيخ إبراهيم وإخوانه أولاد القائد محمد التامانارتي. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد ورد علينا ولدنا مولاي الشريف أصلحه الله ووصيفنا سعيد بن الخياط، وخديمنا عبد الكريم بن المنصور. ذكروا لنا أنكم أحزمتم معهم أرواحكم، ووقفتم وقوفا بالجد. وظهرت فيكم نصيحة الخدمة مع جيشنا السعيد الذي كان هنالك، فحتى الآن نحن أنعمنا عليكم من فضل الله بقبيلة أهل (أكرض) أحرارا وعبيدا، وما احتوت عليه من ذميين وغيرهم، من أهل (تاكاديرت) وآل (تيسلكيت) وأهل (تانغروت) وكافة (امريبض) يدفعون لكم مكاليفهم وزكاتهم وأعشارهم الواجبة عليهم، منهم اليكم، فلا مدخل لأحد فيما أنعمنا به عليكم، كان من كان. فقد حررناكم، ومن طاف بساحتكم أو قربكم فلا يلوم إلا نفسه، وكتبنا به والواقف عليه يعمل بضمنه، والسلام.

وفي ثاني رجب الفذ سنة تسعة وعشرين ومائة وألف.

وفوقه ذلك الطابع نفسه.

الرسالة: 101

كتابنا هذا أعزه الله وأسماه بيد الشيخ مبارك بن عبد الله المرابطي وخديمنا الشيخ محمد بن داود أزوكني، وخديمنا الشيخ محمد بن ابراهيم. وخديمنا عبيد، وخديمنا الشيخ عمر، وخديمنا الشيخ الحسن. يعلم الواقف عليه أننا أنعمنا عليهم بطلب أهل (تانغورت) وأهل (تاكاديرت) وزكاتهم وأعشارهم، يقبضها الاشياخ المذكورون من غير منازع لهم في ذلك. وكما أسقطنا عنهم الكلائف، والوظائف المخزنية. فلا يقربهم أحد، ولا يطوف بساحتهم، ومن رام التعدي أو ترامى عليهم، فلا يلومن إلا نفسه، والواقف عليه من خدامنا ووصائفنا، يعمل بمضمنه ويبقيه بأيديهم، والسلام.

وفي وسط صفر الخير سنة ثلاثين ومائة وألف.

وفوقه الطابع المتقدم.

الرسالة: 102

كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره. وأطلع في المعالي شمسه المنيرة وبدره. يستقر بيد أولاد خديمنا القائد محمد بن عبد الله التامانارتي، وقد أنعمنا عليهم ببلادهم وقبيلتهم أهل (أكرض) جملة، وما احتوت عليه من الحراطين والمرابطين وأهل الذمة —يقبضون منهم الواجب عليهم، منهم اليهم، وأسقطنا عنهم الكلائف بالكلية، والوظائف المخزنية لأنهم اشقاؤنا ووالدهم ملازم بابنا. فقد فوضنا لهم يقبضون منهم مطلبهم وزكاتهم وأعشارهم يستعينون بها على أنفسهم فمن قربهم أو طاف بساحتهم، أو رام التعدي عليهم فلا يلومن إلا نفسه. كائنا من كان، ونؤكد على الواقف عليه من خدامنا وولدنا عبد الملك أصلحه الله أن يتهلا فيهما، ويستوصى بهما خيرا، ويبقيهما على ما أنعمنا عليهما به. فلا يخرقن عليهما عادة سوى ما ذكرنا كما فعل معهم ولدنا الشريف أصلحه الله، وخديمنا عبد الكريم بن منصور، ووصيفنا سعيد بن الخياط فقد أحسنوا اليهما. وسرنا احسانهم اليهما، فلأنهم اعتقاؤنا، ووالدهم خديم نصيح في جانبنا، فلا نحب أن نسمع في جانبهما إلا خيرا، والواقف عليه يعمل بمضمنه ويبقيه بأيديهم، والسلام.

في أوائل ربيع النبوي المعظم سنة ثلاثين ومائة وألف.

وفوقه الطابع المذكور.

الرسالة: 103

كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره، وأطلع في المعالي شمسه المنيرة وبدره. ليعلم الواقف عليه من أولادنا وخدامنا ووصائفنا انا سمحنا للشيخ ابراهيم ولد خديمنا القائد محمد بن عبد الله التامانارتي. وأنعمنا عليه ببلاده وما احتوت عليه من قبيلة أهل (أكرض) وما انحاش اليها من الذميين وغيرهم يستعان بزكاتهم وأعشارهم. فمنهم اليه أحرارا وعبيدا، فلا مدخل لأحد فيهما، فلا يقربهما أحد. ولا يطوف بساحتهما بكلفة ولا وظيفة، كائنا من كان، فقد أنعمنا عليه إنعاما كليا، والواقف عليه يعمل بمضمنه، ولا يتعدى، والسلام.

وفي منتصف جمادى الثانية سنة ثلاثين ومائة وألف.

وفوقه طابعه المعهود فيما قبله.

الرسالة: 104

خديمنا الحسن الحريبلي، بعد السلام عليك. وبعد اعلم أننا حررنا لخديمنا القائد محمد التامانارتي، وأولاده بلادهم وأملاكهم وأجنتهم وسواقيهم وأبقيناهم بها. وكذلك أهل (أكرض) بوادي (تامانارت) من حراطين وأحرار وأهل الذمة. وما انحاز اليهم من سكان، فلا مدخل لهم مع غيرهم من القبائل في كل شيء، جليلها وحقيرها، فقد أنعمنا لهم بهم فلأنهم خدامنا، ولهم حق علينا، فلا ينازعهم في ذلك منازع. إنعاما تاما شاملا عاما. والواقف عليه يعمل بمقتضاه. ولا يتعرض لمن احتاج به ابداه. والسلام.

في مستهل المحرم الحرام فاتح سنةإحدى وثلاثين ومائة وألف.

الرسالة: 105

خديمنا القائد ابراهيم بن محمد التامانارتي. سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته. هذا وان أخاك خديمنا الشيخ منصورا ورد علينا مقامنا الاسمى بالله، زائرا ففرحنا به، وأقام عندنا في كرامة، وأحسن ضيافة، حيث دخل مع مقدمنا على يد خديمنا وربي نعمتنا الاحظى الباشا عبد الملك ابن عبد الله أماهري أصلحه الله، وأثمر غرسه. وهاهو اليوم رددناه إليك ردا جميلا، ونائبا عنك لدينا في الزيارة لعلي أعتابنا، فاتهلا فيه، فاتهلا فيه، واستوص به خيرا واحسانا. وقد أعجبنا عقله ومروءته، ولا تفرط فيه. وهو ان شاء الله الواسطة لك معنا بحول الله تعالى وقوته. وأنت نأمرك أمرا أكيدا محتما شديدا أن تشد روحك في الخدمة والمحلة. وبذل النصيحة لنا ولمن هو على أيدينا، تربح وتغنم ان شاء الله دنيا وآخرى وأنت عندنا تمت بمثابة والدك في كل شيء. وكلام قبيلتك وجماعتك أهل (تامانارت) جعلناه بيدك، والى تحت نظرك كافة، من غير معارض لك فيه ولا منازع، عليه ولا مدافع. وحددنا لك على كل ما كان بيد والدك المرحوم بكرم الله تعالى خديمنا القائد محمد، فشد روحك في الخدمة والمحبة، كما وصفك لنا خديمنا قبل الباشا عبد الملك ابن عبد اللخ السماهري، فانه يمدحك ويثني بالخير عليك. وحمر وجهه فيما قال لنا فيك. وحل فيه عندنا بمحضر الخاص والعام-يعني حل فاه- ولا لك فينا ان شاء الله ان كنت على هذا إلا الخير التام

العاجل والآجل بحول الله تعالى وقوته. والله تعالى تبارك يعينك ويوفقه بمنه آمين.

وفي أواسط ربيع الثاني عام ثلاثة وثلاثين ومائة وألف.

وفوقه الطابع المذكور.

الرسالة: 106

ليعلم الواقف على مسطورنا هذا أعزه الله أننا أذنا لحامله خديمنا عبد الرحمان ولد القائد محمد التامانارتي أن يقدم لبلده، يتفقد إخوانه، وينظر أهله وأحواله، فلا يتعرض له أحد على ذلك ولا يمنعه منه. فمن وقف عليه فليترك سبيله ويباعد جانبه، والسلام في الثاني عشر من رمضان المبارك عام ثمانية وثلاثين ومائة وألف.

وازاءه طابع إسماعيلي على شكل آخر كأنه بيضاوي الشكل.

الرسالة: 107

كافة أهل (تامانارت) أخص منهم الطالب ابراهيم، ولد خديمنا القائد محمد التامانارتي. سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد اعلموا أن من فضل الله علينا ومن عوائده الجسيمة لنا أن ولانا الله سبحانه أمر هذه الامة المحمدية، وصرف لنا بمنه رعاية هذه الرعية، ويوم الكتب اليكم أخذنا العهد مع الله ومع أهل البيعة من العلماء والفقهاء والمرابطين، وانكملت بيعتنا لله الحمد وله المنة. واليوم بنفس وصول كتابنا هذا اليكم أقدموا علينا عزما دون توان ولا تراخ لتكمل بيعتكم بين أيدينا، وترجعوا لبلادكم وأسبابكم ومعاشكم، سالمين غانمين ان شاء الله، لأن الله تعالى قال: (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، ولا عدو لنا الا الشيطان ومن يجرى مجراه، وأمان الله عليكم في أموالكم وأنفسكم، ولا أردناكم الا أن تأتونا برماتكم بين أهل هذا القطر السوسي، فنقد أعناق العادين وغيرهم من أهل الفساد والضلال. وكفى الله بحديث المصطفى صلى الله وسلم عليه: أن من مات من غير إمام مات موتة جاهلية. والله المسؤول، ومنه أرجو الاعانة والقبول في توفيقكم وهدايتكم الى واضح الطريق بالنبي وأبي بكر الصديق والسلام.

في ثالث عشر من شعبان عام 1139 ه.

وفوقه طابع كبير، في وسطه عبد الملك بن أمير المومنين الله وليه ومولاه، وفي دائرته:

ومن تكن برسول الله نصرته ان تلقه الاسد في آجاتها تجم

الرسالة: 108

كتابنا هذا أيده الله وأعز أمره واطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره ... بيد المرابطين رتنانة من السادات الرجراجيين الذين هم ... لأن يتعرف من يقف عليه، أننا جددنا لهم على حكم ... الاكرام، وجددنا لهم على محارثهم المعهودة لهم ولأسلافهم ... من يقف عليه من الولاة وغيرهم أن لا يهتك ما عهد لذلك المقام من ... ومن رامه بسوء أو نقص أو زيادة لا يلومن إلا نفسه ولا سبيل لأحد من العرب ولا من ... بقي بتلك المرسى من أهلها الموقرين المحترمين تجديدا تاما، مطلقا عاما. والواقف ... والسلام.

وفي عاشر رجب الفرد المبارك عام ثمانية عشر ومائة وألف.

الرسالة: 109

كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، وبنى له الفتح المبين وسره آمين. بأيدي حملته المرابطين رتنانة أهل زاوية الولي الصالح سيدي حسين بن بوزيد بن الياس الركراكي، وهم السيد عبد العزيز بن السيد ابراهيم والسيد أحمد بن أحمد، يتعرف منه بحول الله وقوته أننا أبقيناهم على ماهم عليه من التوقير والاحترام، والرعي الجميل المستدام ... ونأمر جيرانهم وخدامنا الساكنين بقصبة ... أن يوقروهم ويحترموهم الاحترام الكلي والواقف عليه يعمل به والسلام.

وكتب في الرابع والعشرين من صفر الخير عام عشرين ومائة وألف.

الرسالة: 110

محبنا السيد محمد بن احميدة الرجراجي يتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته أننا جددنا له حكم ما بيده من ظهائرنا الكريمة الشريفة العلوية على كافة جميع إخوانه من جميع زوايا رجراجة أين ما كانوا، إذ هو كبيرهم ومقدمهم ومتولي أمرهم وأسندنا إليه النظر في أحكام زوايا رجراجة بحيث لا يخالف أحد أمره فيهم كائنا من كان وعليهم هم بالسمع والطاعة والإنصات لكلامه فيهم إذ هو القائم بأمور مصالح زواياهم وتصرفاتهم وأحكامهم وقد أمرنا أن يقبض زكاتهم وأعشارهم من أقواياتهم ويردها على ضعفائهم ومساكينهم وعليه بتقوى الله العظيم في السر والعلانية ومراقبة قول النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به ومن ولي من أمتي شيئا فسقق عليه. ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم مستجابة تجديدا تاما وحسب الواقف عليه يعمل به والسلام.

وكتب في الثاني والعشرين من رجب الفرد عام 1128 ه.

الرسالة: 111

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله (الطابع السلطاني بداخله إسماعيل بن الشريف)

خديمنا الطالب عبد الله بن يشو سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فنأمرك بأن تفارق خدامنا أولاد القاضي الراكبين مع خديمنا القائد عمر بن حدو ولا تتعدى على إخوانكم في شيء، من الأشياء، وقد تشكوا على جنابنا العالي بالله، ومهما ورد عليك أحد من الخدام أو غيرهم تسيره في ديارهم وتربط الخيل والدواب في زرعهم، فوالله العظيم إن عدت إلى ما فات وبلغنا نبأه حتى ننزلك من الشياخة وتعاقب العقوبة الشديدة، ففارقهم واترك سبيلهم، وكتابنا هذا يبقى بيدهم تقوية لظهائرنا التي بأيديهم، والسلام.

وفي الحادي والعشرين من صفر الخير عام تسعة وثمانين وألف.

الرسالة: 112

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

(الطابع السلطاني بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني)

كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره، بيد حملته أبناءنا الشرفاء، السيد عيسى بن محمد بن عبد القادر وأخيه السيد ... وأولادهم وإخوتهم السيد يوسف بن عابد والسيد عبد الله يتعرف منه أننا أسبلنا عليهم أردية التوقير والاحترام، وحملناهم على كاهل المبرة والإكرام، وحاشيناهم عن جميع ما يطالب به العوام، وأبقيناهم على ماهو مسطر في ظهائر أجدادنا التي ... ال

شرفاء فيها والخيام القدماء ... بلا معارض لهم ولا منازع، والواقف عليه يعمل به، والسلام.

وفي سابع شوال اثنين ومائة وألف.

الرسالة: 113

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

(الطابع السلطاني بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني)

يستقر هذا الظهير الكريم، والأمر المحتم الصميم، المتلقى بالإجلال والتعظيم، بيد حامله المرابط الخير الأوجه السيد محمد بن المرابط الأرضى السيد محمد سليل الولي الصالح سيدي يعقوب دفين رشيدة نفعنا الله به يتعرف منه أنا أسندنا إليه نظر زاويتهم التي كان عليها أبوه وعمه رحمهما الله، وقدمناه على سائر ما إليهم من الزوايا وغيرها بحيث لا تكلم لأحد هنالك إلا له، تقديما تاما حسب الواقف عليه العمل به ولابد.

كما جددنا لكافة إخوانه المرابطين أولاد الولي المذكور على ما لهم من التعلقات والضروريات والتباعات والخماسين الذين لهم أينما كانوا بحيث لا سبيل لمن يمد إليهم يدا بالتعدي بوجه من الوجوه.

فمن وقف عليه يداوم على توقيرهم وتعزيزهم ولا يتعداه ولابد، والسلام.

في تاسع قعدة عام سبعة ومائة وألف.

الرسالة: 114

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

(الطابع السلطاني بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني)

كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، بيد حامليه المرابطين أهل زاوية سيدي يعقوب برشيدة يتعرف منه بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركته، أنا أنعمنا عليهم بالتوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام، وحاشيناهم من جميع الوظائف المخزنية والتكاليف السلطانية، بحيث لا يطالبون بشيء قل أو جل، سوى زكاتهم وأعشارهم الواجب ذلك عليهم شرعا، فقد جعلنا تفرقتها والنظر في أمورهم وكافة شؤونهم وأمر الزاوية وما تحتاج إليه لأخيكم السيد محمد بن محمد بحيث لا يعارضه في ذلك معارض، ولا ينازعه منازع.

ونأمر جميع أهل الزاوية أن يكونوا سامعين لما يأمرهم به، ومجتنبين لما ينهاهم عنه.

كما جعلنا له أن يخص بتفرقة الزكاة والأعشار المذكورين الفقراء والمساكين من أهل الزاوية الذين جعلنا له النظر عليهم.

وحسب الواقف عليه أن يعمل بمقتضاه ولا يتعداه، والسلام.

وكتب بتاريخ تاسع عشر ذي القعدة الحرام عام ثمانية ومائة وألف.

الرسالة: 115

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

عن الأمر العلي الإمامي المؤيد المنصور أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين ...

(طابع السلطان مولاي إسماعيل)

يستقر هذا الظهير الكريم، والخطاب الجسيم، بيد محبنا الأرضى الشريف الأنور السيد عيسى الوكيلي يتعرف منه أننا أبقيناه وزاويته ... على ما هي عليه من التوقير والاحترام، والحمل على كاهل المبرة والإكرام، والرعي الجميل المستدام، والمحاشاة عما تطالب به العوام، فلا سبيل لمن يرومه أو زاويته بقليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير، وكذلك خماميسه وخماميس ... وأخواله من بني موسى بوجمعة بن علي وولده موسى و ... مالهم من التوقير والاحترام، وعملنا له ... أوفر إليها أو لاذ بها أو استجار بها فهو ... به الأحكام الشرعية ... أصلحه الله وكافة عمالنا المتولين أمر هذا القطر ... هذه الزاوية المباركة على ماسطر أعلاه، وأن يعمل ... الأمر العلي وأمضاه، وحسب الواقف عليه العمل به والسلام.

في خامس عشر محرم الحرام فاتح عام ثلاثة عشر ومائة وألف.

الرسالة: 116

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

(الطابع السلطاني بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني)

كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره يتعرف منه بحول الله وقوته، أنا تركنا لحملته المرابطين أحبائنا أهل رشيدة أولاد سيدي أبي يعقوب نفعنا الله به جميع خماميسهم وأصحابهم وشركائهم المعروفين لهم من قديم ومن خلف عن سلف والمذكورين في ظهائرنا وبراواتنا السلطانية التي بأيديهم، ولا سبيل لأحد عليهم أن يرحلهم عنهم أو يزاحمهم فيهم في وجه من الوجوه، ومن رام مزاحمتهم أو حام بحماهم لأجلهم لا يلومن إلا نفسه، وهم أولاد أبي صالح القاطنين بمليلوا، ونؤكد على إخوانهم أولاد بوزيد وأولاد الزوا أن لا يلحق ... أبدا، وزكاة السادة المرابطين المذكورين وأعشارهم أذنا لهم في دفعها لأهل الضعف والمسكنة منهم، ولا مطمع لأحد فيها سواء أبدا ولابد.

وحسب الواقف عليه العمل به ولابد، والسلام.

وفي العشرين من جمادى الأولى عام خمسة عشر ومائة وألف.

الرسالة: 117

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما عن أمر عبد الله المتوكل على الله المفوض أموره إليه أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين

(الطابع السلطاني بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني)

أيد الله بعزيز نصره أوامره، وظفر جنوده المباركة وعساكره، آمين.

يستقر هذا الظهير الكريم، والأمر المحتم الصميم، المتلقى بالإجلال والتعظيم، بيد ماسكه الواثق بالله ثم به، الفقيه الأجل، الشريف المبجل، القاضي الأعدل، ابن عمنا، وأقرب الناس إلينا، السيد علي بن عبد السلام بن عبد الوهاب الحسني العلمي يتعرف منه بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركته، أنا جددنا له حكم ما بيده من ظهيرنا الكريم، المبجل الفخيم، المتضمن نقابة الأشراف على سائر القطر المغربي وأقصرنا حكمها عليه دون غيره، وكذلك احترمنا له أصحابه وخماميسه ورعاته من جميع التكاليف كلها، والتباعات بأسرها، قلت أو جلت، لمحبته لجانبنا العلي بالله تعالى ومصاهرته معنا.

وبمثل ذلك الاحترام التام، والتوقير العام، احترمنا أخويه الخيرين الجليلين السيد عمر والسيد الطاهر وأصحابهم وخماميسهم ورعاتهم ووقرناهم لهم توقيرا تاما، مطلقا عاما، من غير معارض لهم في ذلك ولا منازع، ولا مزاحم ولا مدافع، والواقف عليه يعمل به، ولا يحيد عن كريم مذهبه.

وحرر في ذي الحجة الحرام عام ثلاثة وعشرين ومائة وألف.

الرسالة: 118

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه عن الأمر العلي الإمامي السلطاني الإسماعيلي الشريف الحسني (الطابع السلطاني بداخله إسماعيل بن الشريف الحسني)

جددنا بحول الله وقوته، ونصره وتأييده ومعونته، بهذا الكتاب الكريم، ذي الأمر المطاع المحتم الصميم، المتلقى بالدوام والإجلال والتعظيم، لحامله خديمنا الفقيه السيد عبد السلام بن خديمنا السيد الحاج عبد الواحد غريط الأندلسي، وأولاده السيد محمد العربي، والسيد عبد الواحد المدعو الكبير، والسيد محمد الطيب، ومحمد، على التوقير والاحترام، والتنزه عن كل مسئلة أو تباعة يخاطب بهاالعوام، فقد أسقطنا عنه وعن أولاده جميع المطالب والكلف والوظائف والتبعات جلت أم قلت، شملت أم عمت، من غير متابع لهم ولا مطالب في قلامة ظفر على الدوام، وممر الليالي والأيام، والشهور والأعوام، جزناه وأولاده لوجه الله تعالى ولقراءتهم العلم وتدريسهم ومواظبتهم عليه، ومحبتهم لجانبنا العلي بالله تعالى، ونسأل الله تعالى أن يدخر لنا أجرهم وثوابهم آمين.

ونأمر من يقف على هذا الكتاب الأسمى السعيد أن لا يخرق عليهم عادة من كافة أولادنا وفرهم الله وخدامنا ووصفائنا وأهل حضرتنا العلية بالله تعالى مكناسة الزيتون حرسها الله، وأن يتركونهم على ما أنعمنا به عليهم من التوقير

والاحترام، والملاحظة إليهم بالمبرة والإكرام، ومن رامهم بإذاية أو سوء، أو تابعهم في قليل أو كثير، أو جليل أو حقير، نحفر جذره، ونقسم ظهره، كائنا من كان.

والواقف عليه يعمل به بالدوام، ولا يحيد عن كريم مذهبه والسلام.

وفي مهل شهر الله جمادى الثانية عام ستة وعشرين ومائة وألف سنة.

الرسالة: 119

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الاولين والأخرين سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

أشهد على نفسه الكريمة المطهرة سيدنا أمير المؤمنين، وناصر الدين المجاهد في سبيل الله رب العالمين مولانا اسماعيل بن مولانا الشريف الغني بحسبه ونسبه عن التعريف.

أنه أمر خديمه ورب نعمه الحاج محمد بن ابراهيم معنينو على واجب بيت مال المسلمين عمره الله المحتمل من جميع مشاهد تحت يده والى نظره من مستفاد المرستين، مرسى سلا ومرسى آسفي عمرهما الله، وحاطهما من جليل الأشياء وصغيرها قليلها وكثيرها، كما أمنه أيده الله على سائر ما كان يتصرف فيه من أنواع الخدمة أيا كانت برية أو بحرية، على أن يدفع خديمه المذكور في يده الكريمة جميع ما يتصل ويعينه الله عليه من الأمور بغير واسطة من قريب أو بعيد ولا ير لأحد عليه كائنا من كان كلامه وحسابه في سائر تصرفاته كلها، ومعاملاته بأسرها مع مولانا المنصور بالله، كما أشهد على نفسه الكريمة أيضا أن خديمه المذكور إذا دفع واجب بيت المال على سبيل الأمانة والكمال، واختصر هو لنفسه بكرائه الواجب، وقبض حقه وواجبه الحقيقي من المال وليأكله بالصحة والعافية واليمن والبركة، فهذا ما وقع عليه الاختيار، والاتفاق بمحضر خصوص الخدام لمقام مولانا الامام، واشهدهم على نفسه الكريمة شهادة لا يرجع عنها وحرض

خديمه الحاج محمد بن ابراهيم معنينو المذكور أن يتقلد جميع الأمور المسندة إليه على أحسن وجه وأكمله، والسلام في ستة وعشرين ومائة وألف.

الرسالة: 120

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

أيد الله أمره وأعز بحوله وطول نصره واطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره آمين يا رب العالمين.

يستقر هذا الظهير الكريم والخطاب الجسيم والأمر المحتم الصميم بيد حامله المتمسك بالله تعالى ثم به خديمنا الانصح وربي نعمنا الأمين الأملح الحاج محمد بن ابراهيم معنينو يعرف من يقف عليه وينهي اليه من الخدام والوصفان ومن ولاه أوامرنا العلية بالله أنا لما اختبرناه ظاهرا وباطنا وسرا وجهرا فتحققنا صدقه وأمانته ومحبته الطبيعية لجانبنا العلي بالله مكانته المؤسسة على سبيل الحق وقواعده وأركانه أنستنا حسن سيرته معنا ونصيحته الطاهرة لخدمة دارنا العلية بالله، وقد أسدلنا عليه كامل التوفيق والاحترام، وأمناه الايمان التام المطلق الشامل العام هو وأولاده وأهله وأقاربه والمنسبين إليه في نفسه وماله وسائر أحواله، واعتبرنا كذلك كل وساطاته وملاحظاته في جميع ما يتكلم به وما يذكره في بساطنا العلي بالله من أمر الخاص والعام وبسبب أمانته وكرمه ودينه ومحافظته على عرضه أسندنا إليه النظر وفوضنا إليه الأمر فيما عنده من التقديم على المرستين والعدوتين بسلا ورباط الفتح أمنهما الله ومرسى آسفي حاطها الله كما أمناه على سائر الخدمة البرية والبحرية أيا كانت وكيف تعينت

وجعلنا كلامه في جميع ذلك بيننا وبينه منه إلينا ومنا إليه بحيث لا يدخل بيننا وبينه أحد فكلامه معنا من غير واسطة من أهل البساط والخدام كائنا من كان على الاستمرار والدوام، وجعلنا له بعد أن يبلغ لبيت المال عمره الله ما أفاء الله عليه من محصل ما بينه من المستفاد في المرستين المذكورتين وغيرهم مما اسندناه إليه واقتصرنا في شأنه عليه أن يأخذ أجرته ويصرفها في مصلحته، وأكلها حلالا طيبا مباركا له فيها إذنا تاما مطلقا عاما أشهدنا على أنفسنا الله تعالى في ذلك وجميع من يطالع ظهيرنا هذا من القريب والبعيد والقضاة والخاص والعام، والله يقبض ويبسط وجعل الحق لسبيله وحليته وحسب الواقف عليه أن يعمل بمقتضاه ولا يتعدى ما أمر به الأمر الشريف وأمضاه والسلام في العشرين من جمادى الأولى عام ثمانية وعشرين ومائة وآلف.

عن الأمر العلي الإمامي الأبدي المنصوري الإسماعيلي الهاشمي الفاطمي أمير المؤمنين والمجاهدين في سبيل رب العالمين الشريف الحسني.

الرسالة: 121

بسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الطابع الشريف : السلطان مولاي اسماعيل

أيد الله بعزيز نصره وأوامره وبحفز جنوده وعساكره وخلد مفاخره ومآثره آمين.

يشعر بعون الله تعالى هذا الظهير المبارك المحفوف بالخير المبارك بيد حامله خديمنا ومحل ودنا الوجيه الأرضى الأثير الأحضى محبنا وولي نعمنا السيد الحاج محمد بن السيد الحاج بن ابراهيم السلاوي يتعرف منه أننا احببناه وأثرناه وألفناه أمر المراسي المباركة والمحفوظة بحفظه مرسى سلا حرسها الله وأسندنا إليه النظر في أحكامها وتصرفاتها وأعمالها في جميع أحوالها مفوضا إليه في النظر في السائر التجاري، والكلام معهم وقبض الداخل والخارج وسائر المنافع والمرافق مما جرت به العادة في ذلك من غير معارض ولا منازع وكذلك اسندنا إليه النظر في القضايا التي تجري بين العدوتين بجميع منافعها ومواجبها تولية مطلقة عامة والله يرزقه من التوفيق والتسديد ويرزقه من خزانته الواسعة بمنه آمين، وحيث كان خديمنا المذكور ملازما لبساطنا الشريف وعاكفا على الاستظلال بظله الوارف فقد اذنا له أن يستتيب ولد عمه السيد محمد بن علي معنينو والحاج عامر حركات ينوبان عنه في المرسى المحروسة ومباشرة سائر

منافعها ويقومان مقامه في جميع الأحوال والإستقامة في الفعل سالكين في خطهما سبيل أمناء التجار وثقات المسلمين.

وفي الخامس من ربيع الثاني ستة وعشرين ومائة وألف.

الرسالة: 122

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

نص الطابع: اسماعيل بن الشريف الحسني رعاه الله اليمن والإقبال وبلوغ الآمال.

خديمنا الطاهر معنينو وكافة أهل سلا سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد، فإن اولائك الإيماء اللاتي بعثنا لكم على يد خديمنا الأنصح الحاج محمد معنينو بقصد التعليم والقراءة والأدب والخياطة والرقم والطبخ وغيره، فاعتنوا بهن واحتزموا معهن بما أمرناكم به فإنه لولا ثقتي بصاحبكم وكبيركم خديمنا الحاج محمد معنينو ما بعثناهن فكان من حقكم تشكرون الله على نعمه التي أولاكم على يده وتحتزموا في تعليمهن وتربيتهن.

ولا يدع أحد منكم واحدة للخروج من فائدة، ومن كانت عنده أمة منهن وتركها للخروج أو من غير تربية ولا فائدة ولا أدب نقطع رأسه.

وأدبوهن واحسنوا تأديبهن وكونوا مثل أخيكم وكبيركم في الثقة والمحبة في خدمتنا وطاعتنا والسلام.

كما نأمر خديمنا الطاهر أن يرسم كل أمة باسمها وسنها على من هي عنده ويحرضه على تعليمها وأدبها بالعدول وكل من ضاعت عنه أمة لتفريطه لها وقلة المبالاة بها نقطع رأسه ونحفر جدره والسلام.

في ربيع الخير النبوي المبارك المفضل عام سبعة وثلاثين ومائة وألف.

الرسالة: 123

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

نص الطابع: اسماعيل بن الشريف الحسني رعاه الله اليمن والإقبال وبلوغ الآمال.

كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، وأدام مجده وفخره، وأطلع في سماء المعالي شمسه وبدره: يتعرف منه بحول الله وقوته، وجميل عنايته ومنته أنه لما ثبت لدينا بموجب الشرع الكريم استغراق ذمة أولاد أبي قاع القاطنين بمحروسة سلا أمنها الله، وحكم عليهم بذالك بفتاوي أهل العلم —حفظهم الله- وحيزت أملاكهم جميعا: دورا وحوانيت وأرضين وأجنات وسواني وفندقا ودور عمل الصابون، داخل المدينة المذكورة وخارجها: من ملاليح وغيرها، حسبما ذلك كله مقيد ومبين في رسم استغراق ذمتهم: حبسناها على مسجد قصبتنا السعيدة التي أحدثنا بناءها بجوار الولي الصالح سيدي موسى الدكالي، المسماة بالحريشة. يصرف ما يتحصل عن مستفاد الأملاك المذكورة وغلتها في مصالح المسجد المذكور، ما عدى مائة أوقية أنعمنا بها على الفقيه المدرس السيد سعيد العميري، تعطى له من مستفاد الأملاك المذكورة في كل شهر، إعانة له على تدريس العلم بحضرتنا الهاشمية، أسماها الله. وإن تخلى عنها ترجع للمسجد المذكور. حبسا مؤبدا،

ووقفا مخلدا . والله حسيب من بدل أو غير، وولي الانتقام منه، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. والسلام.

وفي أوائل ربيع النبوي الأنور عام أربعة وعشرين ومائة وألف.

الرسالة: 124

بسم الله الرحمان الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (الطابع الاسماعيلي الشريف)

إلى عظيم الروم، وكبير مملكة فرنسية، لويز الرابع عشر.

السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فإنه لما ورد على إيالتنا السعيدة خديمكم الأنباشضور، عرفنا بخبر مجيئه خديمنا الأنصح الأرضى القائد علي بن عبد الله، وطلب منا الإذن في قدومه لحضرتنا العلية بالله، فأذنا له في القدوم، وكنا نحسبه ما جاء إلا بسبب أمور أكيدة، ومسائل مهمات كبار، بحيث نقضوا منكم جميع ما نريده، وتقضوا منا جميع ما تريده.

فلما وصل إلى مقامنا العلي بالله، وتكلمنا معه، واختبرناه، ما وجدنا عنده إلا الكلام في الأسارى، ولا وجدنا بيده تفويض عام يتضمن العقد والحل فيما هو زائد على مسألة الأسارى، فاستصغرنا ذلك، حيث ما وجدنا مع من نتكلم في مهمات الأمور العظام.

ولا يخفى أن هذه المسألة التي جاء لأجلها وبسببها يقوم بقضائها تاجر من التجار، ممن هو أدنى رتبة منه.

ولما انفصل عنا، راجعنا في قضيته خديمنا الأنصح، القائد علي بن عبد الله، بما أسندنا إليه من التفويض عن علي أمرنا في جميع مراسينا وما يواليها من

المدن والقرى والقبائل، فأذنا له في الكلام معه، وفوضنا له في كل ما يعقده ويبرمه في امسائل المهمات الكبار، إن كان بيد خديمكم تفويض لا ينقض ولا يحل، هو بيد خديمنا، فليعمل معه خديمنا بحسب ما يظهر له في الحال أو في الاستقبال.

والسلام على من اتبع الهدى.

وفي العاشر من ذي الحجة متم أربعة ومائة وألف.

(10 ذي الحجة 12/1104 غشت 1693)

الرسالة: 125

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا معبود إلا سواه، لا إلاه إلا هو، سبحانه وتعالى عما يشركون.

عن أمر عبد الله، المتوكل على الله، المفوض جميع أموره إلى الله، أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الشريف الحسني:

الطابع الإسماعيلي الشريف.

أيده الله بعزيز نصره، وأمده الله بمعونته ويسره، وخلد في الصالحات شريف ذكره، آمين يارب العالمين.

إلى عظيم الفرنسيس، وطاغية الإفرنج، وصاحب باريز، وكافة مملكة فرنسية، المعظم في جنسه، لويش الرابع عشر من هذا الإسم، الوارث ملك الإفرنج عن آبائه وأسلافه.

السلام على من اتبع الهدى. أمابعد، فإنه حيث ورد صاحبك القبطان الذي بالبحر، إلى مرسى سلا أمنها الله، وطلب الكلام مع صاحبنا قبطان البحر الأرضى الأحضى، الرئيس عبد الله ابن عائشة فأذنا في الكلام معه وحين رجع إلينا بما عقده معه في المهادنة البحرية، وجهناه إليكم أنباشدورا من عندنا، وسفيرا من جانبنا العلي بالله.

وهو وإن كان معروفا برياسة البحر، فله لدى مقامنا العلي بالله مزيد عناية وإكرام وأثرة وحظوة، فأقدروه قدره، وأنزلوه محله، وكل ما تعقدونه معه وتبرمونه

أنتم وإياه من القوانين الجارية في أمور الأسارى أو غيرهم من عوائد البحر وأموره، فقد فوضناه له فيه، وأذنا له أن يتكلم معك به، فإننا مقررون له ذلك، وموكلون له فيه بحول الله وقوته.

وهذه المراسلة، لا خفاء انها جارية في العوائد بين الملوك قديما وحديثا ومستحسنة، ولها في السنة أصل، وفي الشريعة مأخذ، وخصوصا أنت مع جانبنا العلي بالله. هذا، وكنا من أجل ذلك نعرف لك بعض الحق من كثرة موالاتك لصاحب إصطنبول الذي هو ملك ملوك الإسلام، وله معرفة بقدرنا، ومحبة في جنابنا، ونحن نحبه ونوقره، ونرى له من الحق الواجب علينا ما لم نره لغيره، لخدمته للحرمين الشريفين، فالله، الله، الله في جانبه وموالاته بأنواع الخير كله على الدوام. وصاحبنا القبطان ابن عائشة لا يأتينا عنك إلا راضيا مرضيا في جميع أحواله.

وفي ثالث وعشري ربيع النبوي المفضل، عام عشرة ومائة وألف. اه.

(23 ربيع النبوي المفضل 29/1110 شتنبر 1698)

الرسالة: 126

الحمد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عن الأمر العلي بالله الإمامي السلطاني الهاشمي الشريف أسماه الله وأعز في صعود المعالي ذكره، آمين.

الطابع الإسماعيلي الشريف

إلى طاغية فرانصية، وملكها، لويس الرابع عشر من إسمه.

بعد السلام على من اتبع الهدى.

إعلم أن صاحبنا، وخديم بساطنا الشريف من قديم، قبطان البحر، عبد الله ابن عيشة، لما جاءنا من بلادكم، وحدثنا بما لقي منكم، ومن أصحاب ديوانكم، حتى فهمناه، ورسخ في سمعنا، عذرناه لطول مكثه عندكم بلا فائدة عقد عليها، وكاتبتمونا بعده، فلم نر من كتبكم ما يسر به العاقل، لاسيما ومكاتب الملوك لا يكون فيها إلا كلام الصق بلا كذب ولا تلوية المعاني، فذلك نقصان في حق الأمراء ما يرضاه أحد، وقلتم في حقه: إنه جاءكم بكتابنا الشريف بلا تفويض، فرددتموه بلا فائدة، وفسختم ما كان عقده مع قبطان سفنكم، وكذبتموه فيما وجهتموه له من طرف إسطري من عقدة قانون البحر، فكان على ابن عائشة حينئذ من أول ما رأى من أصحابك وتقلبهم في الكلام، وتجرجر أموره أن يرجع إلينا من حينه ووقته، فمالنا حاجة عندكم، ولا أحوجنا الله إليها أصلا، إلا أنه هو كان السبب في طلبه القدوم إليكم، ليرى من أين يعقد الحبل، وذهب ليحله، فاشتغلت وأصحابك تشترطوا عليه شروط التعنيف والتحريف، كشروطكم التي أريتموها

إياه مع غيره. فنحن والحمد لله مخازننا المحوطة بعين رعاية الله مملوءة من كل خير مدخرة من فضل الله سبحانه من الأموال والعدة وآلات الحرب مالا يعد ولا يحصى، فما جاءنا شركم ولا صلحكم في شيء.

وحيث وقع الكلام بينكم وبين خديمنا المذكور، ها نحن زدناه من فضل الله سبحانه عزا وتفويضا في جميع ما يظهر له العمل معكم ومع غيركم، لأنه ألح علي كثيرا، ورغبني فيما يرى من صلاح المسلمين ليتم أمره، فأذناه وكملنا له في كل شيء اهتم به، وهكذا هو فيما يراه الناس واقف على ساق الجد في خدمة ضيفه.

وابن عيشة، لا يخفى على أحد، لطول خدمته مقامنا الشريف، فلو كان رماه الوقت ببلاد أحد أجناس النصارى بغير قصد، وعقد معهم ما عسى أن يعقده معهم، وجاء به إلى خاصة المسلمين وعامتهم، لعلموا به وقبلوه، فبأحرى أنه كان عندكم بكتابنا الأسمى، وبعثناه من حضرة بساطنا الأحمى، ورددتموه كما قدمنا لكم. والآن، ها نحن قلنا له يكتب لأصحابك ووزرائك الذين تكلم معهم فيما تكلم به، وقد بقي في قلبه ذلك، فإذا كان ما يرضيه من صحيح القول والفعل مع أهل ديوانك، فقد أذناه يتكلم معكم ومع غيركم، انتهى.

أواخر شهر ربيع الأول الأعظم عام أحد عشر ومائة وألف.

(أواخر ربيع الأول 1111/16–25 شتنبر 1699)

الرسالة: 127

بسم الله الرحمان الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم

عن أمر عبد الله تعالى، المتوكل على الله، المفوض أمره في سائر أحواله، وجميع أقواله وأفعاله، إلى خالقه ومولاه، أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني، أبد الله سلطانه، ومهد بالعافية أوطانه.

الطابع الإسماعيلي الشريف

إلى عظيم الروم وكبيرها، ومالك أزمة أحكامها وتدبيرها، وعارفها بقواعد الإمارة وخبيرها، وارث درجة الملك عن أسلافه وأجداده، ومضيف ما جل طارف ذلك إلى ما عظم من تلاده، الري المعظم دون لويش الرابع عشر أنبلادور فرنسية، وصاحب كرسيها الأشهر، السلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وحده ثم اهتدى.

أما بعد، فإنا كتبناه لكم من حضرتنا العلية بالله، محروسة مكناسة، أمن الله أرجاءها، وخص بالخيرات الدائمة أنحاءها، ونحن نحمد الله تعالى، ونشكره على ما أسدى من النعم وأزاح من النقم، وأفاض من المواهب والرغائب، ودرأ من الأغيار والمصائب، لا أحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه، لا إلاه إلا هو سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

وقد ورد على مقامنا العلي بالله كتابكم الذي وجهتموه إلينا قبل هذا بأشهر عديدة، فقرأناه، وتعرفنا لفظه ومعناه، ووقفنا منه على أمرين اثنين أحدهما تجديد العهد بنا، وتأكيد ما لكم من الود والمحبة في جانبنا، وتلك عوائد الملوك وسيرهم مع بعضهم، على مرور الدهر، وتقاضي الأزمنة والعصور، جزاكم الله عنا أفضل ما يجازى به أمثالكم، فقد أديتم الواجب وقضيتم المفترض بين الملوك واللازم، وحتى نحن والله إلا نحب مراسلتكم ومكاتبكم على الدوام، ونود أن لا تنقطع عنا، لاسيما إن كانت هكذا لأغراض وأوكام، فإن ذلك سنة سابقة، وعادة متقدمة، جارية بين أرباب الدول من الملوك الأول، فلا نحب أن تنقطع على يدنا ولا تتعطل بسببنا، إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

والثاني، هو ما ذكرتموه على افتداء من لكم عندنا، وفي أرضنا وبلادنا وبحضرتنا العلية بالله من الأسارى، منذ أعوام وسنين، وذلك مما يجب المساعدة فيه، وإن لم تستدعيه ضرورة للأجر الحاصل في استخلاص العاني، وفك الأسير، وهذا هو الذي أوجب تأخير الجواب وبطأه، لأن أمور البحر من حيث هي ما لأحد عندنا فيها كلام، لا من خدمتنا، ولا من أعيان مملكتنا، ولا نظر ولا تصرف إلا لأخينا في الله، القائد علي بن عبد الله، صاحب محميتي طنجة وتطوان، وما نعمل معه فيه شريكا ولا قسيما، ثقة بعقله ودينه وصيانته ومروأته، وعلما بأنه ممن لا تأخذه في حق الله لومة لائم، وكنا ننتظر وفوده على أبوابنا العلية بالله، ونترجوا الاجتماع به لنتكلم معه في هذا المعنى، إلى أن جاءنا في هذه الأيام، وناولنا معه الكلام منا إليه في شأن ما عرجتم عليه، فأسندنا إليه النظر

والتصرف في ذلك كما كان أو أشد، وأنبناه عنا في كل ما يبرمه معكم ويمضيه، لا في أمر المفادات ولا في غيرها من كل ما تريدونه عندنا، وترومون إنجازه منا، فهو مأذون مفوض غير مضروب على يده في شيء أراده وابتغاه، وأحبه وارتضاه، مما فيه مصالح الجهتين، ومنافع الملتين، لكوننا عرفنا دينه ومذهبه وجده وحزمه وصدقه وصونه، وحتى أنتم تعرفون أنه بهذه المكانة، وأن له القدم الراسخة في خدمة أبوابنا العلية بالله، وحظه بها أوفر الحظوظ وأكبرها وأعظمها وأكثرها، وكل ما في أغراضكم، وما تريدونه عندنا يقضى لكم بعون الله على يده، وبواسطته، وبوقوفه ورغبته وشفاعته، ولا يأتي على يده إلا الخير إن شاء الله تعالى.

والسلام على من اتبع الهدى.

في أواسط جمادى الثانية عام ثلاثة وعشرين ومائة وألف.

(أواسط جمادى الثانية 1123/15-14 يوليوز 1711).

الرسالة: 128

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

إلى القونص الأفرنصيص، القاطن الآن برباط سلا، حرسه الله السلام على من اتبع الهدى.

وبعد، فاعلم أن الرئيس الحاج عبد القادر بربيش، جاءنا بكتاب في يده، جاءه من مرسيليا، من عند ولد أخته قاسم مولاطوا، وهو يذكر أن طاغيتكم كان سرحه لوجهنا، هو وثلاثة من الأسارى: علي مرشك، وأولاد بربيش باثنين، وقاسم مولاطو، وخرجوا من الغراب بقصد القدوم إلى بلادهم، لما تكفلت والفريلية بهم، ثم إنهم ردوهم إلى الغراب لموضعهم، وما علمنا ما السبب في ردهم، فإلى الآن، فعلى عهد الله وسيدنا محمد بن عبد الله، ولا تبعث من ورائهم بأربعة، ويقدموا بالعزم، حتى نأخذك أنت ومالك، ولا شفاعة فيك. أهاكذا تلعب علينا، وتسرحوا الأسرى وتردوهم. فاعلم أنك المواخد بهم، والجد منا.

والسلام.

وفي الخامس من رمضان المعظم عام تسعة عشر ومائة وألف.

(05 رمضان 30/1119 نونبر 1707)

الرسالة: 129

وخاطب رئيس الأسطول الإنجليزي "كلودوسي شوفيل" الذي كان متجولا بالشواطيء المغربية بكتاب مؤرخ بسادس وعشري غشت سنة أربع وثمانين وستمائة وألف (26 غشت 08/1684)

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

أما بعد، أما ما يرجع للأسرى الذين أسرتهم أثناء جولانك بالشواطيء المغربية، فإنهم من مدن مختلفة، ومنهم من هو ليس من رعيتنا، وإذا حاولنا عتقهم، وإطلاق سراحهم، فبصفة أنهم مسلمون، والذي حملهم على الخروج إلى البحر هو الحصول على معيشتهم.

ومن كان منهم من جيشنا البحري، فإنهم ركبوا البحر ليقاتلوا أو يقتلوا على أن جلهم ليس من الأعيان، ولا من ذوي الرعاية والاعتبار في الرعية.

واعلم أنني من الآن فصاعدا سأصرف همتي لإنشاء أسطول ضخم قوي أقوى من أسطولك لأشن به الغارة عليكم في شواطئكم، وعقر دياركم وبأرضكم الإنجليزية انتقاما منكم، وردا على فعلكم الذي فعلتم بأرضنا وبلادنا، وسوف أصطدم به مع وحداتكم الحربية، وآخذ ضباطكم من رجال البحرية أسرى، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

وقد وجهت لملك إنجلتيرا عدة مكاتب، وسيكون مسرورا بها جدا لما تصله ويطلع عليها.

واعلم أنكم لما كانت لكم السيادة، وكنتم سادة طنجة مدةاستيلائكم عليها، كنا نسمح لكم تكرما منا بكل ما تحتاجون إليه، وحيث أنكم الآن أجبرتم على التخلي عنها، والانسحاب منها، فقد انقطع ذلك المدد عنكم، ولكن ملك إنجلترا لا زال في احتياج إليه، ويمكننا أن نسمح له به سواء من البر أو البحر، لكن بشرط أن يكون بيننا صلح مستمر، وسلم حقيقي مستقر.

هذه كلمتي الصريحة أقولها لك، وعزمي الثابث الذي لا يتزعزع ولا يتغير بينته لك لتعلمه.

ولازلت في انتظار أجوبة ملكك عما كتبت له به في هذا الشأن وفي غيره، وأرجو أن تكون موافقة لما يوافق مصلحتنا واتفاقنا ومواقفنا.

هذا، ولتعلم أنك هاجمت أساطيلنا ومراكبنا، وأتلفت، وأعدمت ما قدرت على إتلافه وإعدامه منها، لما كنت تجول وتصول بسواحلنا، وهذا العمل ليس من الأسباب التي تدعو إلى السلم واتصال صلة الوصل بيننا ولا من عمل الناس ذوي الأدب واللياقة.

ولكن، الحمد لله الذي أرغمكم على مبارحة طنجة، وهي قطعة من بلادنا، وبضاعتنا ردت إلينا، وسنصلحها، ونعتني بها وبناحيتها، وننشيء فيها ما لاتعلمون، لحسن موقعها من مملكتنا.

أما الأسرى الذين عندكم، فلتسلكوا في قضيتهم ما ظهر لكم، وفي استطاعتكم إغراقهم في البحر إن شئتم، أو تفعلوا بهم غير ذلك، ولكن، ليكن في علمكم أن جميع التجار الإنجليزيين المستغرقي الذمة ببلادنا، بمجرد ما نستخلص منهم ديونهم كلها كاملة غير منقوصة، سينفون ويطردون من بلادنا.

الرسالة: 130

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

إلى السادة جماعة نواب المملكة.

أنهينا إليكم بواسطة أميرال بحريتنا، والقبطان عبد الله ابن عائشة، أوامرنا الصادرة إليه بأخذ وأسر سائر سفنكم التي يصادفها في البحر، طبق ما تقتضيه العدالة وصيانة الحقوق، وما أقدمنا على هذا الأمر حتى استفتينا فيه علماء شريعتنا، فأفتونا فيه.

وإليكم موجبات ذلك باختصار.

إن قنصلكم الصعلوك بكل معنى الكلمة، الذي عاش بأرضنا مدة أربع وعشرين سنة، يعرف ما خلفه من الذكريات والآثار عند المسلمين واليهود من رعيتنا، لما كان أسيرا بينهم عدة سنين، كان شد الرحلة إلينا بعاصمتنا المكناسية منذ ثلاثة أعوام خلت، وطلب منا استرجاع سفينة من سفنكم القرصانية كان أسرها أحد قراصنتنا، ومع أن جوازه الرسمي لم يكن مستوفيا للشروط الواجبة، فقد تساهلنا معه لأجل وساطة أحد خدمتنا اليهودي ميمران، وواعدناه برد بحرية السفينة المذكورة.

وفي علمكم أن جميع الأسارى الذين يدخلون إلى مملكتنا بأي وجه من الوجوه، لا يوذن لهم في الخروج منها، إلا بمن أو فداء، ولذلك فإن قنصلكم هذا واعدنا بأن يسلم لنا خمسا وعشرين ألف قنبلة مدفعية من وزن 36 إلى 6 ليفرات.

ولما وصلت هذه القنابل لمرسى العدوتين، وجدها القائد أحمد بن حدو مخالفة تمام المخالفة لما تم الاتفاق عليه في شأنها، ولذلك لم يأذن في ركوب السفينة إلا لنصف الأسرى المتفق على فدائهم وإطلاق سراحهم.

وبعد ذلك بمدة رجع هذا القنصل إلى مكناس مشتكيا متظلما من القائد المذكور، ومتوسطا في ركوب البحر، واتفق معه في مقابلة ذلك على تسليم ما تجهز به ستا من السفن القرصانية، لتخرج إلى البحر محاربة أعداءنا وأعداءكم.

ثم طلب منا إذن آخر يتوجه بمقتضاه إلى بلادكم ليشعركم بهذا الطلب، ويبين لكم مصلحته ووجوب تنفيذه، فساعدناه على ما طلبه، وكتبنا له كتابا خاصا إليكم، بتاريخ خامس عشر قعدة عام واحد ومائة وألف (15 قعدة 10/1101 غشت 1690).

وفارق حضرتنا الشريفة، على أنه سيسافر من يومه أو غده، ومرت ستة أشهر، ولم نسمع عنه خبرا، ولا وجدنا له أثرا، فاستبطأناه، وسألنا عنه وعن أخباره، وهل رجع من وجهته، فبلغنا عنه أنه لا زال يماطل ويطاول، ولم يسافر حتى الآن، وكنا عازمين على معاملته بما يستحق لكذبه وتماطله ومراوغته، لولا الواسطة التي توسط بها.

وعليه، فإني لا أحب بعد اليوم أن يكون رسولنا، ولا يحمل إليكم رسائلنا، لأنه لا يستحق ذلك.

وها نحن عينا لقضاء هذه المهمة مكانه، اليهودي حايم طوليدانو. وقد مرت ستة أشهر على سفره، ولم نعلم عنه خبرا، وظننا أن سبب هذا التأخير هو

الاهتمام بتجيز ما طلبناه منكم، وتم الاتفاق عليه معكم، وحيث أننا لم نر أثرا لذلك، فقد أصدرنا أوامرنا الشريفة لأساطيلنا القرصانية بالخروج إلى البحر، والتقاط سفنكم وأسرها وسوقها إلى مرسى سلا، وبقائها محجوزة بها، لا تمس، حتى نتحقق بنتيجة ما ذهب لأجله رسولنا إلى بلادكم، وهل ستنفذون أم لا، ما التزم به قنصلكم؟

وحرر بمكناس في فاتح عام ثلاثة ومائة وألف (01 محرم 24/1103 شتنبر 1691)

الرسالة: 131

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. والطابع الشريف بين الحمدلة وافتتاحه داخله: إسماعيل ابن الشريف الحسني رعاه الله.

ودائرته اليمن والاقبال وبلوغ الآمال اليمن والاقبال وبلوغ الآمال اليمن والاقبال وبلوغ الآمال.

كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره ومن له الفتح المبين ويسره آمين.

يستقر بيد حامله الشريف العالم العلامة البحر الدراكة الفهامة العارف بالله الصالح الناسك الناصح الولي العابد الورع الزاهد سيدي محمد بن العلامة الاوحد المرحوم بكرم الله تعالى سيدي بوزيان وشقيقه سيدي أحمد وسائر بني أعمامهم من أولاد القطب الواضح سيدي وكيل القاطنين بالحضرة الفاسية والزاوية الوكيلية التي بوادي زيز والنازلين بغير ذلك من الاماكن يجدد لجميعهم حكم الظهائر السلطانية الموجبة لهم الحمل على كاهل العز والاحترام والمسبولة عليهم جلباب التوقير والاعظام فقد أبقيناهم على عادتهم المعروفة وأقررناهم على مناهجهم المعتادة والمألوفة وزدناهم توقيرا واحتراما وبرورا وإكراما فلا يندرجون مع العامة في وظيف ولا يرام جنابهم بتكليف فهم موقرون معظمون مقابلون بما يقابل به أهل النسبة الطاهرة وأنبنا لدى الشريف سيدي محمد المذكور أمر الزاوية المذكورة وقصرنا النظر في أحباسها وفي أحباس مسجدها

عليه وعلى أولاده من بعده ثم على شقيقه المذكور إن انقطع نسله ليكون تصرفهم في تلك الاحباس على المنهج الشرعي يصرفها في مصالحها ويتبعون في ذلك أثر أسلافهم الكرام وسند أجدادهم قدس الله أرواحهم.

ثم إن انقطع عقب سيدي محمد وشقيقه سيدي احمد يبقى أمر الزاوية والمسجد بيد من يوجدون من أبناء أعمامهم من نسب الشيخ سيدي وكيل المذكور ومن فرق عليهم جلباب التوقير أو نقض ما أبرمناه لديهم وأسندناه إليهم أو خاطبهم بما يسوءهم ننكل به إن شاء الله نكالا ومن وقف عليه من الحكام وولاة الامر فليعمل بمضمنه ولا يحيد عن منهاجه وسننه والسلام.

وكتبت في السابع من رمضان المعظم عام ثمانية وثمانين وألف.

الرسالة: 132

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.
والطابع الشريف بين الحمدلة وافتتاحه داخله: إسماعيل ابن الشريف الحسني رعاه الله.

ودائرته اليمن والاقبال وبلوغ الآمال اليمن والاقبال وبلوغ الآمال اليمن والاقبال وبلوغ الآمال.

كتابنا هذا أسما الله مناره وخلد مجده وآثاره يستقر بيد حملته الشرفاء أولاد سيدي وكيل القاطنين بمحروسة فاس وببلدة الزاوية الوكيلية التي بوادي زيز- أولاد العالم العلامة الشريف سيدي محمد بن بوزيان وإخوانه يجدد لهم حكم ما بأيديهم من ظهائرنا الكريمة المتضمنة توقيرهم واحترامهم، فلا سبيل لمن يطوف بساحتهم ولا يتعرض لهم فهم عندنا موقرون ومحترمون وأبقيناهم على عادتهم المألوفة لهم معنا وجعلنا لهم أن يأخذوا حمايتهم به ان شاء الله من صلتنا على إخوانهم الشرفاء الادارسة ولا يتعرض لهم أحد على ذلك كائنا من كان ولا يطالبون بما تطالب به العوام وحاشيناهم عن الدخول في زمرة العوام، فلا تخرق لهم عادة ولا يحدث لهم نقص ولا زيادة سوى أعشارهم وزكاتهم التي حرمها الله تعالى عليهم يصرفونها على الضعفاء والمساكين فنأمر كل من يقف عليه من ولاة أمرنا وقوادنا وخدامنا وعمالنا يعمل بمقتضاه ولا ينقض عليهم ما جعلناه لهم من التوقير والاحترام والحمل على كاهل المبرة والاكرام والسلام.

وكتب في الثامن من رجب الفرد الحرام عام أربعة عشر ومائة وألف.

الرسالة: 133

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .
والطابع الشريف بين الحمدلة وافتتاحه داخله: إسماعيل ابن الشريف الحسني رعاه الله.

ودائرته اليمن والاقبال وبلوغ الآمال اليمن والاقبال وبلوغ الآمال اليمن والاقبال وبلوغ الآمال.

جددنا بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركته وتأييده الجميل ومعونته لحملته السادات الشرفاء أولاد سيدي وكيل القاطنين بحضرة فاس والذين بوادي الرتب والزاوية الوكيلية وغير ذلك من الاماكن، حكم ما بأيديهم من ظهائرنا الكريمة المتضمنة توقيرهم واحترامهم ومحاشاتهم عن ما تطالب به العوام، فلا سبيل لأحد عليهم في قليل ولا في كثير ولا في جليل ولا في حقير. وجميع من طاف بساحتهم أو قرب جانبهم أو مد اليد إليهم بمكرهة فلا يلومن إلا نفسه ولا يضره قرب جانبهم تجديدا تام الارسام مستمرا على الدوام وحسب الواقف عليه ان يعمل بمضمنه ولا يحيد عن كريم مذهبه والسلام.

في سابع عشر من صفر الخير عام تسعة وعشرين ومائة وألف.

الرسالة: 134

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

والطابع الشريف بين الحمدلة وافتتاحه داخله: إسماعيل ابن الشريف الحسني رعاه الله.

ودائرته اليمن والاقبال وبلوغ الآمال اليمن والاقبال وبلوغ الآمال اليمن والاقبال وبلوغ الآمال.

كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره وجعل في الصالحات طيه ونشره بيد حملته الشرفاء البررة الاخيار أولاد الولي الصالح أبي وكيل الادريسي دفين واد زيز نفع الله به يتعرف منه بحول الله وقوته أننا جددنا لهم حكم ما بأيديهم من ظهائر أسلافنا الكرام قدس الله أرواحهم في دار السلام وأبقيناهم على ما عهد لهم من التوقير والاحترام والحمل على كاهل المبرة والاكرام على مر الليالي والايام وزاويتهم لها من التوقير والاعظام والاحترام التام فلا سبيل لمن يخرق عليهم عادة أو يحدث في جانبهم نقصا أو زيادة تجديدا تام الرسم نافذ الحكم الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا يعلمه ويعمل به صدر به أمرنا المعتز بالله في 10 ذي القعدة الحرام عام 1243.

الرسالة: 135

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

والطابع الشريف بين الحمدلة وافتتاحه داخله: إسماعيل ابن الشريف الحسني رعاه الله.

ودائرته اليمن والاقبال وبلوغ الآمال اليمن والاقبال وبلوغ الآمال اليمن والاقبال وبلوغ الآمال.

كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره بيد حامله السيد سيدي قاسم بن عيسى الوكيلي الشطبي وإخوانه يعرفون منه بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركاته أننا جددنا لهم ما بأيديهم من ظهائرنا الشريفة المتضمنة احترامهم وتوقيرهم حيث لا يخرق أحد عليهم عادة ولا نقصا ولا زيادة ونامر كل من يقف عليه من خدامنا ووصفاننا وولاة أمرنا بتلك النواحي أن يقفوا على حده ولا يتعدوا أمره ومن تعداه فلا يلوم الا نفسه وحسب الواقف عليه العمل بمقتضاه ولا يتعداه والسلام.

في ثاني عشر الحجة متم عام ثلاثة وثلاثين ومائة وألف.

الرسالة: 136

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا.

إلى كافة الاندلس واللمطيين من أهل فاس سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: فاعلموا أنا كتبنا لكم ولأهل فاس كافة براءة خاطبناكم فيها بما هو حق وما هو واجب عليكم وقرأها عليكم خديمنا كاتبه إليكم. واليوم أفردناكم بالخطاب على الخصوص استدراكا لأمور لم يتناولها ذلك الكتاب المنصوص. وذالك اني أنا عبد الله كنت نعرفكم على عهد أخينا مولاي رشيد رحمه الله منكم الجيش ومنكم العيش.

وقط ما غفل عنكم مولاي رشيد ولا أهمل مسألتكم ولا استبدل بكم غيركم وكان يخدمكم ويعطيكم راتبكم وما يخلي بكم حتى موضعا من المواضع ولا حركة من الحركات ويقدمكم الى الشر ويرمي بكم في مواطن الموت ويلجئكم الى معاقل البربر التي كان يعاني حصارها بسوس وغيره. فكم مات منكم على اشتوكة وكم مات منكم على آيت اعتاب وفي مواطن كثيرة غيرهما. وما من دشرة يتوجه إليها أو يتصدى لشرها إلا ويقول: (نادوا زيدان وأصحابه مع رماة أهل فاس). ويفعل بكم ذالك على شك هل يفتح الله عليه تلك الدشرة أم لا، وفي الحقيقة الأندلس واللمطيون هم أهل فاس وهم عمدة أهل فاس وأما غيركم فما ثم إلا الدجاج الأبيض ومن لا يعد لا في العير ولا في النفير من البلدية وغيرهم، واليوم غطيتم

رؤوسكم ورجعتم الى الحرف والفلاحة وسلمتم الكلام للبلديين، كم من واحد منكم يغرس الجنان الذي قيمته أربعمائة مثقال أو ستمائة مثقال ويبيعه للبلديين. ورضيتم بالاستكانة والخمود والمهانة وأولاد الروسي يأكلونكم بالتبهبيرة وبالاوهام الواهية. ولا رأينا لكم فائدة ولا ظهر لكم حس ولا مزية لا في حركة ولا في ادالة ولا في داخل ولا في خارج. وهذه ادالة سبتة جبرها الله بالاسلام فيها منكمماية رام ما ماتوا ولا مات منهم حتى ستة ولا أربعة وهذه عشر سنين من غير حساب على الله مولانا جل جلاله، وتارودانت ترسلون إليها اليشاشرة منكم ومن لا يوثق به لا في حركة ولا في غيرها، وحتى مسألة واحدة ما نجمتموها ولا وقفتم فيها ولا أحسنتم القيام بها لا جيش لا عيش.

وإلى اليوم لابد لكم من واحدة من اثنين: إما أن تكونوا جيشا وإما أن تكونوا نوايب لأن الناس إما جندي وإما خدام، فإن أردتم أن تكونوا جندا قوموا واعملوا للجندية شروطها وان أحببتم أن تكونوا نايبة فأنا نعرف من نعمله عليكم ويحول بيني وبينكم، واجتمعوا على براءتنا هذه واقرؤوها وجاوبوا لنا عليها على الفور ولا تقولوا إلا الحق والله حسيبكم إذا لم تقولوا الحق وجاوبوا لنا مع حامله خديمنا العابد السيد التاودي بن القاضي الذي أمرنا أن يقرأ عليكم براءتنا هذه، والسلام.

وكتب في الخامس من جمادى الثانية سنة ثلاثين ومائة وألف.

انتهى منها بحروفها من غير واسطة وبين السطر الاول منها وسطر البسملة والحمدلة والتصلية طابعه الشريف رحمه الله مرقوم فيه إسماعيل بن الشريف.

الرسالة: 137

من خطاب السلطان مولاي إسماعيل لواليه في تنبكتو يزف إليه البشرى باسترجاع العرائش يوم ***18*** محرم ***1/1101*** نونبر ***1689***

جاءتنا بيعتكم مسطرة بخط علمائكم وخطاب أعيانكم كما يجب شرعا، ولذلك كنا أجبناكم عن مقتضى ما كنتم سألتم عنه وعرفناكم بحقيقة الأمر وشرحنا لكم الحال معتقدين فيكم صحة القول وجميل الفعل.

ولما أن كانت تنبكت عندنا من جملة حواضر الغرب والحواضر لا تخلو من أهل العلم والخير والصلاح والدين، وجاءنا رقاص مملوكنا (سنان العلج) ببراءته رددناه إليكم بالفور على إثره إذ تعين علينا أن نبشركم بما من الله به على المسلمين وشرح به صدور أهل الدين من فتح مدينة العرائش علينا وهي حصن كبير ومعقل خطير، لا تكاد توجد مرساها في هذا البر ولا في ذلك البر، وهي التي كان باعها الشيخ بن السلطان أحمد الذهبي حيث استفزه الهوى وغلب عليه حب الدنيا على الأخرى، تجاوز الله عنه، وبقيت معرتنا على أهل الغرب جميعا ما شاء الله إلى أن أذن الله تعالى بفتحها وصيرورتها دار إسلام وباستنقاذها من أيد عبدة الأصنام وأيدها ويسرها على عبده المفتقر إلى رحمته، نسب مزيتها إليه فضلا منه ونعمة كما قال الشيخ القدوة الإمام بن عطاء الله قدس الله ثراه إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك فتوكلنا على الله سبحانه وزودنا الهمة إليها فيسر الله علينا أسبابها وفتح برغم أنوفهم علينا أبوابها، وهاهي من جملة مدن الإسلام

يتلى فيها كلام الله وتقام بها والحمد لله حدود الله، ومكن الله تبارك وتعالى عباده المسلمين من جميع ما احتوت عليه ومن ساير ما كان فيها من نصارى وذخائر وأنقاض وبارود وعدد وعدد، وملكنا سبحانه رقابهم بعدما بذلوا مجهودهم في الحرب، ولا تركوا شيئا من قولهم ومكايدهم وحشدوا عليهم الجموع من رؤوس النصارى من كل بلد واستصرخوا إخوانهم وأحزابهم من كل ناحية، واجتمع فيها من القبطانات أزيد من العشرين وفيهم ولد الدك رئيس قالص أعادها الله دار إسلام، فظفرها الله بمحض فضله وكرمه، من جميعهم ومكننا منهم تمكينا وكان فتحا على المسلمين مبينا، فوجدنا فيها من النصارى الذين دخلوا أيدينا أسرى سبع عشر مائة وستة وعشرين لا يكاد يوجد مثلها في بر النصارى كلها، وألفينا بتا خمسمائة سيف مصفح من الحديد وألفين من المكاحل ومن البارود خمس مائة قنطار ومهراسا عديم النظير للبنبات، وأما الكور والرصاص وآلة الحروب والآثات فشيء تجاوز العد والحد، وكل ذلك غنيمة للمسلمين ونكاية لأعداء الدين، فيالها من منة وفضل من الله لايقابل إلا بعضيم الشكر، فلقد أصبح الإسلام بهذا القطر –ولله الحمد- في سرور وفرح، وحزب الشرك في إسبانية كلها في خسران وترح، نحمد الله سبحانه على ما خولنا من نعمه وأولانا من فضله وكرمه، وحيث احتوت حاضرتكم تنبكت على صلحاء وأخيار، وكنتم حتى أنتم مجاورين للعبيد الكفار، عرفناكم بهذا الفتح المبارك ليفرح به المسلمون الموحدون ويحزن لأجله الكافرون الملحدون، وبعثنا إليكم الرقاص بالفور، وقبل اليوم كان رقاصا لمملوكنا (سنان العلج) واليوم هو رقاصنا

إليكم وبشير لخصالكم وعامتكم، فإن هذا الفتح فرح به كل موحد، وحزن له كل جاحد، ومنافق دينه فاسد والحمد لله رب العالمين، ومسألة ذلك الجحمومة وجه العجمة محمد بن العسري الجكاني الذي صرتم تجعلونه لنا عذرا تعتذرون به، نحن ما أرسلناه إليكم قائدا ولا حاكما ولا ناظرا، وما كنا كتبنا لكم في شانه —قبل هذا الحين- إلا برد متاعه الذي ادعى أنكم أكلتموه له وغصبتموه فيه بأعوام، وحيث رجع إلينا من عندكم وبعثتم لنا معه هديتكم وموجبتكم وأتانا بذلك في يده مصاحبا للبيعة التي بعثتم إلينا متضمنة أنكم دخلتم في ربقة المسلمين، وأنكم تخطبون بنا في منابركم تلقينا منكم بالقبول وعرفنا أن الله هداكم للحق ووفقكم لطريق الرشد، فأقام عندنا محمد بن العسري الجكاني من جملة الضيوف في ناحية من المحلة، وحيث أراد الانقلاب إليكم والوفود عليكم ذكركم لنا واحدا واحدا فكتبنا لكم معه بالوصية على أمور الدين وبالحض على التحفظ بالعروة الوثقى، والتمكن بحبل الله المتين وحرضناكم على ما يجب التحريض عليه والإصغاء إليه مما يعود نفعه عليكم ويذخر ثوابه وأجره إن شاء الله إلينا، وخاطبنا وقت إرادته الانصراف في حوائج يأتيكم بتا في يده على حسب البركة والتذكرة، فقلنا له: تبارك الله وكانت قيسارية المحلة وقتئذ معمورة بالحوائج والتحف، والتجار يسوقونها من كل بلد وكل جهة وكل ناحية، فوكلنا بالوقوف معه لقضاء أغراضه خديمنا الهواري بن عمر الكاتب، ومحمد بن حدو العطار البوعمراني، فاشتغل هو يشتهي ويشتري ما أحب بقصدكم وهما يخلصان له ما اشتراه على وفق مراده إلى أن أنفقا له عشر مائة مثقال ونيفا حوائج، وقط ما

أطلعنا على شيء منها ولا أحصينا زمامه إلا بمجرد الخبر، وها الزمام الذي تضمن مشتراه لم يزل بيد خديمنا المذكورين موجود الآن، ولما أن تفقدنا محمد العسري وسألنا عنه بعد حين من يعرفه وبحثنا عن خبره وقلنا يا ترى هل بلغ ذلك الجكاني نبكت؟ قيل لنا إنه بلغكم وأكرمتموه غاية الإكرام لمجيئه إليكم من هذه المقام، وأنهى إلينا أنكم أرسلتم معه هديتكم وموجباتكم ثانيا وأنه انفصل عنكم وجاء من بلادكم فلم نر له بعد طول المدة خبرا ولا أثرا فخشينا أن يعجز أو يتراخى في طريقه ويركن على بعض عشائره وفريقه، وربما يغويه الشيطان ويتصرف في شيء مما أعطيتموه من الهدية بما يوجب الانتقام منه ومن رائحته، فكتبنا براءة لمملوكنا سنان العلج صاحب الغزلان، وقلنا له إذا وجدت رقاصا من غريب أو غيرهم من العرب الذين يخالطون طريق القبلة ويتوجهون إلى تلك النواحي، فاكتب براءتك لمحمد بن العسري الجكاني وحرضه على العزم، وحذره من التراخي والبطء في طريقه ليأتينا بخبر تلك البلاد وينهي إلينا أحوال تلك الجهة مع ما عسى أن يأتينا به في يده مما يتشوق الناس إليه من تلك الجهة من عتاق الخيل وجيد الرفيق، وإن كان الله سبحانه بفضله وجوده أغنى عبده ومنحه خيلا عتاقا أفضل من خيلكم، وتفضل علينا بعبيد أحسن وأكمل من العبيد الذين يردون من ناحيتكم، فالصواب لا نمنعكم منه ولا أكره لكم مزية في دار المخزن الذي بيده حق الله وعليه فضل الله، فهذه نيتنا في تحريضه على العزم بالمجيء لا غير، وكنا والله نعدكم ونحسبكم من أحسن الإدالات عندنا وتعجبنا سيرتكم ونمطكم ونستحسن حالكم أكثر ما نستحسن أحوال غيركم لكونكم مازلتم

قابضين في السيرة محافظين على قوانين المخزن القديمة من كون القائد قائدا والكاهي كاهية والباشوط يلشوط وكل واحد منكم يعرف طريقه ورتبته، ولأجل هذا رأينا أنكم أولى لنا بذلك المكان من غيركم لكونكم عرفتموه وما استقرت بتلك البلاد أجدادكم وأسلافكم حتى قتل منهم مولاي احمد الذهبي الألف والألفين من الرجال، وحيث خلفتم أنتم بتلك البلاد وربيتم فيها ولم تعرفوا سواها لم يبق لكم تشوف إلا إليها ولا حمية إلا عليها، فمن نجد أحسن منكم لعمارتها وللسكنى بتا لأنا اليوم ما كنا نرسي إدالة من إدالات الغرب في ناحية من النواحي ولو على مسيرة شهر أو أقل حتى نقتل منها (أي من الإدالة) المائة والمائتين وأكثر من ذلك كي يستقروا ويسكنوا كسكونكم أنتم بذلك المكان وفي هذه الساعة قريبا قتل خديمنا الباشا عبد الملك الخطيب أربعمائة ونيفا من مخازنية مجاط بسبب رحلة تأخروا عن أخيه عبد الكريم فيها ولم يرحلوا معه، ولا أظن يخفى عليكم خبرهم لموالاتكم لهم ولقرب بلادكم منهم، وكل إدالة نتركها في ناحية كانت تحوج نفسها غالبا إلى مثل ذلك، ولا تستقر وتريع إلا بعد حين لعزة الوطن على أهله وذويه، وبالجملة إذا نحن عزمنا أن نوجه جيشنا إلى ناحيتكم فالجيش والحمد لله كثير متيسر حاضر لا ينتظر منا إلا الإذن فقط ويتوجه مصحوبا بسلامة الله إلى ما وراء بلادكم وأرضكم ولا يخطر بباله فشل ولا عجز، نحمد الله تعالى ونشكره ولكن لا يخف على الجيش النهوض إلا إذا كان بصدد أن يقضي حاجته ويرجع في حاله وأما الإقامة هنالك كإقامتكم أنتم الذين مارستم البلاد وأنستم بمعاشها فتثقل على كثير من الناس إلا بعد الجهد والفعل الصحيح كما ثقلت على أسلافكم

كما قلنا لكم وكما تلقيتم من كباركم ومسنيكم، فنظرنا في مسألتكم بالنظر السديد وراعينا فيكم واحدة وهي إذا أرسلنا جيشا من هنا إليكم وأوفدناه عليكم يفسد ثم أكثر مما يصلح، ولا يحصل فرضا ولا سنة يفسدكم أنتم ويشتت شملكم بعد اجتماعه ويخرب ديوانكم بمشيئة الله وعوائده الجميلة فيمن ظهر فيه عناد وزيغ عن الحق وليس الخبر كالمعاينة، وذلك الجيش بنفسه الذي نبعثه إليكم ونوجه لبلادكم نفقده حتى هو ويترك موضعه بالغرب الذي هو أولى به وأكد من غيره لشحن هذه الثغور التي ترادف فتحها على المسلمين ويسر الله فيها وأزكى بتا أعداء الدين، فهذا الذي راعينا فيكم وهذا الذي أوجب تأخيره إلى وقت الحاجة إليه وتوقفكم عليه، نعم إذا أنتم طلبتموه رسميا منا ورغبتم فيه عن طيب خاطركم وأجبتم زيادة عليكم لتعتزوا به ويقويكم الله بسبب على عدوكم وخاطبتمونا في إرساله إليكم ساعفناكم وذلك عندنا والحمد لله أهون من كل هين، وأيسر من كل يسر نمدكم به ويأتيكم في أقرب أمد ولا يكفي قائد الرماة حولكم، ومازلنا ونحن نردفه بالمحال من الخيل والرماة إلى الآن، وإذا كنتم تنجون بلادكم وتقهرون عدوكم وتستغنون عن المدد في هذا الوقت فما نحب المسلمين إلا أقوياء حيثما كانوا ولا أحد لذلك الموضع أولى منكم ولا أليق من جماعتكم للأمور التي سردناها عليكم وألقيناها إليكم أولا وثانيا، وأما متاعكم فلا يلتفت لكم أحد إليه، وماذا عسى أن يجيء من بلادكم مما تزينون به وجوهكم فقد أغنانا الله عن متاعكم وعوضنا بفضله ما هو أحسن منه نحمده سبحانه ونشكره، والذي لا أشبع منه ولا أستغني ما دمت حيا عنه هو أجر عافية المسلمين وثوابها وتمهيد سبلها

والسعي في مصالحها وجلب منافعها ودفع مضارها فحيثما كان الأجر والثواب نبذل في تحصيله طاقتي وجهدي ونعمل فيه متوكلا على الله ما عندي. والسلام.

الرسالة: 138

الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لويس كنس الراي فرانصيص سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإن وصيفنا الباشا (مهاهل) أصلحه الله وأعانه كلمنا على النصارى الفرانصيص الذين عندنا بأنكم طلبتم منا فدائهم فأصغينا له وقبلنا كلامه في جانبكم، فاعلم أنه عندنا من الفرانصيص مائة وثلاثون نصرانيا وحيث أردتم فداءهم فأعز ما عندنا لأن هذه المسألة من مستحسنات ديننا، وها نحن وجهنا لك اثنين منهم وهما (جوان الروش بونياتي) و(كشتين كوتير) لبانطي يتكلمان معك، فابعث لنا معهما باشظور نتكلم معه في فديتهم، ونبعثهم لك إن شاء الله تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا نعمل لكم إلا خاطركم لأنكم يا معشر الفرنصيص عندكم ترك نبينا عليه الصلاة والسلام كتابه، فأنتم أحر النصارى وأجودهم، والسلام.

وفي رابع ذو الحجة الحرام عام تسعة وثلاثين ومائة وألف.

الرسالة: 139

من عبد الله المتوكل على الله المعتمد عليه في سره ونجواه المفوض جميع أموره إلى مولاه أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسني أيده الله ونصره، إلى السادات العلماء الأعلام والفقهاء الأجلة الكرام أهل الفتاوي والأحكام الذين اشتملت بلاد الإسلام بالبلاد المشرقية حضرة مصر أمنها الله، وخصوصا أهل الفتوى منهم والتدريس بجامعها الأزهر عمره الله بدوام ذكره وعمره بسوابغ نعمه وأنواع بره، نور الله بصائركم وبنا على نور الهادية والتوفيق ضمائركم، وأطلع في سماء المعارف والعلوم شموسكم وأقماركم، وأدام النفع بكم للمسلمين، وجعلنا وإياكم من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ورضوانه الأعم وتحياته تعم مقاماتكم الرفيعة، وتعبق أرجاءكم البديعة وتحول بينكم وبين المكاره، والأسواء بأيد منيعة، آمين، وإلى هذا وصل الله سعدك وبلغكم من فضله العميم قصدكم وضاعف آلاءه عندكم، فإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بالله آثرناكم بتعريفكم ببعض نعم الله المتزايدات، وشرح بعض الأحوال المتوالية بالخير المتجددات، إقامة لرسوم الإخلاص في التعريف ببعض جنسها الأعلى وأن قل، ومودة خالصة في الله عز وجل، ولما نعلمه في العلماء العاملين من حسن النيات وكرم الطويات وجميل الاعتقاد في الأمور الدينيات والدنيويات، فأنتم معشر العلماء سادتنا المقلدون والقدوة المقدمون المعتمدون، فبعلومكم توضح المشكلات، وتزاح الشبهات المعضلات، وبفتاويكم

المنورات يستضاء في ليال الجهل المدلهمات، فأنتم القضاة ونحن المنفذون، والعلم والخلافة إخوان مستويان في التقدير كركبتي البعير، العلماء يحتاجون إلى الخلافة، والخلافة تحتاج إلى العلماء، لاغنى لأحدهما عن الآخر، وقد أردنا وفقكم الله استفتاءكم ومشاركتكم، والمفاوضة معكم في مسألة مهمة في الدين، ابتغينا فيها بفض الله تعالى سلوك سنن المهتدين واقتفاء آثار الأئمة المجتهدين المصيبين، محصلها علي سيد الاختصار، وما يتأكد عليه من فصولها، الاقتصار خشية السآمة والملل، وخير الكلام ما كفى وعلى المقصود دل، وهي أن هذه الأقطار المغربية هي في الحقيقة كلها ثغور ورباطات لقربها من مجاورة العدو الكافر واحتياجها إلى المناضل عن دين الإسلام في أدانيها وأقاصيها، والمدافع والمثابر، فلا جرم يحتاج من ولاة الله أمرها وأسند إليه تدبيرها إلى جند كثيف وجيش متضافر حصيف، يتأتى به الدفاع عن البيضة الإسلامية والحماية والكفاية لهذه الأمة الحنفية، وقد كانت بهذا المغرب أمنه الله دول من قديم الأوان متصلة متوالية، وكلما ذهبت دولة من تلك الدول الإسلامية عقبتها أخرى بأثرها، وكل دولة جاءت بعد أخرى تجد الجيش قدامها موجودا موفرا مدربا على سلوك طريقة المخزن ومعرفة قوانينه وضوابطه وطرقه وسيره، وتجد بيوت الأموال معمورة مدخرة والعدة مختزنة موفرة، فكل دولة تستمد من الدولة التي كانت قبلها على عادة الدول في سيرها الأول، وحين جاء بنا الله إلى هذا المغرب وولانا أمره، وأقامنا فيه بمحض فضله واختياره، جئناه على حين فترة من الملك، ووجدناه فارغا من الجيش والعيش، وخفيف العمارة بعيد العهد بالخلافة

والإمارة، فبسبب تلك الفترة التي اعترته ودامت فيه نحو الثمانين سنة حتى تنوسي فيها أمور المملكة وساستها واضمحلت فيها الأوضاع الملكية وتوالت فتن وأوجاع وهرج كثير، أعاد ذلك على المسلمين فصرنا نحن حيث أقامنا الله ونصبنا لهذا المنصب المبارك المحفوف بالخير المتدارك، نبتديء السيرة والطرفة من أولها، ونعقدها من أصلها، فقاسينا في ذلك وكابدنا فيه من العمل ما الله أعلم به لولا أن الله سبحانه بمحض فضله واختياره أعاننا وعاملنا بعونه وطوله، وقوته وحوله، ومن كان لله كان الله له، ولما لم نجد في هذا المغرب أمنه الله منذ ولانا الله أمره جندا معينا مرتبا موفرا يعتمد عليه، ويطمئن به الخاطر، وتركن النفس إليه، جعلنا بعول الله تعالى وتوفيقه الجميل نستخير الله تعالى وننظر من يصلح للجندية ومن يليق بها، فرأينا الأحرار وأهل هذا المغرب لهذا العهد لا يصلحون للجندية ولا يليقون بها من وجوه شتى، لما جلبوا عليه من التكاسل والتخاذل وغلبة الشهوة وكثرة الأطماع المركزة منهم في الطباع، بحيث لا يكفي الواحد منهم القليل ويستصغره ويقول: إنه قليل وحيث رأيناهم على هذه الأحوال أعفيناهم وتركناهم على ما هم عليه من الاشتغال بمعاشهم والإقبال على منافعهم ويؤدون ما يلزمهم لبيت مال المسلمين عمره الله، وقصدنا إلى هؤلاء المماليك فاشتريناهم من ملاكهم بعد البحث عنهم والتفتيش فيهم على الوجه الشرعي والسنن المرعي، ووجدنا هؤلاء المماليك الكثير منهم قد أبق لسيده، وخرج عن حكمه وتصرفه ويده، وما منهم واحد إلا وقد لحقه وصف الإباق وعرف به من قبل أبيه أو أجداده أو جداته، وقد ألفوا هذا الإباق وعرفوه وأدركوه فما ينزعون عنه ولا يتوبون منه،

ومن أول وهلة أبقوا لملاكهم وخرجوا عن أيديهم وأحكامهم وتمردوا عليهم، فيخرج الواحد منهم عن سيده ويتولى غيره وينحاز إلى قبيلته أو يستند إلى شيخ أو كبير ذي عصبية فيتعصب به ويزاين به سيده الذي له ولاؤه واصل ملكيته، وتشتتوا هكذا في البلدان والأقطار ولاسيما حين عموم القحط والهرج حين تقلص ظل الخلافة من هذه الأقطار المغربية، لا أعاد الله ذلك على المسلمين حتى أكلت الأجواع والسنون الكثير من هؤلاء المماليك، هذا مع أن أصلهم من كفرة السودان المجاليب من هنالك على طريق الشراء ممن يجاورهم ويغير عليهم ويغزوهم، ولو يزل البيع فيهم والشراء في كل وقت وحين والمشترون لهم في كل عصر متفاوتون بحسب الرغبة فيهم وتأكد الحاجة إليهم فمنهم المكثر، ومنهم المقلل كأهل المشرق فيما يتكلمون من رقيق الروم والحبشة، ومن معناهم من أجناس كفرة الأقاليم الجنوبية، ثم مع طول المقام عرض لهم التناكح والتناسل منهم، لا عن سابق صحيح مناح، بل بغيره من الإثم والجناح لاسيما في مواطن البوادي المتهورين في أمورهم، وتطاول على ذلك الأمد وامتدت الأحقاب والأوقات وتعددت الأجيال والطبقات إلا أن الغالب عليهم الإباق كما ذكرت لكم، فقلما يوجد واحد منهم تحت الرقية والعبودية في أحكام سيده الذي يملكه، وفي حوزه وتصرفه لعدم إمكان توصل سادتكم إليهم من عدم وجود حاكم يحكمهم أو زاجر يزجرهم أو رادع يردعهم وينصف سادتهم منهم، ولما يسر الله سبحانه علينا في مسألة هؤلاء المماليك ورأينا مسألتهم قريبة سهلة، ومن علامات الإذن التيسير: إذا أذن الله في حاجة وأتاك النجاح فيها يركض.

وما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإذا كان آثما بعد منه، والأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، ونية المؤمن خير من عمله، وكتب سيدنا سالم بن عبد الله إلى سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: اعلم يا عمر أن عون الله للعبد على قدر نيته، فاعلمنا البحث الشرعي عن أصول هؤلاء المماليك حتى رددنا كل واحد لأصله وفصله، وفرعه وشكله وبحثنا على ملاكهم وعلى تعدد ورثتهم ومناسختهم وعلى موجبات ذلك كله، على حكم ما اقتضاه الطريق الشرعي، وسببله وبرهانه ودليله على الواجب في ذلك كله حسبما تضمنته الأسئلة والأجوبة الواصلة إليكم إن شاء الله تعالى من كون ذلك كله وقع عن شراء صحيح مستقيم على سنة المسلمين في بيوعاتهم وأشريتهم، ولأجل ما شاهدناه في مسألتهم من التيسير ورأينا فيها من المصلحة العامة، وكل من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين يجب عليه أن ينصح لهم ويتحرى الصواب في مصالحهم فيقدم المصلحة الراجحة على المرجوحة، ويجب على الناس التسليم له والانقياد إليه فيما اقتضاه نظره، وقد قال الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: "إذا ظهر لمن ولاه الله أمور المسلمين مصلحة أو منفعة في أمور الدين والدنيا فإنه يجب على الناس المصير إلى قوله وتقليده فيها ولو في الأمور التي لا يعرفون حكمتها ولا عاقبتها" وآثرنا هؤلاء المماليك بتصييرهم جندا وزربا للإسلام لأمور اختصوا بها دون غيرهم، منها أن هذا الجنس قليل المئونة راض بما تيسر من المعيشة، قنوع بما يجده دون كلفة ولا تكليف منهم، ومنها أن هذا الجنس من المماليك أقوى بهذا الشأن البارك الذي عينوا له ودفعوا إليه من

حراسة الثغور الجهادية وحياطة البلاد الإسلامية، وهم أصبر وأقوى على حركاته وأسفاره والمثابرة عليه فكانوا بذلك له أهلا ولمباشرته على الوجه الأكمل أولى، ومنها أننا قصدنا إنقاذهم من ورطة اللعنة التي تورطوا فيها على التأبيد، واقتفى أثر الوليد سبب توليهم غير مواليهم بغير إذنهم كما دل عليه الحديث وهو (من تولى قوما بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا)، ومنها الرغبة في تحصيل الثواب الكثير من الله تعالى بحسن تأليفهم وترقيتهم وتدريبهم، وما يحصل لهم من التحلي بحسن الأدب ومحاسن الأوصاف والخلاق لملازمتهم للديوان وخدمة دار الخلافة عمرها الله وأدام عنايتها بمنه آمين، وبعد أن أمعنا النظر وتحرينا المصلحة والصواب في مراعاة هذه الوجوه كلها في تمليك هؤلاء المماليك وتصييرهم زربا للإسلام، وشاورنا وتفاوضنا مع العلماء والفقهاء والقضاة وأهل الفتوى والمدرسين والعدول المبرزين وأهل الصلاح والدين، وخاصة أهل المغرب أمنه الله ووجوهه وأعيانه في مسألة هؤلاء المماليك وشرحنا لهم سيرتهم وأخبارهم وما كانوا عليه قبل جمعهم هذا الجمع المبارك من الإباق وارتكاب الأمور الشنيعة والقبائح البشعة، فقد كان كل منهم قاطع الطريق والناهب للرفيق والمختلس، والسارق والغادر والمارق، وبينا ذلك كله للفقهاء والعلماء حتى فهموه وعرفوه ووقفوا على بعض ذلك عيانا، فعند ذلك أجابوا كلهم بالفور من غير توقف ولا تلعثم بهذه الأجوبة المحررة على مذهب المالكية الواصلة إليكم إن شاء الله تعالى صحبة حامله من أصحابنا إليكم وها أنتم تقفون عليها في هذا الكتاب المشتمل عليها مسطرة بخطوطهم وأيديهم،

أبرزوا فيها ما استندوا إليه وعولوا عليه من النصوص الفقيهة، والأقاويل المشهورة المرضية، وهم جم غفير وعدد من أهل الفتوى والرواية كثير، ومامن واحد من هؤلاء العلماء أهل المغرب إلا وقد اشتهر صيته في الأقطار وشهد له بالعلم والتبريز أهل النظر والاعتبار يعول عليه في الفتوى والمعقول والمنقول، بصير إذا أفتى أو قال بما يقول، وقد ورد أن عشرة من هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، وهذه المسألة وإن كنا والحمد لله في غنى عنكم في أصلها ولا نحتاجكم لأجلها لأننا قلدنا علماء هذا المغرب حرسه الله ومن قلد عالما لقي الله تعالى سالما، لكن أردنا مشاركتكم في أخبارها والاستظهار بما عندكم من العلم في أمرها، فإن الحق لا يخفى على اثنين ولا على من أمعن النظر فيه بعينين، وقوة البحث تزيد الحق وضوحا فأجيبونا أعزكم الله عن هذه المسألة بما يقضيه طريق الحق وسبيله، ويرشد إليه برهانه ودليله، وقد كفيتم المؤنة في المسألة بتقديم فتاوي هؤلاء العلماء الأعلام ومقصودنا التبرك بخطوطكم وخطابكم والسلام.

الرسالة: 140

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

إلى المقام الذي نؤثره ونجله ونراعي له من الإيثار والإجلال والإكبار ماهو أهله ومحله مقام محل ودنا المرعى بعيني إلى غاية الأمامية والملاحظ بعون الله لتشييد مباني الإيالة العثمانية السلطان المؤيد المعان والمجدد لما سلف من ملوك آل عثمان خادم الحرمين الشريفين، وملك البرين والبحرين والشام والعراقيين محبنا وصفينا السلطان أحمد بن السلطان المقدس محمد خان قدس الله روحه ورحم سلفه وجدوده، وواصل بمنه سعوده وأيد على حزب أهل الشرك جنوده، وأخفق على عبدة الصليب من الكفرة ألويته وبنوده، وأبقى فيما يرضي الله تعالى صدوره وووروده بمنه وكرمه، سلام كريم طيب عميم يشمل وخص حضرتكم ويعبق بروائح نسيم عبيره سيادتكم وحوزتكم، ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه، الأزكى الأشمل الأطيب وتحياته عن الخير والعافية ونعم الله تعالى السابغة، لله الملك وله المنة في السر والعلانية، وإلى هذا، فإنا كتبناه إليكم كتب الله لنا ولكم سعادة الدارين والتوفيق لاقتفاء نهج العمرين من محلنا المبارك بهذه الأفكار الغريبة، وأقصى المغرب عمره وحماه عن تأكيد المحبة وتأسيس المودة حيث نحن بحول الله وقوته ممن يغار ويتشيع لتلك الدار وإن بعدت الأقطار وشط المزار، وعلى عهدها المؤكد الذي لا ينكر ولا يجحد وكما يعلمه المطلع على ما تكنه الضمائر وما تخفيه السرائر، وكفى به عليما، وكيف لا نراعيهم وأنتم بأمركم وبصالح الدعاء في

مظان أوقات الإجابة وأنتم بين ظهراني الكفر وفي بحبوحة النصارى دمرهم الله، وفي طرف البلاد الموالية للشرك كله، ومن لا يحن ويشفق عليكم ويرثي لكم ويهتم بما أنتم عليه فليس بعارف بربه وبما يجب له أو عليه، وقد ثبت في الأثر الصحيح عنه عليه السلام مما نقله غير واحد من الأئمة الأعلام (إذا أحب أحدكم أخاه فليعرفه بذلك ليعرف ذلك ولا يجهله له) لاسيما ونحن من عبيد أهل البيت الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ وقال فيهم شاعر الصدر الأول صعصعة بن غالب:

من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم ملجأ ومعصم

والسلام.

الرسالة: 141

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

إلى أخينا في الله الأمير الجل الأرضي الأمثل صاحب بلاد تونس وعمالتها وأحوازها وبلادها وإيالتها السيد إبراهيم الشريف أمنك الله ورعاك وسددك ووقاك، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته ورضوانه الأعم، وتحياته أما بعد، فإنه لما ورد على مقامنا العالي بالله الركب القفولي المغربي من حجاج بيت الله، وأخبرونا طريقهم في ذهابهم وإيابهم إلى أن ذكروا لنا أنهم اجتازوا عليكم بطرابلس فوجدوكم بها ففرحت بهم وأكرمتهم وعظمت جانبهم محبة منكم فينا، واعترافا منكم من الإحسان على أيديا وأنكم للهجون بمحبتنا مقرون ذلك في غيبتنا، فقلنا لهم جزاه الله خيرا، فإن شكرها ذلك الرجل وعرفها فمن شأن الأشراف ومن الاتصاف بالإنصاف وإظهاره بالاعتراف والشكر على الإحسان واجب على الإنسان، قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ إذ من لم يشكر الناس لم يشكر الله، إلا أن بعضهم ذكر لنا أنكم أردتم أن توجهوا لنا هدية تجددون بها العهد معنا وتستديمون ببعثها المودة التي بيننا لحسن فضل الله الذي علينا وجميل صنعه المتعارف لدينا، لا نعمل عملا إلا لوجه الله تعالى ولا نسعى في شيء مما يرضيه جل وعلا إلا خالصا لوجهه الكريم راجيا ثوابه، نسأله سبحانه أن يتقبل أعمالنا وأن يبلغ من الخيرات مقصودنا وآمالنا، لكن هديتك لنا وخيرك معنا هو مسألتان، فقد سمعنا انك جعلت إحداهما وأعجبنا صدورها منك

وفرحنا بوقوعها على يديك وهي مسألة الزرع الذي كان يباع بتلك البلاد للنصارى دمرهم الله، وإنك منعتهم منه كل المنع وقلت إنه حرام بالشرع والطبع وأزلت تلك المعرة الشهيرة التي كانت سبة في الإسلام ووصمة كبيرة في الدين بإجماع الأئمة الأعلام، لا يرضاها مؤمن عاقل، ولا يتساهل فيها إلا مارق في الدين، أو بأحكام الله جاهل، وقد رأيت وشاهدت تساهل من تقدمت في بيع الزرع للكفرة ومخالطتهم في الأقوات وغيرها من المسائل التي لا تحل للمسلمين البررة ويأبى من معاملتهم بها أهل الدين فقد عاقبهم الله على ذلك وما حل ما حل بهم إلا من خوضهم في تلك المهالك، والمسألة الثانية هي مسألة جيرانك أهل الجزائر نوصيك أن تتوافق أنت وإياهم على المسالمة وجميل المعاشرة، فإنكم كلكم في قطر واحد وجيران في البلاد وإيالتكم واحدة، ورعيتكم واحدة ليس بينكم حاجز ولا سترة إلا أنك لا تأمن فيهم لنفسك ولا تدخل في زمرتهم برأسك وكلما قدرت عليه من الخير في الوسع منهم فهو أحسن وأليق لك، وكون كلمتك واحدة، فاعرف ذلك ونوصيك ولا نحرضك إلا على هاتين المسألتين والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق بمنه آمين والسلام.

الرسالة: 142

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

عن أمر عبد الله، المتوكل على الله، المفوض أمره إلى مولاه، في سره ونجواه، أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أيده الله ونصره، وأنفد شرقا وغربا أوامره، بمنه آمين.

ثم الطابع الشريف، بداخله: إسماعيل بن الشريف الحسني أيده الله.

﴿إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾

مسطورنا هذا أسماه الله وأعز أمره، وخلد في صحف المجد والمكرومات ذكره، وأعلى في سماء المعالي والصالحات قدره، وأسعد زمانه المبارك عصره، يستقر بيد حامله خديمنا الأحظى الأقرب الأنصح الرئيس الأكبر القبطان عبد الله بن عائشة وفقه الله وسدده، وإلى ما يرضيه تعالى ألهمه وأرشده، بمنه.

يتعرف منه بحول الله وقوته، أننا عملنا له، وفوضنا فوق التفويض، ووكلنا إليه بعد الله جل وعز، النظر والكلام في سائر أمور البحر، وأسندنا إليه، بتوفيق الله وحسن عونه، جميع ما هو من خطته في السر والجهر، وفوضنا له في جميع مصالحه وقوانينه المألوفة له، وعلى مقتضى جري عوائده الجارية المعروفة، وعلى النهج الذي يسوغ شرعا ويقبل طبعا، ويكون نظرا وحقا وصوابا وسدادا، ويرتضيه الوقت، ويبدو له هو صلاح، ويقبله العقل، ويؤدي إليه النظر والاجتهاد والنصح

والحزم في جميع أوقاته، من عقد وإبرام، أو سلم أو غير ذلك، مع جميع أجناس النصارى، وقد كنا إلى الله وإليه هذا الأمر كما يجب، وثقنا به، ووثقنا به فيه، وألقينا إليه جميعه، وطوقنا عنقه أمانته، لما عرفنا فيه، وبلوناه منه من الجد والنصيحة لله، ولمن ولاه الله أمر عياله، في جميع أحواله كلها، ولرسوخ محبته وقربه، وقديم خدمته، ولكونه أعرف برياسة البحر وخطته، وأكثر ممارسة بأحوال أهله ودويه، وأدرى بما يليق به في ولايته هذه، وفي جميع شؤونه.

وعليه بالمحافظة والرعي الجميل لما قلدناه إياه من هذه الأمانة. وأن ينهج فيها مناهج أهل الجد والصدق والديانة، وأن يراقب الله تعالى في جميع أحواله، في سره وإعلانه، وأن يمتطي مطية النصح، ويمسك بنفسه سبيل النجح لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولجميع المسلمين، في كل وقت وحين، بحيث لا ينازعه في هذا منازع، ولا يدافعه عنه مدافع، ولا يعارضه فيه معارض، من كل أحد، كائنا من كان.

والله تعالى يوفقنا وإياه لما يحبه ويرضاه، في سره ونجواه، وحسب الواقف عليه العمل بمقتضاه، ولا يخالفه ولا يتعداه، بمنه، ولابد.

والسلام.

وكتب في أواسط ربيع الأول النبوي من عام عشرة ومائة وألف.

الرسالة: 143

بسم الله الرحمان الرحيم

ظهير شريف إسماعيلي

(نص ما بطابعه)

إسماعيل بن الشريف الحسني

وبدائرته: اليمن والإقبال، وبلوغ الآمال

كتابنا هذا، أسماه الله وأعز أمره، وأشرق في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره آمين، يستقر بيد حملته الشرفاء، أولاد سيدي العواد، القاطنين بدكالة مع فرقة منهم، يقال لهم أولاد بوهلال، يتعرف من يقف عليه بحول الله وقوته، أننا وقرناهم واحترمناهم لوجه النسب الشريف الذي بأيديهم، وأسقطنا عنهم جميع الوظائف المخزنية والتكاليف السلطانية، قلت أو جلت، ومن قاربهم، أو حام حول حماهم، ينتقم الله منهم أشد الانتقام.

وقد حررناهم من جميع الوظائف تحريرا تاما مطلقا عاما، ومن وقف عليه، يعمل به ولا يتعداه والسلام.

في شهر الله المعظم شعبان، عام خمسة ومائة وألف (شعبان ***1105*** / أبريل سنة ***1694***) ***1105***

الرسالة: 144

كتاب من سلطان مراكش إلى لويس السادس عشر سلطان فرنسة.

بسم الله الرحمان الرحيم لا حول ولا قوة بالله عن أمر السلطان الأعظم سلطان مراكش وفاس وكافة الأقاليم المغربية خلد الله نصره أعز أمره وأدام سموه وفخره وأشرق في فلك السعادة شمسه وبدره، إلى عظيم جنس النصارى المتولي أمرهم الربي لويس السادس عشر من اسمه سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فقد ورد على حضرتنا العلية بالله كتابه الذي تاريخه ثاني عشر من مايه عام أربع وسبعين وسبع مائة وألف المتضمن الأخبار بصوت جدك لويس الخامس عشر على يد قونصوكم برطلمي د بظي وبقي في خاطرنا جدك لويس كثيرا حيث كانت له محبة في جانبنا العلي وكان ممن يحسن السياسة في قومه وله حنانة في رعيته وحفظ عهد مع أصحابه وفرحنا حيث كان باق من يخلفه في المملكة والجلوس على سرير الملك من بعده وما زالت يسعد بك رعيتك أكثر مما كان في حياة جدك ونحن معك على المصادقة والصلح كما كان مع جدك، ثم فاعلم أن سفنا من سفن الفرنصيص حرثوا بأقصى إيالتنا المباركة في الصحراء وتفرق جميع من سلم من الغرق من النصارى في أيد العرب، وحيث بلغنا ذلك سيرنا بعض خدامنا للصحراء لنوجههم إليكم بعد الإنعام عليهم للمهادنة والصلح الذي بيننا وبينكم ويصلك ستة من الخيل من عتاق خيلنا صلة منا إليكم، وخديمنا

المذكور لا تبطئوه عندكم ووجهوه إلينا عزما بعد قضاء الغرض الذي وجهناه إليه، ونحن معكم على المهادنة والصلح.

صدر المر بكتبه من حاضرة مكناسة الزيتون في عاشر جمادى الثانية عام *1188* للهجرة.

الرسالة: 145

إليكم جمهورية جنوة النبيلة، سلام وتمنيات طيبة، بعدما أعطيت ثقتي (جوان بابتيسط دوبرناردو) وأوصيت قائدي على السواحل علي بن عبد الله ليبعثه إلى بلاطنا الملكي –لعلممنا بوصوله إلى أراضينا–وأن يستقبله بما يليق به من التشريفات لكونه مبعوثا عن أميركم الذي يستحق كل الاحترام، وبما أنه سقط مريضا في طنجة فقد تعذر عليه المجيء إلى هنا (البلاط) وكذا واستجابة لطلب عبدنا دومنكو دوبرناردو الذي نقدره نفس التقدير الذي يكنه له ابننا مولاي زيدان (رحمه الله) فقد أمرت بأن يستدعي مايير بارسلي تاجري، وهو من جنسية يهودية ويتمتع برضانا نظرا لخدماته المحمودة، وذلك لكي يضع حدا لعبودية 21 أسير ينتمون إلى بلدكم والذين طلبتم افتداءهم على يد التاجر جستيبون سيلير، ورغم مرور وق، فإنكم لم تقدموا لي عدد المغاربة (الأسرى عندكم) لافتدائهم الذي لم يت، أشكركم على هداياكم التي وصلتني على يد سلير المذكور وخوان بابتيسط، وأخرى تلقيتها في وقتها، لقد كنا نرغب في دعوة أسراكم النصارى (السابق ذكرهم) إلى أسرهم الأول وإلى أسرهم الأول وإلى خدمتهم لنا، ولكن نظرا لإلحاح وتوسل العب د(دومنكو) لتقديرنا له ولأنكم أكدتم لنا بأنه بإرسال (بارسلي) ستضعون حدا لهذا الموضوع، فإننا ننتظر أن تكونوا عند وعدكم، وعليه فإننا سنبعثه إليكم مع كثير من الإلحاح من جهتنا ليعمل على معالجة المسائل التي تعجبكم، ونؤكد لكم أنه إذا جاء في جوابكم على رسالتنا هذه ما (يفيد) بأنكم

ستبعثون إلينا المغاربة (الأسرى) وبأنكم ستعملون على حل هذا الموضوع قبل غيره، فإنني سأعمل في بقية الأمور ما يرضيكم معبرا بذلك عن حس الإرادة، وأتنى أن تكون لي معكم مراسلة شريفة نظرا للتقارير الطيبة المتعلقة بكرمكم والتي أطلعني عليها العبد المذكور، وهو ما سأختبره في هذه الناسبة لكي يدوم شكري لكم، وفي حال عدم الوفاء بهذا فستعلموننا بقراركم لنتخذ ما نراه مناسبا، لقد تحدثنا مع (بارسلس) المذكور حول ما يجب أن يتفاوض عليه معكم حفظكم الله ولا يكون إلا الخير. سنة ***1122***.

الرسالة: 146

بسم الله الرحمان الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لا إلاه غيره ولا رب سواه

من عبد الله، المعتمد على الله، المفوض جميع أموره إلى مولاه، أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الشريف الحسني، أيده الله.

(الطابع الشريف)

إلى لويس، عظيم جنس فرانصية، وصاحب كرسيها وولايتها، سلام على من اتبع الهدى، وامن بالله ورسله ثم اهتدى.

أما بعد، فاعلم أن خديمنا الباشدور، القبطان، عبد الله ابن عائشة السلاوي، لما رجع إلينا من عندكم، وآب من وجهته إليكم، وكنا نسأله عن أحوالك، وغاية تصرفك، وعن أحوال أهل ديوانك، الخاص بك، وعن تصرفاتهم بالنسبة إليك، فرأيناه، وسمعناه يثني عليك، ويذكرك بخصال الملوك، ولا يقصر في حقك بشيء من جميع ما يرجع إلى أبهة الملك، وقدر السلطنة، وناموسها وشروطها وقوانينها، ويذكر ذلك بمحضر القواد والكتاب وأكابر المملكة وأعيانها ووجوهها، ولا يجحد لك برواية ولا إحسانا إليه، ولا اعتناء بشأنه، وقط ما ذكر مسألة عنك تحط من منصب المملكة وواجبها.

ومن جملة ما أخبر به عنك وعن أهل ديوانك، لما سألناه عنك، وعن كيفية تصرفك وتصرفهم، قال لنا: إنك إن أحببت مسألة، وعزمت عليها تعملها، ولا

يردك عنها أهل الديوان، ولا يصدونك عن عملها، وهم إذا أبرموا أمرا وعولوا عليه، وسمعته أنت، لا تمنعهم منه ولا تردهم عنه، ولكن مع ذلك مرجع الحل والعقد إليك في الحقيقة، فأعجبنا ذلك، واستحسناه منك ومنهم، فإن الملك لا يطلق عليه إسم الملك إلا إذا كان له التصرف المطلق من غير حجر عليه.

وما رأينا هذا الرجل الباشادور غاضه الحال، ولا نسب بعض الرغبة لأهل الديوان عن إليك ونظرك إلا في مسألة لم يذكرها لنا إلا بعد مدة، وهي مسألة ما أتى به من عند أهل ديوانكم، وأنهم قالوا له: بيننا وبينكم (كيرة)، وذكر أنك راودتهم على المهادنة معنا كثيرا، وقلت لهم: هادنوا هذا الرجل، فلم يساعدوك، وما ساعفوك، وخاصمناه على تأخير هذا الكلام عنا، ولماذا لم يعلمنا به حيث جاء، فاعتذر لما وقال: والله ما رأيت لذكر ذلك لضيفي، نصره الله، وجها ولا فائدة، فديوان الفرنصيص ما معهم كبير تمييز في هذه المسألة وما عبت عليهم غيرها، وفي أي شيء جاؤونا، سواء كان (بي)، أو (كيرة)، فما عرفوا في هذه المسألة شيئا، ولا أحسنوا فيها رأيا، ولا تدبيرا، ولا نظرا. فالمعاهدات إنما يحرص الناس عليها إذا هم رأوا غرة ينتهزونها، أو فائدة يحصلونها، ويفوزون بها. وأي غرة يرى الفرنصيص في نواحي المغرب، وماذا عسى أن يحصل عليه إذا أتت سفنه وقواربه، وهب أنهم أرادوا رمي البونبات كعادتهم، فعلى من يرمونها. وهل يرمونها إلا على الدوم والفسيح من الأرض، فما تم إلا الدوم والساحل الذي لا يتضرر ببونة، ولا غيرها من غاية ضروبهم وحركاتهم. وهل توهموا أو ضنوا أن يعاملوننا نحن كأهل تونس وطرابس، وداية الجزائر، فنحن، والحمد لله، ما عندنا

شيء بالكوشطة نهتم به أو نهادنهم من أجله، ولا يلحقنا ضرر منهم، قلوا أو كثروا. فلا يجب علينا أن نخبر ضيفنا، أيده الله، إلا بمن يروم رمي المغرب بالجنود والعساكر في البر، ولا يخطر لهم ذلك على البال، ولا طماعة لهم فيه بوجه ولا بحال، إذ هو كما علمت من حيز المحال، وعقل ملكهم لويس أفضل وأرجح وأصوب من عقولهم في هذه المسألة. فإنه تحقق هذا وعرفه وميزه، وكان يراودهم ويرغبهم في المهادنة، حيث لم ير للكيرة معنا وجها ولا فائدة.

فعلمنا من كلام هذا الرجل الباشدور المذكور فضيلة عقلك ورجحانه على عقولهم، وكذلك جرت عادة الله سبحانه أن عقول الملوك أيا كانوا تفضل عقول من عداها من الخاصة والعامة.

ثم لم نزل نسأله على حسب الموانسة والمحادثة عن غاية بلادك ومساحتها وبناءاتها، فذكر لنا أنه رأى هنالك بناءات أعجبته واستحسنها، وشكر صناعها وعملتها ومهندزيها الذين بنوها، فقلنا له: ماذا ترى إن نحن بعثنا لصاحب فرنسية لويس على أن يوجه لنا بعض الصناع البنائين من الذين شكرت واستحسنت صنعتهم، أيبعثهم لنا؟ فقال لي: كل ما يطلب منه ضيفي، نصره الله، من مثل هذا وأكثر منه أعز ما عنده قضاؤه بطيب نفس منه.

وقد عزمنا بتوفيق الله أن ننشيء قنطرة من القناطر في مكان مستوعر مرتفع ومنخفض يحتاج إلى هندسة ونظر كبير، فأحببنا منك أن توجه لنا بعض الصناع المعلمين البنائين الذين لهم الخبرة بأمور البنيان، ونستوصي بهم خيرا، ونجازيهم على عملهم أحسن المجازات، وإذا كانوا يخدمون هنالك بريالة، أعطينا لهم نحن

ريالتين تكبرة بهم، واحسانا إليهم. وما زالت الملوك تتقاضى الحوائج بينها، وتهتم بأمور بعضها أي اهتمام، في الجاهلية والإسلام. ونحن مقتادون في هذا بسلفنا الصالح، رضي الله عنهم، وكانوا أقرب منا لزمان النبوة والرسالة، فقد ذكر الواقدي، رحمه الله، وهو من الأئمة الجلة، ومن أكابير علماء الملة، أن الوليد بن عبد الملك بن مروان، لما أراد تجديد المسجد الشريف، بعث إلى ملك الروم، جدك، إن كان لك به اتصال، وكنت من أولاده الحق كما تدعو، وكما يذكر عنك، وأعلمه أنه أراد أن يجدد بالبناء مسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأله أن يبعث له أهل البناء العارفين بإتقان البناء وأهل الحدق من الفعلة والصناع، فبعث إليه ملك الروم بمائة ألف مثقال، ومائة صانع، فأمر الوليد عمر بن عبد العزيز، قدس الله وجهه، أن يتولى النظر في ذلك، ففعل، وكمل البناء على أكمل حالة، وأفخم هيأة، وأحسن بنية، أتم إتقان. وملك الروم على ولايته ونصرانيته، والوليد أمير المومنين على إسلاميته، فهذه المسألة لا تتوقف فيها، وكن مقتديا بمن سلف في شأنها.

وإذا توقف لك غرض أو حاجة لا يقدح قضاؤها في شيء من أمور الدين، قضيناها لك نحن كذلك عن طيب نفوسنا.

ثم اعلم أيضا أن الباشدور عبد الله ابن عائشة المذكور، أخبرنا عن زرد رآه عندك، إذا أنتم جعلتموه على لوحة يتحرك تحركا بينا، فأذكرنا زردا كان لنا من الدروع الداوودية، وانجلى لنا في الخزانة أو غيرها، ولا عرفنا يد من دخل هذه مدة تنيف على عشرين سنة، فأحببنا أن نرى ذلك الدرع الذي عندكم، فإن فيه ما

يرى على ما وصف لنا منه الباشدور، وأردنا منك أن تبعثه إلينا بنفسه حتى نراه على حسب الرؤية والمراجعة، ونرده إليكم كما جاءنا إن شاء الله تعالى.

ومثل هذه المسائل لا تتوقف فيها الملوك، ولا تضن بها، سواء كانت سلما أو حربا، بل هي من مفاخرتهم فيما بينهم.

فنؤكد عليك أن تعتني ببعث ذلك الزرد على وجه الرؤية والرد على حال سبيله.

وتبعث لنا المعلمين البنائين، كما أحببنا منك، للغرض المذكور.

وقد كنا أثرنا (كذا)، عليك، وألمعنا إليك ببعض ما في هذا الكتاب في كتاب كنا سطرناه إليك قبل هذا، فالعمل عليهما معا، وهذا غاية ما أحببناه منك الآن. والله ولينا في السر والإعلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كتب في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة ومائة وألف. انتهى.

(***12*** جمادى الأولى ***5/1111*** نونبر ***1699***)

الرسالة: 147

بسم الله الرحمن وصلى على سيدنا ومولانا محمد وآله

إسماعيل بن الشريف الحسني أيده الله ونصره.

وفي الدائرة: يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا.

ونص الشروع:

عن أمر عبد الله المتوكل على الله الناصر لدين الله المفوض أمره كلها الى مولاه في سره ونجواه الملحوظ بعين عز الله أمير المومنين المجاهد في سبيل الله رب العالمين ظل الله الظليل على عباده ونوره المستضاء به على أرضه وبلاده اسماعيل بن الشريف الحسني أيده الله بالنصر العزيز وأحاطه بالصون الحريز وأصلح به وعلى يديه البلاد والبقاع يستقر هذا الامر المطاع الواجب على كل واقف عليه الامتثال والاتباع بنص الكتاب والسنة والاجماع بيد حامله وماسكه الشريف الاصيل المحترم الجليل المجاهد في سببيل الله الخير الدين أبو العباس السيد الغازي احمد بن سعيد بن عمر بن ابراهيم اللحياني الحسني القلعي دارا ومنشأ وإخوانه كافة الشرفاء اللحيانيين القاطنين بجبل قلعية وجملة عصبته وأولاده وحفدته. يتعرف به بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركته وعزته ونصرته أننا جددنا لهم حكم ما أوجبته لهم نسبتهم الطيبة الشريفة الطاهرة المنيعة الجليلة المقدار بالله —من التعظيم والاحترام والتبجيل والرعي المستدام الجميل وأسبلنا عليه أردية التوقير والاحترام ومقامهم على كامل المبرة الموجب لموالاتهم

ومراعاتهم وإعزازهم وإكرامهم والتبيه على علو مكانتهم ومنصبهم والانتماء بهم لأشرف-واحتمائهم بالحسب الاعز الاحمى الذي أوجب الله على كل مومن وداده ومبرته واحترامه واعتقاده فلا سبيل لمن يروم اهتضامه أو يحاول انتقاصه ولو بقلامة ظفر فمن رام الكيد فقد جعل السبيل عليه وبله بعين القدرة إليه وأما ما يجب عليهم من زكاة وعشار فيؤخذ من أغنيائهم بالموجب الشرعي المعتبر المرعي ويرد على فقرائهم ويعرف عليهم بالمعروف وذلك كله على يد أخيهم المجاهد السيد الغازي احمد بن سعيد المذكور لثقته وأمانته وملازمته الثغور الجهادية والاماكن الرباطية إذ نحن قدمناه عليهم وعلى كافة المجاهدين من أهل قلعية وجعلنا كلامهم معه فمنهم إليه ومنه إليهم فلا مدخل لأحد منهم سواه لكونه ممن له خبرة واختبار بمخادعة المخازي الكفار وأنعمت عليهم على رأس كل سنة بأربعين وسقا من الشعير إلى أقصى غاية من السنين الآتية والاستقبال مع ألف مثقال صلة من بيت مال المسلمين إعانة للمجاهدين المذكورين ونؤكد على خديمنا الغازي محمد ومن يقف على هذا الظهير الشريف من أولادنا وقرهم الله وأصلحهم وأثمر غرسهم وخدامنا ووصفائنا وولاة أمرنا وغيرهم وعامة المسلمين وخاصتهم العمل بمقتضاه ولا يسوغ له أن يتعداه ونؤكد على كافة الشرفاء المذكورين ان يكونوا عند أمر أخيهم المجاهد المذكور بحيث لا يخالفوا له رأيا ولا كلاما فمن خالف رأيه أو كلامه منهم ومن هو في زمام المجاهدين يخاف على رأسه والسلام.

وكتبت في أوائل ربيع النبوي عام خمسة وتسعين وألف.

وقيدت هذه النسخة في- ربيع النبوي عام ستة وعشرين وثلاثمائة وألف.

الرسالة: 148

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

الطابع السلطاني البيضاوي وما بداخله: إسماعيل بن الشريف الحسني

كتابنا هذا أسماه الله تعالى وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره نجدد لحملته الشرفاء أولاد الولي الصالح السيد امحمد الحاج علي بن مخوخ يتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته —أننا- جددنا لهم على ما بأيديهم من ظواهر سيدنا الوالد قدس الله روحه وأبقيناهم على ما كانوا عليه من التوقير والاحترام والرعي الجميل المستدام وحملهم على كاهل المبرة والاكرام والمودة والانعام فلا سبيل لأحد عليهم فهم موقرون على مر الشهور والاعوام والليالي والايام، ومن قربهم أو طاف بساحتهم فإننا ننكل بهم تجديدا تاما مطلقا عاما وحسب الواقف عليه العمل بمقتضاه ولا يتعداه والسلام.

في الحادي والعشرين من شوال عام ستة وثلاثين ومائة وألف.

الرسالة: 149

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الطابع السلطاني وما بداخله إسماعيل بن الشريف الله وليه

خديمنا القائد العياشي بن ... أرشدك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد، اعلم ان حامله السيد ولد الحاج عيسى الوكيلي ورد علينا بحضرتنا العالية بالله وكثيرا ما أثنى عليك وأنت تعرف مكانتهم ومحبتهم فينا فاستوصي بهم خيرا ولا تترك من يترامى عليهم بشيء من الاشياء وابقهم على عادة أسلافهم معنا واياك ثم اياك ان تتغاضى عنهم في مسألة جلت أو قلت فهم محسوبون علينا ومحاجرنا. وذكر أن معهم بوجدة بلدة بتهلا فيها ... منها معاشهم وقوت ... وأقدرهم واعرف حقهم فلم يخفاك حال والدهم معنا والسلام.

في تاسع عشر الحجة عام ثلاثة وثلاثين ومائة وألف.

الرسالة: 150

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الطابع السلطاني وما بداخله إسماعيل بن الشريف الله وليه

عن أمر عبد الله المتوكل على الله الناصر لدين الله المفوض أموره كلها إلى مولاه في سره ونجواه ... أمير المومنين المجاهد في سبيل رب العالمين ظل الله الظليل على عباده ونوره المستضاء به على أرضه ... وأصلح على يديه البلاد والعباد ... يستقر هذا الكتاب بيد ماسكه الشريف الاصيل المحترم الجليل مولاي بن حدو بن عمر واحمد ... اللحياني الحسني القلعي دارا ومنشأ والانعام والاجلال والاعظام والمحاشات عما تطالب به العوام حسبما هذه بذلك وطريقتهم المعروفة وحتى زكاتهم وأعشارهم يصرفونها على فقرائهم. ومن قربهم أو طاف بساحتهم فينتقم الله منه والواقف عليه من خدامنا وعمالنا وولاة أمرنا يعمل به ولا يتعداه والسلام.

في فاتح رمضان المعظم عام ***1035***.

الرسالة: 151

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الطابع السلطاني وما بداخله إسماعيل بن الشريف الله وليه

كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، واطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره بيد حملته الشرفاء اولاد ماخوخ القاطنين بقبيلة سلاس وهم: السيد عبد العزيز بن الحسن بن محمد ومحمد بن احمد بن عبد الرحمن والسيد احمد بن عبد العزيز والسيد محمد بن محمد بن ابراهيم والسيد عبد القادر والسيد محمد بن عبد العزيز النسب.

يتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه حررناهم ووقرناهم واحترمناهم من جميع الوظائف والتكاليف السلطانية والمخزنية قلت أو جلت عدا الزكاة والاعشار تحريرا تاما وتوقيرا عاما ونامر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا يعمل به ولا يتعداه ومن طاف بساحتهم أو حام حول حماهم فلا يلومن الا نفسه (البياض من قوله فلا الى وفي منسلخ تعذر نقله) وفي منسلخ حجة الحرام عام إحدى عشر ومائة وألف.

الرسالة: 151

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الطابع السلطاني وما بداخله إسماعيل بن الشريف الله وليه

المعتصم به أمير المومنين أبي مروان أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين

الطابع السلطاني البيضاوي

وما بداخله اسماعيل بن الشريف الحسني

يجدد بحول الله تعالى وقوته للشرفاء الاخيار السادات الابرار حكم ما بأيديهم من أوامر الوالد وأسلافنا نعمهم الله وهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الوكيلي وجملة إخوانه وبنو عميه المتضمن اجراؤهم على مألوف عوائدهم من التوقير والاحترام والرعي الوافر –على مر الليالي والايام ولا يروم أحد جوانبهم بخرق عادة ولا إحداث زيادة وأن لا يطالبوا بشيء من الاعشار والزكاة فهي معروفة عليهم لاطعام الطعام للمساكين والايتام بزاويتهم المباركة ويحاشون من جميع الوظائف السلطانية والتكاليف المخزنية كيف كانت – وغير ذلك مما يلزم أهل الحضرة والبادية ... من مقتضى عوائدهم وحسبما تضمنته الاوامر العلية التي بأيديهم تجديدا كامل الرسم تام الحكم. والواقف عليه يعمل بمقتضاه ويخص ما أمضاه والسلام.

وكتب بأواخر الحجة الحرام مكمل عام ثلاثة وثلاثين وألف.

الرسالة: 152

بسم الله الواحد القدير

إلى دون كرلوص الثاني ملك قشتالة وليون وأرغون وغيرهما بتوفيق الله.

وفد علينا الفراي دييجو الذي استقبلناه بما هو جدير به من حفاوة لكونه مبعوثكم، كما تقبلنا الفرس والسلاح بقبول حسن، وكانت الهدية خليقة بالتقدير لأنها من قبلكم، وقد عهدنا منكم كرم النفس وحسن الرغبة في الاتصال بنا مما يحدوني إلى أن أعالج معكم شئونا مهمة جدا بعناية لولا أني علمت أن إمضاءها رهن بمشيئة مجلسكم، ولا يتعلق بسلطتكم المحضة، وهو ما لم يكن يحدث من قبل أسلافكم فقد كانت أمورهم وأخطاؤهم-على أنهم لم يخطئوا قط- رهن مشيئتهم الخاصة، ولهذا جاز البت في الأمور سريعا، والإبطاء في معالجتكم لهذه الأمور مع مجلسكم ثم انصرافنا في هذه الآونة إلى الحرب يدعونا إلى إرجاء القضية إلى فرصة أخرى مواتية تعالج فيها الأمور على مهل بالصورة التي تليق.

حفظ الله ذاتكم الملكية. السادس من شهر مايو بمكناسة.

ولما كان قد صدر منا يمين في الوقت الحاضر حيث آلينا ألا نفرج عن مسيحي من أية أمة كان فلن أسلم إليكم الأسرى الأحد عشر، وهم عشرة من الجند، وفارس من هذه المدينة يدعى دون فرنندو ريوكسا واوليفاريس وإنما سيكونون طلقاء لذمتكم في يد ياوركم فراي دييجو دي لس أنخيلس ليسلمهم إليكم بعد أن

يستوفى يميننا أجله، هذا ونحن راغبون في أن نقابل ظرفكم بمثله. حفظكم الله.

حرر في سنة ألف ومائة وأحد عشر بمدينة مكناسة.

ملك مكناسة.

الرسالة: 153

ولم تزل الملوك رحمهم الله ونضر الموجود منهم نصرا مؤيدا تعظم وتحترم حرم مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه. ويؤيد ذلك ما كتب به الأمير مولانا إسماعيل برد الله مضجعه، وأسكنه من الجنان فسيحه، لما نزل السيد محمد بن قاسم المدعو اعليليش مدينة تطوان، ووقع من الأمير المذكور إرسال الجيش لشرفاء كتاب السلطان بذلك بعد ما نزل وصيفه سعيد الزيراوي على عزائب شرفاء العلم، ونهبهم تضييقا لهم ليمكنوه ممن احترم بجدهم رضي الله عنه، فلم يسعهم إلا الوفود على السلطان متشفعين في المحترمين وفي رد ما أخذ لهم من عزائبهم، فصاروا في محفل عظيم وقدموا شاكين عليه وطالبين السماحة والرضا عنهم. فلما وصلوا إليه استقبلهم بسرور مبجلا معظما لهم، وأمر بتعظيمهم وتوقيرهم، بحيث لا يصلهم حكم من ولاته وقواد سلطنته في أي شيء كان إلا منه لهم ومنهم له. فبعث معهم هذا الظهير ونصه:

"الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه. يستقر هذا الظهير الكريم، والأمر المحتم الصميم، بيد حمالته شرفاء العلم أولاد مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وغيرهم من إخوانهم وأبناء عمهم، يتعرف منه وصيفنا سعيد الزيراوي وغيره من قوادنا وولاة أمرنا المطاع بالله، أنهم لما وردوا على عالي مقامنا، سامحناهم ورددنا عليهم مالهم، وأقررناهم على حرمهم المعهود، وأجرينا على المألوف من عوائدهم توقيرا واحتراما، بحيث لا تقرب لهم

ساحة، ولا يطوف أحد حولهم أو بجانبهم بمكروه. وليس لأحد يد عليهم كائنا من كان، فمنهم إلينا ومنا إليهم في كل شيء. وكذلك فيمن انحاش إلى حرم جدهم المذكور من الحراطين وغيرهم. ونأمر وصيفنا سعيد المذكور أن ينتقل عن عزائبهم، ويتجافى عنها بعد رده لهم مالهم عن آخره، وعلي بالمشي إلى مكة حافيا راجلا إن ضيعت لهم قلامة ظفر منه حتى نحسك رقبتك وأنت أخبر والسلام.

في ستة وعشرين من جمادى الأولى عام واحد وعشرين ومائة وألف.

الملحق:

رسالة العلامة الحسن اليوسي للسلطان المولى إسماعيل:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين قطب المجد ومركزه ومحاز الفخر ومأرزه وأساس الشرف الباذخ ومنبعه ومناط الفضل الشامخ ومجمعه السلطان الأعظم الأجل الآفخم مولانا إسماعيل ابن مولانا الشريف لا زالت أعلامه منصورة وأيامه على العز واليمن مقصورة سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته هذا ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والإجلال والدعاء لسيدنا بصالح الأحوال وذلك بعض ما أوجبته يده المبسوطة علينا بالبر والإحسان والفضل والامتنان والتوقير والاحترام والإنعام والإكرام مع ما له علينا وعلى غيرنا من الحقوق التي أوجبتها منزلته السلطانية ومثابته الطوقية الفاطمية فكتبنا هذه البطاقة وهي في الوقت منتهى الطاقة وكنا كثيرا ما نرى من سيدنا التشوق إلى الموعظة والنصح والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنجح فأردنا أن نرسل إلى سيدنا ما أن وفق إلى النهوض إليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة ورجونا وإن لم نكن أهلا لأن نعظ أن يكون سيدنا أهلا لأن يتعظ وأن يحتمي من جميع المذام ويحتفظ فليعلم سيدنا أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له والناس عبيد الله سبحانه وإماء له وسيدنا واحد من العبيد وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحانا فإن قام عليهم

بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة العالية عند الله تعالى وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والإفساد فهو متجاسر على مولاه في ملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير إذنه كيف يفعل به يوم يتمكن منه ثم

نقول إن على السلطان حقوقا كثيرة لا تفي بها البطاقة ولنقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها الأول جمع المال من حق وتفريقه في حق الثاني إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج إليه من عدد وعدة الثالث الانتصاف من الظالم للمظلوم وفي معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة فإن تنبه وفعل فقد فاز وذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة وإلا فقد أدينا الذي علينا أما الأمر الأول فليعلم سيدنا أن المال الذي يجبى من الرعية قد أعد للمصالح التي ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من أهل البيت والعلماء والقضاة والأئمة والمجاهدين والأجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من المصالح ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن قبضها إلا بوكيل ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل فإن استوفى الوكيل الدين بلا زيادة ولا نقصان وأداه إلى اليتامى يحسب ما يجب لكل فقد برىء من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم وحصل له أجران أجر القبض وأجر الدفع وإن هو زاد على الدين الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم له

أو نقص اليتيم من حقه الواجب له فهو ظالم له وكذا إن استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لأربابها فهو ظالم فلينظر سيدنا فإن جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا أما الدنيا فقد أخذوها وأما الدين فقد فتنوهم عنه وهذا شيء شهدناه لاشيء ظنناه ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل من يزين له الوقت فإن كثيرا من الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون الله تعالى ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب وفي أفضل منهم قال جده أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المغرور من غررتموه اه وأن يتفقد المصالح ويبسط يد الفضل على خواص الناس من أهل الفضل والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل

أفاتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ولا يهملهم فيتمنوا غيره ويتطلبوا دولة أخرى كما قيل إذا لم يكن للمرء في دولة امرىء نصيب ولا حظ تمنى زوالها وما ذاك من بغض لها غير أنه يريد سواها فهو يهوى انتقالها وليعلم سيدنا أن السلطان إذا أخذ أموال العامة ونثرها في الخاصة وشيد بها المصالح فالعامة يذعنون ويعلمون أنه سلطان وتطيب قلوبهم بما يرون من إنفاق أموالهم في مصالحهم وإلا فالعكس وأيضا السلطان متعرض للسهام الراشقة من دعوة المظلومين من الرعية فإذا أحسن إلى الخاصة دعوا له بالخير والسلامة والبقاء فيقابل دعاء بدعاء والله

الموفق وأما الأمر الثاني فقد ضاع أيضا وذلك أنه لم يتأت في الوقت إلا عمارة الثغور وسيدنا قد غفل عنها فقد ضعفت اليوم غاية وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله فكانوا إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلا ورماة وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصي والمقاليع وهذا وهن في الدين وغرر على المسلمين وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة وتكليفهم الحركات وإعطاء العدة كسائر الناس فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من قلعية إلى ماسة ويحرضهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون إليه فهم حماة بيضة الإسلام ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد ونجدة في المضايق وغيرة على الإسلام ولا يولي فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على أريكته والله الموفق وأما الأمر الثالث فقد اختل أيضا لأن المشعبين للانتصاف بين الناس في البلدان وهم العمال وخدامهم هم المشتغلون بظلم الناس فكيف يزيل

الظلم من يفعله ومن ذهب يشتكي سبقوه إلى الباب فزادوا عليه فلا يقدر أحد أن يشتكي فليتق الله سيدنا وليتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب وليجهد في العدل فإنه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا قال تعالى إن الله يأمر بالعدل والإحسن وإيتآىء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي الآية وقال تعالى ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الحج ثم ذكر تعالى المنصورين وشروط النصر فقال الذين إن مكنهم في الأرض أقاموا الصلوة وءاتوا الزكوة

وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر الحج فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الأمور الأربعة فمتى اختل عليهم أمر الرعية وتسلط عليهم من يفسد عليهم الدولة فليعلموا أن ذلك من إخلالهم بهذه الأمور فكان عليهم الرجوع إلى الله تعالى وتفقد ما أمرهم به ورعاية ما استرعاهم إياه وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور لا يثبت معه الملك ولا يستقيم وأن العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا عليه من العدل في الرعية استصلاحا لدنياهم فكيف بمن يرجو صلاح الدنيا والدين قال بعض الحكماء الملك بناء والجند أساسه وإذا ضعف الأساس سقط البناء فلا سلطان إلا بجند ولا جند إلا بمال ولا مال إلا بجباية ولا جباية إلا بعمارة ولا عمارة إلا بالعدل فالعدل أساس الجميع وقد صنع أرسطوطاليس الحكيم للملك الإسكندر الشكل المستند عنه وكتب عليه العالم بستان سياجه الدولة الدولة سلطان تعضده السنة السنة سياسة يسوسها الملك راع يعضده الجيش الجيش أعوان يكفلهم المال المال رزق يجمعه الرعية الرعية عبيد يقودهم العدل العدل مألوف وبه صلاح العالم العالم بستان إلى آخره وقال راع وكلكم مسؤول عن رعيته وقال

إن رجالا يخوضون في مال الله بغير حق لهم النار يوم القيامة أو كما قال وقال ما من وال يلي ولاية إلا جاء يوم القيامة ويداه مغلولتان فأما عدل يفكه وأما جور يوبقه وعن مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره بالأبطح فقلت يا أمير المؤمنين أين تسير فقال بعيره من إبل الصدقة

شرد أطلبه فقلت أذللت الخلفاء من بعدك فقال لا تلمني فوالذي بعث محمد بالحق لو أن عناقا ضلت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة إنه لا حرمة لوال ضيع المسلمين ولا لفاسق روع المؤمنين وقد رأى رضي الله عنه شيخا يهوديا يسأل على الأبواب فقال ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شابا ثم ضيعناك اليوم وأمر أن يجري عليه قوته من بيت المال وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل في نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال إلا بحق وليسأل العلماء عما يأخذ وما يعطي وما يأتي وما يذر وقد كان بنو إسرائيل يكون فيهم الأمير على يد نبي فالنبي يأمر والأمير ينفذ لا غير ولما كانت هذه الأمة المرحومة انقطعت منها النبوة بنبيها خاتم النبيين فلم يبق إلا العلماء يقتدى بهم قال علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل فكان حقا على هذه الأمة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذا وعطاء وقد توفي واستخلف أبو بكر رضي الله عنه وكان قبل ذلك يبيع ويشتري في السوق على عياله فلما بويع أخذ ماله الذي للتجارة وذهب للسوق على عادته حتى رده علماء الصحابة وقالوا إنك في شغل بأمر الخلافة عن السوق وفرضوا له ما يكفيه مع عياله وجعلوا المال على يد أمين فكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده فعلى سيدنا أن يقتدي بهؤلاء الفضلاء ولا يقتدي بأهل الأهواء وليسأل من معه من الفقهاء الثقات كسيدي محمد بن الحسن وسيدي أحمد ابن سعيد وغيرهما من العلماء العاملين الذين يتقون الله ولا يخافون في الله وهي أمورٌ دنيوية لابد من فراقها إما بذلك أو بغيره، والموعد الآخرة، ولو تسلط الجهل عياذاً

بالله لم تبق عقيدة صحيحة ولا إيمان ولا عمل صالح، وهذا هو الهلاك الأبدي الذي يستمر إلى الآخرة، فتعلم أن الجهاد في دفع الجهل وتحصين الدين أصلاً وفرعاً أهم وأوكد من الجهاد في دفع العدو، وثم إن نبينا صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله بدأ بالثاني الذي قلنا أنه الأهم، فكان يجاهد في دفعه بالتعليم بأقواله وأفعاله وتقاريره، ولم يشتغل بجهاد العدو إلا بعد ذلك حين إذن له،

ثم إن الله تعالى أباح له الغنائم فكانوا يتقوون بها على الجهاد كله، وكانت تدفع لكل من حضر المعركة حكما شرعيا، والإستقراء قاضٍ بكون الناس في القتال ثلاثة، شخص يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ومطلبه الله تعالى ورحمته الباقية، لا تشوف له إلى المال ولا للدنيا أصلا، وهو خير الناس، وشخص يقاتل لذلك أيضا مع التشوف، وهو في وسط الناس، وشخص يقاتل لطلب الدنيا، إما تشوفاً إلى الآخرة أم لا، وهو شر الناس، ولكن ينفع الله به بالدفع عن غيره كما قال صلى الله عليه وسلم في مسألة قُزْمَانَ : إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وَكُلٌّ من الأصناف يقبض المال في جهاده، أما الأول فهو وإن لم يكن هو الباعث له لكنه يتقوى به على شغله، والكل في ذات الله، ولا ينقصه ذلك شيئا عند الله، ولا حرج عليه أصلا، بل لو ترك نصيبه وألجأته النفقة الواجبة على نفسه أو على عياله على أن يذهب ليحترف ويعطل الجهاد، وربما حُرِمَ مِنْهُ، وكان الثَّانِيَ وإِنْ كَانَ دُونَ الأَوَّلِ، وأما الثالث فَهُوَ حَظُّه مِنَ الله، وأجره عُجِّلَ له، فَإِذَا فُهِمَ هذا في المجاهدين وما يأخذون من الغنائم فَلْيُفْهَمْ مثله في المجاهدين في العلم حرفاً بحرْفٍ، فالمشتغلون بالعلم أيضا تعلما وتعليما محتاجون إلى مؤونة

وكفاية يتقوون بها على ما هم بصدده، ولابد أن يكونوا في هذا أيضا ثلاثة أصناف كما كانوا هنالك، وكما لا نُنَقِّب عن قلوبهم هنالك، بل نعطيهم المال جميعا وَحِسَابُهُمْ على الله كذلك هنا، وكما أن الإنتفاع هنالك يحصل بجميع من أخلص ومن لم يخلص كذلك في الثاني، وكما أنه ينبغي أن ينفل هنالك أهل البلاد على حسب مراتبهم في الغنائم، كذلك هنا ينبغي أن ينفلوا بحسب مرتبة المعلم في العلم، وأحكام صنعة التدريس ومرتبة المتعلم في الحذق والنشاط والملازمة، وكما أنه لولا الغنائم هنالك تارة والأعطيات لتعطلت مراسم الجهاد، وتعطلت الثغور، أما في الصنفين الأخيرين فَلِأَنَّ المَالَ بَاعِثٌ لهما، فإذا بَطَلَ البَاعِثُ وقع الفُتُورُ، اللهم إلا أن يخلفه باعثُ الإكراهِ، وهو لا يُجْدِي كبيرَ جدوى، وأما في الصنف الأول فَلِأَنَّ المالَ وإن لم يقصد لكنه هو القوام، فهو كالشَّرْطِ، وبطلانه يُوجِبُ بطلان المشروط، اللهم إلا من كان مكتفياً يجاهد بماله، وهو عزيزُ الوجود، كذلك إن لم يكن المال تعطلت مرَاسِمُ العلم غالبا، إلا أن يكون أيضا إكراهٌ، ولا تنتهض همة المتعلم ولا يكون لصدره انشراح ولا لقلبه إقبال، فلا يحصل للمتعلم انتفاع، بل يكون ضرباً في حديد بارد، أو يكون من له وفر فيطلب العلم بماله أو يعلمه بذلك، وهو أيضا عزيز الوجود، فإن أهل الدُّشُورِ الناشئين في النعمة لا يتفرغون غالباً لطلب العلم، ولا يَتَحَمَّلُونَ مهنَةَ التغريب والتَّرَحُّلِ والتذلل للمشايخ

إن الشباب والفراغ والجده * مفسدة للمرء أي مفسده

ولابد في طلب العلم من مقاساة ذلك

ومن لم يَذُقْ ذُلَّ التعلمِ ساعةً * تَجَرَّعَ كأسَ الجهل طُولَ حياته

تذلل لمن تهوى لتكسب عزة * فكم عزة قد نالها المرء بالذل

غيره :

صَبِرْتُ على بعض الأذى خَوْفَ كُلِّهِ * ودافعت عن نفسي بنفسي فذلت
وجرعتُهَا المكروهَ حتى تدربت * ولو لم أجرعها الأذى لاَشْمَأَزَّتِ
ألا رُبَّ عزٍّ ساق للنفس ذلةً * ويا رب نفس بالتذلل عُزَّتِ

وذلك يشق على أهل الأقدار وأهل الأيسار، وإنما يحضى به أولاد المساكين، وَهُمُ المنتفعُونَ فِي كثيرٍ، ولذلك يقال : لَوْلاَ أولاد الفقرَاءِ لذَهَبَ العلْمُ، وهم محتَاجُونَ إلى المؤونة، والعطَاءُ نافعٌ فيهم وفي غيرهم

وأحسن نوار نفتحه الصبا * بياض العطايا في سواد المآرب

والعطَايَا هِيَ تُطْلِقُ اللِّسَانَ، وتشرح الجنان، وتشجع الحيان، وتنشط الكسلان، وتسر الغضبان، سجية مطبوعة في الإنسان، على مرور الزمان، وقيل لِجَرِيرٍ : لِمَ كانت أشعارك في بني أمية أَحْسَنَ منها في بني العباس، فقال : إن اللُّهَى تفتَحُ اللَّهَا، أَيِّ العطايا تفتح اللسانَ، وذكر المعتمد بن عباد يوماً قول أبي الطيب :

إذا ظفرت منك العيون بنظرة * أثابَ بها مُعيي المُطِيِّ وَرَازِمُهْ

فجعل يُرَدِّدُهُ استلذاذاً له واستحساناً وبين يديه عبد الجليل ابن وهبون الشاعر، فانبعثت منه غيرَةٌ فأنشأ يقول ارتجالاً :

لئن جاد شعر ابن الحسين فأغلاه * تجيد العطايا واللها تفتح اللها

تَنَّبأ عُجباً بالقريض ولو دَرَى * بأنّك تَرويه إذا لتألَّها

وقال بعض مشايخ الوعاظ : مالنا إذا كنا ببغداد انطلقت ألسنتنا بالحكمة، وإذا كنا في غيرها لم نفعل، فقالت له عجوز : الطمع يحل فَاكَ، فهذا هو أصل هذه المسألة، فمن وفقه الله من الملوك ونبهه إليها قولاً وفعلاً، فأنفق في نشر العلم، وأقام المرتبات، وأحسن الجوائز حَيَا العلم في زمانه، وازهرت رياضه، وتفجرت حياضه، وظهرت الفنون الغريبة، والفهوم العجيبة ثم إن سَهَّلَ بابه مع ذلك ووطن مجلسه، وعاشر بالمعروف، وأظهر الجميل تسارع إلى مجلسه أهل العلم، فأشرق مجلسه، وتنور جانبه، وعظمت أبهته، ومن لم يفعل ذلك اندثر العلم في زمنه، فخلت رسومه، وهوت نجومه، فأما الطلبة فلعدم وجود الكفاية ولو وجد المعلم، وأما العلماء فكذلك، فمنهم من يشتغل بأسباب معاشه ومعاش من يعوله، ويرى أن ذلك أَوْجَبُ عليه من التعليمِ الذي هو فرْضُ كفايةٍ، وهو حَقٌّ، فَمِنْ أَيْنَ يتفرغ للعلم أو يفهمه، وفي مثل هذا قال عظيم من الفقهاء : لو كُلِّفْتُ اشترَاءَ بَصلَةٍ مَا حَفِظْتُ مسألةً وقال عضيم من الصوفية : لو عملت دجاجة خفت أن أكون جلوازا على الجسر، والجلواز الشرطي، أو التؤرور وهو التابع له، ومنهم من يرى لذلك إدبارا في الزمان وأهله ويرى أنهم لا يستحقون نفعا، فيدخل بيته، ويشتغل بالتقييد والتصنيف نفعا لمن يأتي بعد، وفي مثل هذا قال بعض الأئمة :

إن لَزِمْنَا الملوكَ تاهوا علينا * واستخفوا جهلا بحق الجليس

أو لزمنا التجار عدنا إلى البو * س وصرنا إلى عديد الفلوس

فلزمنا البيوت نستعمل الحب * ر وغلا به وجوه الطروس

فقنعنا بما رزقنا فصرنا * أمراء على الملوك الرؤوس

وقد ذيلها آخر فقال :

لو تركنا وداك كنا ظفرنا * من أَمَانِيِّنَا بعلقٍ نَفِيسِ

غير أن الزمانَ أعني بَنِيهِ * حسدونا على حياةِ النفوس

وهذا أعني الإستغناء بالتصنيفِ عن التدريس قد فعله جماعة من العلماء المعتبرين، منهم الجلال السيوطي، فقد حكي أنه ما كان يدرس بل يصنف، وقد نفع الله بتصانيفه اليوم، ومنهم تاج الدين بهرام آخر، فإنه حين شرح مختصر شيخِهِ رَامَ مِنَ الطلبةِ أن تقرأ بالشروح بين يديه تصحيحاً فنفروا عنه وقالوا : لا نقرأ كتابك ولا كتاب شيخك، فتركهم واشتغل بتصنيف الشامل.

ثم إن الملوك لم يزالوا مختلفين فيما ذكرنا حسبما اختلافهم في حب العلم وأهله، والرغبة فيه وفي سائر المصالح وفي تهذيب الأخلاق وكرم الطبيعة، واطمئنان النفس وغير ذلك، ولم يزل العلماء يترحمون على من أحيا الله العلم على يديه أو غيره من المصالح، ويبالغون في الثناء عليه، منذ الملوك الأمويين والعباسيين ومن بعدهم من أرباب الدول، ولاسيما إن كانت سيرته مع ذلك محمودة كصلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، وكذا ملوك المغرب من الأدارسة والمرابطين وبني عبد المومن، وقد كان شيخهم المهدي بن تومرت جاهد

في نشر العلم، وبني عبد الحق، وقد كان فيهم أبو الحسن المريني ونظراؤه، وكانت مدرسة الوادي وهي اليوم خربة، يقال أن فيها سبعمائة أو سبعة آلاف أستاذ، وكان لا يُعْطَى البَيْتَ فِيهَا إلاَّ مَنْ يَحْفُظُ جميع الأمهات، ولذلك لما جَاءَ الشَّرِيفُ وهو لَمْ يَحْفَظْهُ، ولم يجِدْ بيْتاً قَعَدَ عِنْدَ ساريةٍ، واشتغل بشرحِ الأجروميةِ حتى أكمَلَهُ، فدفعه إليهم لِيُعْطَى بَيْتاً.

ثم اندثر بعد أولئك العلم بفاس وغيرها حتى جاء السلطان أحمد المنصور فأحيا باعه، وعمر رباعه، وجمع الكتب وخالط العلماء وجالسهم وأرضاهم، وكذا الوليد بعده ومحمد الشيخ، غير أنه في بلدهم فقط، ثم جاء المولى محمد بن الشريف أخو سيدنا، فأَحْيَاهُ في بلده، وأعطى الفقهاء وأكرمهم وخالطهم، وَحَرَّرَ أهلَ البلاد للقراءة في القصبة، فأقام لهم ذلك التحرير مقام العطاء، وتسارعوا حتى أن الرَّجُلَ المُسِنَّ من أهل سجلماسة يكتُبُ الأجروميةَ في لَوْحِهِ يقرؤها.

وكثرت المجاليس، وكنا هنالك، حتى أنا في أكثر الأيام لا نذوق طعاما إلا من الأسفار لاشتغالنا بطلب العلم وتلقينا في المجالس طول النهار، فانتفع الناس، غير أن علوم الصحراء قاصرة، إنما هي ما قرب من فقهيات ونحويات، ولا يترقون إلى ذروة العلم، ولا يخوضون في لجج العلوم العقلية والنقلية.

ودائما يخيل لي أن ذلك باق في ذلك البلاد من كلمة الفضل بن النحوي رضي الله عنه، فإنه كان دخل سجلماسة، فأخذ يُدَرِّسُ أصولَ الدين وأصول الفقه، فرآه عبدُ الله بن بسامٍ أَحَدُ أشياخِ البلادِ فقال: مَا يَقْرَأُ هَذَا الإنسانُ؟ فقالوا له: الأُصُولُ، وكان أَهْلُ البَلَدِ إذ ذاك مقتصرين على عِلْمِ الرَّأْيِ، فقال: هذا يُرِيدُ أَنْ

يُدْخِلَ عَلَيْنَا عُلُوماً لاَ نَعْرِفُهَا، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ، فقامَ الشيخُ أبو الفضل وقال لابْنِ بَسَّامٍ : أَمَتَّ العِلْمَ أَمَاتَكَ اللَّهُ هَاهُنَا، وأشارَ إلى مكَانِهِ، فاتفق أَنْ أُعْلِمَ ابْنُ بَسَّامٍ بنكاحٍ يحْضُرُ عَقْدَهُ في المسجدِ في صبيحة اليوم الثاني، فخرج إلى المسجد سَحَراً، فمرت جماعةٌ من ملْوَانَةٍ فَقَتَلُوهُ، فكان هذا للعلمِ الخاصِّ قَدْ مَاتَ هنالك، وقد مررت بعد ذلك بسجلماسة فوجدت الأمر لم يبق على حاله، بل وقع الفتور، وذهبت تلك المحاسن إلا قليلا، ولم يبق إلا أصحاب المجلس على حالهم، وأصحاب مجلس السلطان منفعتهم في المجلس، وليس بذلك ينشر العلم وتحيا رسومه، ويتخلد ذكره، وإنما يكون ذلك بأصحاب المجالس في المساجد والرياضات، وفيها يشفع الخاص والعام، ويبقى ذكره على سائر الأيام، وفي الخبر : لَنْ يُهْلَكَ العلمُ حَتَّى يَكُونَ سراً، ثم جاء المولى الرشيد بن الشريف، فأعلا مناره، وأوضح نهاره، وأكرم العلماء إكراما لم يعهد، وأعطاهم ما لا يعد، ولاسيما بمدينة فاس، فضح من قبله، وأتعب من بعده، ولو طالت مدته لجاءته علماء كل بلدة، ثم قد انتهت النوبة اليوم إلى سيدنا، مصباح زماننا، وشمس غربنا، فأي شيء يمنعه وهمته أعلى، وخزائنه أملى، وقريحته أقوى، وبصيرته أضوى، من أن ينتهض إلى بناء هذه المكارم، وتأسيس هذه الدعائم، وتجديد هذه المعالم، وإحياء هذه المراسم، فيملأ مساجد فاس ومكناسة وسلا وتطاوين ومراكش وسجلماسة ودرعة بمجالس العلم، وفرسان البحث والفهم، وتلك الحَرَكَاتُ وَالغَيْبَاتُ لا تمنَعُ شيئاً من هذا، فإن بيوت المال بالحواضر وافرة، وأمناؤها بأبوابها حاضرة، ولم يبق إلا

الأمر السلطاني بالإعطَاءِ فإذا الدنيا زاهرة، وأهالي العلم متظافرة، وليس من دون أن تسقط الطير إلا نثر الحب

تَسّقُطُ الطيرُ حيث يلتقطُ الحَ * ـبُّ وتغشى منازلَ الكرمَاءِ

ولعمري لو فعل ذلك بنية صالحة لكان المرجو من الله تعالى ببركة العلم والدين أن يكفيه جميع المهمات، ويغنيه عن تلك الحركات، ويمهد له البلاد، ويجعل في يديه زمام الأرض والعباد، فإنه المالك القادر سبحانه، وإن فات من ذلك شيء لم يهل أمره، فإن التطلُّعَ إلى المفقُودِ، يُكَدِّرُ المتعَةَ بالموجود، وحينئذ يلقي عصا التسيار، وتستقر به الدار، ويطمئن في مجلسه، ومحل أنسه، وتحف به العلماء الأعلام، مقبلين من كل أفق بالأنداء والأعلام.

ألا قل لساري الليل لا تَخْشَ ظُلْمَةً * سعيدُ بْنُ سلمٍ ضوْءُ كلِّ بلاَدِ

وأنه لو كان ذلك لظهرت العلوم في كل بلد من البلاد المغربية، كل موضع بحمد الله من يكفيه من طلبة العلم، وإنما خمدوا لعدم المحرك، وما مثال العلم في صدور الرجال إلا مثل أَحْمَرٍ يُغَطِّي عليه الرمادُ بأدنى نفخٍ يُؤَجِّجُهَا، أو النار في الحجر بأدنى اقتدَاحٍ يخرِجُهَا، وليس يزيل اسْمَ العِلْمِ عَنِ العالمِ تقصيرُهُ في الجوابِ عن مسألة سُئِلَ عنها أو أكثر، ولا جَهْلُهُ لذلك رأساً، فما مِثَالُ العالمِ إلا مثال التاجر في البز أو العبيد أو الخيل أو نحو ذلك، فلا محالة قد تطلب عنده حَاجَةٌ موصوفةٌ أو أكثر، فلا تُوجَدُ عنده، ولا يخرجه ذلك عن سماط التُّجَّارِ.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول إذا سأله أهل العراق : إنَّا لا نعرف ما تسألون عنه، وَلِأَنْ يعيشَ الرجلُ جاهلاً خيرٌ من أن يقولَ في هذا الأمر بغيرِ علمٍ، وسئل إمام الأئمة رضي الله عنه عن أربعين مسألة، فأجاب عن أربعة منها، وقال في الباقي : لا أدري، ولم يقل أهل زمانه أنَّ العلمَ قد اندثر، وجاءه رجل مرة من بعض الآفاق سائلا عن شيءٍ، فقال له : لا أدري، فقال الرجل : إني أتيت من بلدٍ بعيدٍ فبأيِّ شيءٍ أرجع إلى أهلي ؟ فقال له : إذا رجعت إليهم فقل لهم إنَّ مالكاً لم يعرفها.

وقال ذلك أيضا مرة آخرى، فقام إليه ابنه وكان قد صَنَّفَ شيئاً من العلم، فقال له : كيف تقول لا أدري، كأنه يَسْتَحِي من قوله، فأقام حينئذٍ رضي الله عنه منادياً يُعْلِمُ النَّاسَ أَنْ لاَ يُتَّبَعَ ابْنُهُ، وَلاَ يُعْمَلَ بِكُتُبِهِ، وكان رضي الله عنه يقول هو وغيره من العلماء : جنة العالم لا أدري، فمتى أخطاها أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ، ونظم ذلك الشاعر فقال :

ومن كان يهوى أن يُرَى متصدراً * وَيَكْرَهُ لا أدري أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهْ

فإحاطة العلم بكل معلوم إنما هي لله وحده لا شريك له، والعباد يغترفون كل بحسب ما قُسِّمَ له، وقد قال الخضرُ لموسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام : ما علمي وعلمك في علم الله إلا كما أَخَذَ هذا العصفورُ من البحر، وما ذكرنا من العطَاءِ حَقٌّ على كل إمامٍ من بيت المالِ، وقد نص علماؤنا على أنه إن لم يكن بَيْتُ مالٍ يَكُنْ على جماعةِ المسلمين أن يجمعوا ما يُرَتِّبُونَ به الجنْدَ للجهادِ، وحملَةَ

العلمِ، وقد أَجَازَ هارون الرشيد الإمام مالكا بثلاثة آلاف، فقال له قائلٌ : يا أبا عبد الله ثلاثة آلاف، كأنه يستكثرها، فقال له : إذا كان مقدَارُ ما لو كان إمامَ عَدْلٍ فأنصَفَ أهل المروءَةِ أصابه شبه لذلك لم أرى به بأساً .

وأجاز زِيَادَةُ اللَّهِ عَامِلٌ من إفريقية الفقهاء، فمنهم من قبل الجائزة، ومنهم من رد، فاستنقص العامل كُلَّ مَنْ قَبِلَ، فبلغ ذلك أَسَدَ بْنَ الفرَاتِ، وكان ممن قَبِلَ، فقال : لا علَيْهِ إِنَّمَا أَوْصَلَنَا بَعْضَ حَقِّنَا واللَّهُ حَسِيبُهُ فيما يُمْسِكُهُ عنَّا .

ووفدت أعيان العرب ذَاتَ مرَّةٍ على هشام بن عبد الملك، وكانوا قد استووا، فجلس لَهُمْ وَفِيهِمْ صَبِيٌّ، يُقَالُ لَهُ درواس بن حبيب، في رأَسِهِ ذؤابةٌ، وعليه بردةٌ يمانية، فأنكر هشام حضُورَهُ، وقال للحاجب : مَا يَشَاءُ أحدٌ أَنْ يَدْخُلَ علينَا إلاَّ دَخَلَ حَتَّى الصبيان، فقال الصبي : يا أمير المؤمنين إن دخولي لم ينقصكَ وَلَكِنْ شَرَّفَنِي، وإن هؤلاء قدموا لأمرٍ فَهَابُوكَ دُونَهُ، وَإِنَّ الكلاَمَ نَشْرٌ والسكُوتُ طَيٌّ لاَ يُعْرَفُ إلاَّ بِنَشْرِهِ، فأعجَبَ هِشَامٌ كَلاَمَهُ، وقال له : انْشُرْ لاَ أُمَّ لَكَ، فقال : يا أمير المؤمنين أصابتنا سنُونٌ ثَلاَثٌ، فَسَنَةٌ أَذْهَبَتِ الشَّحْمَ، وَسَنَةٌ أَكَلَتِ اللَّحْمَ، وَسَنَةٌ أَنْقَتِ العَظْمَ، وفي يَدِكُمْ فُضُولُ أَقْوَاتٍ، فإِنْ كَانَتْ للهِ ففرِّقُوهَا على عباده، وإِنْ كَانَتْ لَهُمْ فَعَلَى مَ تَحْبِسُونَهَا عَنْهُمْ، وإِنْ كَانَتْ لَكُمْ فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، ولا يضيع أجر المحسنين، فقال هشامُ : مَا تَرَكَ لَنَا الغُلاَمُ فِي واحدةٍ مِنَ الثَّلاَثِ عُذْراً، وأمر بمائة ألف تُفَرَّقُ في البادية، وَأَمَرَ للغلامِ وَحْدَهُ بمائةِ ألفٍ، فقال الغلامُ : ارْدُدْهَا في جائزةِ العربِ، فما لي بها حاجةٌ في خَاصَّةِ نفسي دون عامةِ المسلمين، فكان في هذا أبلغ(1)

وعندما يُوَفَّقُ سيِّدُنَا لهذا الأمرِ يفعله لم يَبْقَ لَهُ حُزْنٌ على العلمِ ولاَ أَسَفٌ، بل تمتلئُ مسَامِعُهُ بطيبات الشكر والحمد، وتخلد مآثره في ديوان المجد، وَوَاللَّهِ هذا المرام، فإن هذهِ والله هي مفَاتِحُ الفلاَحِ والنَّجَاحِ، وبها يُرْجَى بقَاءُ العز والملك في الأعقابِ كابراً عن كابرٍ، لا بمجرد دعواتٍ ملفقَةٍ تَجُرُّ بِهَا الألسُنُ على أعوَادِ المنَابِرِ، والله المُوَفِّقُ

---

(1) أنظر المحاضرات في اللغة و الأدب، للحسن اليوسيﷺ باب في نبذة من كلام الأذكياءرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ص**114**

وأما قول الكِتَابِ : ومن قديم الزمان لا تُعْرَفُ العلماءُ إِلاَّ مع الملوك إلخ .. فأقول لا شك أنه لم تخل مملكة بحمد الله من علماء ينفع الله بهم من هَدَاهُ لطاعته كما أخبر بذلك الصادق المصدوق حيث قال : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، قال الأئمة : وَهُمْ أهل العلم، لأن أَوَّلَ الحديثِ وهو قوله صلى الله عليه وسلم : من يُرِدِ اللَّهُ به خيراً يفقهه في الدِّينِ دَالٌ على ذلك.

وقال صلى الله عليه وسلم : يَحْمِلُ هذا العلمَ من كل خلفٍ عُدُولُهُ ينفونَ عنه تحرِيفَ الضالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، أما صحبة الملوك وملازمة أبوابهم ومجالسهم وطعامهم فليس في العلماء على العموم ولا اللزوم، بل لم يزالوا

تختلف أحوالهم في ذلك، فمنهم من يسارع إلى أبواب الملوك، وهم الأقل، ومنهم من يتجافى عن ذلك، وهم الأكثر.

فأما المنقبض فقد يكون انقبَاضُهُ لشغلٍ له في حاله بينه وبين الله تعالى، أو شغلٍ آخر في معَاشٍ، أو في علمٍ، أو لكونه من نفُورِ الطبع عن تلْكَ الأبوابِ، أو لكونه لا يصلح لها، أو لكونه لم يجد إليها سبيلا، ونحو ذلك، وأما المُصَاحِبُ فقد يكون لإلجَاءِ الوقتِ له، أو لطلب التوسع في الدنيا، أو طلب الجاه، أو لمجرد التمتع في الوقت مأكلاً وملبساً ومنظراً وحديثاً، أو لِيَسْتَمْكِنَ من الظفرِ بخصمه، كأهل الأهواء الذين صاحبوا الملوك وداخلوهم ليتمكنوا من امتحان خصومهم أهل السنة، ولم تزل الملوك على هذا يصحبُهُمْ هَذَا ويتخَلَّفُ عنهم هذا من قديم الزمان، وفيما شَاهَدَهُ سيدنا كفايةٌ، فقد كان أخوه مولانا محمد الشريف قد صَاحَبَهُ مَنْ صَاحَبَهُ من الأشرافِ، ومن أهلِ تَجْمُعْتٍ، ومن أولاد القاضي، وقد تخلف عنه أكثَرُ منهُمْ وأفقَهُ وأَدْيَنُ منهم الإمام العالم شيخ الجماعة ومجيزها الوليُّ الصالحُ مولاي عبد الهادي بن علي بن عبد الله بن طاهر، وأخوه مولاي محمد، ومولاي بن علي، وسيدي مبارك الغرفي، ومولاي عبد الرحمان بن يوسف، وسيدي محمد بن أحمد السوسي، وسيدي أحمد الدراوي، وسيدي أبو القاسم المسكاني، وسيدي أبو القاسم الرجاني، وغيرهم ممن يكثر عده، وجلهم أشياخنا رحمة الله عليهم، فمن هؤلاء مَنْ يزُورُ في الأعيَادِ، ومنهم من لا يبْرَحُ مَكَانَهُ، وكذلك مولانا رشيد قد جَمَعَ العلماء، وَأَتَوْهُ من الآفاق بلا جَمْعٍ، وقد تخلَّفَ

غيرُهُمْ من أهل مملكته في كل مدينة وفي كل قبيلة، وهذا كلُّهُ أمرٌ واضحٌ، والذي يجب إعلامُ السلطانِ به نصحاً لينصَحَ به نفسَهُ وغيره من المومنين أَنَّ أكثرَ انتفاع الطلبة وأهل المسائل من العامة والخاصة إنما هو من الْمُنْقَبِضِ الجالسِ في دَارٍ أو في بيتٍ من بيوتِ الله، فحيثما جاء متعلمٌ أو سائلٌ وَجَدَهُ، ويصل إليه المسكينُ والعجوزُ، وَيُبَاحِثُ الطلبة حتى يَقِفَ على التحقيق، ولا يرهبونه ولا يستنكرونه ولا يتهمونه، والمخَالِطُ بخلاف هذا كله، فإن أكثر أوقاته تذهب في الطلوع والهبوط، ثم إذا خرج في أُبَّهَتِهِ لم يقدر المسكينُ أَنْ يصلَ إليه، ويشكره الطالب فيقول : هذا طَالِبُ دُنْيَا لا ينفعني اللَّهُ بِهِ لأنه لم يعْمَلْ بِعِلْمِه، فيطلُبُ غَيْرَه، إلى غير ذلك، وإن الدِّينَ والأمانة غالبا في المنقبض دون المخالط فإنه غالبا غير مأمون، ولا شك أنه يجوز أن يكون في صحبة الملوك من هو صحيح الدِّينِ قابلٌ بالحق، واقفٌ عنده، ينفع الله به وشبيهه، ولكنه أَعَزُّ من الكبريتِ الأحمرِ.

والغالب عليهم رقة الديانة وطلب المراضاة في كل شيء، وأمثالهم من يَسْكُتُ كما وقع للأحنف بن قيس مع معاوية رضي الله عنهما، فإن معاوية لما عَهِدَ إلى ابنه يزيد حَفِلَتِ العربُ، فشققوا الكلام، وجعلوا يثنون على يزيد وعلى نظر أبيه فيه، ويطرون والأحنف ساكتٌ لا يتكلم، فقال له معاوية مَالَكَ لا تتكلم يا أَبَا بَحْرٍ، فقال الأحنفُ : أخاف اللَّهَ إِنْ كَذِبْتُ، وأخَافُكُمْ إِنْ صَدَقْتُ، فقال له معاوية جزاك الله عن الطاعة خيراً يا أبا بحر، وأمر له بألوفٍ.

فَمِثْلُ هذا سالم، ولكنه غيرُ نافعٍ، بل ربما ضَرَّ، وهو أن يُوهِمَ السلطَانَ أو غيرَهُ أنه ما سكَتَ إلا لكون الأمر الواقع حقا، وأما كُلُّ من يتحبب ويتقرب ويساعد

ويساعف في كل قولٍ وفعلٍ فلا يُومَنُ، فإنما الغالب عليه الحرصُ على الدنيا واسترضاءُ القلوبِ لأجلها، لا يُومَنُ عليه أن يُحَسِّنَ القبيحَ وَيُقَبِّحَ الحسَنَ لأجلِ المُرَاضَاةِ، وربما أفتى بقول شاذٍّ لا يجوز العملُ به طلباً لذلك، وكلُّ ذلك فساد ومضرة على السلطان وغيره، ولم يزل أهل العقول من الملوك يعرفون ذلك فيحترزون عنه، إذ العاقل لا يُخَادِعُ نَفْسَهُ وَلاَ يُخْدَعُ وكان يقال في عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هُوَ أَعْقَلُ مِنْ أَنْ يُخْدَعَ، وَأَتْقَى مِنْ أَنْ يُخْدَعَ، وكذلك كلُّ إمامٍ ينبغي أن يكون كذلك، فلا يرضى على من يخدعه، ويسخط على من لا ينصحه، وقد تقدم رجلٌ لمعاويةَ في المجلس المذكور آنفاً، فقال له : اعلم يا أمير المؤمنين أنك لو تُقَدِّمْ هَذَا يعني يزيداً على المسلمين، لكُنْتَ قَدْ ضَيَّعْتَ حُقُوقَهُمْ، فلما خرج الأحنفُ لقيه الرجلُ، فقال يا أَبَا بَحْرٍ : إن أبغض الخلقِ إلينَا هَذَا، يعني معاويةَ وابنَهُ، يعني يزيداً، ولكنهم استوثقوا من هذه الأموال فلا نَسْتَنْزِلُهَا إلا بما ترى، فقال الأحنف : اسكت أيها الرجل فإن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً، فهذا الصِّنْفُ يسخرون من المَلِكِ، وهو يترضى عنهم ويرضيهم، وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم على هؤلاء بما قلنا وحذَّرَ منهم، وليس بعْدَ شهادَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم شهَادَةٌ، ولا بعد قوله قَوْلٌ، ففي الحديث : العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا الملوك، فإذا خالطوهم فاتهموهم على دينكم، أو كما قال صلى الله عليه وسلم، ويقال خيْرُ الملوك الزَّوَّارُونَ للعلماء، وَشَرُّ العلماء الزَّوَّارُونَ للملوك، وليس في شيء من هذا منقصة للملوك بل لهؤلاء المتطورين، وذلك أن

الملوك اقتحموا بُحُورَ الدنيا وتحملوا سياسة الناس واستصلاحهم، وبصلاحهم يصلح دينهم، وقوَّاهُمُ الله تعالى على ذلك فأعطاهم بَيَاناً وعقولاً في ذلك.

ولذلك يُقَالُ عُقُولُ الملوكِ مُلُوكُ العقول، فلهم بذلك الخطة الجسيمة، والمآثر الكريمة، وإن أقاموا ميزان العدل في ذلك فمنزلتهم عند الله عظيمة، فأما العالم فما له ولهذه المداخل، والترقي إلى هذه المنازل ﷺ ليس بعيشك فادرجي رضي الله عنه وإنما شأنه أن يقعد في بيته، ويدور عليه كتب العلم فينظر في هذا وينظر في هذا، وله في ذلك أنس ومشرب لا يعرفه غيره، وهي الجلساء المشار إليها بقول بعضهم :

لنا جلساءٌ لا يملُّ حديثُهُمْ * أَلِبَّاءُ مأمونون غيباً ومشهدا

يُفِيدُونَنَا من علمِهِمْ عِلْمَ مَنْ مضى * وعقلاً وتأديباً ورأياً مسددا

فلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة * ولا تتقي منهم لساناً ولا يداً

فإنَّ قلت: أمواتٌ فلستَ بكاذبٍ * وإنَّ قلت: أحياءٌ فلستَ مُفَنَّدا

حتى يجمع منها ما يحتاج إليه المسلمون فيفيدهم، ولو احتاج السلطان إلى ما عنده وجده صحيحا، فإذا خرج العالم على حاله ودخل مداخل السلطان فهو مليم إلا أن يكون عُذْرٌ، فللناسِ أعذارٌ، فإذا علم السلطان هذا كله فلا ينبغي أن يلزمَ العلماءَ كلهم ملازمة مجلسه دائما، فإنه يتعطل بذلك غالبا النفع العام للمسلمين، وإحياء رسوم العلم الذي هو بصدده، ولكن يتركهم على سجاياهم، فمن جلس منهم لنفع العباد لا غير فليحمد السلطان الله عليه، ويعلم أنه درءٌ للإسلام،

ويستوجب منه الدعاء، فإن درجته عند الله عظيمة، وفي الخبر إن معلِّمَ الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر.

ومن جاء إلى السلطان منهم فليحسن عشرته، ولاسيما إن كان سالم الناحية ﷺوالحق يظهر من معنى ومن كلمرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وللعلمِ حَقٌّ يُؤَدَّى، وقد ركب زيد بن ثابت، فأخذ ابن عباس بِرِكَابِهِ، فقال له : خَلِّ عنك يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ابن عباس : هكذا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمَائِنَا، فَقَبَّلَ زَيْدٌ رَأْسَهُ، وقال له : هكذا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا، ثم لا ينبغي للسلطان أن يصحبَ كُلَّ أَحَدٍ، وهذه نصيحة آخرى لسلطاننا لا نبخل بها عنه، والحديث شجون، بل من يصلح للصحبة وهم أهل الأدب والفهم والظرف، الفصاح الألسن، الصباح الوجوه، فتكون للسلطان بذلك متعة شاملة لِقَلْبِهِ بِالعِبَرِ، وَلِأُذْنِهِ بالخَبَرِ، ولعينِهِ بالنَّظَرِ، ولا ينبغي أن يهمل حسن الخلقة وحسن الإسم، فإنه مهمٌ معتبرٌ شرعاً وطبعاً وقد اتفق الحكماء في الفراسة الحكمية على أن خلقَةَ الإنسانِ تدل على الخُلُقِ المودَعِ فيهِ من خيرٍ أو شرٍ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول لعماله : إذا أدبرتم إلي بَرِيداً أَبْرِدُوهُ حسَنَ الوَجْهِ حَسَنَ الإِسْمِ، وَبَدَّلَ صلى الله عليه وسلم أسمَاءَ رجالٍ وبقاعٍ لذلك، وكان يتفاءَلُ صلى الله عليه وسلم بحسنِ الإسمِ، فقال في يوم الحديبية حين قالوا هَذَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرُو : سُهِّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ، وأراد عُمَرُ أن يستعملَ رجلاً، فسأل عن اسمه، فقيل له خبيئة بن كَنَّازٍ، فقال : هُوَ يُخْبِئُ وَأَبُوهُ يُكْنِزُ، لا حاجةَ لي بِهِ اطلبوا الخَيْرَ عندَ حِسَانِ الوجوه، وفي رواية : وَاطْلُبِ الخيرَ إلى حسانِ الوجوه، فقال رجلٌ لابن عائشة : يا أبا عبد الرحمان إنما يعنِي من

الوجوهِ الحسنةِ التي تَحلُّ، فقال ابن عائشة : اسْكُتْ لاَ عِلْمَ لَكَ بِكَلاَمِ العربِ، هذا من الوجوهِ التي يَدُلُّ عليها الخَيْرُ، ثم أنشدَ :

وجهك الوجه لو يسأل به المُزْ * نُ مِنَ الحُسْنِ والجمالِ استهلا(1)

وأنشد أيضا :

وجوه لو أن المدلجين اغتشوا بها * صَدَعْنَ الدجا حتى به الليل ينجلي

وأنشد أيضا :

دَلَّ على معروفهِ وجهُهُ * بُورِكَ هذا هادِياً مِنْ دليلِ

وأخذه بعض الشعراء فقال :

يَدُلُّ على معروفه حُسْنُ وجههِ * وما زال حُسْنُ الوجهِ إحدى الشَّوَاهِدِ

---

(1) البيت للشاعر العربي الحارث بن خالد المخزومي، من قصيدة لامية له في مدح محبوبته ﷺأثلا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال في مطلعها

أثْلَ جُودِي على المتيَّم أثْلا = لا تَزِيدي فؤادَه أثْلَ خَبْلاَ

أثْلَ إنّي والراقصات بجَمْع = يتبارَيْن في الأزِمّة فُتْلا

وللإمام الشافعي رضي الله عنه اعتناء عظيم بهذا الباب، ويقال أنه صنف ، ليس سرورٌ يَعْدِلُ صحبةَ الإخوان، ولا غمَّ يعدل فراقهم، ويقال : احذروا الأعور والأحول والأعرج والأشقر والكوسج، وكل من به عاهة، فإن فيه (بياض) ومعاشرته عسيرة، وجرت له في ذلك قصتان، إحداهما أنه كان بعث صاحباً له

يشتري من السوق نوعاً من العِنَبِ معروفاً عندهم، فلما جاء به وضعه بين يديه، قال له : من أين وجدته ؟ فقال له عند فلان، وإذا به شخص مُتَّصِفٌ بشيء من الصفات المكروهة، فقال الإمَامُ : رُدَّ عليهِ عِنَبَهُ، فقال له صاحبه : يا أبا عبد الله إن لم تأكل العنب يأكله النَّاسُ، قال لا أريد أن يتم التعامل بيني وبينه، فالإمام رضي الله عنه كره معاملته، ولا يضن به تجاهل الثمن، كَيْفَ وَهُوَ الذي أُعْطِيَ عشرة آلاف دينارٍ، فَطَرَحَهَا، فكل من دخل عليه أعطَاهُ، فما قام حتى فنيتْ.

ثانيهما أنه كان في سفر فمر ببلد فخرج إليه رجل موصوف بالصفة المكروهة، فعرض عليه المبيت عنده، فكره ذلك، فألح عليه الرجل حتى أدخله داره، فلم يترك من الإكرام شيئا إلا صنعه مع غاية التأدب والإحتفال والطلاقة، فلما رأى الإمامُ ذلك سَاءَهُ وقال في نفسه : هذا رجل على هذه الصفة المكروهةِ وهذا الخَيْرُ يخرجُ منه، كيف يكون هذا؟ فهذا ينقض علينا القاعدة المتقررة.

وَبَاتَ مِنْ ذَلِكَ في غَمٍّ عظيمٍ، فلما أصبح وتهيأ للرحيل جلس الرجل بين يديه وأخرَجَ بطَاقَةً فِيهَا مكْتُوبٌ كُلّ مَا أَكَلَ وانتفَعَ بِهِ فِي ليلَتِهِ مقوَّماً بقيمَةٍ مُضَعَّفَةٍ، وقال له : اعطني مالي، فإذا به رجلٌ مُخَادِعٌ يَتَّجِرُ بالضيَافَةِ، فيغرِّمُ الناس أكثر مِمَّا أكلوا، فعند ذلك فَهِمَ الإمَامُ وعلم أن الضابط لم يَنْخَرِمْ، ووزنَ له مَالَهُ عن طيب نفسٍ وارتحَلَ وأما قول الكتاب: أين تجد السبيل في التباعد والتجافي عن حواضر المسلمين، إلى قوله وأي عذر لك في التباعد عن حاضرتنا، وقوله : تسكن الزاوية التي هي دَارُ الفسقِ، فأقول : أما الزاوية فإني لم أُرِدْ سكناها، ولم يكن لي فيها مِلْكٌ ولا قريبٌ ولا حميمٌ ولا قبيلةٌ، ولا كان في عمارتها نَفْعٌ لي ولإخلائها

مَضَرَّةٌ، ولا طلبتها من السلطان قَطُّ، ولا تشوفت إليها ولا خطرت لي ببال، بل السلطَانُ أصلحَهُ الله هو ذكرها لي فِي (تكموست) فذكرت له أن يكون فيها خديم، وما ذاك إلا لأخرج أنا عن ذلك.

ثم كتب لي إلى مراكش يأمرني أن أكتب إلى كل من يليق أن يسكن فيها فنجدها عامرةً، فأجبته بأنه لا مقالَ لي ولا عملَ لي في ذلك، بل عمارتها بأمرِ السلطان على يَدِ خديمه، وهو المتولي لإدخال الناس وإنزالهم والحكْمِ فيهِمْ، وأنا لا نَاقَةَ ولا جَمَلَ لي، وإنما أنا واحدٌ من السكان، وإِنْ سَكَنْتُ فإِنَّمَا أَسْكُنُ مساعفةً للسلطان، وإلا فلا شهوةَ لي فِيهَا، ولا في غيرها من الأمصارِ، فأجابني السلطان أيده الله بقوله لي : ما قلت إلا الحق والتحقيق، ثم سكت عن ذلك حتى رجع سيدنا إلى دار ملكه ومقر سلطانه، فلم يُفَاجِئْنِي إلا كتَابُهُ يأمرني بالرحيل إلى الزاوية عزما عزما، ولابد ولابد، فلم يمكني إلا الرحيل ، ولقد ارتحلت في ذُرْوَةِ بردِ البرد، ولم أقدر على التراخي ولا الأعذار لئلا يظن بي التعاصي.

ثم جئت الزاوية ولم أجد فيها داراً ولا جداراً، فكنت فيها بين الشِّيحِ وَالرِّيحِ إلى الآن، حتى أنه لو تأملني من هو جاهلٌ بحالِ السلطان لظَنَّ أنه إنما كلفني بها امتحاناً وتعذيباً، وحاشاه أن يريد امتحانَ طلبة العلم بعدما عُرِفَ منْهُ من محبة العلم وأهله والشفقة على المسلمين، فكيف يُنْسَبُ لي بعد هذا أني أُرِيدُ الزاويةَ معاذ الله، نعم إِنْ بَدَى للسلطان فَلْيَقُلْ لي كنا أمرناك بسكنى الزاوية، وقد بدى لنا أنها لا تصلح فارحل عنها، وحينئذ أرحل من ليلتي، وأنا على السمع والطاعة، ولا أسأله في ذلك إلا الدواب التي يعطيني في كل رحيلٍ، فإني لا غِنَى لي عنها .

وأما سكنى الحاضرة فإني لم أذكر للسلطان أني استثقلته ولا اشتكيت به عليه، ولا ذكرت ذلك لمن يذكره، بل أنا على السمع والطاعة في كل شيء، والله المستعان، نعم أنا أستثقل ذلك، ولكن لا بغضاً للسلطان، ولا عدم اهتمام بالعلم وانتفاع المسلمين، معاذ الله، أما بغض السلطان فإنما هو عند الخوارج الذين يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، نعوذ بالله منهم ومن مذاهبهم ومذهب كل من يتشبه بهم، ولو قلت إن عندي من محبَّةَ السلطان في قلبي أقوى مما يكون عند كثير ممن يتملقون بين يديه ويدعون المحبة والحفاوة ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، لم أكذِبْ وسأبين ذلك آخر الكلام إن شاء الله وأما عَدَمُ الإهتمام بالعلم ونفع المسلمين فصفة المنافقين نعوذ بالله منها، وفي الحديث الكريم : من لم يهتم بالمسلمين فليس منهم، وأما عذري في استثقال الحاضرة فوجوهه كثيرة أقتصر على بعضها، منها الطبع، فإني لم أولد فيها بل في الفجاج الواسعة، ذات الشِّيحِ والحرملِ والجنوب والشمال، فأي عجب إذَا حَنَنْتُ إلى مسقط رأسي وعلى أبناء جنسي، وفي الحديث الكريم : حب الوطن من الإيمان، وقال الحكماء : والكريم يَحِنُّ إلى وطنه كما يحن النجيبُ إلى عطنه، وفي النقل أيضاً : الكريم يَحِنُّ إلى جنَابِهِ كما يَحِنُّ الأسدُ إلى غَابِهِ،

وفيه أيضا : الحنينُ إلى مولدِكَ من كرم محتدك، وقال أبو عمر بن عبد البر : قيل لبعض الحكماء بأي شيء تَعْرِفُ وفاءَ الرجل وذمام عهده دون تجربةٍ واختبارٍ، فقال بحنينه إلى أوطانه، وتشوفه إلى إخوانه، وَتَلَهُّبِهِ على ما مضى من زمانه،

وقال الأصمعي : إذا أردت أن تَعْرِفَ وفاءَ الرجل وذمام عهده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وتشوفه إلى إخوانه، وبكائه على ما مضى من زمانه، وقال الأعرابي :

أحب بلاد الله ما بين منعجٍ * إليّ وسلمى أن يصوب سحابها

بلادٌ بها عق الشباب تمائمي * وأول أرضٍ مس جلدي ترابها

وقال ابن نباتة :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً * بحَرَّةِ ليلي حيث ربّتنَي أهلي

بلادٌ بها نِيطتْ عليّ تمائمي * وقُطِّعنَ عنّي حينَ أّدركني عقلي

وقال أبو هلال العسكري :

إذا أنا لا أشتاق أرض عشيرتي * فليس مكاني في النهى بمكين

إذا أنا لم أرعى العهود على النوى * فلست بمأمون ولا بأمين

وقال أبودلف العجلي قول القائل :

لا يمنعنك خفض العيش في دعة * نزوع نفس إلى أهل وأوطان

تلقى بكل بلاد إن حللت بها * أهلا بأهل وجيرانا بجيران

فقال : هذا أَلْأَمُ بيت قالته العربُ، وإنما قال ذلك لما فيه من قساوة القلب، وغلظ الطبع، وقلة الوفاء، ورعي الذمام والعهد، وقد قال صلى الله عليه وسلم في امرأةٍ دخلت إليه : إنها كانت تأتينا أيَّامَ خديجة، وَإِنَّ حُسْنَ العهدِ من الإيمانِ، وهذا أمرٌ مجبولٌ عليه طبع الآدمي، فلا نقصانَ به على الإنسان وإن بلغ ما عسى أن يبلغ من الكمال والصفاء، وقد أَسْنَدَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدح السيد بلال : أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا، يعني بلالاً رضي الله عنهما، فناهيك

بهذا الذي اعترَفَ له بالسيادَةِ في الإيمان والدين، عُمَرُ الذي هو محَدِّثُ هذهِ الأُمَّةِ، ونزَلَ القُرْآنُ عَلَى وفقِ لِسَانِهِ، وحينئذ حُمَّ بلال رضي الله عنه، فكان إذا أقلعَتْ عنْهُ الحُمَّى يرفعُ عقيرَتَهُ وينشد :

ألا ليتَ شِعْري هل أبيتنّ ليلةً * بوادٍ وحَوْلي إذْخر وجَليلُ

وهل أَرِدَنْ يوماً مِياه مَجنّةٍ * وهل يبدوَن لي شَامَة وطَفِيل

ثم يقول لعن الله شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء والوخم،فهذا ذكر الوطن، وذكر مياه البادية البعيدة عن الوخم، وفي رفع الصوت هو ألف للنفوس، وتتجلي به الغمة، وفي قوله صلى الله عليه وسلم لِوَرَقَةٍ : أو مخرجوهم إشارةٌ إلى هذا المعنى.

وقد دخل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ومعه بعضُ أهلِهِ، فأخبر أنه جاء من مكة، وقال تركها حين تَفَتَّحَ الجليل وكذا وكذا يُعَدِّدُ أعشابها، فَاغْرَوْرَقَتْ عيُونُهُمْ بالبكاءِ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تُشَوِّقْنَا يا فلاَنُ، وقال صلى الله عليه وسلم : اللهُمَّ حَبِّبْ إلينَا المدينَةَ كحبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ.

ووقع في بعض الكتب أنه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء لما زُجَّ به في النور وفارقه جبريل، أسمعه الله حينئذ كلام أبي بكر ليأنسَ بطبعه، إذ هو أليفُهُ، فيتقَوَّى على ما يلاقي من الأمور العظام، ومنها الضيْقُ في السكنِ والمعاشِ، فإن الحاضرةَ صورةُ مصورةٌ لا يزاد فيها ولا ينقص، فمن دخل دارا لم تُكْفِهِ هو وعيَالُهُ وأولاده ومن تعلَّقَ به ولو كَانَتْ في غاية الإتساعِ، وجب أن يَرَى من لا يجُوزُ له أن

يرَاهُ ممن هو معه أو يدخل عليه، وفي ذلك فساد الدين، أو من يحتشم منه وفي ذلك فساد المروءة والعرض.

وإن وجد دارا آخرى وجب أن يفارق من لا تمكنه فرقته، ويفتقر إلى مؤونات وهو عاجز عنها، وكذا في المعاش، فإن كُلَّ شيء بالشراء، حتى الماء الذي هو أسهل الأشياء، لابد من نفقة فيه، إن كان بنحو مكناسة ففي الجبال والدلاء والحفرونحو ذلك، وإن كان بفاس ففي كسر القواديس وانخناقها كل حين ونحو ذلك، فما بالك بما فوق الماء من الحطبِ والبَيَاضِ والقُوتِ ومُصلحه واللباس ونحو ذلك، ومنها فسادُ طبّعِ العيال والأولاد والأصحاب، ونخشى ذلك نحن أيضا في أنفسنا، وذلك من جهات، إحداها تعلم الشهوات والإتساع فيها، وإن كنا بالبادية لا نعرفها ووجدنا آباءنا يعيشون بما وجدوا العيش به، يلبسون الصوف الخشن، ويأكلون البر تارة، والشعير والدخن والتمر والبلوط وحب العرعار، حامدين شاكرين، ما رأوا قَطُّ لُبَابَ البُرِّ ولا إبزاراً ولا عطراً ولا كتاناً ولا ملفاً، حتى درجوا سالمين، غير تابعين ولا متبوعين، وكنا نتمنى أحوالهم لولا ما امْتَنَّ الله علينا بِهِ من حفظ كتَابِهِ والتفقه في دينه، نسأل الله تعالى أن يزيدنا بذلك إقبالاً عليه وإدباراً عن زهرة الدنيا حتى نلقاه آمين،

فلما دخلنا الحاضرة ظهرت الشهوات، ونظرت النساء إلى النساء، والصبيان إلى الصبيان، والرجال إلى الرجال، فطلبوا الإتساع كما اتسعوا، وابتلينا كما ابتلوا، ثانيها الوقَاحَةُ في ذلك وقلَّةُ الحياء، فقد كنا في البادية تستحي المرأة أن تطلب اللَّحْمَ فكيف بما وراءه، ولكن تتشوف إلى المواسِمِ، أو ضيفٍ ينزل فيذبح له،

أو يشترى له، أو إنفاق يأتي به الله من غير استدعاء، فوجدنا المرأة في الحاضرة تراعي الباب، وتقول للرجل أنفق، وارجع للسوق، فلا تسمع إلا الأسوق، سوق اللحم، سوق الحوت، سوق الزعفران، وهكذا، وإن لم يكن ذلك وقع التَّدَاعِي وَجَاءَ رجلُ القاضي،

وقد قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كنا معشر قريش نغلب النساء، فأتينا قوما يغلبهم النساء، فأخذ نساؤنا يتعلمون من نسائهم، ثالثها أن يتعلم الصبيان اللؤم والبخل وقلة السماحة كما هو دأب أهل الحاضرة، وما فسدت طبائع العرب إلا في الحواضر، فأين كرماء غطفان، وأين كرماء نبهان، الذين ينحرون الكرائم غبطة، ولا يقرون إلا لحما غريطا،

ولقد تحدث بعض صعاليك العرب فقال : نزلت على رجل من طيٍّ فنَحَرَ لي، فلما أصبحنا نَحَرَ أيضاً، فقلت له اللحم عندك كثيرٌ، فقال : لا أحب أن يأكل ضيفي إلا لحماً غريضاً، أي طريّاً، فلما أمسى نَحَرَ، وكذا كلَّ غداةٍ وعشيةٍ، فبعد أيام خرجت فترَكْتُ إبِلَهُ قد أهجرت، فطرَدْتُهَا، واستقبلت بها الفَجَّ، فبلغ الغوثُ إليه فَتَبِعَنِي، فإذا هو قد أدركني، فلما رآني أقبض قوسه، قال : انْجُ بنفسِكَ لاَ أُمَّ لَكَ، فقُلْتُ : أرني آيَةً، فقال : انظر إلى ذلك الوَزْغِ على الصخرةِ أَضَعُهَا فِي ذَنْبِهِ، فرماه فما أخطَأَ ذنبَهُ، وزادَ آخرى، فلما رأيت ذلك اسْتَاتَرْتُ، فسَاقَ الإبِلَ وأنا معَهُ،

فسَارَ ساعةً فالتفتَ إليَّ فقال : ما أرى بينَنَا وبينك عداوةٌ، وما أراكَ حَمَلَكَ على ما فعلت إلا الحَاجَةُ، فقلت له : هو ذاك، فقال : اعزل منها خمسمائةٍ إذاً لا

تبرح حتى تسمعَ ثناءي، قال : فأثنيتُ عليه بكلماتٍ، فَاسْتَحْيَا وأعرَضَ بوجههِ وقال : سُقْهَا كُلَّهَا، فأين طبائعُ هؤلاءِ في أعقَابِهِمْ اليومَ وهُمْ في حَلَبٍ وأنطاكيةَ ودمشقَ والمدائنِ ومصرَ وغيرها.

وذلك مما اكتسبوه من البلد، وأي ضرورة أعظم من هذه الضرورة، وقد قال صلى الله عليه وسلم : أي داءٍ أَدْوَى من البخل، ومنها مقامات أهلها، والتعرض لإذايتهم وفتنتهم، ولاسيما أبناء الجنس، ولقد طلبني السلطان المولى الرشيد بالرحيلِ إلى فاس، وقال : تُصِيبُ الظِّلَّ وَالمَاءَ البَارِدَ، وَتَأْكُلُ الخَالِصَ، ويشفَعُ بِكَ المسلمُونَ، ولم أكن رأيت فَاساً قَبْلَ ذلك، ولا كَانَ لِي عِلْمٌ بِحَالِهِ وَلاَ حَالِ أَهْلِهِ، فقلت : هذا والله خير، وقبلت قول السلطان وارتحلت بنيةٍ صالحةٍ على أَنِّي أُعَلِّمُ مَنْ جَاءَنِي، وإن كان هنالك مَنْ هُوَ أسن مني كسيدي عبد القادر، لقيتُهُ وَتَبَرَّكْتُ بِهِ،

فَبِتُّ خارج فاس نحو ليلتين، والطلبة يترددون إلي، فلم أدخل المدينة حتى لم تبق لي نية من كثرة القيلِ والقال، ثم بدأنا القراءة فَأَطْبَقَ علينا أهلُ البلاد والغرباء، وكان المجلس حافلاً، وذلك في غيبَةِ السلطان إلى سوس، فتحرك الحسدُ والوسواسُ وكثرة القيل والقال، وجعل كل من يحبني يُحَذِّرُنِي من الناس ومن أكلِ طعامهم، فمَا يُمَكِنُنِي أن أشرب ماءً ولا أَنْ آكلَ طعاماً من يَدِ أحدٍ، ولا أجْلِسَ على سليخَةِ الكُرْسِيِّ حتَّى يُقَلِّبَهَا أصحابي، ولا تفريطَ، فصِرْنَا في فتنَةٍ وبلاءٍ، ثم لَمْ ألبث قليلاً حتى مرضتُ ، فبقِيتُ حتى نقهت واسترَحْتُ، فذهبت للقراءَةِ، فلم يكُنْ إلاَّ أن طلَعْتُ على الكرسيِّ أَصَابَنِي ذَلِكَ، فنزلت وجِئْتُ الدَّارَ،

فرقدتُ أيضاً، فنقهت فرجعت، فكَانَ الأَمْرُ الأَوَّلُ، فعند ذلك قام إلي أصحابي وقالوا : هذا أمرٌ واضحٌ بَيِّنٌ، هذا عَمَلٌ عُمِلَ لك على مجلِسِ القراءَةِ لئلاَّ تشتغلَ بها، فإنَّكَ مَيَّلْتَ عن الناسِ تلامذتهم، وَأَخْلَيْتَ مجالسَهُمْ، وجعلوا يكتبون لي معاذات لم تزل اليَوْمَ عَلَيَّ، فَمِنْ ثَمَّ أمكَنَنِي بإذنِ اللَّهِ أن أَحْضُرَ المِيعَادَ

ثم لَمَّا رَجَعَ السلطانُ من سُوسٍ، وخرَجَتِ العطايا للفقهاء، وخرَجَتِ العطايا لطلبة العلم، وكان عطايا الطلبة تنفد إلى القضَاةِ يتوَلَّوْنَ قسمهَا عليهم، فعند ذلك جعل الطلبة يتسلَّلُونَ من مجلسي ويذهبون إلى حَيْثُ كانت العطايا، حتى لم يَبْقَ في مجلسي بحمدِ الله إلا من هِمَّتُهُ العلم لا الدنيا، وأكثرُهُمْ من الغرباءِ، وقليلٌ من أهل البلد، وأكثرُ أهلِ البلدِ إنَّمَا همتُهُمْ في جائزةٍ يقْتَنِصُونَهَا، أو محرابٍ أو كرسيٍّ أو شهادةٍ يتوَلَّوْنَهَا،

ثم لما رآني الناسُ أَطَّلُعُ إلى السلطانِ بعْضَ الأحيان جعلوا يتعلَّقُونَ بي طلباً للشفاعة، ويثقلون عَلَيَّ وأنا ما أُحِبُّ أن أفتَحَ ذلك البَابَ على نفسِي، لأنه يتركني بلا شغلٍ، ولأني لا أقدرُ على ذلك، ولا أصلح له، فإن ذلك محتاج إلى مزيد حذاقة وأناة وحسن تَأَتٍّ وتدربٍ، وأنا بعيد عن هذا كُلِّهِ، إنما أنا رجلٌ بدويٌّ، فصَارَ هذا أيضا فتنةً عَلَيَّ وشغلا.

ثم إن تلكَ العطايا كانت لا تتأخر عن الشهر والشهرين، وكثيراً من الأحيان لا تصل إلينا العطية، حتى نكونَ قد أخذنا من السُّوقِ أشياءَ بالدِّينِ، مع أني كنت من أكثرهم عطاءاً، ولكن لم يكن ذلك إلا كَمَاءِ فاسٍ يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ، حتى إنا خرجنا من فاسٍ ولم يتبعْنَا درهمٌ واحدٌ من ذلك،

ولما مات السلطانُ انقطَعَ ذلك فصِرْنَا في فتنةٍ مع العيَالِ، فقلت لأصحابنا : إن هذه الحاضرة ليست لنا بدارِ مَقَامٍ، فإنا لسنا من أهلها، لا دَارَ بِحِمْصٍ وَلاَ مَالَ، وقد تعرضنا فيها لما رأيتم من البلاءِ والفتنِ من كل ناحيةٍ، حتى لو حققنا النَّظَرَ لم يَجُزْ لنا أن نبقى فيها مع هذا، قال تعالى : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وإِنَّ أهلَ الحاضرةِ لم يشتغلوا بالعلم، وإنما اشتغلوا بالحظوظ الدنيوية، وهؤلاء الغرباء الطالبون للعلم أهل البادية أَرْفَقُ بهم، لأنهم يقرؤن فيها بلا بضاعةٍ، وينجونَ مع ذلك من الكلفَةِ، ومن أَنْ تَسْتَرِقَ طبَائِعُهُمْ طِبَاعَ هؤلاء المتلاعبين، فكان خروجنا إلى البادية راجحا وواجبا، والعلم صنعتنا، فنحن أَعْرَفُ بما يصلحنا، وأهل مكة أعرف بشعابها، غير أنا عُرِضَ لنا قَلْبُ سَيِّدِنَا، وخفتُ أن أتحرَّكَ أو أطلُبَ ذلك حِينَ خرجَ آيت عياش وأخونا سيدي عثمان، وبنو يزناسن، فيقول : كُنْتُمْ مَعَ حبيبي واليَوْمَ تهربونَ كُلُّكُمْ عَنِّي، فتصبرت وفوضت الأمر إلى الله حتى جاء الله بالسَّبَبِ، وهو خلافُ أهل فاسٍ، فخرَجْتُ بإذنٍ من سيِّدِنَا، ونزلتُ في الشِّعْبِ الذي كنتُ فيه، وبنيت دويرات بغيْرِ مؤونةٍ، واتَّسَعْتُ، وجعلتُ لنفسي موضعاً وباباً لا أَرَى فيهِ قطُّ امرأةً من غيْرِ عيَالِي، وبنيتُ بيتاً ملتصقاً بالمسجد، فإن رأَيْتُ خلطةً لا تعجبني نَقَرْتُ لهم فأقاموا الصلاة، وصليت معهم وأنا أسمع قراءةَ الإمامِ، وأبقى على ذلك إِنْ شِئْتُ الشهرَ والشهرين لا أرى أحداً ولا يراني، أَنْظُرُ في كتبي حتى تُقَامَ الصلاة ولا يضيعُ علي شيءٌ من أوقاتي، وَسَاقِيَتَانِ تجرِيَانِ في وسطِ الدَّارِ وعلى بَابِهَا، والحَطَبُ في بَابِ الدَّارِ، والمؤونات مكفيةٌ، وَمَا لَمْ يُوجَدْ يُسْتَغْنَى عنه، إِذْ لاَ خبَّارٌ يُفْتِنُ، ولا سوقٌ يقطع العذرَ.

وجاءت الطلبة فكنَّا نُدَرِّسُ العلم لله، لا يتشوف منا أحدٌ لمراتب، ولا يُرَاءِي أحدٌ أحداً، ولا نسمع قال فُلاَنٌ، ولا نَرَى فلاناً، فاسترحنا وحمدنا الله تعالى، ووجدنا صلاحَ دينِنَا وراحةَ قلوبنا وأبداننا، فهذا هو سبب اشتغالنا للنزول إلى الحاضرة، ومن جَرَّبَهَا وذاقَ مَرَارَتَهَا ثمَّ وجدَ الراحة منها فكيْفَ يُحِبُّ الرجوعَ إليها، هذا لا يفعلُهُ العَاقِلُ بنفسهِ، ولا يلومه إلا من لا يعرف حاله.

لَعَلَّ لَهَا عذراً وأنتَ تَلُومُ هذا مع أن سيدنا أيده الله مُطَّلِعٌ على أكثرِ أمورٍ لم تخفى عليه، وهذا كله إنما شرحته جبراً لقلب السلطان، نصره الله على الحق، فيعلم أنه إنما لم نبادر لإصلاحِ قلبِهِ ومراضَاتِهِ لتعذر الأمر علينا شرعاً وطبعاً، ولو أمكننا ذلك لبادرنَا إليه، فإِنَّ تَغَيُّرَ قلبِهِ أمرٌ عظيمٌ علينَا، وإن كان يحلم ويصبر، لكنه سلطانُ المسلمين، وسلالةُ سيد المرسلين، فَوَدِدْنَا أنه لو أمكننا أن نخدمه بأشفَارِ أَعْيُنِنَا، وأمَّا لو نظرنا للشريعةِ المحمدية فلا نحتاجُ إلى شيءٍ مِنْ هذا، ولا حجَّةَ علينا وَلاَ حَقَّ، فإنه لا يَجِبُ علينا أن نرتحِلَ إلى المدَائِنِ لِيَتَعَلَّمَ أَهْلُهَا عِلْمَنَا، ففي بيتِهِ يُوتَى الحكَمُ،

ولم يوجب الشرعُ قَطُّ على بدوي أن يتحضر، كما لم يوجب على حضري أن يَتَبَدَّى، نَعَمْ كان في صدر الإسلام أَمْرُ الهجرةِ حيث كانت العرب على كفرِهَا، فكان من أسلم يَفِرُّ بدينه من الفتنَةِ، فلما افْتُتِحَتْ مكة وأسلمت العرب انقطع ذلك الأمرُ، فقال صلى الله عليه وسلم : لاَ هِجْرَةَ بعدَ الفَتْحِ، ولكنْ جهادٌ ونيةٌ، وقال للأعرابي : اعمل من وراءِ البِّحَارِ، فإن الله لن يتركَ من عملِكَ شيئاً، وبقي الأمر على ذلك، فمن احتاج إلى العلم رَحَلَ إليه وطلبه، وقال صلى الله عليه وسلم :

اطلبوا العلم ولو بالصين، وهذا خطابٌ للمتعلمين، ولم يخَاطِبِ المُعَلِّمِينَ أن يتحركوا لِيُوخَذَ علمُهُمْ، وقال صلى الله عليه وسلم : سَيَضْرِبُ الناسُ أكبادَ الإبلِ في طلب العلم، الحديث.

وقد سافر أهل الأندلس من حاضرتهم إلى الحجاز حتى أخذوا العلم عن الإمام مالك، وكذا أهل مصر وغيرهم، وطلَبُ العلمِ إذا لم تكن معه قريحةٌ وقادةٌ لا ينتجُ، وصاحبُ القريحةِ لا تَتْرُكُهُ قريحَتُهُ أن ينتظر من يأتيه ممَّنْ كان في القيسارية مكبّاً على فلُوسِهِ، حتى إذا سمع بعالمٍ دَخَلَ المسجدَ أَرْخَى غلق الحانوتِ، وجاء يستمعُ وقلبه باقٍ فِي الحانوتِ يَحْسِبُ، فمتى يحصُلُ له العِلْمُ، هيهاتَ هيهاتَ، إنما يرجو العلمَ من انبَعَثَتْ جمرةٌ في قلبِهِ تُذَكِّرُهُ ضيَاعَ أيَّامِهِ، وَتُنْسِيهِ جميعَ أولاده وأمواله، ويقول كما قال الإمام ابن القاسم حين تهيأ للرحيلِ إلى مالك رضي الله عنهما :

أقول لها والعيس تحدج للنوى * أعدي لفقدي ما استطعت من الصبر

أليس من الحرمان أن لياليا * تمر بلا نفع وتحسب من عمري

فَبِأَيِّ حيلةٍ يُعْرَفُ مَنْ فيهِ أهليةُ لِلعِلْمِ، فيلزم حقه، فإن العلمَ ما ينبغي أن يبذلَ لكلِّ أحدٍ، وإنما يبذل لأهلِهِ، وفي الخبر : لا توتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، وفي الحديث أيضا عن الأعمش قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آفة العلم النسيان، وإضاعته أن يُحَدَّثَ بِهِ غَيْرُ أهلِهِ، ويروى عن عيسى عليه السلام قال : لا تمنعوا العلم أهله فتأثموا، ولا تضعوه عند

غير أهله فتجهلوا، وكن طبيباً رفيقاً يضَعُ دوَاءَهُ حيثُ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْفَعُ، وقال عكرمة : إن لهذا العلمِ ثمناً، قيل وما ثمنُهُ ؟ قال : أن تضعه عند من يحفظه ولا يضيعُهُ، وروي أيضا عن عيسى عليه السلام قال : لا نطرحُ اللُّؤْلُؤَ إلى الخنزيرِ، فإن الخنزيرَ لا يصنَعُ باللُّؤْلُؤِ شيئاً، ولا تُعْطِ الحكمة من لا يريدها، فإن الحكمةَ خيرٌ من اللُّؤْلُؤِ، ومن لا يريدها شَرٌّ مِنَ الخنزيرِ، والأخبارُ والآثارُ في هَذَا كثيرةٌ، وقال بعضهم :

أأنثُرُ دُراً بين سائِمَةِ الغنم * أم انظمه نظماً لمهملة النعم

فإن يشفيني الرحمان من طول ما أرى * وصادفت أهلا للعلوم وللحكم

بثت مفيدا واستفدت مودة * و إلا فمخزون لدي ومكتتم

ومن منح الجهال علما أضاعه * ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وفي صفوة الصفوة قال : قال كميل بن زياد : أخذ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بيدي فأخرجني إلى ناحية الجبال، فلما قابلني جلس ثم تَنَفَّسَ، ثم قال : يا كميل بن زياد إنَّ القلوبَ أوعيَةٌ فخيرُهَا أَوْعَاهَا، احْفَظْ ما أقولُ لَكَ، الناسُ ثلاثةٌ عالمٌ رباني، وَمُتَعَلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ، وهمَجٌ رعاع أتبَاعُ كلِّ نَاعِقٍ، يميلون مع كلِّ ريحٍ، لم يستضيئوا بنورِ العلمِ ، ولم يلجئوا إلى ركنٍ وَثِيقٍ، العلمُ خيرٌ من المَالِ، العلم يحرُسُكَ وأنت تحرُسُ المَالَ، العلمُ يزكو على العملِ، والمَالُ تُنْقِصُهُ النفقَةُ، العلمُ حاكمٌ، والمالُ محكُومٌ عليه، وصنيعَةُ المَالِ تزولُ بزوَالِهِ، ومحبة العلمِ دَيْنٌ يُدَانُ بِهَا، يكسبه الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد مماته، مَاتَ خَزَّانُ المالِ وهم أحياءٌ، والعلماءُ باقُونَ ما بقي الدَّهْرُ، أعيانهم مفقودةٌ، وأمثالهم في القلوب

موجودَةٌ، إنَّ هَاهُنَا وَأَوْمَأَ إِلَى صدرِهِ عِلْماً لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً، بل قد أصبتُ له لقناً غيرَ مأمونٍ عليه يستعملُ الدِّينَ للدنيا، يستظهِرُ بنعَمِ الله تعالى على عِبَادِهِ، وبحجتِهِ على كتَابِهِ، أومعانداً لأهلِ الحَقِّ لا بصيرةَ لَهُ في إِحْيَائِهِ، يقتدح الشك في قلبه بأول عارضٍ من شبهَةٍ، اللهم لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ، أو منهوماً باللذات، سلسَ القيَادِ للشهواتِ، أو مغرىً بجمعِ الأموالِ والإدخارِ، أقرب شبهاً بِهِمَا الأنعَامُ السَّائِمَةُ كذلك يموتُ العِلْمُ بمَوْتِ حامليهِ

ثم قال: اللهم بلى لا تخلوا الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهر مشهور، وإما خائف مغمور، لئلا تبطل حجج الله وبيناته، وَكَمْ وَأَيْنَ أولئك، أولئك هم الأقلونَ عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يَدْفَعُ الله عن حُجَجِهِ حتى يؤَدُّوهَا إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوبِ أشبَاهِهِمْ، هجم بهم العلمُ على حقيقَةِ الأمر، فباشروا روحَ اليقين، واستسهلوا ما استَوْعَرَ منه المترَفُونَ، وَأَنِسُوا بما استَوْحَشَ منه الجاهلونَ، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أروَاحُهَا معلقة بالمحَلِّ الأعلى، آه آهٍ شوقاً إلى رؤيتهم، واستغفر اللَّهَ العظيمَ لي ولك إذا شئتَ فَقُمْ، انتهى.

فانظُرْ على أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه كيف أفصح بأنه لم يجد من هو أهلٌ للتعليم مع كثرة من حوله من الصحابة والتابعين، لا من جحود وعدم فهم، فإنه يقول قد وجد اللقن الذي يحفظ ويفهم العلم، ولكنه غيرُ مأمونٍ لاتِّبَاعِهِ الدنيا، فيتخذ العلم آلةً لاستحلائها عند أربابها، وهذا في زمنِهِ الفاضلِ، فكيف يكون في حال زمننا، وأنت تراه مع ذلك معترفاً بموت علْمِهِ بِمَوْتِهِ، ومع ذلك لم يتحرَّكْ على أمصار المسلمين، ليلقِّنَ من يصلح منهم للعلم، فيفشيَ علْمَهُ ولا

يضيعه، وما ذاك إلا لكونه لا يلزمه أن يطلبَ من يأخذ علمه، وليس ذلك من الأدب، واعلم أن آداب العلم وذكر من يصلح أن يعلم ومن لا، ذلك مشروحٌ في كتب الأئمة مبسوطٌ، لو اشتغلنا به طَالَ، وقد ذكر الشيخ العارف أبو عبد الله محمد بن عباد في شرح الحكم من ذلك : ومما ينشأ عن ذلك من المفاسد والآفات، ثم قال : فعلى المعلمِ الناصحِ نفسه، السالم في عقله وَحَدَسِهِ، العامل على تصحيح أعماله وهمه، المشفق على دينه،الذي هو منوطٌ بلحمه ودمه، أن يتأمل هذه المفاسد، ويقيس بها ما توهمه من المصالح الناشئة عن تعليمه بزعمه، ويدقق النظر في ذلك كما يدققه في أكثر المسائل التي لا يحتاج إليها، ولا يقدر على التعليم في هذه الأزمنة، ذَوَاتِ العِلَلِ المُزْمِنَةِ، حتى يقطع بوجوب ذلك عليه، من غير ترددٍ ولا تجويزِ وقوع خطأٍ في نظره، ولا سبيل له إلى هذا، ولا يسلك خلاف ذلك إذا كان منصفاً، قال بعضهم رأيت سفيان الثوري حزيناً، فسألته عن ذلك فقال وهو مغيرٌ: ما صِرْنَا إلاَّ متجراً لأبناءِ الدنيا قلت: وكيف ذلك ؟ قال: يَلْزِمُنَا أحدُهُمْ حتى إذا عُرِفَ بِنَا وحملَ عنَّا جُعِلَ عاملاً أو حاجباً أو قهرماناً أو جابياً، فيقول : حدثنا سفيان الثوري، وعليه أيضاً أن يحرس على مخَالَفَةِ نفسِهِ فيما تدعوه إليه من التعليمِ، لأن كُلَّ ما تستحْلِيهِ النَّفْسُ ويوَافِقُ غرضها المصحوب بالآفاتِ والعلل التي تقْدَحُ في الإخلاَصِ، انتهى الغرض منه وقد رأيت كلامه مصرحاً بأن العَالِمَ لا يقدم على التعليمِ حتى يتحقق وجوبُ التعليمِ عليه، لأنه متى لم يجب دخلَتْهُ الآفَاتُ المفسِدَةُ فضَلَّ سعْيُهُ، وإنه لا سبيلَ إلى تحقق الوجوب، فلم يبق إلا التركُ والفرَارُ من (بياض) أكيس، وقد أكثرَ من هذا في رسائله، وإنما قال ذلك لِمَا رَأَى فِي

زَمَانِهِ، وزمَانُنَا مثلُهُ أَوْ أَشَرُّ منه، وهذا لا يوجب انقطاع العلم، فإن حكمة الله جارية، وعادته مطردة أن يحفظَ رسوم العلم، ويؤيد الدين إما بصالحٍ أو بفاجرٍ، لا يبالي بنفسه، ولا يبكي على حلول رمسه، فالعاقل البصير يبدأ بنفسه فينظر لها فيما يزلفها عند ربها أولاً، ثم في مصالح المسلمين ثانياً، وأحمَقُ الحمقاء من ضيَّعَ نفسه وتطاول لجُورِ النَّاسِ، فيتعاطى العلم رياءً وسمعة واستجلاباً للدنيا، ويضعه حيث لا ينبغي، ويكتفي بما تخيله من أَنَّهُ أَحْيَا العلمَ وأحيَا الدِّينَ، نعم ربما أَحْيَا غيره، وقد قتل نفسه بسهَامِ العلَلِ والرُّعُونَاتِ، فهذا يكون من الَّذِينَ ورد أنهم يَدْخُلُ النَّاسُ بعلمِهِمْ وأدَبِهِمْ الجنَّةَ، وهم يدخلون النَّارَ، نعوذ بالله من هذه الطرُقَاتِ ، وإنما قررنا هذا ليعلَمَ أن التعليمَ ليس مطلوباً على كل حالٍ، بل له شروطٌ أشرنا إلى بعضها، وما بقِيَ أكثَرُ، فمن نظر إلى صاحبِ علم فرآه قد اقتصر على قدرٍ قليل من التعليم، أو ترك التعليم، أو نزل حيث لا يمكنه التعليم، فلا يجوز أن يتسارع إليه بالطعن، وينسب إليه أنه ضيع العلم، حتى يبحث عن حاله هل توجه إليه الطَّلَبُ بالعلم أو لا، فإن توجه إليه ووجد الإمكان ومن هو أهلٌ للأَخْذِ وتركه فحينئذ يستحق الإنكار، وهيهات متى يتحقق ذلك، وَهَبْهُ اطلع على حالته من خارجٍ فمتى يطلع على قلبِهِ، والفرض أنه متى آنس من قلبه رياءً وشهوةً فالمطلوب منه التَّرْكُ، لأن التعليمَ ليس فرْضَ عَيْنٍ كالصلاة حتى يفعلَ على كلِّ حالٍ، بل هو فرض كفاية، فمن لم يجِدْ فيه إخلاصاً فليتْرُكْهُ وغيْرُهُ يقوم به، ويشتغل بعبَادَةِ آخرى يجد فيها ذلك.

وقد كان بعض سلف العلماء ترك الحديث وكان يقول : إني أشتهي أن أحدث، ولو انقطعَتْ عني شهوَةُ الحديثِ لَحَدَّثْتُ، فالعالم إذاً لو ترك التعليم أصلاً كانت له جهات يخرج فيها، ولا يُنْسَبُ إليه لومٌ ولا تضييعٌ، كَأَنْ يكونَ لم يجد متعلما صادقا عاقلا، وذلك يدركه العالم ذوقا، حتى أنه إذا خاطب غيبا أو مشغولا عنه فكأنه ضرب بِمِعْوَلِهِ على الصخرِ فرجع إلى رأسه، وَكَأَنْ يكون لم يجد من نفسه إخلاصاً، والفرضُ أنه لم يتعيَّنْ عليه أو لم يجد إمكاناً أو مكانا أو زمانا، أو يكون مشغول القلب بكفاية أو خوف على نفس أو مال أو عرض، أو نحو ذلك، ويرى الإشتغال بالتصنيف أَعْوَدُ على النفس وأثبتُ وأبقى من قَلْقَةِ المجالس بلا تحصيل.

ولاسيما طلبة المغرب، فإنهم لا همة لهم في التقييد، فينشر الشيخ في المجلس الفوائد والنكث، وتذهب ضائعة لا يقيدها أحدٌ، ولو اشتغل بالتصنيف لقيد ذلك لمن يجده، أو يرى أن التعليم كفايةٌ والغير قد قام به في أي بلد، فيشتغل هو بخويصة نفسه، وفي الحديث : إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوىً متبعا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك، أو يرى هوانا على نفسه، أو على علمه، فينقبض حفظا لمرتبة العلم

يقولون لي: فيك انقباضٌ وإنما * رأوا رجلاً عن موقف الذُّلِّ أحجمَا

إذا قيل: هذا موردٌ، قلت: قد أَرَى * ولكن نَفْسَ الحرِّ تحتمل الظما

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي * لأخدم من لاقيت لكن لِأُخْدَمَا

أأغرسه عزاً وأجنيه ذلة * إذاً فاتباعُ الجهلِ قد كان أحزما

وما كل برقٍ لاَحَ لي يستفزُّنِي * ولا كُلُّ أهلِ الأرض أرضاه منعما

ولم أقض حق العلم إنْ كان كلما * بدا طمعٌ صيرته لي سلما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم * ولو عظموه في النفوس تعظما

ولكن هانوه فهان ودنسوا * محياه بالأطماع حتى تجهما

أو يرى أنه قد بلغ سن العبادة، وهي أربعون، فيشتغل بنفسه، ويكتفي بما مضى منه من نفع العباد أيام الشباب، وكان يقال : العلم إلى أربعين ثم العبادة، وفي هذه قال حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه، وقد طرح التعليم وسلك محجة السلوك، فلقيه بعض أصحابه، ويقال هو الإمام ابن العربي، فأنشد يقول :

تركتُ هوى سُعْدَى وَلَيْلَى بمعزِلٍ * وعدت إلى تصحيحِ أَوَّلِ منزلِ

فنادتنيَ الأطلالُ مهلاً فهذهِ * منازلُ من تهوى رُوَيْدَكَ فَانْزِلِ

غزلتُ لهُمْ غزلاً رقيقاً فلَمْ أَجِدْ * لغزْلِيَ نسَّاجاً فكسَّرْتُ مغزلِ

فما في الكتاب من إني ضيعت العلم بسكنى البادية، أو أن الناس قد ضاع حقهم فيَّ قد تبين جوَابُهُ بكل ما مَرَّ، فلو كنت حضريا عن أبي وجدي ثم خرجت إلى البادية لم يكن علي حرج، فكيف والبادية أصلي ومنشئي، فمتى يجب علي دخول الحاضرة وإلقاء نفسي وعيالي في الحرج والضيق والفتن التي تقدم شرحها، لأن يجلس إلي طلاب المناصب والمراتب هذا ما لا يجب ولا يندب، وربما لا يباح أصلا، فكيف والحمد لله ما تركته ولا خلوت عنه قط حتى في الطريق.

وكما أن أهل الحاضرة محتاجون فأهل القرى وأهل البادية أكثر، وكلهم عباد الله المومنون، والبلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، وأمة النبي صلى الله عليه وسلم في الأمصار وفي القرى وفي العمود، والقرى وسط بين الأمصار والعمود، وخير الأمور أوساطها، وقد ابتلي أهل العمود بالجفاء والغلظة، وأهل الأمصار بالخديعة والملق، وفاز أهل الأمصار بالظرف والأدب، وفاز أهل العمود بالعزم والكرم، وقال الأعرابي :

فمن تكن الحاضرة أعجبته * فأي رجال البادية ترانا

وقال ابن الرومي :

هذا أبو الصقر فردا في محاسنه * من نسل شيبان بين الضال والسلم

أي فهو عزيز، وفي الحديث رأى النبي صلى الله عليه وسلم أداة الحرث فقال : ما دخل بيت هذا قوم إلا دخله الذل، وقال أبو العلاء المعري في بني مطر :

الموقدُونَ بنجدٍ نَارَ باديةٍ * لا يحضرون وَفَقْدُ العزِّ في الحضَرِ

غير أن هذا في البادية البعيدة، وأما هذا الغرب فقريب بعضه بعض، أما القرى ففي حكم الحاضرة، أما البادية سميت بذلك لبدوٍّ ما فيها، أي ظهوره للعيون، إذ لا جدار فيها ولا باب ولا سقف، والقرية بخلاف ذلك، وفيها جل ما في الحاضرة من المصالح، وفازت بخفة المؤنة وقلة الشغب، وفي الحديث : يوشك أن يكون خيْرُ مالِ المسلم غنمٌ يتبع بها شعب الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن، وفيه أيضا أفضل الناس رجلان، رجل آخذ بعنان فرسه كلما سمع هيعَةً طار إليها، ورجل في غنيمة في شعبة، الحديث، وفي الحديث الآخر : ورجل

معتزل في شعب يعبد الله، ويدع الناس من شره، وكلها عامة يندرج فيها العامي والعالم، ويختلف الناس في هذا بحسب الأحوال والأزمنة والنيات، وأما ما ورد في السنة من الحض على لزوم الجماعة والوعيد على مفارقتها فصحيح، ويتصور في شيئين، أحدهما لزوم الطاعة وترك الخلاف، ومنازعة الأمر أهله، وهذا عام عند جمهور أهل السنة لكل أحد وفي كل زمان، وهو يرجع إلى الإعتقاد وما يستتبع من الإعتراف والتسليم وأداء الحقوق، لا إلى المعاشرة والمساكنة.

فلو أن رجلا مسلما كان في جزيرة من البحر وهو يدين بما يدين به المسلمون، ويعترف بما يعترفون ، ويوافق على ما يتفقون، لكان داخلا في جماعة المسلمين، ولو أن رجلا في المصر بين ظهرانيهم، وهو لا يعترف ولا يوافق كفعل القُعَّدِ من الخوارج لكان خارجا عن الجماعة داخلا في الوعيد.

الثاني المعاشرة والصحبة قصداً للتعاون على الخير علما وعملا وجهادا، وهذا مخصوص بخصوص، فقد كان ذلك في الصدر الأول حيث كان الدين والهدى والخير في الجمهور، يتعاونون كما أمرهم الله تعالى، ويتناصحون ويتناصفون، ويتعلم الجاهل من العالم، والجاهل من (بياض) إلى غير ذلك، فكانت العزلة إذ ذاك مرغوباً عنها، ولذلك روى أن قوما خرجوا إلى الجبانة فبنوا بناءً، وجعلوا يتعبدون هنالك، فخرج إليهم ابن مسعود رضي الله عنه، فَلاَمَهُمْ وقال : ارجعوا فعلموا من هو دونكم، وتعلموا ممن هو فوقكم، وامروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، ولم يزايلهم حتى هدموا ما بنوا، ودخلوا.

فلما فسد الأمر وغلبت الشهوة واتخذ الهوى إلاهاً، وظهر المراءُ والجدالُ، ووقع التقاطع والتدابر والتحاسد والتباغض حلت العزلة، وربما وجبت، وصارت الجماعة المطلوب لزومها إنما هو من بَقِيَ على الهدى الأول، لأنه الذي في لزومه المنافع والمصالح، ولو كان قليلاً أو لم يكن إلا واحداً، وقد سئل ابن المبارك عن الجماعة المأمور بلزومها فقال : أبو بكر وعمر، فقيل له : مات أبو بكر وعمر، فقال فلان وفلان، فقيل له مات فلان وفلان، فقال أبو حمزة السكري جماعة،

وروي عن سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال في تفسير الجماعة : لو أن فقيها على رأس جبلٍ لكان هو الجماعة، فإذا فُهِمَ هذا وعلم أن المرادَ الدِّينُ وانتهاج سنن السنة، فأينما وجد الإنسان ذلك فليغتنمه، ومن وجد عنده ذلك فليلزمه، ومن كفاه الله في نفسه بأن حط عنده من العلم ما يكتفي به فليعبد الله حيث أمكنه من بر أو بحر، كما قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي : اعمل من وراء البحار، فإن الله لن يترك من عملك شيئا، وكان أبو عبد الله الهواري التونسي من أكابر العلماء وأكابر الصالحين، فترك الحاضرة وسكن البادية، فقال له بعض المشائخ : لِمَ سكنت البادية وتركت الحاضرة ؟ فقال : ما أسكنني البادية إلا هذه اللقمة أريد أن أنظر إليها من وقت دخولها إلى وقت خروجها، وأكون على علم من أمر معيشتي، فكان يبذر البذر ويلازمه إلى وقت حصاده.

وكان الإمام أبو الحسن بن الصائغ يحكي عن شيخه أبي بكرٍ أنه أقام مدَّةً لم يأوي إلى عمران، قال : وما كنا نقرأ عليه إلا في بطون الأودية والجبال رضي الله

عنهما، وهذا كله بيانٌ للحق، وأن التعليمَ ليس بلازمٍ للعالمِ على الإطلاق، ولا أن يقتحم عليه تغرباً عن وطنه، ولا بالمشقة على نفسه أو عياله، وإن كان بعض ما قررناه مما يستغْرَبُ اتباعاً للعادة الجارية والإلف المألوف، فإن العادة قد جرت باحتفال أهل الحاضرة للتعلم والتعليم، ونصب المجالس لذلك، فمن رأى الناس من العامة أو قاصري الأفهام من غيرهم لم يشك في أن ذلك هو الدين القويم، وأنه حياة العلم، ووضوح السنة، واستقرار الفقه،

وأهل البصيرة يعلمون أن أكثر ذلك بهرج زائف، وعمل في غير معمل، وضلال في صورة هدى، وذلك لفساد النيات، وكثرة الآفات، فقَلَّ الفلاح، وعزَّ النجاح، فما أكثر الرَّكْبُ وما أَقَلَّ الحُجَّاجُ

تعيرنَا أَنَّا قَلِيلٌ عديدُنَا * فقلت لها إن الكرَامَ قليلُ

وفي هذا المعنى يقال : إن الناس كلهم هلكى إلا العالمين، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون قليل، أي فَهُمْ قليل من قليل، والمشتغلون أكثرهم لا يحصل على طائلٍ، إما لجمود، وإما لعدم تفرغ، فإن العلم كما قيل إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإن أعطيته بعضك لم يعطيك شيئا، وإما لانخرام قبل الوصول، وإما لانقطاع كرهاً أو اختياراً أو جهلا، وذلك أن يستعجل الإستقبال ويظن أنه قد وصل وقديما كان يقال : العلم ثلاث درجات، الأولى ظن أنه من العلماء بجهله، ومن بلغ الثانية علم أنه مقصر، وذلك لإشرافه على بحار العلم المتلاطمة الأمواج، ومهامه واسعة الفجاج، وأما الثالثة فلا سبيل إليها، والمحصل قد ينتفع بما قد حصل وقد لاَ، فالعالم المنتفع به قليلٌ من قليلٍ

وقد أثنى رجل على الأعمش رضي الله عنه بنشر العلم، وقال له : إنك أحييت العلم بكثرة من أخذه عنك، فقال الأعمش : هم ثلاثة أصناف، صنف يموتون قبل الإدراك فيذهب علمُهُمْ، وصنف يصحبون الملوك فيذهب علمُهُمْ، وصنف ينسونَ ما علموا فيذهب علمُهُمْ، وهذه الثلاث التي ذكر الأعمش أيضا كثيرة، فلو نظر المجتهد في ذلك لأفتى بالمنع أو الكراهة، لأنه سعى لغرضٍ ممنوعٍ فيمتنع، أو عبث وعمل في غير معمل فيكره ويمتنع أيضا، وشرهم من يحضر لطلب المِرَاءِ، أو لتعلمه أو لتجسسٍ على من يقول أو يفعل قصداً للإفسادِ

وفي هذا النوع قال الإمام ابن عباد : فعلى المسكين المدرس أن يفعل ما فعل أبو سفيان في غزوة الأحزاب حيث أراد أن يتكلم فخاف من يسترق السمع، فقال : ليسأل كل منكم جليسه، قال : ومن حداقة هذا المصنف وكمال خداعه أن يفعل ما فعل حذيفة بن اليمان، إذ بادر فسأل جليسه قبل أن يسأله، فلم ينفع التحذر، انتهى بمعناه،

غير أن حكمة الله تعالى جارية باستمرار هذا الأمر، إما على وفق الحكم التكليفي، أو الحكم التصريفي، والحكمة في ذلك بقاء الرسم ووجود الواحد من المائة، أو من الألف، يحصل العلم وينفع الله به، وهو الضالة المنشودة في تلك المجامع، وإليها يساق الحديث عند السامع، ويقال عند ذلك ما قالت صاحبة المُرَقَّعَاتِ فَإِنَّ بنتاً لبعض الملوك كانت في عليَّةٍ تكونُ لها، وكانت أُلْقِيَتْ عليها محبة الفقراء أصحاب المرقعاتِ، تتشوف من عليتِهَا، فمَهْمَا أبصرت بواحدٍ منهم أمرت به أن يُكْرَمَ، وأن تُأْخَذَ مرقعَتُهُ على وجهِ التبرُّكِ، فإذا أُتِيَتْ بمرقعةٍ أَمَرَتْ أنْ تُطْرَحَ

في بيت بأسفلِ ذلك المنزلِ، فلما كَثُرَتِ المُرَقَّعَاتِ خرج منها قَمْلٌ كثيرٌ، وطلَعَ معَ الحيطَانِ، حتى ظهرَتْ للناسِ، ووصل الأمرُ إلى الملِكِ أَبِيهَا، فَغَضِبَ وأمر بالمرقعَاتِ تُحْرَق، فلما قذفت واحدةً واحدةً في النارِ احترَقَتْ إلاَّ واحدةً بَقِيَتْ لمْ تُؤَثِّرْ فيهَا النارُ شيئاً، فعَجِبَ الملكُ لها، فَعَلِمَ أَنَّ لَهَا وَلِصَاحِبِهَا شأناً، فلمَّا رَأَتِ البنْتُ ذلك قالت : يا أَبَتِ لَوْلاَ تَحَمُّلُ هَذِهِ المُحْتَرِقَاتِ لَمَا ظَفِرْنَا بِهَذِهِ الَّتِي لَمْ تَحْتَرِقْ،

غير أن هذا الواحدَ الذي يظفر به من طلبة العلم ليس مخصوصاً بأن لا يوجد إلا في الحاضر، بل هو بحسب مشيئة الله تعالى واختياره المطلق يفعل ما يشاء حيث يشاء، فكما يخرج أيَّ بقلٍ وأيَّ ماءٍ عذب حيث شاء، وأيَّ معدنٍ حيث شاء، كذلك له أن يخرج العلمَ والدِّينَ حيث شاء ، فهو سبحانه الذي أنزل النبوءة في ديار ثمود، وفي مدين، وفي أحقاب الرمل، وأَنْزَلَ أشرفها في البلدة العطشاءِ حساً ومعنى، بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ، فكذلك لم يزل سبحانه يخرج أئمة العلم من القرى الشاذة والأمكنة المجهولة، حتى تستنير بهم وتشرف، ويحدث لها فَخْرٌ لم يكن كما قيل :

وما عرف الأرجاء إلا رجالها * وإلا فلا فضل لترب على ترب

وتعداد ذلك يطول، وهذا وإلا فالتعليم متى أمكن بنية صالحة مع وجود أهله لا ننكر فضله، فهو من أفضل العبادات، وأرفع القربات، ولا يزهد فيه حينئذ إلا من تركه لأمر أرفع منه في خاصة نفسه، كمسألة الإمام الغزالي، ويقال أن الشيخ الإمام أبا محمد عبد العزيز التونسي، دفين أغمات، درس الفقه في بلدة تونس،

فلما رأى أصحابه يتولون الخطط والعمالات تركه، وقال : صرنا بتعليمنا إياهم كبَائعِ السلاح من اللصوص، وكان ورعا هاربا من الدنيا وأهلها.

وفي رواية آخرى أن المصامدة أخذوا عنه الفقه، ورجعوا إلى بلدانهم، فسادوا في قومهم، وصاروا قضاة وشهوداً وخطباء، ثم إن الشيخ عبد العزيز صار في سياحته إلى بلاد المغرب، فكان كلما مر بقوم تلقوه، فَوَحَّدَ تلامذته بالنظَرِ في كتابِ رعَايَةِ المُحَاسِبِي وغيرها من كتب التصوف، ثم إنه وَقَعَ على بعض تلامذته، وقد وقع في مسألةٍ من الربا جهلاً، فقال : سبحان الله قطعْتُ الفقْهَ لِئَلاَّ تُنَال به الدُّنْيَا، فضَاعَتْ معرِفَةُ الحلالِ والحرامِ، فرجع إلى تدريس الفقه، والله أعلم ويترتب هذا الوجه بأن يقال طلب العلم مظنَّةُ الخير، فكما أن النطق بالشهادتين مظنة الأمن، حتى وجب به احترام صاحبه نفساً ومالاً إلا بحقه، مع تيقن أن من ينطق منافقا كذلك طالب العلم يحسن به الظن ويسعف بمطلوبه، فيتأكد التعليم على الإجمال من غير تفصيلٍ ولا توقف على الإحتراز، ما لم يظهر أمر يتعين تجنبه، وبهذا جرى العمل في الأعصار على الدوام والإستمرار، وبأن يقال أن إسداء العلم يكون كإسداء المعروف، وقد قال قوم في المعروف أنه يتحرى به أهله، وإلا لم ينفع به كما قيل :

إن الصنيعةَ لا تكون صنيعةً * حتى يُصَابَ بها طريق المصنع

وقال الآخر :

ومن يصنع المعروف في غير أهله * يلاقي الذي لاقى مجير أم عامر

وقال آخرون : بل يصنع المعروف على كل حالٍ، ورووا في هذا حديثا، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : عش ما شئت فإنك ميت، وأحبِبْ ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، واصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله، فإن أصبت أهله فهو اهله، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله، وقال شاعر في هذا المعنى

بث الصنائع لا تحفل بموقعها * فيمن نأى أو دنا ما كنت مقتدرا

فالغيث ليس بباق حيثما انسكبت * منه الغمائم تربا كان أو حجرا

وإلحاق العمل بالمال في هذا ليس على السوية، فإن العلم أشرف خطرا، وأعظم قدرا، فيكون هذا مع انبهام الأمر على المعلم، فيظن الخير كما في الوجه الأول، أما حيث علم أو ظن عدم الأهلية فلا، وبه يوافق ما مَرَّ من الشروط، وتختلف الأنظار بحسب الإلتفات إلى الأصل، وإلى ما جرت به العادة الفاشية، وقد يقال : العلم أَعَزُّ جنابا من أن يصلَ إلى غير أهله، وقيل للإمام الجنيد : إلى متى تنادي على الله بين يَدَيِ الناسِ، ما فَعَلْتَ شيئا، قال : ولكنني أُنَادِي على الناسِ بين يدي الله تعالى، والأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، وقول الكتاب : أما علمت أن ملوك الموحدين وبني مرين كانوا ينقلون العلماء.إلخ.. فأقول : نعم قد كان من يَفْعَلُ ذلك، ولكنا نجل سلطاننا وهو قرشي هاشمي علوي فاطمي، لا ينبغي أن تنحط همتُهُ حتى يقتدي بملوك البربر من الموحدين وبني مرين ولا يقتدي بأسلافه القرشيين المهديين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، الذين هم أهل الخلافة حقا، ولهم شهد المصطفى صلى الله عليه وسلم بصحبة القدوة

ووجوب الإتباع، فقال : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، وقد فُتِّحَتِ البلدانُ في زمنهِمْ، الشام ومصر وإفريقية واليمن والعراق، وأسلم من أسلم من أهلها وهم في غاية الجهل والخلو من العلم، والمدينة المشرفة مشحونة بالعلماء المهاجرين والأنصار، فهل ثبت عند سيدنا أن الخلفاء كانوا ينقلون أولئك العلماء من بلد إلى بلدٍ ليفشوا العلم، فهل لاَ نقَلُوا عَلِيّاً وأُبَيّاً ومعاذاً وأبا هريرة وسلمان وزيد بن ثابت وجابر بن عبد الله وغيرهم من أهل العلم إلى الآفاق، ليعلموا من هو أحوج إلى العلم من عامتنا اليوم، فهل نحن أولئك الملوك أحرص منهم على الخير، وأشد اهتماما بأمور الدين وأمور المسلمين، كلا والله لا نبلغ غبار نعالهم، فهم أحرص وأعرف وأتقى لله، فلذلك لم يتسلطوا على أحد فيلزموه ما لا يلزمه، والله المستعان.

وأما فعل أولئك الملوك بالعلماء فيكون على ثلاثة أحوال، الأول أن ينشر الملِكُ الحبَّ ويظهر الجميل والخير، فتأتيه العلماء، وهذا لاَ عَجَبَ فيه، فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، ولم يزل العلماء يرغبون فيمن تظاهر بالإحسان وتصدى للإعانة على الخير، لأنهم يستعينون به على ما هم بصدده، وقد قيل أن الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه سافر إلى بلاد المغرب للقاء عبد المومن بن علي أول ملوك الموحدين إذ بلغه عنه أنه كان يُنَوِّهُ به، وذلك من جهة شيخه ابن تومرت، لأنه تلميذ الغزالي، فلما بلغ الإسكندرية أو طرابلس بلغه موته، فرجع إلى بلده.

الثاني أن يبعث إلى العلماء بوجه الخير والمحبة لا الإكراهِ، والعلماء في هذا تختلف أحوالهم فمنهم من يسعف ويأتي، ومنهم من يمتنع، ثم الممتنعون منهم من لا يعتذر ولا يبالي، كابن عباس رضي الله عنه، فإنه استعمله علي كرم الله وجهه على البصرة، فلما اجتمع في بيت مَالِهَا من المالِ قدرٌ نافعٌ أخذه جميعاً وجاء إلى مكة، فاشترى جواري واستوطنها، فكتب إليه عليٌّ في ذلك، فلم يلتفت إليه، ووقع بينهما كلام الإمساك عنه أولى.

وكسفيان الثوري فإنه لما ولى هارون الرشيد الخلافة وجاءته الوفود فتح بيوت الأموال، وجعل يعطي تشوفا إلى سفيان، وكان صديقا له قبل ذلك في صحبة العلم، فلما لم يقدم عليه كتب إليه مع عَبَّادُ الطالقاني، فلما دخل عليه عَبَّادُ وجده مع أصحَابِهِ في المسجد، فلما رآه سفيانُ قام إلى الصلاة، فانتظره حتى فرغ فدفع إليه الكتَابَ، فلم يمسَّهُ، وقال لبعض أصحابه : اقرَأْهُ، فإذا فيه : إنا انتظرنا قدومك علينا، ونحن على المحبة والعهد الذي بيننا إلى آخر كلامه، فقال سفيان لصاحبه : اكتب على ظهره، فقالوا له : يا أستاذ نكتبُ له في قرطاسٍ نَقِيٍّ، فقال : اكتبوا له على ظَهْرِ قرطاسهِ، فإن كان اكتسبه من حلالٍ فسيكون، وإن كان من حرامٍ لم يَبْقَ عِنْدَنَا، ولم يفسد علينا ديناً، فكتب : إلى هارونَ المغرور، الذي سُلِبَ حلاوةَ القرآن، واستمر على هذا الأسلوب إلى أن قال له : إنك فتحت بيتَ مَالِ المسلمين وجعلتَ تُفَرِّقُهُ في شهواتك، فهل أَذِنَ لك المجاهدون، وهل أَذِنَ لك اليتامى والأراملُ، إلى غير هذا مما ذكره، ثم قال له : أما المحبة فقد قطعنَاهَا فلا عَهْدَ بيننا ولا محبَّةَ، ولا تكتب إلينا بعْدَهَا، فإنك إن فعلت لا نقرَأُ كتابك ولاَ

نُجِيبُكَ، ودفعه لِعَبَّادٍ، فلما رأى عَبَّادُ تلك الحالة خرج إلى السوقِ ونزَعَ ثيابه وَلَبِسَ دونها، ووكل بالبرذونِ من يُبَلِّغُهُ لدارِ الخلافة، وتابَ إلى الله تعالى، وجاء بالكتابِ إلى الرشيد، فلما رَآهُ الرشيدُ فَطِنَ له فصَاحَ وقال : أفلَحَ الرسولُ وخَابَ المُرْسِلُ، وناوله الكتابَ، فقرأه وبكى حتى رحموه، فقال له الجلسَاءُ : قد تجرأ عليك سفيانُ فَأَرْسِلْ من يأتِي به إليك، فقال : اسكتوا، المغرورُ من غَرَرْتُمُوهُ، ولم يزل كتابُ سفيانٍ عند هارونٍ يُخْرِجُهُ الحين بعد الحينِ فيقرأه،

ومنهم من يعتذر وقد أرسل المعتمد بن عباد إلى أبي العرب الصقلي يستوفده عليه، وبعث مع الرسول مائة دينار ليتجهز بها في الطريق، فامتنع أبو العرب وكتب مع الرسول

لا تعجبن لرأسي كَيْف شابَ أسىً * واعجب لأسودِ عيني كَيْفَ لم يشِبِ

البحرُ للرومِ لا تجري السفينُ به * إلا على خطرٍ فكيف للعربِ

وأرسل بمثل ذلك إلى الإمام المصري بالقيروان فامتنع أيضا وكتب مع الرسول :

أَمَرْتَنِي بِرُكُوبِ البَحْرِ أقطعُهُ * غيري لَكَ الخير فاخصصه بذَا الدَّاءِ

مَا أَنْتَ نُوحٌ فَتُنْجِينِي سَفِينَتُهُ * وَلاَ المَسِيحُ أَنَا أَمْشِي عَلَى المَاءِ

الثالث أن يلزمهم ذلك إكراهاً وضغطاً، وهذا لا يقتدى به، لأنه ظالم محارب لله ورسوله، وفي الخبر يقول الله تعالى: من آذى لي وليا فقد آذنته بالمحاربة، وقال الإمام الشافعي :

إن لم يكن العلماء العاملون أولياء الله فليس لله من ولي، وتحدث بعض أصحاب الشيخ أبي العباس السبتي، قال : بينما نحن معه ليلة في الفندق فارتفعت أصواتنا بالمذاكرة، فسمعنا الحرَسَ جاءوا إلى باب الفندقِ، وقالوا لِلقَيِّمِ : ما هذه البدْعَةُ، وما هذه الأصوات، ألم يعلموا أَنَّ من رفع صوته بالليل يُقْتَلُ، وجلس اثنان منهما على البابِ ليحمِلُونَا إذا أصبحنا فنقتَلَ، فأعلمنا بذلك قَيِّمُ الفندقِ، فدخلنا من ذلك غَمٌّ عظيم، والشيخ أبو العباس يضحَكُ ويمازح ولا يبالي، حتى كان وقت السحر، فخلا بنفسه ساعةً، ثم جاء فقال : لا خوف عليكم قد استوهبتكم من الله تعالى، والجالسان على الباب لكم يُقْتَلاَنِ غَداً، قال : فقلت له أنت ترى المجازات في الأفعال على الخير والشر، فكيف يقتل هذان ولم يعمَلاَ عملاً يستوجبا به القتل، وجزاؤهما أن يروعاكما روعانا.

فقال أبو العباس : العلماء ورثةُ الأنبياء، وترويعهم عظيمٌ، لا يقابله منهم إلا القَتْلُ، قال : فلم أزل أنازعه في هذا كله إلى أن قال : سيضرب إذاً كلُّ واحدٍ منهما مائة سوط عقوبةً، فاجتاز بالليل عبد الله الخزان، وكان صاحب الوقت بالجامع الأعظم، فوجد حانوته مفتوحاً ، ورأى الحارسين على قربٍ منه، فلم يشك في أنهما فَتَحَاهُ، فَحُمِلاَ إلى جرجةِ القَصْرِ قبل طلوع الفجر، فقال لنا أبو العباس : احضروا على ضربهما مائة سوط.

وقول الكتاب : كان العلماء الأعلام مع أهل الزندقة الذين يجبرونهم أن يقولوا بخلق القرآن. إلخ.. فأقول الذي كان يجر على القول بخلق القرآن هو المأمون العباسي ومن تبعه من إخوته، وليسوا زنادقة، بل المأمون له مشاركة ظاهرة في

العلوم، وهو الذي استخرج العلوم الفلسفية من أيدي العجم إلى هذه الأمة، وقاضيه أحمد بن أبي داود أبعده الله هو القائم بالفتنة بخلق القرآن، وليس معهم في صحبتهم، بل تسلطوا على الإمام أحمد بن حنبل فامتحنوه، وامتحنوا غيره ممن أراد الله رفع درجته، وفي آخر الأمر بعث إلى الإمام أحمد ومن معه من الأئمة الأعلام، فأتى بهم من بغداد في الحديد، فلما كانوا في بعض الطريق بلغهم موته، فرجعوا إلى بلدهم، وعلماء السوء نعوذ بالله منهم هم الماجحون لنار الفتن، كم حِمىً سَعَوْا في هتكه، وَكَمْ دَمٍ دَلُّوا على سفْكِهِ، دخل سيف الدين الآمدي مصر، وطبق أرْضَهَا علوماً، فحسدوه، ونسبوا إليه رأي الأهواء، وكتبوا في ذلك وثيقةً، وجعلوا يتعاطونها فيوقعون فيها شهاداتهم، حتى انتهت إلى بعض من وفقه الله وعصمه، فكتب تحت شهادتهم :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه * فالقوم أعداء له وخصومُ

ثم استمر عليه ذلك الحسد حتى خرج من مصر إلى الشام، ودخل أبو الفضل بن النحوي مدينة فاس حين أخرجوه من سجلماسة وتسلَّطَ عليه القاضي أبو دبوس بالإذاية، فلما طال الأمرُ على ابن النحوي عزم على الخروج من فاس، فبات تلك الليلة التي يخرج في صبيحتها، ويقال أنه قطعها بسجدةٍ واحدةٍ، قال في آخرها : اللهم عليك بابن دبوس، فأصبح القاضي ميتاً، وأصبح الشيخ أبو الفضل خارجاً، وخرج الطلبة يشيعونه، وفيهم ابن القاضي ولا علم له بمَوْتِ أبيه، فقال له الشيخ : ارجع لتحضرَ جنازَةَ أبيك، ووشوا بالشيخ أبي الحكم بن برجان، أحد أكابر الصوفية، فَبُعِثَ إلى السلطان بمراكش، فبعَثَ إليه فَجِيءَ به من العدوة، وقد

نسبوا له مقالاتٍ، فأجاب عن ذلك كله، فأطلقه السلطان، فقال : والله لا عشت ولا عاش من أشخصني، فمات رحمه الله، وَطُرِحَ في المزبلةِ، فدخل رجل على الشيخ سيدي علي بن حِرْزِهِمْ، وكان إذ ذاك بمراكش، فأخبره بموتهِ وأنه لم يدفن، فدعا بعض أصحابه فقال : أتشتري نفسك وتفعل ما آمرك، فقال : نعم، قال : فاخرج وَسِرْ في أزقةِ مدينة مراكش وأنت تقول : يقول لكم ابنُ حِرْزِهِمْ من لم يحضر جنازة الولي الزاهد العارف أبي الحكم بن برجان فعليه لعنة الله، فلما سمع الناس بادروا إليه من كل ناحية، ودفنوه، وبلغ ذلك السلطان، قال : مَنْ عَلِمَ وأنَّهُ وليٌّ ولم يحضر جنازته فعليهِ لعنة الله، وسعوا بالشيخ أبي العباس بن العريف أيضا إلى علي بن يوسف، فأمر بإشخاصه إلى حضرة مراكش، فلما بلغها توفي بها، وندم السلطان على ما كان منه إليه، وفي رواية أن القاضي ابن الأسود هو الذي وفد على السلطان، فسعى بابن العريف عنده، وخوفه منه لما رَأَى من ظهوره وإقبال الناس عليه، فكتب إلى عامل المدية بإشخاصه إلى مراكش، فأمر به العامل فأدخل في القاربِ ليخرج به في البحر إلى سبتة، فأشار القاضي على العامل بتكبيله، فبعث إليه من يُقَيِّدهُ، فأدركه رسول العامل وهو في البحر لم يخرج منه بعد، فكبله وذهب راجعا إلى المدية في البحر، فقال الشيخ : رَوَّعَنَا رَوَّعَهُ الله، فلقيه العدو في البحر فحملوه أسيرا، فلما وصل الشيخ إلى سبتة لقيه رسول السلطان بالآمان، وأن تحلَّ قيودهُ ويسرَّحَ، فقال الشيخ : كنت لا أريد أن يعرفني السلطان وقد عرفني الآن، فلابد من رؤيته، فوصل إلى مراكش، فأقبل عليه السلطان وأكرمه وأمره أن يعرض عليه حوائجه، فقال الشيخ : ليس لي

حاجة إلا أن أدخل وأذهب حيث شئت، فأذن له في ذلك، فلما رأى القاضي ما حصل به من الإكرام سأل عن أحب الطعام إليه، فقيل له : البادنجان، فصنعه وسمه واحتال عليه حتى أكله ومات رحمه الله، فلما علم السلطان ما كان من ابن الأسود في جانب الشيخ ابن العريف قال : لأعذبنه ولأسمنه كما فعل بابن العريف، فبعثه إلى السوس الأقصى، وأمر أن يسقى السم هنالك، ففعل ذلك، ومات هنالك.

ولما ظهر شيخ الجماعة أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه بتونس، وأقبل الخلق عليه، وتصدى لتربية المريدين سعى به القاضي ابن البراء إلى سلطانه، وقال : إن رجلاً من شاذلة قد اشتغل بالبدعة، وأفسد عليك العامة، فبعث السلطان إليه وأجلس له العلماء فناظروه، فوجدوه متمكنا في العلم، فلما رأى السلطان ذلك خلى سبيله، فلما خرج رجع إليه القاضي وقال له : الآن إذا لم تنفذ الأمر يفسد الناس كلهم فيتبعونه ويتركونك، فأمر السلطان به فسجن، فأرسل الشيخ إلى الفقراء أصحابه، وقال لهم : لا تجزعوا فإنا نخرج إن شاء الله ولا بأس علينا، وسقط ابن السلطان في تلك الليلة ومات.

وَقَدِمَ أَخٌ للسلطان لم يحضر، وكان من المعتقدين للشيخ، فلام أخاه وقال له: أتعمد إلى ولي من أولياء الله فتسجنه، فلما رأى السلطان ذلك أطلقه، وبقي أياما في تونس، فأكثر عليه القاضي، فلما رأى الشيخ ذلك خرج من تونس اتقاء للفتنة، وتوجه إلى الديار المصرية، فلما رأه القاضي أنه قد نجا من سلطان تونس، كتب

فيه رسما إلى سلطان مصر، يقول : إن رجلاً بدعياً قد أفسد بلادنا، وقد جاء إلى بلادك ليفسدها فاحذره، أو نحو هذا الكلام، وسبقت الوثيقة إلى سلطان مصر، فلما كان الشيخ ببعض الطريق تعلق به أعرابٌ من أعمال مصر يشفع لهم في كلفة عليهم عند السلطان، فلما دخل مصر ذهب إلى السلطان، فذكر أَمْرَ الأعراب، فقال له السلطان : أنت تشفع في الناس ومن يشفَعُ فيك أنت، هذه وثيقة قاضي تونس فيك.

فحينئذ تحرك الشيخ رضي الله عنه، فقال للسلطان : أنا وأنت والقاضي في قبضة الله، فقام منصرفا، فَرَامَ السلطان أن يتحرك فلم يستطِعْ، فجعل يتوب ويستغفر ويستسمح الشيخ، واسترضاه، وقضى حوائجه، ولم يدع الشيخ على ابن البراء حتى بلغ عرفة في حجه، فقال لأصحابه : الآن أُذِنَ لي في الدعاء على القاضي، فدعا عليه بطول العمر وأن يبتلى بخدمة الظلمة وبالفتنة، فبقى ابن البراء على ذلك حتى مات عليه، نعوذ بالله من قضاة السوء.

وإنما ذكرنا هذه القصص ليعلم أن الفاضل من أهل العلم ومن أهل الطريق يبتلون بشياطين الإنس عند أولي الأمر، والعاقبة للمتقين، فلا يغترر صاحب الأمر بمن ينصح له بالوقيعة في الناس، فإنه هو المؤذي له على التحقيق والغاش كما قال النابغة :

لئن كنت قد بلغت عني خيانة * لمبلغك الواشي أغش وأكذب

وقال الآخر :

لَعَمْرُكَ مَا سَبَّ الأَمِيرَ عَدُوُّهُ * وَلَكِنَّمَا سَبَّ الأَمِيرَ المُبَلِّغُ

وذلك من وجهين أحدهما أنه يُغَيِّرُ قلبه ويكدِّرُ عليه العيشَ، وأيُّ فائدة للملكِ إذا لم يتنعم صاحبُهُ ظاهراً وباطناً، فمن توالى عليه السُّعَاةُ لا يزال في نكرٍ وضيقٍ، والثاني يوقعه في أمور يندم عليها عاجلاً وآجلاً، وفي ذمهم قال الأحنف بن قيس : ما بَالُكَ بقومٍ الصدقُ محمودٌ إلاَّ منهم، وقال بعض القدماء : لو فتش عن السعاة لم يوجد إلا لغير رشده، وقال الآخر :

فلا تُفْشِ سرَّك إلا إليكَ * فإنَّ لكلِّ نصيحٍ نصيحا

فإني رأيتُ غُواة الرجا * ل لا يترُكون أديماً صحيحا

وقال غيره :

فلا تعدل إلى الواشين سمعا * فإنَّ كلام أكثرهم كلام

وإنَّ الود عندهم نفاق * إذا طاوعتهم والحمد ذام

وأقوال إذا سمعت سهام * تقصر عن موقعها السهام

فلما نصحوا لمجدك بل مراداً * لمّا قد ساءني قعودا وقاموا

فليتك تسمع القولين حتى * تبين في من الحق الخصام!

وقال الآخر :

لا تسمعن من الحسود نميمة * فكلامه ضرب من الهذيان

إن كان قد أوحى إليك تحرجا * فالناس قد كذبوا على الرحمان

سل غيره عني لتعلم إفكه * واسخط عليه فبالمحال رماني

لا يثبت الحق المبين لحاكم * في الشرع حتى ينطق الخصمان

وليس بعد تحذير الله تعالى تحذير، قال تعالى: إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين، وكل من اغتاب الناس فهو فاسق، والفاسق لا تقبل شهادته، ولذالك قال معاوية للأحنف في أمر بلغه عنه فأنكر الأحنف، قال معاوية : الثقة بَلَّغَنِي عنك، قال الأحنف : الثقةُ لا يُبَلِّغُ، ورفعت بلاَغَةٌ إلى أمير المؤمنين السفاح في بعض عماله، فكتب عليها هذه نصيحة لم يُرَادُ بِهَا ما عند الله، ونحن لا نقبل من آثَرَنَا على الله، ورأيت آخرى في كتابِ طريقِ الصاحبِ، فيها أن رجلاً هلك وترك أموالاً جليلة، ولم يترك إلا ولداً لا تصلح له تلك الأموالُ، فوقع الصاحب : الهَالِكُ رحمه الله، والوَلَدُ أصلحه الله، والمال ثَمَرَةُ الله، والساعي لعنه الله، ولما ولى عبد العزيز بن عبد الملك دمشق، وكان لبيباً مع حداثة سنه، قال أهل دمشق : هذا غلام لا معرفة له بالأمور وسيسمع منا، فقام إليه رجل فقال : أصلح الله الأمير، عندي نصيحةٌ، فقال له : ليت شعري ما هذه النصيحة التي بدأتني بها من غير يد سبقت مني إليك، قال : جَارٌ لِي عَاصٍ وكذا كذا، فقال : ما اتقيت الله ولا أكرمت أميرك، ولا حفظت جارك، إن شئت نظرنا فيما تقول، فإن كنت صادقا لم ينفعك ذلك عندنا، وإن كنت كاذبا عاقبناك، وإن شئت أقلناك، فقال : أقلني، قال : اذهب حيث شئت لا أصحبك الله، ثم نهاهم عن السعاية، وذمها غاية، وقال : فلا يأتيني أحد منكم بسعاية على أحد بشيء، فإن الصادق فيها فاسق والكاذب بهات، ومن أحسن ما فعل بهذا الجنس الخبيث، ما روي أن أمير المؤمنين أحمد القادر بالله كان يمشي ليلة في أسواق بغداد، إذ سمع شخصا يقول لآخر : قد طابت علينا دولةُ هذا

المشؤوم، وليس لأحد عنده رزقٌ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخِذَ، فلما أحضر بين يديه سأله عن صنعته، فقال له أنه من السُّعَاةِ الذين يستعين بهم أربابُ الأمرِ في تعرُّفِ أحوال الناس، وأنه منذ ولي أمير المؤمنين أَقْصَانَا واستغنى عنَّا، فتعطلت معيشتُنَا، فقال : أتعرف من في بغداد من السُّعَاةِ، قال : نعم، فأمر بكتب أسمائهم، وأجرى لهم رزقا معلوماً، ونفاهم إلى الثغور يكونون هنالك عيوناً على الكفار، ثم التفت إلى من حوله فقال : اعلموا أن هؤلاء رَكَّبَ الله فيهم شرّاً، وملأ صدرهم حقداً على العالم، ولابد له من إفراغِ ذلك الشر، والأولى أن يكون ذلك في أعداء الدين، ولا تنقص بهم المسلمين،

وقد اتفق مثل هذا للأمير الناصر رحمه الله أنه جاء إنسانٌ إلى وزيره، فاستأذن إليه في إبلاغِ قومٍ ذكرهم بالقبيحِ إلى السلطان، فبلَّغَ الوزيرُ الأمرَ، فقال له السلطان : عليَّ بالرجل، فأدخله إليه، فقال له : هل تعرف في القاهرة من هو عارفٌ بشيءٍ من هذه الأحوال، قال : نعم جماعةٌ، وعدَّهُمْ، فقال السلطان للوزير : احتفظ بهذا الرجلِ حتى يحضر كل من ذكره، فعرفني بهم، فلما اجتمعوا قال له : اخرج في هذه الساعة وجهز الجميع إلى الثغور القاصية، ولا تدع أحداً منهم بالقاهرة، فإن هؤلاء منَاحِسٌ، فنفاهم أجمعين، ووقع ذو الرياستين في رقة ساعٍ : نحن نرى قبول السعاية شراً منها، لأن السعايةَ دلالةٌ، والقبول إجازة، فاتقوا الساعي، فإنه إن كان في سعايته صادقاً كان في صدقه آثما، إذْ لم يحفظْ حرمةً، ولم يستر عورةً، وقال رجل للمهدي : عندي لك نصيحة يا أمير المؤمنين، قال : لمن هي أَلَنَا أَمْ لعَامَّةِ المسلمين أم لنفسك، قال لك يا أمير المؤمنين، قال المهدي : ليس

الساعي بأعظم عورةٍ ولا أقبح حالاً من قَابِلِ سعايةٍ، ولا تخلو من أن تكون حاسدَ نعمةٍ فلا يشتفي غيظُكَ، أو عدواً فلا يعَاقَبُ لكَ عَدُوُّكَ.

ثم أقبل على الناس فقال : لا ينصح لك ناصح إلا بما فيه رضى الله وللمسلمين فيه صلاح، فإنما لنا الأبدان وليس لنا القلوب، ومن استتر لم نكشفه، ومن ندم قبلنا توبته، ومن أخطأ أقلنا عثرته، إني رأيت التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة، والقلوب لا تبقى (بياض) ينعطف إذا استعطف، ولا يعفو إذا قدر، ولا يغفر إذا ظفر، ولا يرحم إذا استرحم، وهذا الباب لا يسلم فيه إلا رجلان، رجل متين الدين، كريم السجية، واسع الصدر، لا يقعقع له بالشنان، كما قال المعتمد بن عباد يخاطب الذين وشوا إليه ابن زيدون :

كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا * الدين أمتن والمروءة أكرم

أأردتم تضييق صدرٍ لم يضق * والسمر في ثغر الصدور تحطم

وزحفتم بمحالكم لمجرب * ما زال يثبت في للمحال فيهزم

أنى وجدت غدر من جربتم * منه الوفاء وجور من لا يظلم

أنا ذاكم لا البغي يثمر غرسه * عندي ولا مني الصنيعة تثلم

ورجل حازم يقطع مواد ذلك، إما بنفي الجنس عن البلد، أو بإضمار عقوبة تردعهم، وقد كان صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم مع كرم خلقه وكمال عصمته يحتاط من ذلك، فيقول لأصحابه : لا يبلغني أحدٌ منكم عن أحد شيئا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم القلب والخاطر،أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

وقول الكاتب : نحن مسلمون موحدون، أقول : أما هذا فما زلنا بحمد الله تعالى عليه، ونقول إن من يطلب الدنيا ويقتنص فيها أسهلُ وأسلمُ ممن لو ابتلى الناس بمن يزاحمهم في دينهم ليتركوه أو يبذلوه، ولله الحمد والمنة على هذا.

وقول الكاتب : أما يكفيك ملاح تعيش فيه، أو قبيلة تقبض زكاتها، أقول : أما الملاح فمن لي به ومن يتركه، ولم أسلم من ألسنة المتعرضين للجزية وأنا في قعر عريشي أستف الرماد، فكيف لو رأوا في يدي ما يطلبون، وأما القبيلة فلا تليق بي، فإن المراد أن أتفرغ للعلم، فإن اشتغلت بالخروج إلى القبائل ضاع العلم وجاءت الفتنة تَتْرَا، وإن اتخذت أعوانا يكفوني مئونةَ ذلك لم يقم ما يحصلون بواجبِ حقهم، فماذا يحصل لي أنا، وَهَبْنِي حصلت معهم صحيفاتٍ من الزرع فأين كَيْتَ وَكَيْتَ

وأما قول الكاتب : وهل يستفتونك وأنت في البادية، فأقول : نعم، أما أهل البادية فلا يطلبون غيري، وأما أهل الحاضرة فعندهم من يكفيهم، ومن احتاج إلي فليأتنا، وقد قررنا أن الشرع لم يكلف صاحب العلم أن يدخل إلى الحاضرة، بل يبقى حيث أمكنه، والله تعالى قد ألزم العامة أن يسألوا مطلقا فقال : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، فإذا لم يسألوني فالحجة عليهم لا علي.

وقوله : فما يستفتك أحد وأنت بها، هذا حكم على الغيب ، لا يكون إلا بعد النظر ومعرفة أن الأمرَ كذلك، وهو بحمد الله ليس كذلك، فإن أهل البادية وأهل الحاضرة أيضا يستفتوني.

وقول الكتاب : لوجوه شتى. إلخ.. هذه أمور كلها مقدرةٌ في العقل، والأمر في الخارج بخلاف ذلك، ولو كانت العامة يتبصرون فيمن يستفتون لكان الناس بخير، ولكنهم الهمجُ الرعاع، لكل ناعقٍ أتباعٌ، يشارطون شاباً صغيراً من الأفارد لا يحسن الوضوءَ، فيتخذونه إماماً راتباً، ويتداعون إليه في الخصومات، ويستفتونه في النوازل التي يحَارُ فيها العلماءُ، وذلك تارة قلة مبالات بأمر الدين، وتارة اعتقاد أن كل من يقرأ يعرف كل ما يحتاجون، ثم يستحي أن يقول لا أدري، فيفتي أو يحكم بغير علم فيضل ويضل، ونعوذ بالله من الفتن، وهذه حالة أكثر العموم، فأمثال هؤلاء كيف يتوقفون مني ويقولون لو كان عالما لكان في الحاضرة، وهم يعرفونني ويعرفون حلق المتعلمين والمستفتين حولي من شَبَّ إِلَى دَبَّ،

ويرحم الله أمير المؤمنين عليا كرم الله وجهه، فإنه حين رجع من صفين، ووقع التحكيم، قال لبعض خواصه : ما يقول الناس ؟ قال : يقولون عليٌّ شجاعٌ ولكن لا معرفةَ له بالحربِ، فقال : للهِ دَرُّهُمْ، ومن هو أعرف بها منِّي، فقد خضت فيها وأنا ابن عشرين سنة، ولكن لا رَأْيَ لمن لا يطاع، فإنا أيضاً بحمد الله كان هؤلاء وغيرهم يسألوني وأنا ابن عشرين سنة، أفَبَعْدَ ما لاح الشيبُ في عارضي ينفون عني العلم بكوني لم أكن في الحاضرة.

ولقد كنا نضحك أيام كنا بفاس مما بلغنا عنهم، وذلك أنهم بحمد الله والتحدث بنعم شكراً رأوا ما بهر عقولهم علماً وفهماً وفصاحةً، فكانوا يقولون : نرى الرجلَ بربرياً ثم إذا تكلَّمَ تَكَلَّمَ بلسان أهلِ الحاضرةِ، وكان يبلغنا عن بعض الحمقى منهم أنهم كانوا يقولون : ما فَاتَهُ شيءٌ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاسٍ.

وهذا كلام جاهل لا يعرف حكمة الله ومشيئته الباهرة، يهب من شاء ما شاء، ويودع ما شاء أي موضع شاء، لا يسأل عما يفعل، وما أشبه نزغة هؤلاء بِنَزْغَةِ بني إسرائيل، واعلم أني إنما شبهت النزغة بالنزغة لاشتراكهما في الجهل وتحجير رحمة الله الواسعة، فلا يذهب وهمك إلى أني أريد محاكات نفسي بجناب النبوءة.

ومثل هذا ما ذكر الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه من تشبيه المنكرين لأولياء الله زمنهم مع تصديقهم بمن مضى من اليهود في إنكار نبوءة نبينا صلى الله عليه وسلم لكونه في زمنهم، وقد صدقوا بمن مضى من الأنبياء، وهو تشبيه صحيح لا يلزم فيه تشبيه الولي بالنبي، ولا تقل أيضا لم تشبه المسلمين باليهود، لِأَنَّا نقول : لا عجب فيه فإن للمسلمين أشباهاً باليهود والنصارى وبالمجوس وبالشياطين، كما لهم أشباه بالملائكة، وقد رأيت في كلام الشيخ تشبيههم باليهود، وقال في محل آخر : من رأيته من فقراء هذا الزمان مشتغلاً بالسماع، آكلا لأموال الظلمةِ ففيه نزعةٌ يهودية، فإن الله تعالى يقول في اليهود : سماعون للكذب آكالون للسحت وقول الكتاب : أو يقولوا لَيْسَ عِلْمُ الحَسَنِ لِلَّهِ، وإنما هو يحتال به على الدنيا، فأقول : هذه حجة مقلوبة، فإن الذي يتقرب من أبواب الملوك، بل ومن الحواضر كلها التي هي محل المرتبات هو الذي يمكن أن يقال فيه أنه يطلب الدنيا، فإن تلك الجهة منها يكون للعلم مُرَتَّبٌ ويكون له ثمن، وأما البادية فلا، وَيَقِلُّ أن يوجدَ في تلك الجهة علم يتعاطى لله تعالى، وَرُبَّ عالمٍ في القرى يعلم ويفتي لله تعالى، ويطعم طلبته وربما كساهم، ولا يترقب على ذلك جزاء ولا

شكورا إلا من الله تعالى، ويحرث حرثه كما يحرث الناس ويعيش كما يعيشون، فهذه التجارة الرابحة وقول الكتاب : لا سلامة من الخلق، أقول هذا هو الحق، فالواجب على الإنسان أن يكب على مافيه صلاح دينه ودنياه، ويُلْغِي النظرَ عن الخلق، فإن رضاهم غايةٌ لا تدرك، وطالب ما لا يدرك لا عقل له، والسلامة من جانبه متعذرةٌ، ويكفي في ذلك قصة لقمان، الذي شهد اللَّهُ له بالحكمةِ، وذلك أنه أراد أن يُرِيَ إبناً له هذه المسألة، فأخرجه إلى السوق ومعهما حمارٌ، فجعلا يسُوقَانِهِ، فقال الناس: إثنان يمشيان والحمَارُ يمشي بِظَهْرِهِ، فقال له : اركَبْ، فقالوا : شيخٌ يمشي على رجلِهِ وابْنُهُ راكبٌ، فقال له : انْزِلْ، وَرَكَبَ هُوَ، فقالوا : رجلٌ راكبٌ وابنُهُ صغيرٌ يَتْبَعُهُ، فقال له : ارْكَبْ مَعِي، فقالوا : اثنَانِ عَلَى حمَارٍ، هَذَا جُورٌ، وإنما فعل ذلك لِيُرِيَ ابنَهُ أن السلامة منهم لا تكون، فيقصد الإنسان إلى ما هو اللآئق يفعله، فأَنَا كذلك إنما أفعل ما أمكنني في الوقت ولا أبالي، فإني إن كنت في القرى فلا أخلوا عمن يقول لو كان في المدينة لكَانَ لَهُ وَكَانَ، ولو دخلت المدينة فسكنت في حجر كحجر الضبِّ، فإذا دخلت تدافعت أنا والنساء الأجنبيات بالأكتاف، وإن دعاني من يسأل عن مسألةٍ أو يشققُ لوحاً جلست معه في الطريق، فقيلَ بَالَكُمْ بَالَكُمْ (بمعنى تجنبوا عن الطريق، وذلك لدى مرور البغال المحملة بالسلع وغيرها) فحينئذ نهرب لنتطلبَ مسجداً، وعسى أن يكون الوقت ضحوةً فنجدها كلها مغلقةً، فإما سافرنا خارج المدينة، وإما دفعته عني بلا قضاء حاجةٍ، فلابد أن يقالَ ما أَحْوَجَهُ إلى هذا الضيقِ، وإن جاءني ضيف دفعته وقلت لا شيءَ، وإن تحوجتُ من ذلك أفتاني من تمكن في البُخْلِ قَبْلِي وقال : ليس على الفقيه من

ضيافةٍ، وحينئذ أَحُطُّ عن ظهري ثقل ما تحمله الكرام، وأنخرط في سلك اللئام، نعوذ بالله من الإنحطاط، ولقد كنت باسطت رجلاً من أهل الحاضرة رأيت له فهماً، فقلت له : ما الذي أوجب تقصيركم في الضيافة ؟ فقال : لو لم يكن إلا تعذر منزل الضيفِ لكان كافياً، فقلت : والكريم يُعْطِي المال إن تعذر الإنزَالُ، فلو كان لكم كرَمٌ يظهر في السوق بإعطاء الفلوس، فقال : لمَّا كان الضَّيِّقُ نُسِيَ الضَّيْفُ، فاستمر الحال حتى عمَّ البخْلُ في الطعام وغيره، فقلت له : صدقت، فهذا من أعظم عيوبِ الحاضرة، وأما السلطان فلا سلامة له أيضا، فلو كلفني الحاضرة وأنزلني إليها قصداً قال الناس : قد ظلمه وتعدى عليه، وهيهات كان العلماء يُحْتَرَمُونَ وَيُكْرَمُونَ، واليومَ يُظْلَمُونَ، وإن تركني فربما قال قائل : لو كان عنده من الإحسانِ والعطايَا ما عند من قبله لاجتمع العلماءُ عليه، فالذي يخرِجُهُ من القوْلِ أن يبسطَ الخَيْرَ، وحينئذ تأتيه العلمَاءُ طوعاً، ومن تخلف منهم فلا عيبَ به، وقول الكتاب : أَوَ مَا تعرف إلا تَتَوَرَّعَ، وتقول لآكل الحرام، إلى قوله : وأي فرق بين ما نعطيه وما يعطيه أخونا الرشيد، أقول : ما ذكرت لأحدٍ قطُّ أَنِّي أتورَّعُ، ولا أني لا آكل الحرام، فإن نقلَهُ أحدٌ عني فليخْرُجْ قُدَّامِي، وإن كان ظنّاً فالله تعالى يقل : إن بعضَ الظن إثم، ثم الفرق بين ما يُعْطَى اليومَ وبين ما يعطيه مولانا الرشيد أن ذلك موجودٌ وهذا غير موجودٍ، لا فرق بينهما غير ذلك، وإلا فمتى أعطانا السلطان اليوم عطاء فرددناه عليه وقلنا لا نأكل الحرام.

نَعَمْ كنتُ في الأول متشوفاً، واليوم لا تَشَوُّفَ، ووجه ذلك أني كنت إذ ذاك في شباب وصحة قوياً على التدريس، وكنت في المدينة لا حرثَ لي ولا معاش، فعلمت

أن لي حقاً في بيتِ المالِ بما يجري الله على يدي من النفع مع وجود الحاجة، واليومَ قد جاء الشيبُ وتوالت الأمراض، وَخَفَّتِ الحاجةُ، حين نكون في البادية فإنا نكتفي بالميسور، فغيري اليومَ ممن هو بالحاضرة وأشدّ حاجة أولى بالعطاء، وأما قول الكتاب : أي موضع تقطع فيه السبل، وتنهب فيه القوافل إلا تلك المواطن، أما رعية السلطان ليس فيها من يَرْفَعُ يَدَهُ إلى رأسه، لا من أهل هذا البلد ولا من أهل ملوية، وأما قطع الطريق فإنما كان في آيت عَطًّا، وذلك ديدانهم من قديم الزمان، شنشنة يعرِفُهَا من أحزم، وما تركوا ذلك قط، ولا دخلوا في الطاعة دخول غيرهم، وإنما يخادعون تارة على التمر، وتارة على الزرع، وسراياهم سارية من هاهنا إلى درعة، لا في هذه الأرض وحدها، وما تحركوا هنا حتى قضوا الغرض في الصحراء، فقتلوا الفقراء أولاد من لا يخاف خارج النخل، واستباحوا تلك البلد كلها كما بلغكم، فلا يسافر أحد إلا على خطرٍ، وكم أغنامٍ نهبت لأهل الرتب وغيرهم، وكم قافلة وكم جريح وكم قتيل، وأما هذه البلاد فلا يتحركوا فيها إلا نحو ثلاث مرات أو أربع في ناحية هذه القبيلات الضعاف، الذين لم يعرفوا قط بمنعة ولا نجدة أيام كانت لهم العدة والخيل، فكيف اليوم وهم عزل محاويج، لا طاقة لهم على دفاع ولا امتناع، وليس هؤلاء المحاربون كالسباع، فإن السبعَ يختل الماشية في الغابة معها صبية، فإذا صاحت الصبية هرب، ولا ترى قط سباع تتقدم إلى الأحياء لتأكل أموالها وتفترس رجالها، وأما هؤلاء فيتقدمون بالعساكر، ويتنزلون للطعنِ والضربِ، ولو كانوا يتحركون نهاراً لأمكنت الناس مدافعتهم، ولكن يأوون في قُنَّةِ الجبلِ، حيث لا يعثر عليهم راعٍ ولا

صياد، فإذا أَلْيَلُوا نَزَلُوا، فلو تقدموا إلى دَوَّارٍ أو أكثر لامتحنوهم نهباً وقتلاً، فإن الدُّوَّارَ يكون فيه أربعون رجلاً بين قوي وضعيف وشيخٍ هرمٍ بلا سلاح، وهؤلاء يأتون بالستينِ والسبعينَ، وأكثر وأقل، كلهم رُمَاةٌ، يقفزون في الهواء، ويتضاعفون بالرغب، فهذه القبائل تبقى في حيرة عظيمة، لأنهم هربوا وجُلُوا عن بلادهم، ضاعوا وضاعت المطالب السلطانية، ثم لا يتركون لذلك وإن بقوا، فإن عقدوا مع هؤلاء الظلام هدنةً إلى أمدٍ مَا أنكر الخدَّامُ ذلك وسعوا بهم إلى السلطانِ، لكونهم اتفقوا مع البغاةِ، فيأمر بعقوبتهم، وإن بقوا بلا شيءٍ أهلكهم اللصوصُ، ينهبون كل ليلة دواراً، فلابد للسلطان أن ينظر في أمرهم كيف يصلح، فإنهم رعيته، وهذا الكلام لا مدخل لنا فيه، وإنما ذكرته حيث ذكر في الكتاب تبصرةً ونصحاَ للسلطان، ونصحاً للرعية، والله المستعان

وأما قول الكتاب : صدق الصادق المصدوق إلى قوله في البربر : لا يجاوز إيمانهم تراقيهم، فأقول : هذا بعض معنى الحديث الذي في الصحيح، وإنه يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، إلخ..وقد اتفق السلف والخلف فيما علمنا على أن الحديث خرج في الخوارج، ولم يعرف منهم إلا الذين خرجوا عن علي كرم الله وجهه يوم التحكيم، وصار منهم الأزارقة والصفرية والأباضية، واستمرت شوكتهم إلى أن انحسمت في خلافة عبد الملك بن مروان، على يد المهلب بن أبي صفرة، أولئك كلهم عربٌ وليس فيهم بربريٌ واحدٌ، ولا يجوز التحدثُ عن النبي صلى الله عليه وسلم بغير معتبر.

وقول الكتاب : فأراك رجلا بربريا، فأقول : نعم هو ذاك في الظاهر، والأصل يعلمه الله، فإن اتَّقَيْتُ اللهَ تعالى لم يحططنِي نَسَبٌ، فإن نسبة الإنسان طينُهُ وحسبُهُ ودينُهُ، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم

إلى عرق الثرى وشجت عروقي * وهذا الموت يسلبني حياتي

وإنْ أُرِيدَ بالغدرِ والوفاء والخبث والصفاء، فالناسُ فيه معادنٌ، وقد يوجد فيه من الوفاء عند العجم ما لا يوجد عند العرب اليوم، والتجربة قاضية بذلك

وعين الرضى عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدي المساويا

فبالله لو لم تكن الأعراب العربية ساكنة في مجال الخيل والبحر من ورائها هل تذعن ذلك الإذعان، وقد عرفت جميلها، ولاسيما عند استخلاف الدول، فكم من عَصَى شقوا، وكم من ذي أمرٍ اغتالوا، وأما البربر فإنهم يغترون أحياناً بالجبالِ المنيعةِ كما يغتر أعرابُ الصحراءِ بالمَهَامِهِ، فالعرب منهم مع الكدري طائرة، والروح طائرة منه مع الحجل، ولم تزل الجبالُ معاقلَ اللآئذين بها من القهرِ، قال الأعرابي :

أعروا عن الناقة الحمراء رحلكم * والجمل الأصهب المصنوع فاصطنعوا

وقال النابغة :

رَحَلْتُ بيوتي في بقاعٍ مُمَنَّعٍ * تَخَالُ به راعي الحمولة طائرا

إلى أن قال :

حَذَارِ على أن لا تنالَ مقادتي * ولا نسوتي حتى يَمُتْنَ حرائرا

وقال امرؤ القيس :

كأنِّي إذ نَزلتُ على المُعلَّى * نزلتُ على البَواذخ من شَمَام

فما مُلْك العِرَاق على المُعَلّى * بمقْتَدَرٍ ولا مُلْك الشآمَ

أَقَرّ حَشا امرىء القَيْس بنِ حُجْر * بنو تَيْم مَصابيحُ الظَّلام

وقال ابن الزبير الأسدي :

تجهَّزْ فإمّا أن تزور ابنَ ضابىء * عُمَيراً وإمّا أن تَزور المهلَّبَا

هما خُطَّتا خَسْفٍ نجاؤك منهما * ركوبُك حَوْليا من الثَّلْج أَشهبا

وقال أيضا :

أبت أجأ أن تسلم العام جارها * فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

وأول ناكثٍ في هذه الأمةِ العربُ، فإنهم بفور ما سمعوا وَفَاةَ النبي صلى الله عليه وسلم ووجود خليفته الذي لم تطلع الشمسُ ولا غربت بعد الأنبياء على مثْلِهِ فكيف بغيرِهِ، ولا أقول هذا اهتضاماً للعربِ وتفضيلاً لغيرهم، كلاَّ بل الناس كلُّهُمْ في هذا المعنى أبناءُ طبعٍ واحدٍ، مجبولون على التأذي بمن يتحكم عليهم أو يقهرهم أو يطلب منهم دنياهم، وقد قال تعالى في حق نبيه الذي هو رحمة للعالمين القائم بالعدل والهدى : وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ، إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ، فكل من سأل الناس أموالهم بالقهر لابد أن يبغضوه، وإن كان بغير قهر، فلابد مع التكرار أن يملوه كما

قال زهير :

ومن لم يزل يستحمل الناس نفسه * ولا يغنها يوما من الدهر يسأم

غيره :

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا * إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

والملوك لا ينبغي أن يهملوا هذا الأمر، بل ينبغي أن يكونوا أعرف الناس به، فيعذرون الناس ويكتفون منهم بالطاعة الظاهرة، كما تقدم في كلام المهدي، ولا يكلفونهم المحبة والإذعان الباطني، فإن هذا أمر ليس في طوقهم، والله تعالى الذي هو مالك الملوك، وله تحق الطاعة والعبادة، وهو العليم بذات الصدور، لم يكلفنا ما لا نطيق، قال تعالى : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، ولم يكلفنا أن نفعل طاعته بطريق المحبة، فلا يلزمنا أن نصلي ولا أن نصوم ولا أن نحج محبةً، بل من فعل ذلك مع المحبة كان من المقربين، ومن جاهد نفسه وراغمها خوفا من الله تعالى فالله تعالى يثيبه ويدخله جنته رحمة منه، مع اطلاعه على ما في قلبه، وأنه لم يعبد إلا خوفا من النار وطمعا في الجنة، فكيف يمكن للعبد أن يكلفَ عبداً مثله ما لا يطيق من المحبة، حتى أنه يظل الغواةُ بين يدي الملوك نهَارَهُمْ يقُولُونَ : فلان يحبك يا مولاي وفلان يبغضك، وذووا فلان لولا السيفُ لم يخدموا، وذووا فلان لولا ما يطمعون من كذا لم يخدموا، وذووا فلان هم المحبون المخلصون يحبونك يا مولاي طوعا، فهذه كلها زخارف من القول، يضحك منها العقل، وعقلاء الملوك لا يلتفتون إلى مثل هذا، لمعرفتهم بالحقائق التي قررناها، فالناس إنما يخدمون الملوك خوفا أو طمعاً، وذلك الخوف يغني عن المحبة، بل سوطه الأقوى، ولذلك لما سجن الحجاج القبَعْثَرَا، وكان من البلغاء ، قال الحجاج ذات يوم : يَكْذِبُ القبَعْثَرَا عَلَيَّ به، فَأُخْرِجَ من السجن فإذا هو صالحُ الجسم، فقال له : قد سَمِنْتَ يا قبعثَرَا،

فقال : القيْدُ والرتعة، ومن يكُنْ ضَيْفَ الأميرِ يَسْمَنُ، ثم قال له : أَتُحِبُّنِي يا قبَعْثَرَا، وَقَدَّرَ الحجَّاجُ في فكْرِهِ أنه يقولُ نَعَمْ خوفاً فَيَكْذِبُ، فقال القبعثرا : أَوَ فَرَقٌ خيْرٌ مِنْ حُبَّيْنِ، يريد أني لا يخلو حالي من أن أُحِبَّكَ أَوْ أَفْرُقَ، أي أخافُ مِنْكَ، والخوف خيرٌ من حُبَّيْنِ، وأتى بأو الإبهامية بصدق، إذ لا يخلو عن واحدٍ من الأمرين، والسلطان كذلك، والفرق منه خيرٌ من حُبَّيْنِ.

ولذلك قيل في المثلِ : رَهَبُوتٌ خيْرٌ من رَحَمُوتٍ، فلو سمع السلطان أحداً يتكلم بما يقتضي بغضاً أو تبريماً بالدولة، أو يفعل ذلك وَرُفِعَ إليه ذلك فلا ينبغي أن يعاقبَهُ لأنه يعلم أن الناس كُلَّهُمْ أو جلهم كذلك، نعم من أعلن ذلك وأفشاه في الناس فهو يستحق ، والناس متحببون ومضطرون للحب رغبة ورهبةً، فلا يدل قربهم ولا خدمتهم ولا تأديبهم ولا تملقهم على المحبة المطلوبة، كما لا يدل البعد والتجافي على البغض المحذور، فالناس من أبناء حاجاتهم، فلا فرق بين متقرب لطلب حاجةٍ ومتباعد لعدم طلبها، بل ولا من أحب لأجل الحاجة ولا من يُحِبُّ لعدمها، والله الموفق، ومن أراد محبة الناس فليزرعها فيهم بالعدل والإحسان كما أمر تعالى، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، الحديث.

وأما قول الكتاب : وعرض عليك القضاء فَأَبَيْتَ وهربت منه لتدريس العلم، فاشترط عليك بفاسٍ، فأقول : ليس كذلك وَقَعَ، والخائضون في القولِ والقَالِ يكذبون، وما ينبغي التكلم ولاسيما في مجالس أولي الأمر إلا بعد التثبت، وفي الحديث : حسب الرجل من الكذب أن يحدث بكل ما سمع، أو كما قال صلى الله

عليه وسلم، وإنما صورةُ القضيَّةِ أنه وقع تشاجر بين القاضي والمُفْتِي بين يديه، فعزلهما معاً وأنا غائب عن ذلك المجلس، فلما وقع ذلك تكلم في شأني واستشار الحاضرين هل أَقْبَلُ القضاء والفتوى ، فقال الحاضرون ومنهم سيدي عبد المالك : أما القضَاءُ فلا يقْبَلُهُ بوجهٍ، وأما الفتوى فليس فيها مَضَرَّةٌ، إنما هي زيادةٌ في العلم.

فلما حضرت من الغَدِ خاطبني بكلام لطيفٍ، وقال : يا فلان هل تَقُومُ لنا بهذه الفتوى، فاعتذرت له بنوازلٍ قد أَلَّمَتْ بِرَأْسِي، تمنعني من كثرة السهر والمطالعة، فأمسَكَ ولم يَزِدْ، ولم أهربْ له إلى التدريس، ولا شَرَطَهُ عليَّ في فاسٍ ولا غيرها، ولا أسمعني كلمةً موحشة، على أنه لو شرط التدريس بفاس لم يلزم، فإن كل شرط ليس في كتابِ الله فهو باطلٌ، شرطُ الله أحسنُ وأوثق.

وما يذكر عند بعض الفقهاء من أن جميع فروض الكفاية تتعين بتعيين الإمام، لا يصح التعلق به في هذا المحل لوجهين، أحدهما أن ذلك مشروط بالصلاحية والإمكان في مسألتنا، أن يكون المدرس مكفى المؤونات من بيت المال، مسكناً ومأكولاً ومشرباً وملبساً، وغير ذلك في نفسه وفيمن تعلق به، ليتأتى تفرغه للنظر والإملاء، وهذا كان شيء منه في حياة السلطان المذكور، فلما مات انقطع البتة.

الثاني : أن ينظر أي شيء هنا فرض الكفاية، فإن القيام بالعلم الذي هو المطلوب في الجملة، إما أن يكون بمجرد الإخبار بالأحكام الشرعية، وهو الفتوى، فقد قام به المنصوب للفتوى، وإما أن يكون بالإخبار بذلك على وجه الإلزام، وهو القضاء، فقد قام به القضاة، وتبقى صورتان، إحداهما : تعلم العلم وتجديده

ليتصل سنده ولا ينقطع، الثانية : تقرير قواعده ومسائله والتخلص عن إشكال المشكل من ذلك على قدر الطاقة.

وكلتاهما تحصل بالتدريس المعهود وبالسؤال والجواب وبالتصنيف، فلا يتعين التدريس لفرضية الكفاية، بل هو واحد من أشياء لا بعينه، فتعيِّنُهُ بالشرطية شرطٌ باطلٌ، وقد علم من أحوال الأئمة كما ذكرنا في غير هذا المحل أن منهم من كان دأبه الإشتغال بالتصنيف دون التدريس، وعلم في عصر الصحابة أنه لم يكن هذا التدريس المعهود ولا التأليف وإنما هو السؤال والجواب والخطبة والموعظة ونحو ذلك من ضروب الإرشاد.

ثم مع هذا كله التقييد بالمحل المخصوص ليس داخلا في مفهوم الفرض الكفاءي قطعا، فإن المراد هنا أن كل قطرٍ يشق منه الوصول إلى غيره، كقطرِ الغربِ مثلا، لابد أن يكون فيه من يقوم بهذا الشأن، وليكن في أي موضعٍ كان، إما في مصرٍ أو قريةٍ أو باديةِ عمودٍ أو جزيرةٍ في البحرِ، فمن أرادَهُ رَكِبَ إليهِ، ومن أراد أن يُعَيِّنَ ذلك بفاسٍ أو في موضعٍ آخر مثلا فقد أخطَأَ، وإِنْ شَرَطَهُ فشرْطُهُ بَاطِلٌ، ولاسيما في مسألتنا، فإنه لا يشتغل بها إلا خصوصُ الناس، وفيها تضرب أكباد الإبل، أما المنتصب لفتوى العامة في الأحكام الشرعية فلا فضل له أن يكون بين ظهرانيهم، بحيث يصل إليه المسكين والضعيف والشيخ الهرم والعجوز، وهو من باب الرفق والإحسان بالناس، وهو محبوب شرعا مع الإمكان، وكذا العالم على الجملة ينبغي له ذلك مع الإمكان وإن لم يجب، ولكن لا يختص ذلك بالحاضرة، فإن أهل البادية أَحْوَجُ، فالأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً، وأجدر أن لا

يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فالإعتناء لهم أَهَمُّ، وإن منهم من يكون التعليم في حقه كأنه تبليغ الدعوة من أهلها، فيعظم أجر القائم به.

وبالجملة فالحاضرة لا تتعين للإستقرار لا في حق صاحب الفتاوي ولا صاحب التدريس، أما الأول فَلِتَعَلُّقِ عامة الناس به لا أهل الحاضرة فقط، وأما الثاني فكذلك، وإن رُوعِيَ المشتغلون به في الحاضرة بحسب العادة أكثر فلاَ يَضُرُّ لأن شَأْنَ العلمِ الرحلة، فَقَلَّ أن يظفر به من لم يرحل إليه، والله المستعان

وأما وجوب التعليم على العالم على ما ذكره الشيخ أبو حامد في الإحياء من أنه يجب على العالم أن يُعَلِّمَ مَنْ حَوْلَهُ، ثم ينتقل إلى مَنْ وراءهم، وهكذا حتى لا يبقى على وجه الأرض جاهل بدينه، فهذا الأمر متعذر متعطل كما تعطلت أمور دينية لتعذرِ أسبابها، وما أظن أن أحداً قَطُّ اشتغل به، ولقد ذاكرت فيه بعض أشياخنا رحمهم الله فجنح إلى الإعتذار بتعذر ذلك من عدم الإستطاعة حتى في القُوتِ، فإن العالم محتاجٌ إلى كفايةٍ تكون معه، وإلا تعلَّقَ بالنَّاسِ فوقع في كلفةٍ أو شبهةٍ، وأنا أقول أنه متعذرٌ من كل جهة، فإنه لو اشتغل به أحدٌ اليَوْمَ لاتهمه أهل الرياسة بطلب الدنيا وطلب الظهور فيها، فَرَمَوْهُ بكلِّ عظيمةٍ، وقد رأينا اليوم صاحب العلم يبتلى منهم بالإذاية وهو جليس بيته على مجرد حضور من يسأله أو يشاوره في دينه، فكيف لو خرج إلى الناس وجعل يستقرىء القرى والقبائل، ولابد إذ ذاك من أن يعظم ويجزى ويجل ويكرم، وذلك مطلوب شرعا، فإن من علمك من القرآن حرفا فهو مولاك، والمولى مخدوم، ولأن المكافات لازمة فقد قال صلى الله عليه وسلم : من أسدى إليكم معروفا فكافئوه، وأي معروف أعظم من فائدة دينية

يعرف بها ربه أو يقرب بها من الجنة، أو يبعد بها من النار، فلو خدمه عمر الدنيا ما أدى شيئا من حقه.

فإذا أكرم واتبع فكيف يكون حاله مع أبناء الدنيا الغيارين عليها أشد من غيرة النساء على الرجال والرجال على النساء، الظانين بكل أحدٍ ما في قلوبهم من حب الدنيا لها،نعم قد يكون بعض ذلك أحيانا بمعونة أهل الأمر الْمُنْتَهِينَ إلى الخير، أو غيرهم من أهل الدِّينِ كعبد الله بن مسعود حين بعثه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهما إلى أهل العراق، وكلسان الأمة القاضي أبي بكر الباقلاني حين بعثه صاحب وقته إلى الروم ليناظرهم، وكالفقيه عبد الله بن ياسين حين بعثه شيخه واجاج بن زلوا عن إشارة شيخه أبي عمران الفاسي إلى أعراب الصحراء، فعلمهم ونفعهم الله به.

فخرجوا من الجهل المفرط وضياع الدين، فصاروا متعبدين مجتهدين مرابطين مجاهدين حماة الإسلام وأهله، وهذا أيضا كما تراه غير مختص بالحواضر، بل هو في البوادي أَوْكَدُ وأفيَدُ، وأما الحواضر فهي غالباً مكتفيةٌ بمن فيها من طلبة العلم، ولا تخلو غالبا عن ذلك، والله المستعان.

وأما قول الكتاب : نحن بالله وبشريعة الله معك، أقول : أَنَا الذي أقول هذا وأطلبه لو أَجِدُهُ، وأما السلطان اليوم ففي يده الشريعة وغيرها، فما شاء فعل فِيَّ وَفِي غيري شرعا كان أو غيره إن سبق به القضاء، وأما أَنَا فلو وجدت شريعة الله لم أحتج إلى شيء من هذا الكلام، فوالله ما أعلم حَدّاً ثابتاً أتيته عند السلطان

فطالبني بإقامته عَلَيَّ، ولا جنايةً على أحد في مالٍ ولا نفسٍ، ولا أَنَا عبدٌ آبقٌ ولا رَامٍ أو فارسٌ هَرَبَ براتبِ السلطان، ولا عاملٌ يبقى على حساب الجباية، ففي أي شيء يطالبني السلطانُ بشريعة الله،

أما كون علمي حجةٌ لي أو علي عند الله تعالى فالأمر إلى الله تعالى، والتعليم اشتغلت به جهد طاقتي، ولو لم اشتغلْ به أصلاً لم أقبض فيه، لأنه فرضُ كفاية لا فرض عين، فأي شيء ثَبَتَ عليَّ شرعاً يا معشر المسلمين حتى أُطَالَبَ فِيهِ، وقد اعترفت على نفسي بطاعة السلطانِ، وجعلت يدي مع أيدي المسلمين، لم أُنَازِعْ وَلَمْ أُخَالِفْ، ولم أحارب ولم أخلط، وهذا القدر هو المطلوب من الطاعة، أما ما خرج عن ذلك كخروج أحد من داره أو بلده، أو لزومه بلداً، أو لزومه جهةً، أو انتقاله من موضع إلى موضعٍ فلا مدخل له في الطاعةِ، لأن السلطان خليفةُ الله في الأرض، فليس له أن يكلِّفَ العبادَ إلا بما كلفهم الله تعالى، إما وجوباً كأن يقول : صلُّوا زَكُّوا جاهدوا، وإما ندباً كَأَنْ يقولَ : تصدقوا تَنَفَّلُوا، الأول على سبيل الإلزام، ومن لم يفعله عاقبه أو فعله منه، والثاني على سبيل الترغيب، ومن لم يفعل فلا عقاب عليه، وما خرج عن هذا فإن كان منهياً عنه شرعا فليس له أن يأمره به، وإن كان مباحاً فله أن يطلبه خيريةً، ومن لم يفعل فلا عقوبةَ عليه، فلو قال لأحدٍ طَلِّقْ امرأَتَكَ أو بِعْ جاريتَكَ أو اعتِقْ عبدَكَ أو تصدَّقْ بِثُلُثِ مَالِكَ على فلانٍ أو اخرُجْ من دارِكَ أو اخرُجْ من بلدك أو ارحَلْ إلى بلدِ كذا أو اسْكُنْ في موضعِ كذا لم يلزمه شيءٌ من ذلك لأنَّ الشرع لم يكلفه، ومن كلفه به فهو مُتَعَدٍّ وليس بخليفَةِ الله، بل تابعٌ شهواته، مخالف للشريعة، فإن لم يفعل ذلك فليس للسلطان أن يعاقبه، ولا أن

يقول له قد عصيتني، وأين طاعة أولي الأمر، فإن المعصية لا تكون إلا حيث تجب الطاعة، وهذا الوجه لا تجب فيه الطاعة، فلا معصية، وقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، اختلف فيه المفسرون، فذهب كثير إلى أن أولي الأمر العلماء، لأن في أيديهم أمر الشريعة ونهيها، فيجب اتباعهم.

وهذا كما في الآية الأخرى : ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، وقيل هم السلاطين، وهذا القولُ منسوبٌ إلى عليٍّ كرم الله وجهه، قال : إن هذه الآية مقيدَةٌ بما قبلَهَا، بل التي قبلها وهو قوله تعالى : إن الله يامركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، فأولي الأمر تجب طاعتهم، أي إذا حكموا بالعدل، وذلك أن يأمروا بما أمر الله به، وينهوا عما نهى الله عنه كما قلنا أولا.

وهذا أمر واضح، ولكن يقع فيه للملوك ولكثير من الناس الغلط، وذلك مما يسمعون من الفقهاء في المسألة بأن السلطان لو أمر أحداً مثلاً أن يحضر عنده أو يخرُجَ من بلده أو يبيعَ دَارَهُ، أو نحو ذلك مما تقدم، فذلك المأمورُ إنْ صَحَّ في اعتقادِهِ أنه إنْ لم يفعَلْ ذلك توجهت إليه الإذاية في نفسه أو ماله وحريمه أو من يتعلق به فإنه يجب عليه شرعاً أن يفعل ذلك دفعاً للظلم عن نفسه ومن معه وتقيةً، ولا يجوز له أن يعرض نفسه للهلاك، اللهم إلا أن يكون من المتجردين عن الأسباب المتوكلين على الله تعالى، فلا يجب عليه وأمره إلى الله تعالى.

فإذا فُرِضَ مِنْ أهْلِ الأسباب وقلنا أنه يجب عليه الإمتثالُ تقيةً فربما يخاطبه الفقهاء فيقولون له : يجب عليك امتثالُ أَمْرِ السلطانِ أو تجِبُ عليك طاعته أو

يخاصمونه، فيقولون : لِمَ لا تَمْتَثِلُ أَمْرَ السلطانِ، يسمع السلطانُ ذلك فَيَغْلَطُ ويظُنُّ أنه إنما قالوا ذلك لكون الحقِّ ثابتاً على هذا الشخصِ للسلطان في امتثال أمرِهِ، وأن للسلطان عليه حجَّةً شرعاً، وليسَ ذلك كذلك فإن هذا الشخصَ إنما وَجَبَ عليه ذلك بينه وبين الله تعالى على سبيل الحِفْظِ لنفسِهِ وَدَفْعِ الأَذَى عنها، كما لو لقي سَبُعاً وَجَبَ عليه أَنْ يحتَالَ حتى يخرج من هلاكه، ولا حق لِلسَّبُعِ وكذا السلطانِ هَاهُنَا لا حق له، بل الحجَّةُ عليه، فإذا فُهِمَ هَذَا فَهِمْتَ مسألتي، فإنها داخلةٌ في الأمثِلَةِ، وَعُلِمَ أنِّي أَنَا الذي يحق لي أن أُطَالِبَ بالشريعةِ لَوْ كنتُ أَجِدُهَا، وأما هذا الذي ذكرنا إنما هو ما يحق شرعاً حتى يسأل عن الشرع، وأما السمع والطاعة للأمراء كيف ما كانوا فمطلوبةٌ من الناس شرعاً، فمن كان عدلاً فحق له ذلك، ومن لم يكن كذلك فطلباً للمصلحَةِ وحفظاً للنظامِ ودفعاً للفتنة وارتكاباً لِأَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ، فيجب السمع والطاعة ولو تأَمَّرَ عبْدٌ حبشِيٌّ كما في الحديث

وأما قول الكتاب : وإِنْ قُلْتَ بأن هذا حرامٌ رأساً وأَنَّ القبائلَ لا يجب عليها أن تعطي شيئاً أصلا فَبَيِّنْ لنا ذلك، فأقول : لا شكَّ أنه يجب على أهل العلم أن يتكلموا على الحق ويبينوا الحلال والحرام، ولكن فيما يظن قبوله ولا تخشى عليه فتنة، أما ما يقبل وتقع الفتنة به فساقطٌ عنهم، وقد كان يحيى ين يحيى الليثي سَأَلَ الإمامَ مالكاً رضي الله عنهما عَنِ الفتنِ التي تقع في الأندلس، فلم يُجِبْهُ، فقال : أنا رَسُولُ مَن وَرَاءِي، فقال : ويح عنك، هذا وأنا لك من الناصحين، فهذا الإمامُ أَمْسَكَ عمَّا تُخْشَى فيهِ الفتنةُ وَهُوَ بالحجازِ فِي حَرَمِ المدينةِ، فكيْفَ بِمَنْ كَانَ بيْنَ ذِرَاعَيْ وجبهةِ الأسد.

فنقول : إن الكلام في مسألة الكتاب لا يكون لَنَا ولا لأحدٍ غيرنا، وقد انقضى الحديث عنها منذ ذهب الخلفاء الراشدون، وذلك أن الله بعث نبيه صلى الله عليه وسلم بالهدى والدين فتوفاه إلى كرامته، وترك أصحابه على المحجة البيضاء علماء حلماء أتقياء أصفياء لا يزيغون عن الحق ولا يبغون به بدلا، متواضعين متناصحين، أذلة على المومنين أعزة على الكافرين، أشداء على الكفار رحماء بينهم كما وصفهم الله تعالى.

يعتدلون في الحق شريفهم ومشروفهم، أميرهم ومأمورهم، من قَالَ الحَقَّ سمعوا منه، رجلاً أو امرأةً، حرا أو عبدا، ومن أخطَأَ الحَقَّ ردُّوهُ إليه كبيراً أو صغيراً، فكان الخليفَةُ منهم يشاور العلماء ويصدر عن رأيهم، ويقف عند حد الشرع الثابت، ومن خاطبه بالحق قَبِلَ منه بِلاَ أنفةٍ ولا إذايةٍ، فكان علماء الصحابة يتكلمون بالحق ويجاهرون به الخلفاءَ، ولا يخشون منهم إلا المجازاتِ بخيرٍ، فلما انقضت الخلافَةُ وجاء المُلْكُ وتبدَّلَتِ السيرَةُ المحمدية كسرويةً وقيصريةً، وقامت الشهوَاتُ مقَامَ الحق والجبروتُ مكانَ التواضُعِ، أمسَكَ العلماءُ وهربوا وطلبوا نجاةَ أنفسهم.

والكلام في هذا يطول ولا حاجة إليه، فمن أراد اليوم من الملوك أن ينصح لنفسه فليفعل ما فعل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فإنه لم يأت حتى كانت ملكاً وجبروتاً، فجاهد في الله حق جهاده حتى ردها إلى السيرة الأولى، فكان أول ما فرغ من دفن صاحبه سليمان بن عبد الملك، وكان استخلفه، سمع للأرضِ وجبةً، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذه مراكبُ الملك ليركبَ، فقال : اصرفوها عني،

إنما أنا واحد من المسلمين، فلما دخل صعد المنبر واجتمع الناس، فقال : إن سليمان قد قلدني هذا الأمر ولا حاجة لي به، وقد جعلتكم مني في حلٍّ، فانظروا لأنفسكم من ترضون، فصاح الناس صيحةً واحدةً رضينا بك رضينا بك، فلما هدَأَتِ الأصواتُ خطب، وَبَيَّنَ للناس معالم الدين، ثُمَّ بالأخيرةِ قال : أطيعوني ما أطعتُ الله، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، ثم نزل فذهب ليدخل الدارَ، فقال له ابنه عبد الملك رضي الله عنه وكان صلْباً في الدِّينِ : يا أَبَتِ ما تريد أن تفْعَلَ ؟ قال : يا بني أُرِيدُ القيلُولَةَ، فإني قد سهرتُ في هذا الأمرِ وَتَعِبْتُ، قال : يا أبت وأين حقوقُ النَّاسِ بالبَابِ ؟ قال : يا بُنَيَّ إلى الظُّهْرِ، فقال : وَمَنْ لَكَ بأَنْ تَعِيشَ إلى الظُّهْرِ، فأخذه وَقَبَّلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْه وقال : الحمد لله الذي أخرج مني من يعينني على ديني، وانطلق ولم يقل، ونادى من كان له حق فلياتيني، فكان يرد على الناس ضياعهم وأموالهم التي أخذها الملوك قبله، وينصف المظلوم من الظالم، ويتبع الحق ولا يزل عنه، ولا يخشى أحد بين يديه طغيانا ولا حيفا على سيرة أهل العدل، ففاز برضا الله ورضا الناس، وقد اتفق العلماء على حسن سيرته، وأخذوا بأقواله وأفعاله وسئل الإمام مالك هل يقاتل دون الإمام إن قام عليه آخر، فقال : إن كان كعمر بن عبد العزيز فَنَعَمْ، وإلا فدَعُوهُ ينتَقِمُ اللهُ منَ الظالمِ بالظالمِ، حتى ينتقِمَ مِنَ الجميعِ، فمن أراد أن يسلك هذه المحجَّةَ فليؤَسِّسْ بناءه على الشرعِ من أوَّلٍ، فإذا عُرِفَ منْهُ الجِدُّ في ذلك وجب نصحه، ومن لم يبلغ هذا المبلغ فلا مانع من أن يتشبه بالملوك الأولين، قرباء العهد بالدين، فإنهم كانوا يستبصرون في كثير من الأمور، ويسمعون الحق ويحتجون إلى الإنصاف، فهذا أبو جعفر المنصور وهو

معروفٌ بالغلظة وسفْكِ الدمَاءِ، سُعِيَ عندَهُ بشيخٍ أظنه من أهل الشام، وأنه عنده ذخائرُ بني أمية، فَأُتِيَ بِهِ، فلما دخل إليه وجلس قال له : أيها الشيخ قد عرفنا ما عندك مِنْ أموال بني أمية، فقال له الشيخ : يا أمير المؤمنين أَنْتَ وارثُ بني أميةَ، قال : لا، قال : فأنت وصيُّهُمْ على أموالهم، قال : لا، قال : فما سؤَالُكَ عمَّا بيدي من أموالهم، فتوقف أبو جعفر وتحيَّرَ ساعةً، ثم قال : هي أموالُ المسلمين وأنا وَكِيلُهُمْ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن لبني أمية أموالاً غيْرَ أموالِ المسلمين، فمن يشهد بأن الذي عندي من أموالِ المسلمين لا أَمْوَالِهِمْ، فقال أبو جعفر : صدق الشيْخُ، يا ربيعُ إن لبني أمية أموالاً، ثم قال : أطلقوه، فَأُطْلِقَ، فقال له : اطلب حاجتك، فقال : حاجتي أَنْ أُرَدَّ إلى أهلي، قال : نَعَمْ، قال : وأن يُجْمَعَ بيني وبين خصمي، أَيْ الَّذِي سَعَى بِي، فقال : هَلُمَّ خصمه، فَأُتِيَ به، فإذا هو عَبْدُهُ، فقال الشيخ : يا أميرَ المؤمنين هذا مملوكٌ لِي سَرَقَ من مالي أربعة آلاف دينارٍ، فخاف أن أُعَاقِبَهُ فجاء يسعى بي لِأُشْغَلَ عنه، فَهُدِّدَ العبْدُ فاعترَفَ، فقال الشيخ : أشهدك يا أمير المؤمنين أني أعتقته ووهبْتُ له ذلك المَالَ وَأَزِيدُهُ مِثْلَهُ، والله يا أمير المؤمنين ما عندي قيراطاً من أموال بني أمية، فقال له أبو جعفر : فَهَلاَّ قلت ذلك أولاً، قال : قد علمت أنه لا ينجيني إلا صميمُ الحَقِّ، فكان أبو جعفر ليتعجَبُ مِنْهُ، فانظر إلى أبي جعفر سمع هذه المحاجة، وكيف رأى الرجلَ قد أعتق العبدَ وأعطاه ثمانية آلافٍ، وذلك دليلُ الثروةِ العظيمةِ، فلم يحركه في أن يحتال عليه في استنزالِ المالِ منه أو بعضه، فهذه حالة الملوك أرباب الهمم، وفي الخبر : أول هذا الأمر نبوءة، ثم خلافة، ثم مُلْكٌ، ثم عُتُوٌ وفسادٌ في الأرض، فمن لم يوفق لأن يكون

من الخلفاء فليكن من الملوك، ولا يكون من أهل العتو والفساد، ثم من وفقه الله للحق فذلك، ومن ابتلي بالشهوة فليعترف بها .

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر * و لا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

وبح باسم من تهوى ودعني من الكنى * فلا خير في اللذات من دونها ستر

وقال غيره :

إن تكن ناسكا فكن كأويس * أو تكن فاتكا فكن كابن هاني

والصدق فضيلة فمن أتى الخطيئة معترفاً فهي خطيئة واحدةٌ، ومن أتاها مُمَوِّهاً أنها حسنة فهما خطيئتانِ، إحداهما وهي جعل ما ليس بشرع شرعاً، قريبة من الكفر عياذاً بالله، ولم يَزَلْ أهلُ العدلِ والفضلِ يعترفون على أنفسهم بالتقصيرِ، ويشفقون على أنفسهم، كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لَوْلاَ عَلِيٌّ لهلكَ عُمَرُ، وقال يوم احتضَرَ : لو أَنَّ لِي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذابِ الله قبل أن أراه، وأنشأ يقول :

وواعدني كعب ثلاثا أعدها * ولاشك أن القول ما قاله كعب

وما بمقدار الموت إني لميت * ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

وجاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فقال له: رأيت كأن القيامة قد قامت، وذكر أبا بكر وعمر وعثمان، وأنهم نجوا، قال : ثم دُعِيَ عليٌّ ومعاوية، فإذا بِعَلِيٍّ يقول : قُضِيَ لي وَرَبِّ الكعبةِ، وإذا بمعاويةٍ بعْدَهُ يقول : غُفِرَ لِي وَرَبِّ الكعبةِ، ثم نُصِبَ الصراط، فوضع يَزِيدٌ رجله فهوى في النار، ثم وضع عبد الملك فهوى في النار،

وهكذا إلى أن قال : ثم وضع سليمان، فلم يبق إلا هُوَ، فصاح وسقَطَ، وجعل يتمرغ ويضرب رجليه والرَّجُلُ يصيحُ ويقولُ : والله لقد رأيتُكَ نجَوْتَ يا أميرَ المؤمنين، فكيف ينبغي لأمثالنا أن نرضى عن أنفسنا وَنَثْبِتَ لها فضلاً، وندعي أنا لا نقول إلا الحَقَّ ولا نأمر إلا بما فيه الصلاحُ والسدادُ، ونحن غَرْقَى في بحار التخليطِ، نسأل الله أن يعفو عنا آمين

وأما قول الكتاب : وأردت أن تدنس العلم وتنجسه بِتَفْقِيرتْ (يعني التصوف) إلخ. فأقول : لابد أن يبحث عن معنى تفقيرت المذكورة، لتعرف أن الحكم على الشيء.......فإن أريد بها أحوال الجهال المبتدعين المدعين بغير علم ولا دين فلا شك أنها نجاسةٌ وقذارةٌ، ونحن لا نريدها بل نعوذ بالله منها ومن أهلها، وإن ادَّعَاهَا أحدٌ علينا فلابد أن ينص لنا على عين ما ارتكبناه من ذلك، لنعرفه فنتُوبَ إلى الله منه إنْ وفقنا، وإلا فلا يجوز أن يُظَنَّ بالمسلم السوء، وينسب إلى ارتكاب ما لم يرتكب.

وإنْ أُرِيدَ بها العملُ لله بِمَا يَرْضَى من حيثُ يرضى، والسلوك على المنهج المرضى عند أربابِ الطريقِ أو المعرفة أو المشاهدةِ فلاَ شكَّ أنها بهذه المعنى ليسَتْ بنجاسةٍ، ولا ينجس العلمُ بِهَا، بل هي ثمرة العلم وَلُبَابَهُ، وهي أحد ركني الدين، فإن الشريعةَ لها ظاهرٌ وهو الفقهاء، وباطنٌ وهو الصوفية، وإنما يكمل الأمر بهما معاً، ولهذا يقال : من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق.

فمن أنكر هذا وجعله نجاسة أو جعل صاحبه داخلاً في حزبِ الشياطين فقد أنكر الشريعةَ، هذا ونحن لم نشتغلْ بهذا الفقْرِ أيضاً، ولا وصلنا إليْهِ، ولكنا نحبه ونحب أهلَهُ، ونرجوا الله تعالى أن يمتن به علينا إنه الكريمُ المنَّانُ، أو يحشرنا في زمرة أهله فضلاً منه وإحساناً، فإنه قد قال على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم : المرءُ مع من أحب، وإنما نحن مشتغلون بالتعليم جُهْدَنَا، فالطلبة يتعلمون العلم ويتفقهون، والعَوَامُ يتعلمون عقائدهم وفرائضهم وسننهم والتوبة وشروطها وأذكاراً يعمرون بها أوقَاتَهُمْ، حيث لم يكن عندهم علمٌ يعمرونها به، فإن كان هذا القدْرُ بدعةً أو تنجيساً للعلم ودخولاً في حزبِ الشياطين فَنَحْنُ عَلَيْهِ، نسأل الله تعالى أن يعيننا عليه ويجعله له ويديمه علينا حتى يتوفانا عليه آمين.

هذا ما احتيج إليه من الكلام، ولو ترك القطى لنَامَ، وإنما تعرضت لذلك مساعفةً للسلطان في قوله، وإن كان عندك ما تقول فقُلْهُ، وأجبنا عن هذا حرفاً حرفاً، فتكلمت على ما لاَبُدَّ منه، وتركت من الكلاَمِ أكثَرَ لعدم الحاجةِ إليه، أو لتعذُّرِ ذكره، وعندي والحمد لله مَا أَقُولُ، فأي شيء يعوزني لو أردت القَوْلَ، اللسانُ عربي، والمنقُولُ والمعقُولُ تحت جَنْبِي، وأستغفر الله من هذا وأعترف على نفسي بأني لَأَضْعَفُ النَّاسِ وأجهل الناس، وأني منقاد للسلطانِ سميعٌ مطيعٌ، وتجنبي عن السلطان ليس بغضاً فيه، بل لِافْتِرَاقِ الدَّارِ، فأنا في بلدٍ وهو في آخرٍ، وأني لا أقوى على تلك الأبوابِ، ولاَ يألفُهَا طَبْعِي، ولا أصلحُ لها ولا تصلح لي، فلهَا قَوْمٌ غيري.

وللحقائق أقوام لها خلقوا * وللحروب لدى الهيجاء فرسان

وإلا فأنا أُحِبُّ السلطان من ثلاثة أوجهٍ، الأول : النسب، فإنا أمرنا بحب أهل البيت النبوي، الثاني : الوجاهة، فإنه كبيرُ المسلمين، وقد أمرنا أن نُنَزِّلَ الناس منَازِلَهُمْ، فنعظِّمُ من عظَّمَهُ الله تعالى، الثالث : الإحسان، فإنه قد وفرنا واحترم عيالنا، وكان يحملنا إذا رحلنا، والإحسانُ يُشْكَرُ، والصنَائِعُ تُذْكَرُ، والمحبة بالوجهين الأولين لا تتبدَّلُ، لأنها من حقيقة الإيمان، نسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت، وبالوجه الثالث هي أيضاً ثابتةٌ، لأنها عن شيءٍ وقعٍ، ولكن يمكن فسادها بمسَاءَةٍ أعظم، نسأل الله العافية.

وفي هذا يقول الحكماء : فُلاَنٌ يربي الضيع، أي أنه إذا صَنَعَ صنيعاً من الخيرِ زاد فيهِ ولم يتبعه بإِذَاية تُفْسِدُهُ، وبعد هذه الأوجه الثلاثة فالأفعال والمعاملة تزيد حُبّاً أو تنقصُهً، ولما كانت البواعثُ النفسانية في كثيرٍ من الخلقِ أقوى كانتِ المحبةُ الدنيويةُ أَظْهَرَ آثاراً، أو أكثرَ ثماراً، والناقد بصير، وإليه المصير، وكتب أول ذي الحجة الحرام من سنة *1090*هـ الحسن بن مسعود كان الله له آمين، انتهت بلفظها

.

المصادر:

داء العطب قديم مولاي حفيظ العلوي تحقيق: محمد الراضي كنون مطبوع

دعوة الحق، س32.، ع282 /مارس 1991 ص 135 في التاريخ الدولي للمغرب:رسالة هامة من السلطان مولاي إسماعيل ملك المغرب إلى الأمير سعد بن زيد أمير مكة والمدينة في بداية القرن الثاني عشر الهجري (أواخر القرن السابع عشر الميلادي) للدكتور عبد الهادي التازي

مجلة الوثائق : التي تصدرها مديرية الوثائق الملكية

العز والصولة في معالم نظم الدولة لابن زيدان مطبوع

تطوان خلال القرن الثامن عشر ندوة (مطبوع) 1993

قبيلة بني زروال البشير الفاسي مطبوع

المنزع اللطيف في مفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف عبد الرحمان بن زيدان مطبوع

مصابيح البشرية في ابناء خير البرية احمد الشباني الادريسي ط 1987

العلائق السياسية للدولة العلوية لعبد الرحمان بن زيدان مطبوع

ملاحق التاريخ الديبلوماسي عبد الهادي التازي منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية (مطبوع)

السيف المسلول فيمن أنكر على الرجراجيين صحبة الرسول: عبد الله الرجراجي السعيدي (مطبوع)

الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين: محمد بن علي الدكالي (طبع)

المعسول: محمد المختار السوسي (مطبوع)

الإبانة عن المغمور في نسب شرفاء أهل الناظور والمنطقة الشرقية: البشير بن المختار بن محمد بن منصور الوكيلي الادريسي طبع

عائلة آل معنينو السلاوية (مطبوع)

سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية: جعفر بن أحمد الناصري (مطبوع)

مجلة هسبريس تامودا ط.

الروض المنيف بمناقب أولاد مولاي علي الشريف ط.

وثيقة مراكشية بالاسبانية كتاب من مولاي إسماعيل سلطان مراكش إلى كرلوص الثاني ملك اسبانيا؛ لطفي عبد البديع.. مجلة معهد المخطوطات العربية.. مج 3، ج 2 (ربيع الثاني 1377هـ / نوفمبر 1957م).. ص. ص: 323-332 (331- 332).

مصادر لم أقف عليها:

1438 كتاب أمىر المؤمنىن إسماعىل الشر ىف الحسني إلى أولاده ***3666*** المولى إسماعىل : أمىر المؤمنىن أبو النصر إسماعىل بن محمد بن علي الشرىف الحسني المراكشي (ت : ***1139*** هـ) وعظ وفضائل أعمال ***2 17 9*** مغربي جىد في جمىع أموره على الله أمىر المؤمنىن ... وبه كتب إسماعىل منكم ، والله الموفق المعىن المستعان ، والسلام ... مخطوط مكتبة المدينة المنورة

مجموعة رسائل اسماعيلية مولاي اسماعيل العلوي الخزانة الملكية بالرباط:
56 –124

رسالة في تعيين مولاي أحمد الذهبي خليفة لأخيه مولاي زيدان للسلطان مولاي اسماعيل : الخزانة الملكية بالرباط: 12563

رسالة السلطان مولاي اسماعيل للشيخ احمد بن ناصر: رحلة الملك العلام الهشتوكي مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط.

ظهائر اسماعيلية شريفة الخزانة الملكية بالرباط (قسم الوثائق: فهرس الكنانيش) :768

مديرية الوثائق الملكية بالرباط

فهارس الخزانة الملكية قسم الظهائر والمراسلات الرسمية (طبع)

مؤسسة أرشيف المغرب بالرباط

المكتبة الوطنية (قسم الوثائق) بالرباط

جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق.

رسائل مولاي اسماعيل الى الباشا محمد غازي وغيره

مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق إقليم تطوان 2001

ظهير مولاي اسماعيل لابي مدين الفاسي: مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق إقليم الرباط 2006

ظهير إسماعيلي للعربي حركات : الخزانة العلمية الصبيحية بسلا.

تيسير الباري في ثبوت النسبة النبوية لأولاد الجباري طبع به ظهائر مولاي اسماعيل ومولاي سليمان العلوي

رسائل لمولاي اسماعيل مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: **1976**

رسائل وظهائر لمولاي إسماعيل العلوي مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: 1980

رسائل وظهائر لمولاي إسماعيل العلوي مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: 1983

رسائل وظهائر لمولاي إسماعيل العلوي مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: 1979

رسائل وظهائر لمولاي إسماعيل العلوي مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: 1977

رسائل وظهائر لمولاي اسماعيل العلوي مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: 1978

رسائل وظهائر لمولاي اسماعيل العلوي مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: 1973

رسائل وظهائر لمولاي اسماعيل العلوي مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: 1981

رسائل وظهائر لمولاي اسماعيل العلوي مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: 2002

رسائل وظهائر لمولاي اسماعيل العلوي مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: 1982

رسائل وظهائر لمولاي اسماعيل العلوي مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: 1975

رسائل وظهائر لمولاي اسماعيل العلوي مصور جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق: 1970/69